

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
قسم العقيدة
قسم الدراسات العليا

تقرير توحيد العبادة من خلال أقوال المالكية

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في العقيدة

إعداد الطالب

عبد الله بن فهد بن عبد الرحمن العرفج

إشراف

أ.د. محمد بن حسان كسبه

الجزء الأول

١٤٢٣هـ

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباطي) : **مُضَيِّقُ الْمَرْجَلِ** كناية : الدعوة وأصول الدين ثم : **المُعْقِدَةُ**
 الباطروحة مقلدة لنيل درجة : **الْمُرْتَدَّة** في قصص : **المُعْقِدَةُ**
 عنوان الباطروحة : **تَقَرَّرَ قَوَائِدُ الْعِبَادَةِ مِنْ خِلَالِ أَسْوَاقِ الْمَالِكِيَّةِ**

فبناءً على توصية اللجنة المكونة من أئمة الأطروحة المذكورة أعلاه، والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٤-١-١٩٨٠، بشيئها بعد إجراء استشارات المطلوبة، بحث قد تم عمل القرار: إن اللجنة توصي بإجازتها في ميغيتا انتهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه...

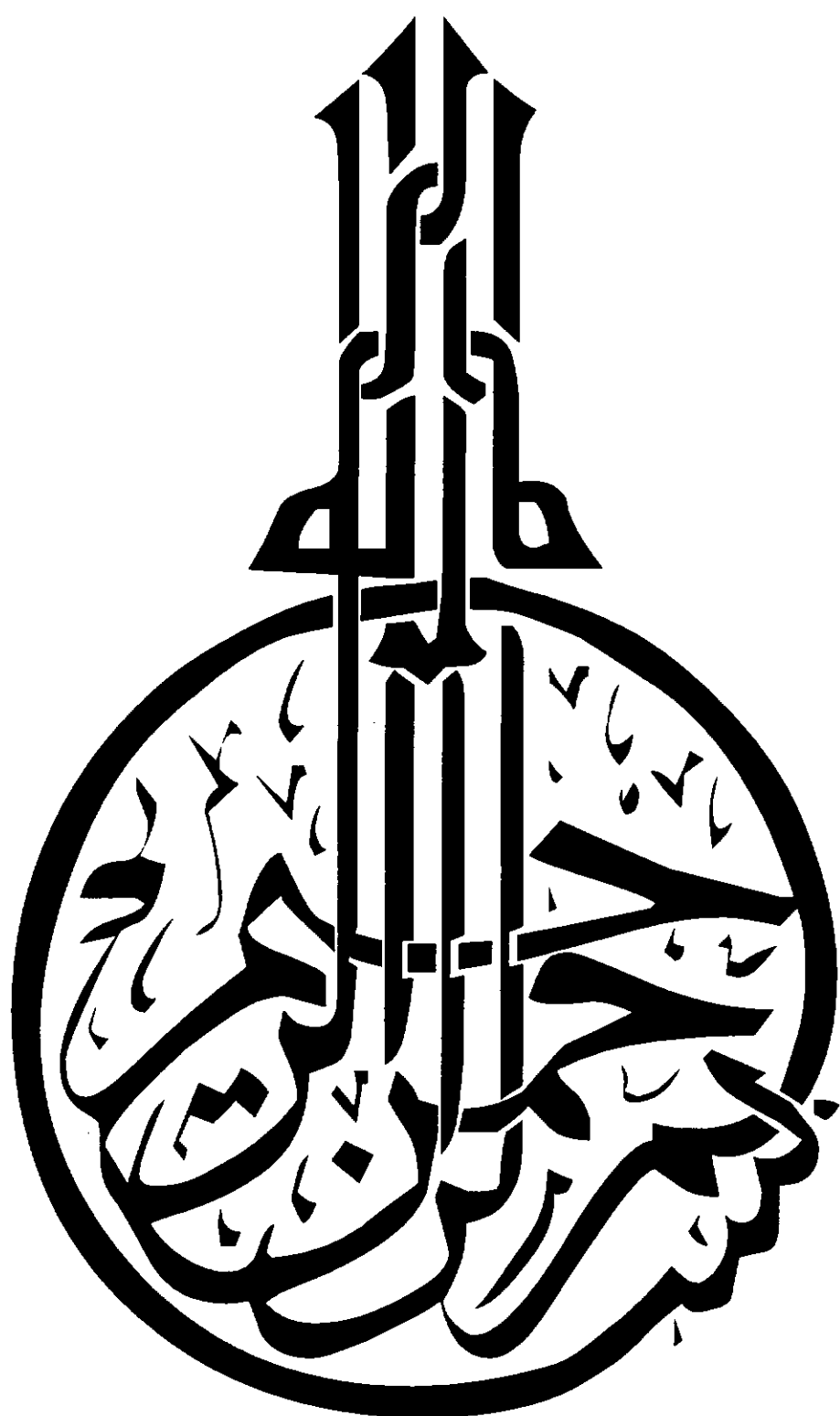
أعضاء اللجنة

الشرف

الاسم: محمد صالح
التوقيع: محمد

د. عبد العزيز الحميد
رئيس قسم العقيدة

الوقيع : 



الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وبعد :

فقد تَضَمَّنَ هذا البحث « جهود بعض أئمة المالكية في تقرير توحيد العبادة » من خلال النقاط الآتية :

أولاً : بيان أن التوحيد في الشرع هو « لا إله إلا الله » ، وبيان معناها ، وهو استحقاق العبادة لله وحده دون ما سواه .

ثانياً : ذكر الشروط اللازمة لمن نطق بكلمة التوحيد .

ثالثاً : أن هذا التوحيد هو أول واجب على المكلف ، فهو أول ما بدأ به الرُّسل دعوتهم لأقوامهم .

رابعاً : أن من أثبت الربوبية لله تعالى - وهذا الذي يكاد يُطبق عليه غالب البشر - لزمه أن يفرد الله تعالى بالعبادة .

خامساً : بيان أن العبادة تشمل سائر القُرب الظاهرة والباطنة ، من قول أو فعل أو ترك ، وبذكر أنواعها يتضح معنى العبادة ، كالحجة والخوف والرجاء والتوكل والصبر والتوبة وكذا الذكر والدعاء والذبح والطواف والنذر ، وغيرها من العبادات المستحقة لله تعالى وحده دون سواه .

سادساً : بيان شرطي قبول العبادة ، من إخلاصها لله تعالى ، وأن تكون على وفق شرعه .

سابعاً : بيان ما يناقض أصل التوحيد - وهو الشرك في عبادة الله تعالى - ، وأن أول وقوعه في الأرض كان في قوم نوح - عَلَيْهِ السَّلَام - ، وسببه الغلو وطلب الشفاعة من أولئك الذين غلوا فيهم ، وهو ما أوقعهم في عبادة غير الله تعالى .

ثامناً : بيان أقسام الشرك الأكبر والأصغر المنافي للتوحيد والمنافي لكمالهِ ، من شرك الدعاء ، وشرك الطاعة ، وشرك الذبح ، وشرك السجود ، وشرك الطواف ، وشرك الرقي والتمائم، والسحر المتضمن صرف العبادة إلى الشياطين أو الكواكب ، وكذا الحلف بغير الله ، والتسمي بملك الملوك ، والتعبيد لغير الله ، والطيرة ، وسبّ الدهر ، وبعض من صور التبرُّك الممنوع .

Thanks to Allah only , and peace be upon our prophet Mohammed .. and ...

This research included “the efforts of some Muslim Scholars in determining ” through the following points :

First : Explanation of Monotheism in Islam law is (There is no god but Allah) and explaining it's meaning , which means that worship shall only be to Allah

Second : Stating required conditions for the one who pronounced the word of monotheism

Third : that monotheism is first duty of the assigned to , it is the first by which messengers started their call to their people

Fourth : that who proved the oneness of Allah (Exalted be He) – which most people agree on it – has to perform the worship only to Allah (Exalted be He)

Fifth : Explanation that worship includes all visible and invisible approaches such as saying , deed or abandonment , and by mentioning all types the meaning of worship can be clear ex. Love , fear , hope , reliance , patience and repentance as well as remembrance of Allah , supplication , slaughter , circumambulation and a vow , and other religious observances due to Allah alone .

Sixth : explanation of the two worship acceptance conditions such as devotion to Allah , and according to his law .

Seventh : Explanation of the contradiction of monotheism origin – which is polytheism in the worship of Allah (Exalted be He) , and this first time occurred in earth was in the people of Noah – peace be upon him – and it cause was excessiveness and asking intercession from others than Allah , which led them to fall in worship of others than Allah .

Eighth : Explanation of the division of small and great polytheism which contradicts monotheism , such a supplication monotheism , obeisance monotheism , slaughter monotheism , prostration monotheism , circumambulation monotheism , amulets monotheism , and magic which states that worship shall all be to devils or stars , and also swear by others than Allah , and naming with the king of the kings , pessimism , and inveigh against time , and some sorts of prohibited blessings .

مُقَدِّمَةٌ

إِنَّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .
﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾^(١) .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾^(٢) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾^(٣) .

أما بعد :

فإن توحيد العبادة هو الذي بعث الله من أجله الرسل وأنزل الكتب ، وشرعت الشرائع ، وقامت سوق الجهاد ، والجنة والنار .

قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾^(٤) .

وحيث كان بتلك المنزلة ؛ فقد رغبت أن يكون موضوع الدكتوراه مرتبطاً

(١) سورة آل عمران : ١٠٢ .

(٢) سورة النساء : ١ .

(٣) سورة الأحزاب : ٧٠-٧١ .

(٤) سورة الأنبياء : ٢٥ .

به ، سيما في هذا العصر الذي كثرت فيه البدع والخرافات بين المسلمين ، وأشاح الشرك بوجهه القبيح على بعض العبادات ، فصرفت لغير الله تعالى ، وكل ذلك بسبب التفريط في هذا الركن الركين ، والأس المتين : توحيد الله تعالى بالعبادة ، وإسلام الوجه له تعالى دون أحد سواه .

أسباب اختيار الموضوع :

أولاً : أهمية المذهب المالكي ، وانتشاره في الآفاق ، ففي الموضوع دعوة لمن زل في أمر توحيد العبادة من المنتسبين للمذهب خاصة وللمسلمين عامة .

ثانياً : ربط كثير من الناس توحيد العبادة بعلماء مذهب دون سواه ، وهذا سوء فهم للموضوع من جهة ، وهضم من جهة أخرى لجهود العلماء الآخرين الذين أبلوا بلاءً حسناً في بيانه ، وأدوا الأمانة في إبلاغه . ولذا قال الميلي - بعد أن ذكر جهود بعض الأئمة في الدعوة إلى التوحيد : « وليست الدعوة إلى التوحيد بمذهب خاص ، ولكنه دين الله العام »^(١) .

ثالثاً : إبراز الجهد الكبير لعلماء المالكية - كغيرهم من علماء الأمة - في عنايتهم بتوحيد العبادة الذي جاءت به الرسل ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ . والعلماء ورثة الأنبياء في ذلك .

رابعاً : الانحراف الذي وقعت فيه البشرية عبر التاريخ - ولا يزال - إنما وقع عن طريق الانحراف في العبادة ، كما قال تعالى - عن قوم نوح - : ﴿ وقالوا لا تدرن أهتكم ولا تدرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾^(٢) .

فناسب طرق هذا الموضوع ومعالجته على ضوء النصوص الشرعية من الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة .

(١) رسالة الشرك (٥٧) .

(٢) سورة نوح : ٢٣ .

خطة البحث

تتكون خطة البحث من مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة .

◀ المقدمة ، وتتكون من :

* بيان أهمية الموضوع .

* أسباب اختيار الموضوع .

* خطة البحث .

* منهج البحث .

◀ التمهيد ، وهو في نشأة المذهب المالكي .

◀ الباب الأول : التوحيد ، وفيه فصلان :

* الفصل الأول : معنى التوحيد ، وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : التوحيد في اللغة والشرع .

المبحث الثاني : معنى " لا إله إلا الله " .

المبحث الثالث : شروط " لا إله إلا الله " .

المبحث الرابع : التوحيد أول دعوة الرسل .

* الفصل الثاني : توحيد المعرفة ، وفيه مبحثان :

المبحث الأول : إقرار الكفار بتوحيد المعرفة .

المبحث الثاني : الاحتجاج بهذا الإقرار على توحيد العبادة .

◀ الباب الثاني : العبادة ، وفيه فصلان :

* الفصل الأول : تعريف العبادة لغةً واصطلاحاً .

أولاً : تعريف العبادة لغةً .

ثانياً : تعريف العبادة اصطلاحاً .

* الفصل الثاني : أنواع العبادة وشروط صحتها ، وفيه المباحث الآتية :

المبحث الأول : الأعمال الباطنة ، وفيه المسائل الآتية :

المسألة الأولى : المحبة .

المسألة الثانية : الخوف والرجاء .

المسألة الثالثة : التوكل .

المسألة الرابعة : الصبر .

المسألة الخامسة : التوبة .

المبحث الثاني : الأعمال الظاهرة ، وفيه المسائل الآتية :

المسألة الأولى : الذكر .

المسألة الثانية : الدعاء .

المسألة الثالثة : الذبح .

المسألة الرابعة : النذر .

المسألة الخامسة : الطواف .

المبحث الثالث : شروط صحة العبادة .

◀ الباب الثالث : الشرك ، وفيه تمهيد وفصلان :

* تمهيد .

* الفصل الأول : التعريف بالشرك وبيان سببه ، وفيه مبحثان :

المبحث الأول : بيان حقيقة الشرك .

المبحث الثاني : بيان سبب الشرك .

* الفصل الثاني : أنواع الشرك . وفيه تمهيد ومبحثان :

تمهيد .

المبحث الأول : الشرك المنافي للتوحيد . وفيه المسائل الآتية :

المسألة الأولى : شرك الدعاء .

المسألة الثانية : شرك الطاعة .

المسألة الثالثة : شرك الذبح .

المسألة الرابعة : شرك السجود .

المسألة الخامسة : شرك الطواف .

المسألة السادسة : شرك النذر .

المسألة السابعة : شرك السحر .

المسألة الثامنة : شرك الرقى والتمايم .

المبحث الثاني : الشرك المنافي لكمال التوحيد . وفيه المسائل الآتية :

المسألة الأولى : الحلف بغير الله .

المسألة الثانية : التعييد لغير الله .

المسألة الثالثة : التسمي بملك الملوك .

المسألة الرابعة : الطيرة .

المسألة الخامسة : التبرك بالمنوع .

المسألة السادسة : سب الدهر .

◀ الخاتمة : وفيها عرض أهم النتائج .

◀ الفهارس .

منهج البحث

المنهج الذي سرتُ عليه في إعداد هذا البحث كالآتي :

أولاً : قمتُ بقراءة كتب المالكية بدءاً بكتب التفاسير وشروح الأحاديث وكتب الفقه والأصول والطبقات والتراجم فيما هو من مظان البحث ، واستخرجت منها ما يخص توحيد العبادة .

ثانياً : أورد المسائل من غير توسّع في تقريرها ، إلا ما تدعو الحاجة الملحة إليه ؛ لأن المراد هو جمع جهود المالكية فقط دون من سواهم ، إذ لا يراد به التأليف العام في توحيد العبادة .

ثالثاً : ذكرتُ في المقام الأول كلام الإمام مالك رحمه الله في الغالب ، إذ هو إمام المذهب المعتر عندهم ، واعتنيتُ بنقل كل ما أثر عنه فيما يخص الموضوع .

رابعاً : نقلتُ الأقوال السليمة الماثورة عن علماء المالكية ؛ لأن المقصود إبراز جهود علماء المالكية الصحيحة التي تدخل ضمن البحث ، ولأن الحق يؤخذ ممن جاء به ويقبل ، ولكي يتوسع في دائرة النقل عن علماء المالكية .

خامساً : نبهتُ على الأقوال التي رأيت أن فيها ملحظاً أو مخالفةً في الحاشية مراعيًا الآداب الشرعية في ذلك .

سادساً : عزوتُ الآيات القرآنية إلى مواضعها في القرآن .

سابعاً : خرّجتُ الأحاديث النبوية الواردة في البحث من مصادرها المعتمدة ، فإن كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما اكتفيتُ بهما في التخريج ، وأذكر الكتاب والباب والجزء والصفحة من فتح الباري بالنسبة للبخاري ولصحيح مسلم الصحيح نفسه ، وإن كان في غيرهما ذكرتُ من خرّجه من الأئمة أو بعضهم ، مع

بيان الحكم على الحديث .

ثامناً : بينتُ معاني الألفاظ الغريبة من كتب اللغة وغريب الحديث .

تاسعاً : ترجمتُ للأعلام المذكورين في صلب البحث عند أول موضع ، ما عدا الصحابة رضي الله عنهم ومن اشتهر من الأئمة . واعتنيت بكتب التراجم والطبقات من المالكية .

عاشراً : حرصتُ على النقل من المصادر الأصلية ، وما لم أتمكن من الوقوف عليه عزوت إلى مصدر علمي موثق .

حادي عشر : ذيلتُ الرسالة بفهارس لمحتوياتها اشتملت على ما يلي :

١— فهرس الآيات القرآنية .

٢— فهرس الأحاديث النبوية .

٣— فهرس الأعلام .

٤— فهرس المصادر والمراجع .

٥— فهرس الموضوعات .

وفي الختام فإني أشكر الله تعالى على أن منّ عليّ بإتمام هذا البحث وإخراجه على هذا النحو ، فما كان منه من صواب فمن الله تعالى وحده ، فله الحمد والمنة ، وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان ، والله ورسوله منه بريئان .

ثم أتقدم بالشكر لفضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور محمد حسان كسبه المشرف على الرسالة ، فقد كان لتوجيهاته وإرشاداته طيلة زمن البحث الأثر الكبير في إخراجه على تلك الصورة ، كما أشكر لعضوي لجنة المناقشة الكريمين على تفضلهما بقبول مناقشة هذا الموضوع .

والشكر موصول لكل من أعان ونصح وسدّد وأرشد من الإخوة الفضلاء ، كما أشكر هذا الصرح العلمي - جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، ممثلة في كلية الدعوة

وأصول الدين ، وأخص قسم العقيدة - على رعايته لطلاب العلم ، وإعانتته لهم في مواصلة تحصيلهم العلمي .

والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، وأن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

مَهَيِّدًا

في نشأة المذهب المالكي

إنّ في الحديث عن المذهب المالكي ونشأته ما يدعو أولاً إلى الحديث عن إمام المذهب الذي أسسه ونُسب إليه المذهب ، فناسب هنا التعريف بإمام المذهب ، وعلى هذا سيكون الكلام في هذا التمهيد محصوراً في الفقرتين الآتيتين :

أولاً : الإمام مالك .

ثانياً : المذهب المالكي .

أولاً : الإمام مالك

١- اسمه ونسبه :

هو إمام دار الهجرة أبو عبدالله مالك بن أنس بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي ، وأصبح قبيلة من حمير بن سبأ الأكبر ، وهو عبد شمس بن يعرب بن يشجب بن قحطان^(١) .

٢- مولده :

ذكر القاضي عياض أن مولده كان في سنة ٩٣هـ في المدينة النبوية .

قال : « والأشهر فيما روي من ذلك قول يحيى بن بكير : إن مولده سنة ثلاث وتسعين من الهجرة »^(٢) .

٣- طلبه للعلم :

قال الذهبي : « طلب مالك العلم وهو ابن بضع عشرة سنة ، وتأهل للفتيا وجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة ، وحدث عنه جماعة وهو صبيٌّ شابٌّ طريٌّ ، وقصده طلبة العلم من الآفاق في آخر دولة أبي جعفر المنصور وما بعد ذلك ، وازدهوا عليه في خلافة الرشيد ، وإلى أن مات رحمه الله »^(٣) .

وأما حديثه عن طلبه للعلم وتحمله للمشقة في ذلك فيقول : « كنت آتي نافعاً نصف النهار وما تظلني الشجرة من الشمس إلى خروجه ، فإذا خرج أدعه ساعة كأني لم أرده ثم أتعرض له فأسلم عليه ، حتى إذا دخل البلاط أقول له : كيف قال

(١) انظر ترتيب المدارك (١/١٠٥) ، السير للذهبي (١/٤٨) ، الانتقاء لابن عبد البر (٩-١١) ، التمهيد (١/٨٩-٩٠) .

(٢) ترتيب المدارك (١/١١٨) . وذكر الذهبي في السير (٨/٤٩) قول القاضي عياض في سنة مولد الإمام ورجّحه .

(٣) سير أعلام النبلاء (٨/٥٥) .

ابن عمر في كذا وكذا ؟ فيجيبني ، ثم أجلس عنه ، وكان فيه حدة ، وكنت آتي ابن هرمز بكرة فما أخرج من بيته حتى الليل»^(١) .

وقد بلغ من حرصه على الطلب أنه سعى إليه حتى في يوم العيد ، قال : « شهدت العيد فقلت : هذا اليوم يخلو فيه ابن شهاب ، فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه ، فسمعتُه يقول لجاريته : انظري من على الباب ، فنظرت فسمعتها تقول : مولاك الأشقر مالك ، قال : أدخله . فدخلتُ ، فقال : ما أراك بعد انصرفت إلى منزلك ؟ قلت : لا . قال : هل أكلتَ شيئاً ؟ قلت : لا . قال : فاطعم ، قلت : لا حاجة لي فيه ، قال : فما تريد ؟ قلت : تُحدثني ، فحدثني سبعة عشر حديثاً»^(٢) .

٤- منزلته العلمية وثناء الناس عليه :

خرج الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه يبلغ به النبي ﷺ قال : « ليضربن الناس أكباد الإبل في طلب العلم ، فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة»^(٣) .

قال سفيان بن عيينة : نرى أن المراد بهذا الحديث مالك بن أنس .

وقال القاضي عياض : « وهذا هو الصحيح عن سفيان ، رواه عنه الثقات والأئمة : ابن مهدي ، وابن معين ، وذؤيب بن عمامة ، وابن المديني ، والزبير بن بكار ، وإسحاق بن أبي إسرائيل ؛ كلهم سمع سفيان يفسره بمالك ، أو يقول :

(١) ترتيب المدارك (١/١٣٢) .

(٢) ترتيب المدارك (١/١٣٤) .

(٣) خروجه الإمام أحمد (٢/٢٩٩) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن حبان (٢٣٠٨) ، والحاكم (١/٩١) ، والبيهقي (١/٣٨٦) . قال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق مسند أحمد (١٥/١٣٥-١٣٧ رقم ٧٩٦٧) : إسناده صحيح .

أظنه ، أو : أحسبه ، أو : أراه ، أو : كانوا يرونه »^(١) .

وأورد الذهبي قول أبي عبد الله الحاكم - وذكر سادة من أئمة التابعين ، كابن المسيب ، ومن بعده في المدينة - : « فما ضربت أكباد الإبل من النواحي إلى أحد منهم دون غيره حتى انقرضوا وخلا عصرهم ، ثم ذكر شيوخ مالك المشهورين - إلى أن قال - : وكلهم يفتي بالمدينة ، ولم يتفرد واحد منهم بأن ضربت إليه أكباد الإبل حتى خلا هذا العصر ، فلم يقع بهم التأويل في « عالم المدينة » .

ثم حدث بعدهم مالك ، فكان مفتيها ، فضربت إليه أكباد الإبل من الآفاق ، واعترفوا له ، وروى الأئمة عنه ممن كان أقدم منه سنًا »^(٢) .

وقال الذهبي : « ولم يكن بالمدينة عالم بعد التابعين يشبه مالكا في العلم والفقه والجلالة والحفظ »^(٣) .

وقد أثنى على مالك عدد من أئمة الإسلام :

قال الشافعي : « إذا جاءك الأثر عن مالك فشدّ به يدك » .

وقال : « إذا جاء الخبر فمالك النجم »^(٤) .

وقال : « إذا ذكر العلماء فمالك النجم ، ولم يبلغ أحد في العلم مبلغ مالك ، لحفظه وإتقانه وصيانيته ، ومن أراد الحديث الصحيح فعليه بمالك »^(٥) .

وقال ابن المبارك : « لو قيل لي : اختر للأمة إماماً ، اخترت لها مالكا » .

(١) ترتيب المدارك (٧١/١) .

(٢) السير (٦١/٨) .

(٣) السير (٥٨/٨) .

(٤) قال الزواوي : « يريد بقوله : فمالك النجم ، يعني قوله تعالى : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ والله أعلم » .

(٥) الانتقاء (٢٣-٢٤) ، الحلية (٢٢/٦) ، ترتيب المدارك (١٤٩/١) .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : « مالك سيد من سادات أهل العلم ، وهو إمام في الحديث والفقه ، ومن مثل مالك متبع لآثار من مضى ؟ مع عقل وأدب »^(١) .

وقال يحيى بن معين : « كان مالك من حجج الله على خلقه »^(٢) .

وقال أبو الحسن الدارقطني : « لا نعلم أحداً تقدّم أو تأخّر اجتمع له ما اجتمع لمالك »^(٣) .

وقال النسائي : « ما من أحد عندي بعد التابعين أنبل من مالك بن أنس ، ولا أحد أمنّ عليّ بالحديث منه »^(٤) .

٥- صفاته :

قال زياد بن يونس : « كان - والله - مالك من أعظم الخلق مروءة ، وأكثرهم صمتاً »^(٥) .

وقال الحارث بن مسكين : « رحم الله مالكا ، ما كان أصونه للعلم وأصبره على الفقر ولزوم المدينة ، أمر له بجوائز ثلاثة آلاف دينار فما استبدل منزلاً غير المنزل الذي كان فيه ، ولا استفاد منه غلة ولا صنعة ولا تجارة »^(٦) .

وكان رحمه الله كثير العبادة والصلاة ، كثير العمل في السر .

قال ابن الماجشون : « والله ما علمناه إلاّ بصلاح وعفاف »^(٧) .

(١) ترتيب المدارك (١٥٤/١) .

(٢) الانتقاء (٣١) ، السير (٩٤/٨) .

(٣) ترتيب المدارك (١٧٧/١) .

(٤) الانتقاء (٣١) .

(٥) ترتيب المدارك (١٢٧/١) .

(٦) ترتيب المدارك (٥٧/٢) .

(٧) مناقب مالك للزواوي (١٣٧) .

وقال ابن وهب : « قيل لأخت مالك بن أنس : ما كان شغل مالك بن أنس في بيته ؟ قالت : المصحف والتلاوة »^(١) .

وقال ابن المبارك : « رأيت مالكا فرأيت من الخاشعين ، وإنما رفعه الله بسريرة بينه وبينه ، وذلك أني كثيرا ما كنت أسمعه يقول : من أحب أن يفتح له فرجة في قلبه فينجو من غمرات الموت وأهوال يوم القيامة فليكن عمله في السر أكثر منه في العلانية »^(٢) .

وقال أبو بكر الأوسي : « كان مالك كثير القراءة طويل البكاء »^(٣) .

إلى غير ذلك مما يطول ذكره عن هذا الإمام ، ولعل فيما أوردته ما يكفي لإظهار فضله وعلو منزلته رحمه الله .

٦- وفاته :

توفي الإمام مالك رحمه الله تعالى في شهر ربيع الأول سنة ١٧٩هـ وعمره ست وثمانون سنة ، ودُفن بالبقيع^(٤) .

(١) مناقب مالك للزواوي (١٣٨) .

(٢) ترتيب المدارك ٥١/٢ .

(٣) ترتيب المدارك (٥٣/٢) .

(٤) انظر : التمهيد (٩٢/١) ، ترتيب المدارك (١٤٦/٢) ، السير (١٣٠/٨-١٣٥) .

ثانيًا : المذهب المالكي

نشأته وكيفية انتشاره :

نشأ الإمام مالك في المدينة النبوية ، وأخذ العلم وتلقى الرواية عن علمائها ، ولم يخرج منها إلا إلى الحج ، فساد جميع أقرانه ، وفاق أهل زمانه ، فسمي : عالم المدينة ، وإمام دار الهجرة ، واشتهر خبره في الأمصار ، وانتشر في سائر الأقطار ، وضربت إليه أكباد الإبل ، وارتحل الناس إليه من كل مصر ، وأتوه من كل قطر .

فروى عنه أهل الحجاز ، وأهل اليمن ، وأهل العراق ، وأهل خراسان ، والشام ، ومصر ، وإفريقية ، والأندلس^(١) .

مما كان له أكبر الأثر في انتشار مذهبه في الأمصار .

« وقد خلص علم فقهاء المدينة إلى مالك بن أنس رحمه الله ، وكانت زكاة رأيه وصلابة دينه وقوة نقده قد هيأت له بتوفيق الله تعالى ذلك المقام الجليل ، مقام الضبط والتصحيح والتحرير »^(٢) .

وقد كانت هذه الشخصية التي اتسم بها مالك من عنايته بالحديث وروايته مع حرصه على الفقه والاستنباط آثارها في دروسه وتلاميذه الذين اعتنوا بسماعاتهم من الإمام مالك ودونوها ، كما فعل ابن وهب ، فقد ألف « في سماعه من مالك ثلاثين كتابًا »^(٣) ، « ولم يكن مالك يتكلم بشيء إلا كتبه ابن وهب »^(٤) .

قال القاضي عياض : « غلب مذهب مالك على الحجاز والبصرة ومصر ، وما والاها من بلاد إفريقية والأندلس ، وصقلية ، والمغرب الأقصى ، إلى بلاد من

(١) مناقب الإمام مالك للزواوي (٤٩) .

(٢) كشف المغطال لابن عاشور (٨) .

(٣) ترتيب المدارك (٢٤٢/٣) .

(٤) ترتيب المدارك (٢٣٢/٣) .

أسلم من السودان ، وظهر ببغداد ظهوراً كثيراً ، وضعف بها بعد أربعمئة سنة ، وظهر بنيسابور وكان بها وبغيرها أئمة ومدرّسون^(١) .

وكان دور التلامذة الذين قدموا على مالك كبيراً في نشر مذهبه ، ففي مصر انتشر علم مالك في حياته ، فكانت بعد الحجاز من أول البلاد التي انتشر فيها علم مالك ، وكثر بها تلاميذه حتى صدر العلم عنهم من بعده ، كابن القاسم^(٢) ، وأشهب^(٣) ، وابن وهب^(٤) ، وأصبغ^(٥) ، وغيرهم من المصريين .

بل إن المدونة - التي تعدّ مرجعاً مهماً لمسائل الإمام مالك وفتاويه - صدرت عن ابن القاسم بمصر ، وأخذها عنه أولاً أسد بن الفرات ، ثم أخذها منقّحة من بعده سحنون^(٦) .

(١) ترتيب المدارك (٦٥/١) .

(٢) هو عبدالرحمن بن القاسم العتقي ، يكنى أبا عبدالله ، أحد أشهر أصحاب مالك ، فقيه جمع بين الزهد والعلم ، وهو ناشر مذهب مالك في مصر ، أتمى الأسدية (المدونة) فكانت الكتاب للمذهب شرقاً وغرباً ، وروايته للموطأ صحيحة . مات سنة ١٩١هـ .

انظر : ترتيب المدارك (٢٤٤/٣-٢٦١) ، والدياج (٢٣٩) .

(٣) هو أشهب بن عبدالعزيز ، أبو عمرو ، ويقال : اسمه مسكين وأشهب لقب ، روى عن مالك والليث ، تفقه بمالك والمدنيين والمصريين ، كان فقيهاً نبيلاً ، حسن النظر ، وله مدونة تسمى مدونة أشهب ، مات سنة ٢٠٤هـ ، وقيل : ٢٠٣هـ .

انظر : ترتيب المدارك (٢٦٢/٣-٢٧١) ، والدياج (١٦٢) .

(٤) هو عبدالله بن وهب ، أبو محمد القرشي ، روى عن مالك والليث ... نحو أربعمئة رجل من شيوخ المحدثين بمصر والحجاز والعراق . مات سنة ١٩٧هـ .

انظر : ترتيب المدارك (٢٢٨/٣-٢٤٣) ، الدياج (٢١٤) .

(٥) هو أصبغ بن الفرّج بن سعيد بن نافع ، رحل إلى المدينة لسمع من مالك ، فدخلها يوم مات ، صحب ابن القاسم وأشهب وابن وهب وتفقه بهم ، وكان فقيهاً نظاراً ، من أعلم خلق الله كلهم برأي مالك . مات سنة ٢٢٥هـ .

انظر : ترتيب المدارك (١٧/٤-٢٢) ، والدياج (١٥٨) .

(٦) مالك حياته وعصره وآراؤه وفقهه لمحمد أبو زهرة (٢٨٣) . ط. دار الفكر - القاهرة .

وفي إفريقية وبلاد المغرب فقد حلّ المذهب المالكي محلّ مذهب أبي حنيفة على يد ابن زياد ، والبهلول بن راشد من تلامذة الإمام ، وأسد بن الفرات ، وسحنون من تلامذة ابن القاسم .

بينما كان زياد بن عبدالرحمن الملقّب بشبطون^(١) ، وقرعوس بن العباس^(٢) ، والغازي بن قيس^(٣) ، ومن بعدهم : يحيى بن يحيى المصمودي^(٤) صاحب الرواية المشهورة للموطأ ، وعبدالمالك بن حبيب^(٥) مؤلف الواضحة : قد نشروا المذهب

(١) زياد بن عبدالصمد اللخمي ، المعروف بزياد شبطون ، يكنى أبا عبدالله ، سمع من مالك الموطأ وروى عن الليث ، وهو فقيه أهل الأندلس على مذهب مالك ، وأول من أدخل مذهب مالك الأندلس ، له عن مالك في الفتاوى كتاب سماع معروف بسماع زياد . مات سنة ١٩٣هـ أو ١٩٤هـ ، وقيل : ٢٠٤هـ .

انظر : ترتيب المدارك (١١٦/٣-١٢٢) ، وجذوة المقتبس (٢١٨-٢١٩) .

(٢) قرعوس بن العباس بن قرعوس بن حميد ، ويقال : عبيد ، بن منصور بن محمد بن يوسف الثقفي ، من أهل قرطبة ، سمع من مالك ومن الثوري وابن جريج والليث وغيرهم . كان فاضلاً ورعاً عالماً بمذهب مالك وأصحابه ، ولا علم له بالحديث . مات ٢٢٠هـ .

انظر : الديباج (٣٢٥) ، وجذوة المقتبس (٣٣٣) .

(٣) هو أبو محمد الغازي بن قيس الأموي القرطبي ، الفقيه المحدث ، سمع من مالك الموطأ ، ومن ابن جريج والأوزاعي وغيرهم . وهو أول من أدخل الموطأ وقراءة نافع للأندلس . وكان عالماً فاضلاً ديناً ثقة مأموناً . مات سنة ١٩٩هـ .

انظر : الديباج (٣١٤) ، وشجرة النور (٦٣/١) ، وترتيب المدارك (١١٤/٣) .

(٤) هو يحيى بن عبدالله بن يحيى بن يحيى بن كثير المصمودي ، جليل القدر ، عالي الدرجة في الحديث ، ولي القضاء في مواضع عديدة ، سمع الموطأ من حديث الليث وغيره . مات سنة ٣٦٧هـ .

انظر الديباج (٤٣٤) .

(٥) هو عبدالمالك بن حبيب بن سليمان بن هارون السلمي ، أبو مروان ، فقيه مشهور ، متصرف في فنون من الآداب وسائر المعاني ، كثير الحديث والمشايخ ، ويقال : إنه أدرك مالكاً في آخر عمره ، من تصانيفه : الواضحة في الفقه ، والجامع ، وتفسير الموطأ ، وغيرها . مات سنة ٢٣٩هـ .

انظر : بغية الملتبس (٣٧٦) ، والديباج (٢٥٢) .

بدعم من السلطان ؛ إذ « أخذ أمير الأندلس إذ ذاك هشام بن عبدالرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبدالملك بن مروان الناس جميعاً بإلزامهم بمذهب مالك ، وصير القضاء والفتيا عليه ، وذلك في عشر السبعين ومائة من الهجرة في حياة مالك رحمه الله تعالى »^(١) .

وفي المشرق امتدّ مذهب مالك إلى جهات الحجاز واليمن على يد أبي قرّة القاضي^(٢) ، ومحمد بن صدقة الفدكي^(٣) ، وغيرهم ، ومن ثم أتباعهم .
وفي العراق استقرّ بالبصرة على يد ابن مهدي ، والقعني ، وغيرهم . وقد كان لأصحاب مالك الأثر الكبير في ازدهار المذهب هناك ، ولعل المالكيين المشاركة هم الذين وضعوا الأسس الأولى للمذهب ، وأصوله التي بنى عليها المغاربة فيما بعد .
وفي خراسان وما وراء العراق دخلها المذهب على يد يحيى بن يحيى التميمي^(٤) ، وعبدالله بن المبارك .

(١) ترتيب المدارك (٢٦/١-٢٧) .

(٢) هو موسى بن قرّة بن طارق السكسكي ، أبو قرّة لقب له ، روى عن مالك ما لا يحصى ، منها الموطأ . وله المبسوط ، أثنى عليه ابن حنبل خيراً .

انظر : ترتيب المدارك (١٩٦/٣) ، والديباج (٤٢١) .

(٣) هو محمد بن صدقة الفدكي ، أبو عبدالله ، كان يسكن ناحية المدينة ، وسمع من مالك . وله عن مالك مسائل كثيرة وحديث . انظر ترتيب المدارك (٣٥١/٣) .

(٤) هو يحيى بن يحيى بن بكير بن عبدالرحمن التميمي ، الحنظلي ، مولى لهم ، لازم مالكاً مدةً للاقتداء به ، وعدّه ابن عبدالبر في الفقهاء من أصحاب مالك ، وكان ثقةً مأموناً مرضياً . قال ابن حنبل : ما أخرجت خراسان بعد ابن المبارك مثله ، وذكر من فضله وإتقانه أمراً عظيماً . مات سنة ٢٢٦هـ .

انظر ترتيب المدارك (٢١٦/٣) .

وكان في الشام من أصحاب مالك : الوليد بن مسلم^(١) وأبو مسهر^(٢) .

وهذا يبين مدى انتشار المذهب المالكي في غالب الأمصار .

تقرير العقيدة والدفاع عنها عند الإمام مالك :

إنَّ المتأمل لأقوال الإمام مالك يجد عنايته الكبيرة بمسائل العقيدة ، فقد بين أن أصل التوحيد هو إفراد الله تعالى بالعبادة .

قال الشافعي : سئل مالك عن الكلام والتوحيد فقال : « محال أن يظن بالني ﷺ أنه علم أمته الاستنجاء ولم يعلمهم التوحيد ، والتوحيد ما قاله النبي ﷺ : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله " ، فما عصم به المال والدم حقيقة التوحيد »^(٣) .

فبين أن حقيقة التوحيد عنده رحمه الله إفراد الله تعالى بالعبادة ، وذلك معنى كلمة « لا إله إلا الله » ، أي : لا مستحق للعبادة إلا الله تعالى .

وقد ذكر في موطنه تحت عنوان : « كتاب البيعة » حديث أميمة بنت رقية : أنها قالت : « أتيت رسول الله في نسوة بايعنه على الإسلام ، فقلن : يا رسول الله ! نبايعك ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي

(١) الوليد بن مسلم بن أبي السائب ، أبو العباس ، مولى بني أمية ، دمشقي ، صنف التصانيف والتواريخ وعني بهذا الشأن أتم عناية . قال ابن حنبل : ما رأيت في الشاميين أعقل منه . مات سنة ١٩٥ هـ ، وقيل : ١٩٤ هـ .

انظر : ترتيب المدارك (٢١٩/١٥) ، والتذكرة (٣٠٢/١) .

(٢) أبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر الغساني الدمشقي ، شيخ أهل الشام وعالمهم ، روى عن مالك الموطأ وغيره من المسائل ، وكان ممن امتحنه المأمون وأكرهه على أن يقول : القرآن مخلوق ! قال ابن حنبل : رحم الله أبا مسهر ما كان أثبتة . مات سنة ٢١٨ هـ .

انظر : ترتيب المدارك (٢٢١/٣) ، والتذكرة (٣٨١/١) .

(٣) السير (٢٦/١٠) .

ببهتان نفثه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيك في معروف . فقال رسول الله ﷺ :
« فيما استطعتن وأطقتن » . قالت : فقلن : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، هلمّ
نبايعك يا رسول الله ! فقال رسول الله ﷺ : « إني لا أصافح النساء ؛ إنما قولي لمائة
امرأة كقولي لامرأة واحدة - أو : مثل قولي لامرأة واحدة - »^(١) .

فإيراد مالك رحمه الله لهذا الحديث الذي فيه البيعة على التوحيد وعدم الشرك
يدلنا على عنايته رحمه الله بأمر التوحيد .
وكذا إirاده حديث الفطرة .

وبما أن الخوض في الدين بالكلام قد وقع ، فإن الإمام مالكا رحمه الله من أشدّ
الأئمة تمسكا بالسنة ، واقتفاء لآثار الصحابة رضي الله عنهم ، والتابعين ، ومن أشدّهم تحذيرا من
الخوض في الدين بالكلام ، وعلم الكلام ، وأصحاب الأهواء الذين يرون أن الدين لا
يعرف معرفة حقيقية إلا بالكلام والجدل .

قال أبو طالب المكي : « كان مالك رحمه الله أبعد الناس من مذاهب المتكلمين ،
وأشدّ نقضا للعراقيين ، وألزمهم لسنة السالفين من الصحابة والتابعين »^(٢) .
وقال أشهب بن عبدالعزيز : سمعت مالك بن أنس يقول : إياكم والبدع !
قيل : يا أبا عبد الله ! ما البدع ؟ قال : أهل البدع الذين يتكلمون في أسمائه وصفاته
وكلامه وعلمه وقدرته ، ولا يسكتون عما سكّت عنه الصحابة والتابعون^(٣) .

وجاء في الاعتصام للشاطبي :

« وقال مالك : قبض رسول الله ﷺ وقد تمّ هذا الأمر واستكمل ، وينبغي أن
تتبع آثار رسول الله ﷺ وأصحابه ، ولا يتبع الرأي ، فإنه من اتبع الرأي جاءه رجل

(١) موطأ مالك (٧٤٩/٢) . ط . دار الحديث - القاهرة .

(٢) ترتيب المدارك (٣٩/٢) ، السير (١٠٦/٨) .

(٣) مناقب مالك للزواوي (١٤٧) .

أقوى في الرأي منه فاتبعه ، فكلما غلبه رجل اتبعه أرى أن هذا بعد لم يتم»^(١) .

فقد حصر الإمام مالك الدين في الكتاب والسنة فقط ، واتباع سلف الأمة في ذلك ، وذكر أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

ولا شك أن هذا من الإمام مالك لبيّن الجهد الكبير للحفاظ على صفاء الدين ونقاؤه من لوثات البدع .

ومن ذلك هجر مالك لأهل البدع والأهواء ، ونهيه عن مجالستهم ، أو مكالمتهم والسلام عليهم ، أو الصلاة خلفهم ، أو عيادة مرضاهم .

قال معن بن عيسى : « إن رجلاً بالمدينة يقال له : أبو الجويرية ، يرى الإرجاء ، فقال مالك : لا تناكحوه ! »^(٢) .

وقال في الإباضية القدرية : « لا يصلى على موتاهم ، ولا تتبع جنازتهم ، ولا تعاد مرضاهم »^(٣) .

وقال أيضاً : « بئس القوم أهل الأهواء ! لا تسلم عليهم »^(٤) .

وذلك لأنه يرى أن البدعة أشدّ خطراً وأعظم جرماً من ارتكاب الكبائر ، ولذا قال : « إن العبد لو ارتكب جميع الكبائر بعد أن لا يشرك بالله شيئاً لرجونا له أرفع المنازل ؛ لأن كل ذنب بين العبد وبين ربه هو منه على رجاء ، وصاحب البدعة ليس هو منها على رجاء ، إنما يهوى به في نار جهنم ! »^(٥) .

ومما يبيّن عنايته بمسائل الاعتقاد أيضاً مقالته المشهورة التي أصبحت من القواعد

(١) الاعتصام (١٥٥/٢-١٥٦) . ط. دار المعرفة - بيروت ١٤٠٢هـ .

(٢) اعتقاد أهل السنة للالكائي (٧٢٤/٤-٧٢٥) .

(٣) المدونة (١٨٢/١ ، ٤٨/٢) .

(٤) شرح السنة للبغوي (٢٢٩/١) ، فتح الباري (٤٠/١١) .

(٥) ترتيب المدارك (٤٩/٢) ، والاعتصام (٢٤٨/٢) .

عند أهل السنة في الصفات .

فحين جاءه رجل فقال له : يا أبا عبد الله ! ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ :
كيف استوى ؟ قال مالك : « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان
به واجب ، والسؤال عنه بدعة »^(١) .

وعلى كل حال ؛ فجهود الإمام مالك وأئمة مذهبه في مسائل العقيدة عموماً ،
وتوحيد العبادة خصوصاً كثيرة جداً ، وسوف أورد منها ما يتعلق بالموضوع في ثنايا
هذه الرسالة إن شاء الله تعالى .

(١) عقيدة السلف للصابوني (١٧-١٩ رقم ٢٥ و ٢٦) ، والجامع لابن أبي زيد القيرواني (١٢٣) .

الباب الأول

التوحيد

وفيه فصلان

□ الفصل الأول : معنى التوحيد ، وفيه أربعة مباحث :

◀ المبحث الأول : التوحيد في اللغة والشرع .

◀ المبحث الثاني : معنى « لا إله إلا الله » .

◀ المبحث الثالث : شروط « لا إله إلا الله » .

◀ المبحث الرابع : التوحيد أول دعوة الرسل .

□ الفصل الثاني : توحيد المعرفة ، وفيه مبحثان :

◀ المبحث الأول : إقرار الكفار بتوحيد المعرفة .

◀ المبحث الثاني : الاحتجاج بهذا الإقرار على توحيد العبادة .

الفصل الأول

معنى التوحيد

وفيه أربعة مباحث :

- ◀ المبحث الأول : التوحيد في اللغة والشرع .
- ◀ المبحث الثاني : معنى « لا إله إلا الله » .
- ◀ المبحث الثالث : شروط « لا إله إلا الله » .
- ◀ المبحث الرابع : التوحيد أوّل دعوة الرسل .

المبحث الأول

التوحيد في اللغة والشرع

كلمة (التوحيد) مصدر : وَحَّدَ يوَحِّدُ توحيداً ، ومادة (وَحَّدَ) في اللغة تدور حول انفراد الشيء بذاته ، أو بصفاته ، أو بأفعاله ، وعدم وجود نظير له فيما هو واحد فيه .

وإذا عدّي بالتضعيف فقليل : وَحَّدَ الشيء توحيداً ، معناه : إما جعله واحداً ، أو نسبه إلى الوجدانية^(١) .

والتوحيد : الإيمان بالله وحده لا شريك له .

قال أبو القاسم التيمي^(٢) : « التوحيد على وزن التفعيل ، وهو مصدر : وَحَّدَته توحيداً ... ومعنى وَحَّدَته : جعلته متفرداً عما يشاركه أو يشبهه في ذاته وصفاته . والتشديد فيه للمبالغة ؛ أي : بالغت في وصفه بذلك »^(٣) .

قال الله تعالى - حكاية عن الكفار - : ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴾^(٤) .

(١) انظر : " الصحاح للجوهري (٥٤٧/٢) ط . دار العلم للملايين - بيروت ، ومعجم مقاييس اللغة (٩٠/٦) مادة (وحد) . ط . دار الجليل - بيروت .

(٢) هو إسماعيل بن محمد بن الفضل بن العلي بن أحمد ، القرشي التيمي الطلحي ، الأصبهاني ، الملقب بقوام السنة . قال عنه الذهبي : « الإمام العلامة الحافظ ، شيخ الإسلام » . مات سنة ٥٣٥ . سير أعلام النبلاء (٨٠/٢٠) . وانظر تذكرة الحفاظ (١٢٧٧/٤) ، والمنتظم (٩٠/١٠) .

(٣) الحجة في بيان المحجة (٣٠٥/١) للتيمي .

(٤) سورة ص : ٥ .

وقال الجرجاني^(١) : « التوحيد في اللغة : الحكم بأن الشيء واحد ، والعلم بأنه واحد »^(٢) .

وقال ابن الأثير^(٣) : « في أسماء الله تعالى (الواحد) : هو الفرد الذي لم يزل وحده ، ولم يكن معه آخر »^(٤) .

وقال الأزهرى^(٥) : « أما اسم الله جل ثناؤه (أحد) فإنه لا يوصف شيء بالأحادية غيره ؛ لا يقال : رجل أحد ، ولا درهم أحد ، كما يقال : رجل واحد ، أي : فرد ؛ لأن أحداً صفة من صفات الله التي استأثر بها ، فلا يشركه فيها شيء ... والواحد في صفة الله معناه : أنه لا ثاني له ، يجوز أن ينعت الشيء بأنه

(١) هو علي بن محمد الجرجاني ، المعروف بالشريف الجرجاني ، الحنفي ، فيلسوف ، من كبار العلماء بالعربية ، له نحو خمسين مصنفاً ، منها : " التعريفات " ، وشرح " مواقف " الإيجي ، ورسالة في فن أصول الحديث ، وحاشية على الكشف . وكانت وفاته بشيراز سنة ٨١٦ هـ .

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي (٣٢٨/٥) ، والأعلام للزركلي (٧/٥) .

(٢) كتاب التعريفات (٦٩) . ط دار الكتب العلمية - بيروت ، ط. الأولى ١٤٠٣ هـ .

(٣) هو مجد الدين ، أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني ، الجزري ثم الموصل ، ولد في جزيرة ابن عمر سنة ٥٤٤ هـ ، قرأ في الحديث والعلم والأدب . قال الذهبي : " القاضي الرئيس العلامة البارع الأوحى " . صنف جامع الأصول ، والنهاية ، وشرحاً لمسند الشافعي . وكان ورعاً عاقلاً بهياً ذا بر وإحسان ، توفي سنة ٦٠٦ هـ بالموصل ، وله ٦٣ سنة .

انظر : السير (٤٨٨/٢١) ، وفيات الأعيان لابن خلكان (١٤١/٤) .

(٤) النهاية في غريب الحديث (١٥٩/٥) .

(٥) هو أبو منصور محمد بن أحمد بن منصور الأزهرى ، الهروي ، الأديب الشافعي ، أحد أئمة اللغة والأدب ، ولد في مدينة هراة بخراسان عام ٢٨٢ هـ ، ونسبه إلى جده الأزهر ، عني بالفقه واشتهر به ، ثم غلب عليه التبحر في العربية فرحل في طلبها ، وله غريب اللغة ، وتفسير القرآن ، وغريب الألفاظ . مات سنة ٣٧٠ هـ بمدينة هراة .

انظر : معجم الأدباء (١٦٤/١٧) ، الأعلام (٣١١/٥) .

واحد ، فأما أحد فلا يوصف به غير الله بخلوص هذا الاسم الشريف له جل ثناؤه»^(١) .

والحاصل : أن التوحيد في اللغة : الجزم بالشيء أنه واحد . تقول العرب : واحد وأحد ووحيد ، أي : منفرد ، فالله تعالى واحد ، أي : منفرد عن الأنداد والأشكال في جميع الأحوال .

فقولهم : « وحدت الله » من باب : عظمت الله وكبرته ، أي : علمته عظيماً كبيراً^(٢) .

(١) تهذيب اللغة (١٩٧/٥) للأزهري . ط. الدار المصرية للتأليف والترجمة .

(٢) الحجة في بيان المحجة (٣٠٥/١) لقوام السنة . ط. دار الراية ، ط. الأولى - الرياض ١٤١١هـ .

التوحيد في الشرع :

إن معرفة التوحيد أمر بالغ الأهمية ؛ إذ به يتحقق الدخول في الإسلام ، ولذا كان السلف عليهم السلام من أعرف الناس بمعنى التوحيد الشرعي .

ومما يبين ذلك ما نقله القرطبي^(١) عن ابن المنذر من حكاية الإجماع في ذلك .
قال :

« وترجم ابن المنذر في كتاب الإشراف (ذكر صفة كمال الإيمان) : أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر إذا قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن كل ما جاء به محمد حق ، وأبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام - وهو بالغ صحيح العقل - أنه مسلم ، وإن رجع بعد ذلك وأظهر الكفر كان مرتدًا ، ويجب عليه ما يجب على المرتد »^(٢) .

فما نقله القرطبي رحمه الله عن ابن المنذر من دعوى الإجماع مما يبين أن علماء المالكية اعتنوا بالتوحيد ، وعرفوه ، وبيّنوا معناه كما نقل عن السلف ، ولم يخالفوا في ذلك .

ومعنى التوحيد الذي دلت عليه النصوص الشرعية : هو أن الإقرار بشهادة أن

(١) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي ، المفسر ، كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا ، المشغولين بما يعينهم من أمور الآخرة ، أوقاته معمورة ما بين توجه وعبادة وتصنيف ، من كتبه : الجامع لأحكام القرآن ، عشرون جزءاً ، يُعرف بتفسير القرطبي ، والأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، والتذكار في أفضل الأذكار ، والتذكرة بأحوال الموت وأحوال الآخرة ، مات سنة ٦٧١ هـ .

انظر : الدياج (٤٠٦) ، ونفح الطيب (٢١٠/٢) .

(٢) تفسير القرطبي (٣٣٢/٧) ، والإجماع (١٥٤) لابن المنذر . دار طيبة .

لا إله إلا الله أصل التوحيد ؛ كما قال تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾^(١) ، وجعل النبي ﷺ الدخول في الإسلام متوقفاً على الإقرار بالشهادة ؛ كما في قوله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ... »^(٢) .

ودرج على هذا سلف الأمة جيلاً بعد جيل ، وسلكه العلماء في بيان معنى التوحيد ، وأنه الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله^٣ .

وفي هذا المبحث سأنقل كلام المالكية في بيان معنى التوحيد في الشرع ، مراعيًا التسلسل التاريخي في الغالب^(٤) ، وقد أقدم بعض الأقوال ؛ لقوتها ودلالاتها على المعنى المقصود ، وإن تأخر القائل بها ، مبتدئاً بإمام المذهب الإمام مالك ، وهكذا ...

(١) سورة التوبة : ٣١ .

(٢) الحديث خرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ برقم (٢٥) ، فتح الباري (٧٥/١) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ، برقم (٣٢) ، صحيح مسلم (٥١/١) .

(٣) ولا يكفي مجرد الإقرار ، بل لا بدّ من تحقيق معنى « لا إله إلا الله » ، كما قال ﷺ : « من قال لا إله إلا الله ، وكفر بما يُعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله ﷻ » .

ولهذا لا تنفع هذه الكلمة بمجرد التلفظ بها ، ولا بمعرفة المعنى ، ولا بالإقرار بذلك ، ولا بعدم الإشراك بالله ، بل لا بدّ أن يُضاف إلى كل ما سبق الكفر بما يُعبد من دون الله ، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه .

وقد أشار بعض المالكية إلى هذا المعنى في كلامهم عن شروط « لا إله إلا الله » ، ويأتي .

(٤) وذلك بحسب سنة الوفاة لكل علم .

ومن ذلك ما جاء عن الإمام مالك في بيان المعنى الشرعي للتوحيد :

١— قال المزني^(١) : سمعت الشافعي^(٢) يقول : سئل مالك عن الكلام والتوحيد ، فقال : محال أن نطن بالنبي ﷺ أنه علم أمته الاستنجاء ، ولم يعلمهم التوحيد ، والتوحيد ما قاله النبي ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله » . فما عصم به الدم والمال حقيقة التوحيد^(٣) .

٢— ويبيّن الإمام مالك في كلامه عن المجزئ من الرقاب في الكفارات أنه لا بد أن تكون الرقبة مؤمنة ، وذلك بالإقرار بالشهادتين^(٤) ، فقال :
« لا يجوز في شيء من الكفارات في العتق إلا مؤمنة » .

وروى مالك بسنده عن ابن مسعود ﷺ : أن رجلاً من الأنصار أتى إلى

(١) هو أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن مسلم المزني ، صاحب الإمام الشافعي ، من أهل مصر ، كان عالماً زاهداً ، مجتهداً مناظراً ، محجاً غواصاً على المعاني الدقيقة ، صنف كتباً كثيرة في مذهب الشافعي ، منها : الجامع الصغير ، ومختصر المختصر ، والمنثور ، وكتاب الوثائق . مات سنة ٢٦٤هـ . انظر : طبقات فقهاء الشافعية لابن قاضي شعبة (٢٧/١) ، وفيات الأعيان (٢١٧/١) .

(٢) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي ، أبو عبدالله ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، إليه نسبة الشافعية كافة . قال الذهبي : الإمام ، عالم العصر ، ناصر الحديث ، فقيه الملة ، صنف التصانيف ودون العلم ، وردّ على الأئمة متبّعاً الأثر ، وصنف في أصول الفقه وفروعه ، وبعّد صيته ، وتكاثر عليه الطلبة . برع في الشعر واللغة وأيام العرب ، ثم أقبل على الفقه والحديث ، وأفقّ وهو ابن عشرين سنة ، وكان ذكياً مفرطاً ، وله كتاب الأم في الفقه في سبع مجلدات ، والمسند في الحديث ، وأحكام القرآن ، والرسالة في أصول الفقه . مات سنة ٢٠٤هـ .

انظر : السير (٥/١٠) ، والأعلام (٢٦/٦) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٦/١٠) .

(٤) المدونة (٧٥/٣) ، وفي الموطأ (٧٧٨/٢) : باب ما لا يجوز في العتق في الرقاب الواجبة .

رسول الله ﷺ بوليدة سوداء ، فقال : يا رسول الله ! إن عليّ رقبة مؤمنة ، فإن كنت تراها مؤمنة أعتقها ؟ فقال لها رسول الله ﷺ : « أتشهدين أن لا إله إلا الله ؟ » . فقالت : نعم . قال : « أتشهدين أن محمداً رسول الله ؟ » قالت : نعم . قال : « أفتؤمنين بالبعث بعد الموت ؟ » . قالت : نعم . قال : « أعتقها »^(١) .

فرواية مالك لهذا الحديث تبين أن الإقرار بالشهادتين مما يصدق به وصف الإيمان وينبئ عن حقيقة التوحيد .

٣ — قال ابن القاسم : « وسمعت مالكا قال : بلغني أن رجلاً من المسلمين في بعض مغازي النبي ﷺ حمل على رجل من المشركين ، فلما علاه بالسيف قال المشرك : لا إله إلا الله ! فقال الرجل : إنما تتعوذ بها من القتل ، فقتله . فأتى إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال له رسول الله ﷺ : « كيف لك بلا إله إلا الله ؟ ! » . فقال : يا رسول الله ! إنما كان يتعوذ بها من القتل . فما زال يعيدها على النبي ﷺ ، والنبي يعيد : « فكيف لك بلا إله إلا الله ؟ ! » ، فقال الرجل : وددت أني أسلمت في ذلك اليوم ، وأنه بطل ما كان من عملي قبل ذلك ، وأني استأنفت من ذلك اليوم^(٢) »^(٣) .

فرواية ابن القاسم عن مالك تبين أن الإقرار بالشهادتين يكفي لعصمة دم المشرك ، وهو يبين معنى التوحيد ؛ إذ به يدخل في الإسلام ويقبل منه .

(١) الحديث رواه مسلم برواية أخرى ، وفيها : أن النبي ﷺ سأل الجارية بقوله : " أين الله ؟ " . قالت : في السماء .. كتاب المساجد (٥٣٧) (٣٨١/١-٣٨٢) .

(٢) وهو حديث بعث النبي ﷺ أسامة ﷺ إلى الحرقات من جهينة : خرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب بعث أسامة بن زيد إلى حرقات جهينة ، برقم (٤٢٦٩) ، فتح الباري (٥١٧/٧) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب قتل الكافر بعد أن قال : لا إله إلا الله ، برقم (٩٦) صحيح مسلم (٩٦/١) .

(٣) البيان والتحصيل (٢١٦/١٧) . ط. دار الغرب ، ط. الأولى ١٤٠٨هـ — لبنان .

٤— ذكر الشافعي عمّن أخذ عنه - مثل مالك وغيره - في بيان السنة التي كانوا عليها قوله :

« القول في السنة التي أنا عليها ، ورأيت أصحابنا عليها ؛ أهل الحديث الذين رأيتهم وأخذت عنهم ، مثل سفيان^(١) ، ومالك ، وغيرهم : الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ... »^(٢) .

وبهذا يتبين لنا التوحيد الشرعي لدى الإمام مالك رحمه الله ، وهو : الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله .

٥— وابن القاسم في هذا كمالك رحمه الله ؛ فقد روى عن مالك أنه سأله :

« قلت : كيف الإسلام الذي إذا أجابت إليه الجارية حل وطؤها والصلاة عليها ؟ قال : قال مالك : إذا شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ... »^(٣) .

٦— وذكر أيضاً في مسألة صبيان المشركين ، فيما قاله سحنون^(٤) :

(١) هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله الثوري ، الكوفي ، كان إماماً في علم الحديث وغيره من العلوم ، وأجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته ، وهو أحد الأئمة المجتهدين . قال ابن المبارك : لا نعلم على وجه الأرض أعلم من سفيان الثوري . مات سنة ١٦١ هـ . انظر : طبقات ابن سعد (٣٧١/٦) ، وفيات الأعيان (٣٨٦/٢) .

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (١٦٥) .

(٣) المدونة (١٧٩/١) .

(٤) هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي ، الملقب بسحنون ، قاض فقيه ، انتهت إليه رئاسة العلم في المغرب ، وانتشرت إمامته في المشرق والمغرب ، وسلم له الإمامة أهل عصره واجتمعوا على فضله وتقديمه ، ومناقبه كثيرة . روى المدونة عن ابن القاسم عن الإمام مالك . مات سنة ٢٤٠ هـ . انظر : ترتيب المدارك (٤٥/٤) ، والأعلام (٥/٤) .

« قلت لابن القاسم : أرأيت من نزل بهم أهل الشرك بساحلنا ، فباعوهم منا وهم صبيان^(١) ، فماتوا قبل أن يتكلموا بالإسلام بعد ما اشتريناهم ؛ هل تحفظ من مالك فيهم شيئاً ؟ قال : نعم ؛ لا يصلى عليهم حتى يجيئوا إلى الإسلام »^(٢) .

٧— وذكر يحيى بن يحيى الليثي^(٣) الرواية عن مالك فيما يجزئ من الرقاب ، فذكر حديث الجارية ، مما يبين رأيه فيما يصدق به وصف الإيمان والتوحيد^(٤) .

٨— وأما سحنون فقد ذكر ابن رشد^(٥) مذهبه في اشتراط الإجابة . فقال :

(١) المراد بالصبي والله أعلم : صغير السن الذي لم يبلغ ، لحديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عند البخاري : " أن رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزي ، ثم عرضني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني " . قال نافع : فقدمت على عمر بن عبدالعزيز وهو خليفة فحدثته الحديث فقال : إن هذا الحد بين الصغير والكبير ، وكتب لعماله : أن يفرضوا لمن بلغ خمس عشرة . فتح الباري (٢٧٦/٥) .

وفي رواية الترمذي قال : " هذا حد ما بين الذرية والمقاتلة " . عارضة الأحوذى (٢٠٤/٧) . ط . دار الفكر .

(٢) المدونة (١٧٩/١) .

(٣) هو يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس الليثي ، أبو محمد ، من مصمودة طنجة ، سمع يحيى مالكا والليث ، وحج ، إليه انتهت الرياسة في العلم بالأندلس ، وكان مالك يعجبه سمع يحيى وعقله ، وسماه العاقل ، وكان ثقة عاقلاً حسن الهدي والسمت ، يشبه سمته سمع مالك . مات سنة ٢٣٤هـ ، وقيل : ٢٣٣هـ ، والله أعلم .

انظر : ترتيب المدارك (٣٧٩/٣) ، والدياج (٤٣١) .

(٤) موطأ مالك برواية يحيى بن يحيى الليثي (٣٢٩-٣٣١) . دار الغرب - ط . الثانية بيروت ١٤١٧هـ .

(٥) هو محمد بن أحمد بن رشد (الجد) ، فقيه الأندلس والمغرب ، وقاضي الجماعة بقرطبة ، معترف له بصحة النظر وجودة التأليف ، بصيراً بالأصول والفروع والفرائض والتفنن في العلوم ، وكانت الدراية أغلب عليه من الرواية ، كثير التصنيف ، ألف كتابه : البيان والتحصيل في شرح كتاب العتي المستخرج من كتاب الأسمعة ، وهو كتاب عظيم نيف على عشرين مجلداً ، وكتاب المقدمات ، =

« ومذهب القاسم ، وروايته عن مالك أن الصغير من سبي أهل الكتاب لا يجبر على الإسلام ، ولا يحكم له بحكمه حتى يجيب إليه »^(١) .

ثم قال : « وهو مذهب سحنون » .

فتبين معنى الإجابة عندهم ؛ وهو الإقرار بالشهادة ، وبها يحكم بالدخول في الإسلام ، وهو معنى التوحيد الشرعي .

٩— وذكر ابن رشد : « مذهب القاسم وروايته عن مالك : أن الصغير من سبي أهل الكتاب لا يجبر على الإسلام ، ولا يحكم له بحكمه حتى يجيب إليه »^(٢) .

وقد سبق^(٣) روايته حديث الجارية ، ومعنى الإجابة : الإقرار بالشهادتين للدخول في الإسلام .

فروايته وعدم اعتراضه يدل على أنه يرى ذلك^(٤) ، وهو معنى التوحيد .

١٠— وذكر ابن عبد البر^(٥) أن الإقرار بالشهادتين شرط للخروج من الكفر ،

= وكتاب اختصار الكتب المبسوطة . قال القاضي عياض : وكانت الرحلة إليه للتفقه من أقطار الأندلس مدة حياته إلى أن توفي سنة ٥٢٠هـ .

انظر : الغنية (٥٤) . ط. دار الغرب - بيروت ، ط. الأولى ١٤٠٢هـ ، وبغية الملتبس للضبي (٥١) .

(١) البيان والتحصيل (٢/٢١٣-٢١٤) .

(٢) البيان والتحصيل (٢/٢١٣-٢١٤) .

(٣) انظر ص ٣١ .

(٤) ذكر ابن رشد رأي الباجي في مسألة أول واجب ، ثم تعقبه وردّ عليه ، مما يبين أنه يتعقب ما لا يراه .

انظر المقدمات الممهدة (١/٥٨) .

(٥) يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالير النمري ، الحافظ شيخ علماء الأندلس وكبير محدثيها في وقته ،

وأحفظ من كان بها لسنة مشهورة ، علا ذكره في الأقطار ، ورحل إليه الناس وسمعوا منه ، ألف

توالمف كففرة مفففة ، منها : كتاب التمهفد ، وهو عشرون مجلداً ، وكتاب الاستذكار لمذاهب =

فعند حديث الجارية ، واشترط الإيمان في العتق . قال :

« وفي حديث مالك هذا من الفقه أن من شرط الشهادة التي بها يخرج من الكفر إلى الإيمان مع الإقرار بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله : الإقرار بالبعث بعد الموت »^(١) .

فنص على أنه لا بد للدخول في الإسلام من الإقرار بالشهادة .

١١ — وقال أبو الوليد الباجي^(٢) عند شرحه لحديث الجارية :

« وذلك يقتضي أنه حكم بكونها مؤمنة ، دون أن يسألها عن نظر واستدلال ، وكذلك كل من أتى ليؤمن أخذنا عليه الشهادتين ، فإذا أقرّ بهما حكمنا بإيمانه ، ولم نسأله عن نظره واستدلاله »^(٣) .

= علماء الأمصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار ، وكتاب الاستيعاب ، وغيرها . مات سنة ٤٦٣هـ .

انظر : ترتيب المدارك (١٢٨/٨) ، والدياج (٤٤٠) .

(١) فتح البر بالترتيب الفقهي لتمهيد ابن عبد البر (٣٨/٢) ط . مجموعة النفائس الدولية - مكتبة الرياض الحديثة ، ط . الأولى ١٤١٦هـ . وانظر : الاستذكار (١٧١-١٧٠/٢٣) ، مؤسسة الرسالة ط . الأولى ١٤١٤هـ .

(٢) هو سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث الباجي ، رحل إلى المشرق نحو ثلاثة عشر عاماً ، وجل قدره بالمشرق والأندلس ، كان فقيهاً نظاراً محققاً محدثاً متكلماً أصولياً فصيحاً شاعراً حسن التأليف ، وكان وقوراً بهياً مهيباً جيد القريحة ، حسن الإشارة ، له من التصانيف : كتاب المنتقى في شرح الموطأ ، عشرين مجلداً ، وكتاب المذهب في اختصار المدونة ، وإحكام الفصول في أحكام الأصول ، وكتاب الإشارة في الأصول ، وكتاب الحدود ، وغيرها . مات سنة ٤٧٤هـ ، وقيل : ٤٩٤هـ .

انظر : ترتيب المدارك (١١٧/٨) ، والدياج (١٩٧) .

(٣) المنتقى شرح الموطأ (٢٧٤/٦) ط . الأولى - مطبعة السعادة ، مصر ١٣٣٢هـ .

فجعل الدخول في الإسلام متوقفاً على الإقرار بالشهادتين ، وهو معنى التوحيد .

١٢ — وقال الطرطوشي^(١) :

« اعلّموا - أرشدكم الله تعالى - أن (لا إله إلا الله) هي العروة الوثقى ، ومركب النجاة ، وسفينة نوح ؛ من عدل عنها هلك ، ومن ركبها خلص ونجا ، وهي قطب الإسلام ، وقاعدة الأديان ، وما خلق الجن والإنس إلاّ ليعبدوه بها^(٢) .

ثم ذكر الأحاديث مبتدئاً بحديث : « أمرت أن أقاتل الناس ... » ، ثم قال :

١٣ — « وحسبك شرفاً وإجلالاً لهذه الكلمة : أن النبي ﷺ قال : « لَقِّنُوا موتاكم : لا إله إلاّ الله »^(٣) . » .

فمفتاح الدخول في الإسلام (لا إله إلاّ الله) ، ونخاتم الخروج من الدنيا والقدوم على الله تعالى (لا إله إلاّ الله)^(٤) .

فذكر أن كلمة التوحيد هي « لا إله إلاّ الله » ، وأنها مفتاح الدخول في الإسلام ، ولا يصح التوحيد إلاّ بها ، مما يجلي المعنى الشرعي للتوحيد .

(١) هو أبو بكر بن محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الأندلسي ، الطرطوشي ، الفقيه الزاهد ، رحل إلى المشرق وتفقه على الشاشي الشافعي والجرجاني ، وسكن الشام مدة ودرس بها . له من التصانيف : سراج الملوك ، وكتاب بر الوالدين ، وكتاب الحوادث والبدع . مات سنة ٥٢٠هـ . انظر : السير (٤٩٠/١٩) ، وفيات الأعيان (٢٦٢/٤) .

(٢) الدعاء المأثور وآدابه (١٨٥) ط. الأولى ١٤٠٩هـ ، دار الفكر المعاصر . بيروت - لبنان .

(٣) الحديث خرجه مسلم في كتاب الجنائز ، باب تلقين الموتى لا إله إلاّ الله ، برقم (٩١٦) (٦٣١/٢) .

(٤) الدعاء المأثور وآدابه (١٨٧) .

١٤ — وأما أسد بن الفرات^(١) فقد أنكر على بشر المريسي^(٢) تأليفه كتاباً في التوحيد ، مبيناً معنى التوحيد الشرعي .

جاء في ترجمته : « وكان رحمه الله تعالى يكفر بشراً المريسي ، ويتكلم فيه بأقبح الكلام ، وبلغه أنه وضع كتاباً وسماه بـ « كتاب التوحيد » ... فقال أسد : أوجهل الناس التوحيد حتى يضع لهم بشر فيه كتاباً ؟! هذه نبوة ادّعاها ! »^(٣) .

فهذا يبين أن أسداً رحمه الله أراد التوحيد الشرعي ؛ إذ إن الناس لا يجهلون الشهادتين .

١٥ — وعرف الباقلاني^(٤) التوحيد بقوله :

(١) هو أسد بن الفرات بن سنان ، مولى بني سليم ، قاضي القيروان ، وأحد القادة الفاتحين ، أصله من خراسان ورحل أبوه إلى القيروان في جيش الأشعث ، فنشأ بتونس ، ورحل إلى المشرق في طلب الحديث ، لزم ابن القاسم وأخذ عنه الأسدية وقدم بها إلى القيروان ، وسمعا منه خلق كثير مع الموطأ ، وانتشرت إمامته ، كان شجاعاً حازماً صاحب رأي ، استعمله زيادة الله الأغلي على جيشه ، وهو أول من فتح صقلية ، ومات بها من جراحات أصابته سنة ٢١٣هـ .

انظر : رياض النفوس (٢٦٤/١) ، والدياج (١٦١) ، والأعلام (٢٩٨/١) .

(٢) هو بشر بن غياث بن أبي كريمة العدوي مولاهم ، البغدادي المريسي ، نظر في الكلام فغلب عليه ، وانسلخ من الورع والتقوى ، وجرّد القول بخلق القرآن ودعا إليه ، حتى كان عين الجهمية في عصره وعالمهم ، فمقتة أهل العلم ، وكفره عدة . مات سنة ٢١٨هـ ، وقيل : ٢١٩هـ .

انظر : السير (١٩٩/١٠) ، وتاريخ بغداد (٦١/٧) .

(٣) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية (٢٦٤/١) .

(٤) هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم ، المعروف بالباقلاني ، البصري المتكلم المشهور ، كان على مذهب الأشعري ، مؤيداً اعتقاده وطريقته ، انتهت إليه رئاسة المالكية في وقته ، وكان موصوفاً بجودة الاستنباط وسرعة الجواب ، وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة في علم الكلام وغيره . مات سنة ٤٠٣هـ .

انظر : السير (١٩٠/١٧) ، ووفيات الأعيان (٢٧١/٤) .

((التوحيد له : هو الإقرار بأنه ثابت موجود ، وإله واحد فرد^(١) معبود ، ليس كمثلته شيء ، على ما قرر به قوله تعالى : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾^(٣)))^(٤).

فتعريفه يجلي المعنى الشرعي ؛ إذ نص على أن التوحيد هو الإقرار بالشهادة ، كما في الآية الكريمة التي استدل بها .

١٦ — وبنحو ذلك قال أبو عمرو الداني^(٥) في بيان معنى التوحيد الشرعي^(٦).

١٧ — وأما ابن نصر البغدادي^(٧) فقد بين أن المرتد إذا تاب تقبل توبته ، واستدل

(١) إطلاق وصف الفرد على الله ﷻ لم يرد . قال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد ﴾ . وجاء في حديث عبدالله بن بريدة عن أبيه قال : سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو ويقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فقال : " والذي نفسي بيده ، لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى " . قال الترمذي : حديث صحيح . السنن (٣٤٧٥) في الدعوات ، باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ .

(٢) سورة البقرة : ١٦٣ .

(٣) سورة الشورى : ١١ .

(٤) الإنصاف للباقلاني (٢٣) . ط . الثانية ، مؤسسة الخانجي ١٣٨٢ هـ .

(٥) هو الحافظ المجدد المقرئ الحاذق ، عالم الأندلس ، أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد الأندلسي القرطبي ، ثم الداني . قال الحميدي : هو محدث مكثّر ، ومقرئ متقدم ، سمع بالأندلس والمشرق . وقال ابن بشكوال : كان أبو عمرو أحد الأئمة في علم القرآن رواياته وتفسيره ومعانيه وطرقه وإعرابه ، وله معرفة بالحديث وطرقه ، وأسماء رجاله ونقلته ، وكان حسن الخط ، جيد الضبط ، من أهل الذكاء والحفظ والتفنن في العلم ، ديناً فاضلاً ورعاً سنياً ، مات سنة ٤٤٤ هـ .

انظر : السير (٧٧/١٨) ، ومعجم الأدباء (١٢٤/١٢) .

(٦) انظر الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة والاعتقادات وأصول الديانات (٢٣) .

(٧) هو عبدالوهاب بن علي بن نصر الثعلبي البغدادي ، أبو محمد ، قاض من فقهاء المالكية . قال ابن فرحون : كان حسن النظر ، جيد العبارة ، نظاراً ناصراً للمذهب ، ثقة حجة ، له نظم ومعرفة =

بآيات من الكتاب ، وبقوله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم ... »^(١) .

فجعل الإقرار بالشهادة يكفي لعصمة الدم والرجوع مرة أخرى إلى الإسلام بعد الردّة ، وهذا يجلي المعنى الشرعي للتوحيد .

١٨ — وأما ابن بطل^(٢) فعند شرحه لحديث عبادة : أن النبي ﷺ قال : « من تعارّ من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، الحمد لله ، وسبحان الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . ثم قال : اللهم اغفر لي - أو دعا - ؛ استجيب له ، فإن توضّأ قبلت صلاته »^(٣) . قال :

« وفيه ما وعد الله عباده على التيقظ من نومهم لهجة ألسنتهم بشهادة التوحيد

= بالأدب ، ولي قضاء بغداد ، ورحل إلى الشام ، ثم توجه إلى مصر فعملت شهرته ، توفي فيها . له كتاب التلقين ، وعيون المسائل ، وكتاب المعرفة على مذهب عالم المدينة . مات سنة ٤٢٢هـ .
انظر : الدياج (٢٦١) ، والأعلام (٤/١٨٤) .

(١) المعونة على مذهب عالم المدينة (٢/٢٩٥) . دار الكتب العلمية - بيروت . ط. الأولى ١٤١٨هـ .
(٢) هو علي بن خلف بن عبد الملك بن بطل البكري ، القرطبي ثم البلنسي ، ويعرف باللجام ، عالم بالحديث ، له شرح لصحيح البخاري ، والاعتصام في الحديث ، وكتاب في الزهد والرفائق . قال الذهبي : كان من كبار المالكية . مات سنة ٤٤٩هـ .

انظر : السير (٤٧/١٨) ، والأعلام (٤/٢٨٥) .
(٣) خرجه البخاري في كتاب التهجد ، باب فضل من تعار من الليل ، برقم (١١٥٤) فتح الباري (٣/٣٩) ، والترمذي في كتاب الدعوات ، باب ما جاء في الدعاء إذا انتبه من الليل برقم (٣٤١٤) (٥/٤٨٠) ، وأبو داود في باب ما يقول الرجل إذا تعار من الليل برقم (٥٠٦٠) سنن أبي داود (٧١١) ، والدارمي في باب ما يقول إذا انتبه من نومه برقم (٢٦٩٠) (٢/٢٠٢) .

له ، والربوبية ، والإذعان له بالملك ، والاعتراف له بالحمد على جزيل نعمه التي لا تحصى»^(١) .

فذكر التوحيد ، وأنه : شهادة أن لا إله إلا الله ، وهو معنى التوحيد الشرعي .

١٩ — وعند شرحه حديث : « أمرت أن أقاتل الناس ... » ، قال :

« فثبت أن الإسلام لا يكون إلا بالمعاني التي تدل على الدخول في الإسلام ؛ وهو الإقرار بالشهادتين ، وترك سائر الملل » .

٢٠ — وفي شرحه لحديث سيّد الاستغفار ، وعند قوله في الحديث : « وأنا على

عهدك ووعدك ما استطعت »^(٢) قال :

« يريد العهد الذي أخذه الله على عباده ؛ حيث أخرجهم وأشهدهم على أنفسهم : ألسن بربكم ؟ فأقرّوا له بالربوبية ، وأذعنوا له بالوحدانية ، وبالوعد ما قال على لسان نبيه : أن من مات لا يشرك بالله شيئاً ، وأدّى ما افترض عليه أن يدخله الجنة ... »^(٣) .

(١) شرح صحيح البخاري (١٤٧/٣-١٤٨) .

(٢) عن شداد بن أوس أنّ رسول الله ﷺ قال : " سيد الاستغفار أن يقول : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شرّ ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة " .

أما سبب تسميته بسيد الاستغفار فكما قال الطيبي : " لما كان هذا الدعاء جامعاً لمعاني التوبة كلها ، استعير له اسم السيد ، وهو في الأصل الرئيس الذي يقصد في الحوائج ويرجع إليه في الأمور " . فتح الباري (٩٩/١١) .

(٣) شرح صحيح البخاري (٧٦/١٠) .

فمراده بالوحدانية : توحيد العبادة ؛ لأمرين :

أ — تقدمه توحيد الربوبية .

ب — وكذلك ما جاء في الحديث عن النبي ﷺ : « يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا ؟ » . قال : « فيقول : نعم ! » . قال : « فيقول : قد أردتُ منك أهونَ من ذلك ، قد أخذتُ عليك في ظهر آدم ألا تشرك بي شيئاً فأبيتَ إلا أن تشرك بي شيئاً »^(١) .

٢١ — وبين أن حقن الدم بالأذان ، لأجل ما فيه من الشهادة بالتوحيد ، فقال :

« إنما يحقن الدم بالأذان لأن فيه الشهادة بالتوحيد لله ، والإقرار بالرسول »^(٢) .

٢٢ — وبين سبب هروب الشيطان عند سماع الأذان ، فقال :

« إنما يهرب - والله أعلم - من اتفاق الكل على الإعلان بشهادة التوحيد ، وإقامة الشريعة ، كما يفعل يوم عرفة لما يرى من الكل على شهادة التوحيد لله تعالى ، وتنزل الرحمة عليهم ، يئس من أن يردهم عما أعلنوا من ذلك ، وأيقن بالخبية ، بما تفضل الله عليهم من ثواب ذلك »^(٣) .

فنص على أن التوحيد هو شهادة أن لا إله إلا الله ، وبه تحقن الدماء ، مما يجلي المعنى الشرعي .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٠٢/٣) برقم (١٢٢٨٩) ، والبخاري في باب أحاديث الأنبياء ، الفتح (٣٦٣/٦) برقم (٣٣٣٤) ، ومسلم في باب طلب الكافر الفداء بماء الأرض ذهباً (٢١٦٠/٤) برقم (٢٨٠٥) .

(٢) شرح صحيح البخاري (٢٣٩/٢) .

(٣) شرح صحيح البخاري (٢٣٤/٢) .

٢٣— وقال المازري^(١) عند شرحه حديث : « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله »^(٢) :

« إن الشيطان يتعرض للإنسان ليفسد اعتقاده ، فيحتاج إلى مذكّر ومنبه له على التوحيد .

ويحتمل أن يريد ﷺ ليكون ذلك آخر كلامه ، فيحصل له ما وعد به ﷺ في الحديث الآخر : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله ، وجبت له الجنة »^(٣) «^(٤) .
فنص على أن « لا إله إلا الله » هي التوحيد الذي يحتاجه المؤمن عند فراقه الدنيا .

٢٤— وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنْهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾^(٥) قال ابن عطية^(٦) : « لا إله إلا الله : هي كلمة الحق ، والعروة

(١) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر بن محمد التميمي المازري ، الفقيه المالكي المحدث ، أحد الأعلام المشار إليهم في حفظ الحديث ، اطلع على علوم كثيرة من الطب والحساب والأدب ، وغير ذلك ، وإليه كان يفزع في الفتوى في الطب والفقه ، شرح صحيح مسلم شرحاً جيّداً سماه المعلم بفوائد مسلم ، وشرح كتاب التلقين لابن نصر . مات سنة ٥٣٦هـ .

انظر : الديباج (٣٧٤) ، ووفيات الأعيان (٢٨٥/٤) .

(٢) سبق تخريجه ص ٣٦ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦٣/٥) من حديث معاذ ﷺ ، والبخاري في مسنده (٧٧/٧) برقم (٢٦٢٥) . والحديث صحيح ، فصالح بن أبي غريب قال عنه ابن حجر : مقبول ، ووثقه ابن حبان ، وباقي رجال الإسناد ثقات ، كما ذكره الأرناؤوط في حاشية مسند الإمام أحمد (٣٦٣/٥) .

(٤) المعلم بفوائد مسلم (٣٢٣/١) . ط. الثانية ١٩٩٢م - دار الغرب الإسلامي .

(٥) سورة الصافات : ٣٥ .

(٦) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي ، أبو محمد ، مفسّر فقيه ، أندلسي من أهل غرناطة ، كان فقيهاً عالماً في التفسير والأحكام والحديث والنحو واللغة والأدب ، له نظم ونثر ، وكان غاية في الدهاء والذكاء ، وكان يكثر الغزوات ، وله : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، في عشر مجلدات . مات سنة ٥٤٢هـ . انظر : الديباج (٢٧٥) ، والأعلام (٢٨٢/٣) .

الوثقى » . ثم استدل بحديث أبي طالب ، وقول النبي ﷺ له : « أي عم ! قل : لا إله إلا الله ؛ أحاج لك بها عند الله »^(١) ، ثم قال :

« وبفرضه عليه الصلاة والسلام قول : لا إله إلا الله ، جرت السنة في تلقين الموتى المحتضرين ليخالفوا الكفرة ، ويخضعوا لها »^(٢) .

فبين أن لا إله إلا الله هي كلمة الحق والعروة الوثقى ، ومراده بذلك التوحيد ، ويبيّن ذلك أنه ذكر أنها التي يتم تلقين الموتى بها عند الموت ، لمخالفة الكفرة الذين لم يوحدوا الله ﷻ ولم يعبدوه .

٢٥ — وأما ابن العربي^(٣) فعند شرحه حديث : « لو يعلم الناس ما في النداء ... »^(٤) قال :

« أما فضل النداء فمعلوم ، وأصوله أربعة : أحدها : ما فيه من توحيد الله تعالى وتعظيمه ، والشهادة لرسوله ، والدعاء لعبادته »^(٥) .

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ برقم (٤٦٧٥) ، الفتح (٣٤١/٨) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع وهو الغرغرة ، برقم (٢٤) (٥٤/١) .

(٢) المحرر الوجيز (٣٥٠/١٢) . ط. القطرية الأولى - الدوحة ١٤٠٢هـ .

(٣) أبو بكر محمد بن عبدالله بن محمد المعافري ، الإشبيلي المالكي ، قاض من حفاظ الحديث ، كان فصيحا أدبيا شاعرا ، كثير الخير ، مليح المجلس . صنف كتباً في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ ، ومنها : عارضة الأحوزي في شرح الترمذي ، وأحكام القرآن ، والعواصم من القواصم ، والقبس في شرح موطأ مالك بن أنس ، وغيرها .

انظر : الديباج (٣٧٦) ، والأعلام (٢٣٠/٦) .

(٤) أخرجه البخاري عن أبي هريرة في كتاب الأذان ، باب الاستهام في الأذان . الفتح (٩٦/٢) برقم (٦١٥) ، ومسلم في كتاب الصلاة ، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها (٣٢٣/١) برقم (٤٣٧) .

(٥) القبس (١٩٨/١) ط. دار الغرب الإسلامي - ط. الأولى ١٩٩٢م ، بيروت . لبنان .

٢٦- وقال - في معرض كلامه عن التوحيد - :

« وهذا المعنى وقع البيان في قوله ﷺ لأبيّ بن كعب : « أي آية في القرآن أعظم ؟ » . قال : « الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم » . قال : « ليهنك العلم يا أبا المنذر ! »^(١) .

وإنما كانت أعظم آية لأنها توحيد كلها ، كما صار قوله ﷺ : (أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلاّ الله ...) الحديث^(٢) . أفضل الذكر لأنها كلمات حوت جميع علوم التوحيد ... فإن الله ﷻ جمع التوحيد كله في آية الكرسي ... »^(٣) .

٢٧- وفي حديثه عن المجزئ من الرقاب في العتق ، بعد استشهاده بحديث الجارية وقول النبي ﷺ فيه : « أتشهدين أن لا إله إلاّ الله ؟ » قال :

« بئن ﷺ شرط الإيمان ، وحقيقة الإيمان ... » . ثم قال :

« ويثبت الإيمان بما أثبتته النبي ﷺ ، وهي شهادة الحق : لا إله إلاّ الله محمد

(١) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٥٥٦/١) برقم (٨١٠) ، والإمام أحمد في المسند (١٤٢/٥) برقم (٢١٢٧٨) .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات ، باب في دعاء يوم عرفة (٥٧٢/٥) برقم (٣٥٨٥) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٨٤/٤) برقم (٨٣٩١) ، وعبدالرزاق في مصنفه (٣٧٨/٤) برقم (٨١٢٥) . قال الألباني رحمه الله بعد إيراده شواهد للحديث : " وجملّة القول أنّ الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد " . اهـ السلسلة الصحيحة (٨/٤) برقم (١٥٠٣) ، وصحيح الترغيب والترهيب (٢٢٦/٢) . فالحديث حسن لغيره .

(٣) القبس (٢٣٢/١-٢٣٣) . تحقيق د. محمد عبدالله ولد كريم ، ط. دار الغرب الإسلامي ، ط. الأولى ١٩٩٢م - بيروت ، لبنان .

رسول الله ...»^(١) .

فسمى ما في النداء - من قول المؤذن : أشهد أن لا إله إلا الله - توحيداً ، وبين أنها حقيقة الإيمان وشرطه ، مما يجلي معنى التوحيد الشرعي .

٢٨ — وذكر القاضي عياض^(٢) أن عصمة الدم تحصل بقول : لا إله إلا الله ، فقال :

« اختصاص عصمة النفس والمال بمن قال : لا إله إلا الله ، تعبير عن الإجابة إلى الإيمان وأن المراد بهذا مشركو العرب وأهل الأوثان .. فأما غيرهم ممن يقرّ بالتوحيد فلا يكتفى بعصمته بقول : لا إله إلا الله ، إذ كان يقولها في كفره »^(٣) .

وبين عند حديث : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأفضلها قول : لا إله إلا الله ... »^(٤) أهمية التوحيد ، فقال :

٢٩ — « وقد نبه ﷺ على أفضلها بالتوحيد المتعين على كل مسلم ، الذي لا يصح شيء من هذه الشعب إلا بعد صحته »^(٥) .

(١) القبس (٩٦٦/٣) .

(٢) هو القاضي عياض بن موسى بن عمرو ، اليحصبي السبتي ، أبو الفضل ، عالم المغرب ، إمام أهل الحديث في وقته ، كان عالماً بالنحو واللغة وكلام العرب وأنسابهم وأيامهم ، بصيراً بالأحكام ، عاقداً للشروط ، حافظاً لمذهب مالك رحمه الله ، شاعراً مجيداً ، خطيباً بليغاً ، صبوراً حليماً ، جميل العشرة ، جواداً ، سمحاً كثير الصدقة ، صلباً في الحق . من تصانيفه : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، والغنية ، وترتيب المدارك ، وإكمال المعلم في شرح صحيح مسلم ، وشرح حديث أم زرع ، وغيرها . مات مسموماً سنة ٥٤٤ هـ . انظر : الديباج (٢٧٠) ، والأعلام (٩٩/٥) .

(٣) إكمال المعلم (٢٤٦/١) .

(٤) خرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٦٣/١) برقم (٣٥) .

وروى بعضه البخاري في كتاب الإيمان ، باب أمور الإيمان . الفتح (٥١/١) برقم (٩) .

(٥) إكمال المعلم (٢٧٢/١) .

فما ذكره يبين اهتمامه ببيان معنى التوحيد ، فقد جعل عصمة الدم تتوقف على التوحيد ، وأن « لا إله إلا الله » هي التوحيد الذي عليه تتوقف صحة شعب الإيمان .
٣٠- وعند قوله تعالى : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ قال القرافي^(١) :

« لما حذر تعالى من كتمان الحق ، بين أن أول ما يجب إظهاره ولا يجوز كتمانه أمر التوحيد » .

وذكر أبو العباس القرطبي^(٢) أن كلمة التوحيد هي : لا إله إلا الله ، وبها يحكم بالإسلام .

٣١- قال عند حديث : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله » :

« ظاهره أن من نطق بكلمة التوحيد فقط ؛ حكم له بحكم الإسلام ... » .

(١) هو أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن ، شهاب الدين الصنهاجي ، القرافي ، أحد الأعلام المشهورين ، انتهت إليه رئاسة الفقه على مذهب مالك ، كان بارعاً في الفقه والأصول والعلوم العقلية ، أخذ الكثير من علومه على يد الشيخ عز الدين الشافعي الملقب بسلطان العلماء ، صنف كتاب الذخيرة في الفقه من أجل كتب المالكية ، وكتاب القواعد ، وكتاب شرح التهذيب ، وكتاب الانتقاد في الاعتقاد . مات سنة ٦٨٤هـ .

انظر : الديباج (١٢٨) ، والأعلام (٩٤/١) .

(٢) هو أحمد بن عمر بن إبراهيم ، أبو العباس الأنصاري القرطبي ، فقيه مالكي من رجال الحديث ، وكان من العلماء المعروفين في الحديث والفقه والعربية ، وغير ذلك . له شرح على صحيح مسلم أحسن فيه وأجاد ، سماه المفهم ، واختصر صحيح البخاري ومسلم . مات سنة ٦٥٦هـ .

انظر : الديباج (١٣٠) ، والأعلام (١٨٦/١) .

٣٢ — « ... ثم النطق بالشهادتين يدل على الدخول في الدين ، والتصديق بكل ما تضمنه »^(١) .

ونحو ذلك ما ذكره عند حديث عمرو بن العاص ، وفيه : « وإن أفضل ما نُعَدُّ : شهادة أن لا إله إلا الله »^(٢) ، بقوله :

٣٣ — « أي : أفضل ما نتخذه عُدَّةً للقاء الله تعالى : الإيمان بالله تعالى ، وتوحيده ، وتصديق رسوله ﷺ ، والنطق بذلك ... ويتأكد أمر النطق بالشهادتين عند الموت ، ليكون ذلك خاتمة أمره ، وآخر كلامه »^(٣) .

٣٤ — وذكر عند حديث وفد عبد القيس ، وفيه : قال : « آمركم بالإيمان بالله وحده » . قال : هل تدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ... »^(٤) ، قال :

« إنما قصد إلى ذكر الأركان الأربع ، التي هي : التوحيد ، والصلاة ، والزكاة ، ثم ظهر أنهم أهل غزو وجهاد ، فبين لهم وجوب أداء الخمس ... »^(٥) .

فجعل التوحيد هو شهادة أن لا إله إلا الله ، وهو معنى التوحيد في الشرع .

(١) المفهم (١٨٧/١-١٨٨) . ط. دار ابن كثير - بيروت ، ط. الأولى ١٤١٧هـ .

(٢) خرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١١٢/١) برقم (١٢١) .

(٣) المفهم (٣٢٨/١) .

(٤) خرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب أداء الخمس من الإيمان . الفتح (١٢٩/١) برقم (٥٣) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه من لم يبلغه (٤٦/١) برقم (١٧) .

(٥) المفهم (١٧٥/١) .

٣٥— أما ابن أبي جمرة^(١) ؛ فقد ذكر أن التوحيد هو قول : لا إله إلا الله ، عند شرحه حديث : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ... » ، قال : « فيه دليل لقول من يقول بأن الكفار ليس^(٢) مخاطبين بفروع الشريعة ؛ لأنه ﷺ أخبر أن القتال إنما يكون على التوحيد دون الفروع ، والتوحيد ما ذكر من قوله : لا إله إلا الله »^(٣) .

٣٦— وذكر أنه لا بد من الإقرار بكلمة التوحيد وإعلانها ، فقد ترجم للحديث بعنوان :

« حديث قتال المشركين حتى يعلنوا بكلمة التوحيد » . ثم قال عند رواية : « حتى يقولوا : لا إله إلا الله » : « على مقتضى ما جئتُ به وما جاء ﷺ به هو الإقرار بالوحدانية على ما هي عليه من الجلال والكمال ، ونفي الشريك والضد »^(٤) .

فنص على أن كلمة التوحيد هي الإقرار بـ « لا إله إلا الله » ، ولا بد من إعلانها ، وهو معنى التوحيد في الشرع .

(١) هو عبدالله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة ، الأزدي الأندلسي ، أبو محمد ، من العلماء بالحديث ، مالكي أصله من الأندلس ، ووفاته بمصر . مؤلف مختصر البخاري ، وشرحه بهجة النفوس ، والمرائي الحسان في الحديث والرؤيا . مات سنة ٦٩٥ هـ . انظر : نيل الابتهاج (٢١٦) ، والأعلام (٨٩/٤) .

(٢) كذا في الأصل ، والصواب : ليسوا .

(٣) بهجة النفوس (١٣٢/٣) .

(٤) المرجع نفسه (١٣٢/٣) .

٣٧— أما ابن جزى^(١) ؛ فقد بين أن الرسل متفقة على التوحيد الذي هو : لا إله إلا الله .

فعند قوله تعالى : ﴿ هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ﴾^(٢) قال :

« رد على المشركين ، والمعنى : هذا الكتاب الذي معي ، والكتب التي من قبلي ليس منها ما يقتضي الإشراك بالله ، بل كلها متفقة على التوحيد » .

٣٨— ثم إنه أفصح عن التوحيد الذي جاءت به الرسل ، فقال عند قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾^(٣) :

« الآية رد على المشركين ، والمعنى : أن كل رسول إنما أتى بلا إله إلا الله »^(٤) .

فنص على التوحيد الذي جاءت به الرسل ؛ وهو لا إله إلا الله .

٣٩— وأكد هذا المعنى عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾^(٥) بقوله :

« المقصود الأعظم من هذه الآية : الأمر بتوحيد الله ، وترك ما عُبد من دونه ،

(١) هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن جزى الكلبي ، ويكنى أبا جعفر ، فقيه من العلماء بالأصول واللغة ، كان من أهل الفضل والنزاهة ، من كتبه : القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية ، والتسهيل في علوم التنزيل ، ووسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم ، وغيرها . مات ٧٤١ هـ .

انظر : الدرر الكامنة (٢٩٤/١) ، والدياج (١٥) ، والأعلام (٣٢٥/٥) .

(٢) سورة الأنبياء : ٢٤ .

(٣) سورة الأنبياء : ٢٥ .

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل (٥٣-٥٢/٣) . ط . دار الكتب الحديثة - القاهرة .

(٥) سورة البقرة : ٢١ .

بقوله في آخرها : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾^(١) ، وذلك الذي يترجم عنه بقولنا : لا إله إلا الله ، فيقتضي ذلك الأمر بالدخول في دين الإسلام الذي قاعدته التوحيد^(٢) .

٤٠ — وأما الزرقاني^(٣) فعند شرحه لحديث الجارية ، وفيه قوله ﷺ : « أتشهدين أن لا إله إلا الله ؟ ... » ، قال :

« وفيه أنه لا بد مع الشهادتين من الإقرار بالبعث ... والمعنى : أنه لا يحكم بالإسلام إلا بالإقرار بالشهادتين ، وكذا الإقرار بالبعث »^(٤) .

٤١ — وذكر محمد بن يحيى المختار^(٥) عند حديث : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ... » الحديث^(٦) :

« أي : إلى أن يقرّوا لله تعالى بالوحدانية ، أي : التفرد بالألوهية ، ولحمد ﷺ

(١) سورة البقرة : ٢٢ .

(٢) التسهيل (٧٠/١) .

(٣) هو محمد بن عبد الباقي بن يوسف الأزهرى المالكي ، أبو عبدالله ، خاتمة المحدثين بالديار المصرية . قال المرادي : الناسك التحرير الفقيه العلامة ، من كتبه : تلخيص المقاصد الحسنة ، وشرح البيقونية ، وشرح موطأ الإمام مالك . مات سنة ١١٢٢ هـ .

انظر : سلك الدرر (٣٢/٤) ، والأعلام (١٨٤/٦) .

(٤) شرح الزرقاني على موطأ مالك (٨٦/٤) . ط. دار المعرفة - بيروت ١٤٠١ هـ .

(٥) هو محمد بن يحيى بن محمد المختار بن الطالب بن عبدالله الشنقيطي الولاقي ، عالم بالحديث من علماء المالكية ، من كتبه : إيصال السالك إلى أصول الإمام مالك ، وفتح الودود على مراقي الصعود ، وشرح البخاري .

انظر : شجرة النور (٤٣٥) ، والأعلام (١٤٢/٧) .

(٦) سبق تخريجه ص ٢٩ .

بالرسالة من عند الله تعالى»^(١) .

ومرادُه أن الكف عن قتال الناس متوقف على الإقرار بالشهادتين ، وهو معنى التوحيد ، وكذا جعل معنى الوحدانية : الإقرار بإفراد الله بالعبادة .

٤٢— وعرف محمد الأمين الشنقيطي^(٢) التوحيد ، وحدّ ضابطه ، فقال :

« توحيده جلّ وعلا في عبادته ، وضابط هذا النوع من التوحيد : هو تحقيق معنى لا إله إلا الله »^(٣) .

٤٣— وعند قوله تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون ﴾^(٤) ، قال :

« ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن جميع الرسل جاؤوا بإخلاص التوحيد لله ، الذي تضمنته كلمة لا إله إلا الله ، جاء موضحاً في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾^(٥) ، وقوله تعالى :

(١) نور الحق الصبيح في شرح بعض أحاديث الجامع الصحيح (٧٧٠) . ط. دار عالم الكتب - الرياض .

(٢) هو العلامة محمد الأمين بن المختار بن عبد القادر الحكيم الشنقيطي ، كان عالماً عاملاً ورعاً ، اعتنى بالتفسير ، ولد وتعلم بشنقيط (موريتانيا) ، ودرس بها ، ثم حج في (١٣٦٧) واستقر مدرّساً في المدينة المنورة ، ثم الرياض ، وأخيراً في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة . من كتبه : أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ، ودفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب ، وغيرها . مات سنة ١٣٩٣هـ .

انظر : مقدمة أضواء البيان (١/١٩-٢١) بقلم عطية محمد سالم ، والأعلام (٦/٤٥) .

(٣) أضواء البيان (٣/٤١٠) .

(٤) سورة الزخرف : ٤٥ .

(٥) سورة النحل : ٣٦ .

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحى إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون ﴾^(١) ،
وذلك التوحيد هو أول ما يأمر به كل نبي أمته^(٢) .

فنص على أنّ التوحيد هو تحقيق معنى لا إله إلاّ الله ، وهو معنى التوحيد في
الشرع .

٤٤ — وذكر ابن باديس^(٣) عند قوله تعالى : ﴿ لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد
مذموماً مخذولاً ﴾^(٤) :

أنّ « هذا هو أساس الدين كله ، وهو الأصل الذي لا تكون النجاة ، ولا تقبل
الأعمال إلاّ به ، وما أرسل الله رسولاً إلاّ داعياً إليه ، ومذكراً بحججه ، وقد كانت
أفضل كلمة قالها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي كلمة : لا إله إلاّ الله »^(٥) .

فذكر أن « لا إله إلاّ الله » هي دعوة جميع الرسل ، والرسل دعوا إلى عبادة الله
وحده ، كما قال الله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا
الطاغوت ﴾^(٦) ، وقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحى إليه أنه

(١) سورة الأنبياء : ٢٥ .

(٢) أضواء البيان (٢٥٤/٧) .

(٣) هو عبد الحميد بن محمد بن المصطفى بن مكّي بن باديس ، رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر ،
أصدر مجلة الشهاب ، وكان شديد الحملات على الاستعمار ، له تفسير القرآن الكريم ، اشتغل به
تدريساً زهاء ١٤ عاماً ، وعرف باسم محالس التذكير . مات سنة ١٣٥٩هـ .

انظر الأعلام (٢٨٩/٣) .

(٤) سورة الإسراء : ٢٢ .

(٥) تفسير ابن باديس (٦٢) . ط . دار الكتب العلمية - بيروت ، لبنان . ط . الأولى ١٤١٦هـ .

(٦) سورة النحل : ٣٦ .

لا إله إلا أنا فاعبدون ﴿١﴾ .

وهذا يبيّن المعنى الشرعي للتوحيد .

٤٥ — وبين محمد المكي الناصري^(٢) أن قوله تعالى : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾^(٣) يشير إلى عقيدة التوحيد الخالص^(٤) ، ففسر معنى الآية : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو ﴾ : أنه التوحيد .

٤٦ — أما محمد بن أحمد الشهير بميارة^(٥) ، فقد ذكر عند نظم ابن عاشر^(٦) عن الشهادتين :

قواعد الإسلام خمس واجبات وهي الشهادتان شرط الباقيات

« ولما كانت بقية القواعد الأربع المذكورة بعدها مبنية عليها ، ولا يصحّ شيء منها إلاّ بعد وجودها ، كما يصرح به في قوله بعد : وهي الشهادتان شرط الباقيات

(١) سورة الأنبياء : ٢٥ .

(٢) هو محمد المكي الناصري ، رئيس رابطة العلماء وعضو مجلس الوصاية ، عضو الأكاديمية الملكية بالمغرب ، أسس حزب الوحدة المغربي وترأسه ، ثم حله بعد أن أحرزت المغرب استقلالها . وكان خطيباً لأكبر مساجد المغرب ، وانتخب أميناً عاماً لرابطة علماء المغرب ، وله من الكتب : الأحباس الإسلامية في المملكة المغربية ، والتيسير في أحاديث التفسير . انظر الأعلام (١٤٥/٢) .

(٣) سورة البقرة : ١٦٣ .

(٤) التيسير في أحاديث التفسير (٩٩/١) .

(٥) هو محمد بن أحمد بن محمد ، أبو عبدالله ، ميارة ، فقيه مالكي ، من أهل فاس ، من كتبه : الإتيقان والإحكام في شرح تحفة الحكام ، والدر الثمين في شرح منظومة المرشد المعين . مات سنة ١٠٧٢ هـ . انظر الأعلام (١١/٦) .

(٦) هو عبدالواحد بن أحمد بن علي بن عاشر الأندلسي ، فقيه ، له نظم ، نشأ وتوفي في فاس ، له تصانيف منها : المرشد المعين على الضروري من علوم الدين ، ومنظومة في فقه المالكية ، وتنبيه الخلان في علم رسم القرآن ، وفتح المنان في شرح مورد الظمآن . مات سنة ١٠٤٠ هـ . انظر الأعلام (١٧٥/٤) .

سمّاها : أم القواعد ، أي : شرطاً شرعياً لصحة بقية القواعد ^(١) .

٤٧— وعند كلامه على كلمة التوحيد قال :

« وجعلها الشرع ترجمة على ما في القلب من الإسلام ، ولم يقبل من أحد الإيمان إلّا بها » ^(٢) .

فبين معنى التوحيد ؛ إذ به يحكم للناس بالإسلام .

٤٩— وقال ابن الحاج ^(٣) بعد إيراد حديث : « لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » :

« فليلقنه كلمتي التوحيد برفق ، وذلك بأن يقول : لا إله إلّا الله محمد

رسول الله » ^(٤) .

ففسّر كلمة التوحيد بأنه قول : لا إله إلّا الله ، وهو المعنى الشرعي .

(١) الدر الثمين والمورد المعين لميارة (٢١/) . ط. دار الفكر .

(٢) الدر الثمين والمورد المعين (٥١/١) .

(٣) هو محمد بن محمد بن الحاج ، أبو عبدالله العبدري ، الفاسي ، نزيل مصر ، لزم الشيخ أبا محمد بن أبي جمرة وانتفع بذلك ، جمع كتاباً سماه : المدخل ، قال عنه ابن حجر : " كثير الفوائد ، كشف فيه عن معاييب وبدع يفعلها الناس ويتساهلون فيها ، وأكثرها مما ينكر ، وله : شمس الأنوار وكنوز الأسرار ، وبلوغ القصد والمنى في خواص أسماء الله الحسنى . مات سنة ٧٣٧هـ .

انظر : الدرر الكامنة (٣٥٥/٤) ، والأعلام (٣٥/٧) .

(٤) المدخل (٢٢٩/٣) . ط. دار الفكر ١٤٠١هـ .

المبحث الثاني معنى كلمة التوحيد

كلمة التوحيد هي أصل الدين وأساسه ، وكلمة الشهادة ومفتاح دار السعادة ، ولأجلها خلقت الدنيا والآخرة ، والجنة والنار ، وهي دعوة جميع الأنبياء والمرسلين ، من لدن نوح عليه الصلاة والسلام حتى نبينا محمد ﷺ . وهي كلمة التقوى ، والعروة الوثقى .

وقد تظاهرت النصوص من الكتاب والسنة لبيان معنى توحيد العبادة :
قال تعالى : ﴿ إِنْهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾^(١) ، فلم يقرؤا بهذه الكلمة ، وذلك لأنهم يعلمون معناها ، إذ لو كان مجرد قول لا يلزم منه نبذ جميع المعبودات سوى الله ﷻ لقالوها ، ولذا أخبر الله تعالى واصفاً حال المشركين بقولهم : ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴾^(٢) فعلموا ما يراد من هذه الكلمة ، فلم ينطقوا بها .

وجميع الأنبياء إنما دعوا لعبادة الله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾^(٣) . وقد ردّ قوم هود ما دعا إليه نبيهم هود بقولهم : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾^(٤) ، فعلموا ما أراد من دعوتهم ، من ترك كل ما يعبد هؤلاء وآباؤهم من قبل ، إلى عبادة الله وحده ، وما ذاك إلا أنهم علموا معنى كلمة التوحيد وما يراد منها .

وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ

(١) سورة الصافات : ٣٥ .

(٢) سورة ص : ٥ .

(٣) سورة الأنبياء : ٢٥ .

(٤) سورة الأعراف : ٧٠ .

هو العلي الكبير ﴿١﴾ . فبين الله تعالى أن الذي يعبد هؤلاء المشركون من دونه سبحانه - من الأصنام والأوثان - هو الباطل الذي يضمحل ويفنى ، وأن عبادته ^{تعالى} وحده هي الحق ؛ لأن كل من دونه متدلل منقاد ^(٢) .

وقد تقدم معنى التوحيد في الشرع ، وأنه الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله . وسيتم الكلام في هذا الفصل عن معنى « لا إله إلا الله » عند المالكية ، وقبل عرض أقوالهم أذكر معنى الألوهية في اللغة .

قال في ترتيب القاموس : فالألوهية لفظ منسوب إلى الإله ، والإله كفعال بمعنى مألوه ، وكل ما اتخذ معبوداً إله عند متّخذة ، فالإله - على هذا - هو المعبود ^(٣) . وهذا التفسير للإله بأنه المعبود هو الحق الذي جاء به الكتاب والسنة .

قال تعالى - حاكياً قول كفار قريش - : ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ .

وهو الذي سار عليه بعض أئمة المالكية ؛ يتضح ذلك من خلال عرض أقوالهم في بيان معنى « لا إله إلا الله » .

فقد جاء عن الإمام مالك أنه فسر الإله بالمعبود ، فعند قول الله تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ ^(٤) :

١ - قال المخزومي : سمعت مالكا يقول : « لا يرى شيئا إلا عبده » .

فهذا من مالك رحمه الله تفسير للإله بأنه المعبود ^(٥) .

يبين ذلك تفسير عكرمة للآية ، حيث قال :

« أفرأيت من جعل إلهه الذي يعبد ما يهواه ويستحسنه ، فإذا استحسن شيئاً

(١) سورة لقمان : ٣٠ .

(٢) انظر تفسير الطبري (١٠/٢٢٣) .

(٣) ترتيب القاموس المحيط (١/١٧٣) . ط. دار الفكر ، الطبعة الثالثة .

(٤) سورة الجاثية : ٢٣ .

(٥) القبس لابن العربي (٣/١٠٨١) .

وهو به اتخذها إلهاً»^(١) .

وقال محمد الأمين :

« إيضاح أقوال العلماء المذكورة في هذه الآية : أن الواجب الذي يلزم العمل به هو أن يكون جميع أفعال المكلف مطابقاً لما أمره به معبوده جل وعلا ، فإذا كانت جميع أفعاله تابعة لما يهواه ، فقد صرف جميع ما يستحقه عليه خالقه من العبادة والطاعة إلى هواه ، وإذن فكونه اتخذ إلهه هواه في غاية الوضوح »^(٢) .

فسمى الإله بالمعبود ، وذكر أن هذا هو قول العلماء في تفسير الآية .

٢- وأما أبو محمد بن عبد البصري^(٣) فقد بين أن الخلق يقرّون بربوبية الخالق ،

وإنما جحدوا معرفة توحيد العبادة ، فقال :

« الخلق يقرّون بربوبيته ، وإنما جحدوا معرفة التوحيد الذي تعبدهم به ، على

ألسنة السفراء ... »^(٤) .

فقوله : « التوحيد الذي تعبدهم به » أي : أن يفردوه تعالى بالعبادة ، وهو معنى

« لا إله إلا الله » في مثل قوله عن نوح وهود وصالح وشعيب : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

وهذا معنى « لا إله إلا الله » ، والذي ذكر الله عن سائر رسله في قوله : ﴿ ولقد

بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ .

(١) تفسير القرطبي (١٦٦/١٦-١٦٧) . وقد قال ابن جرير في (٢٦٢/١١) : أفرايت - يا محمد - من

اتخذ معبوده هواه ، فيعبد ما هوى من شيء دون إله الحق .

(٢) أضواء البيان (٣٣٠/٦) .

(٣) هو القاسم بن عبد البصري ، كان من العلماء الأجلاء على مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس ،

انتهت إليه رئاسة هذا الشأن في وقته علماً وعملاً . قال المناوي : كان جواداً سخيّاً صوفيّاً وفياً .

وكان يحظى بتقدير واحترام العلماء والمشايخ . مات سنة ٥٨٠هـ .

انظر : طبقات المناوي الكبرى (٦٩٢/١) ، والسهوروردي حياته وتصوفه د. عائشة المناعي (٣٩) .

(٤) درء تعارض العقل والنقل (٥٠٩/٨) .

٣— أما الباقلاني فقد سبق^(١) ذكر تعريفه للتوحيد ، وفيه :

«... وإله واحد فرد معبود ، على ما قرر به قوله تعالى : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾»^(٢) .

٤— وقال - مبينا معنى التوحيد : « فليس معه إله سواه ، ولا يستحق العبادة إلا إياه ، فلا شبه له ، ولا نظير . ونريد بذلك أن ليس معه من يستحق الإلهية سواه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إنما الله إله واحد ﴾»^(٣) ومعناه : لا إله إلا الله»^(٤) .

فنص على أن الله تعالى هو المستحق للعبادة وحده ، واستدل بهذه الآية التي يخبر الله تعالى فيها عن تفردة بالإلهية ، وأنه لا شريك له ، مما يظهر معنى « لا إله إلا الله » .

٥— وأما ابن بطال فبين معنى « لا إله إلا الله » ، حيث قال :

« فدعاهم الرسول إلى الإقرار بالوحدانية ، وخلع ما دونه من الأوثان ، فمن أقر منهم بذلك كان في الظاهر داخلاً في صبغة الإسلام ... »^(٥) .

فقوله : « خلع ما دونه من الأوثان » تفسير للقسم الأول من كلمة التوحيد « لا إله » ، وقوله : « إلى الإقرار بالوحدانية » تفسير للقسم الثاني « إلا الله » .

٦— أما ابن عبد البر فقد ذكر أن المعنى الصحيح المجتمع عليه في تفسير قوله تعالى : ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ... ﴾ : أنه المعبود من أهل السماء وأهل الأرض .

قال في رده على الجهمية : ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله .. ﴾^(٦) : « فوجب حمل الآيات على المعنى الصحيح المجتمع عليه ، وذلك أنه في السماء إله

(١) انظر ص ٣٨ .

(٢) الإنصاف للباقلاني (٢٣) .

(٣) سورة النساء : ١٧١ .

(٤) الإنصاف (٣٣-٣٤) .

(٥) شرح صحيح البخاري (١٢١/٥) .

(٦) سورة الزخرف : ٨٤ .

معبود من أهل السماء ، وفي الأرض إله : معبود من أهل الأرض » .
قال : « وكذلك قال أهل العلم بالتفسير »^(١) .

٧— وبعد أن ذكر أبو الوليد الباجي تعدد المعبودات بين أن محمداً ﷺ فيما جاء به دعا إلى عبادة الله وحده وترك ما سواه ، فقال :

« وعبدت الجوس نيرانها ، والثوية نورها وظلامها ، والعرب أصنامها وأوثانها ، وادعوا الله الصاحبة والأولاد ، وجعلوا له الإشراف والأنداد ، فابتعثه الله من خير الأمم ، وهم بنو إسماعيل ، وهم قريش ... فقام فيهم يدعوهم إلى عبادة الرحمن ، وخلع الأوثان »^(٢) .

ثم ذكر أن جميع الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ولا ولد ، إذ هو المعبود بحق .

يتضح ذلك من قوله : « ودعوهم إلى عبادة الرحمن » ، وهو معنى « إلا الله » ، وما ذكره من تعدد المعبودات الباطلة تفسيرا « لا إله » ، فالرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ولا ولد .

فظهر بذلك معنى كلمة التوحيد : لا إله إلا الله .

٨— وقال الطرطوشي :

« فإذا قلت : لا إله إلا الله ، نفيت ما لا يجوز في صفته من شريك في عبادته ، مع الإقرار بأنه الإله وحده »^(٣) .

فبين تحريم الشرك في عبادة الله ، والإقرار بالله وحده ، الذي يستحق العبادة وحده .

وهذا نص في أن معنى « لا إله إلا الله » نفى العبادة عما سوى الله ، وإثباتها لله وحده ، يبين ذلك قوله :

(١) فتح البر في الترتيب الفقهي لتمهيد ابن عبد البر (١١/٢) .

(٢) رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين (٨٠-٨١) . ط. البحوث العلمية - الثانية ١٤٠٧ هـ .

(٣) الدعاء المأثور وآدابه للطرطوشي (١٧٨) .

٩— « واعلم أنه إنما شرف لفظ التهليل على سائر الأذكار ، لأنها كلمة كاملة
كنها نفي وإثبات ، تتضمن نفي كل ما سوى الله إلهاً ، وإثباته سبحانه إلهاً »^(١) .
١٠— وبين أيضاً أن الله ﷻ دعا لتوحيده وعبادته ، فبعد إirاده قول الله ﷻ :
﴿ وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً ﴾^(٢) ، قال :
« أي : أفردوه بالتوحيد » .

١١— ثم ذكر قول الله تعالى : ﴿ قل ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم ﴾^(٣) ،
فقال : « ما يصنع بكم ، وأي مقدار لكم لولا توحيدكم وعبادتكم لله تعالى »^(٤) .
فبين أهمية اقتران العبادة بالتوحيد ، وهو معنى « لا إله إلا الله » ، أي : إفراد الله
تعالى بالعبادة .

١٢— وذكر قول الله تعالى : ﴿ قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا
يضرنا ﴾^(٥) ، ثم قال : « أي : لا ندعو من دون الله تعالى رباً ولا نعبد »^(٦) .
ففي قوله ذلك توحيد الله تعالى ، وإفراده سبحانه بالعبادة وحده ، وهذا بين
عنايته واهتمامه رحمه الله ببيان هذا النوع من التوحيد ، وإظهار معناه ، إذ في قوله :
« لا ندعو من دون الله رباً » أي : لا نتخذ رباً سوى الله نعبد ، وإنما ندعو الله
تعالى ونعبد وحده ، وهذا معنى « لا إله إلا الله » .

١٣— وأما ابن رشد ، فقال رحمه الله : « وأنه أوجب على عباده أن يؤمنوا به
وحده ، ويعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، لأنه قال في كتابه الذي أنزل على

(١) الدعاء المأثور وآدابه للطرطوشي (١٩٦) .

(٢) سورة الجن ، الآية ١٨ .

(٣) سورة الفرقان : ٧٧ .

(٤) الدعاء المأثور وآدابه (٣٦) .

(٥) سورة الأنعام : ٧١ .

(٦) الدعاء المأثور وآدابه (٣٣) .

رسوله : ﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا أعتدنا للكافرين سعيراً ﴾^(١) ﴿^(٢) .

وما ذكره ظاهر في بيان أن معنى « لا إله إلا الله » : الدعوة إلى عبادة الله وحده ، وعدم الإشراك به ، وهو ما أراده بقوله : « أن يؤمنوا به وحده » .

١٤ — وقال ابن عطية - عند قوله تعالى : ﴿ فذلکم الله ربکم الحق فمأذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾^(٣) : « أي المستوجب للعبادة والألوهية ، وإذا كان ذلك فتشريك غيره ضلال وغير حق ... وحكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والضلال منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله ... »^(٤) .

١٥ — وعند قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾^(٥) قال :

« هذا تعديد نعمة الله تعالى ، الدالة على وحدانيته ، وأنه الإله الذي يستحق أن يعبد دون سواه من الأنداد »^(٦) .

١٦ — وعند قوله تعالى : ﴿ ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ﴾ ، قال :

« في الآية نهي عن عبادة الأصنام والشياطين ، وكل مدعو من دون الله تعالى »^(٧) .

وهذا يبين أن الإله هو المعبود الذي يستحق أن يعبد وحده ، وهو معنى التوحيد.
١٧ — وعند قوله تعالى : ﴿ ذلکم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم ... ﴾^(٨) يبين أنه في حال توحيد الله تعالى ودعائه دون من سواه - من الآلهة والأنداد - تكفرون

(١) سورة الفتح : ١٣ .

(٢) البيان والتحصيل (٢٥/١) .

(٣) سورة يونس : ٣٢ .

(٤) المحرر الوجيز (١١٨/٣) .

(٥) سورة الشورى : ٢٨ .

(٦) المحرر الوجيز (١٧١/١٣) .

(٧) المحرر الوجيز (١٨٢/٥) .

(٨) سورة غافر : ١٢ .

بذلك ، أي : إذا أفرد الله تعالى بالدعاء والعبادة ، وهذا يجلي معنى « لا إله إلا الله » .
قال : « معناه : بحالة توحيد ونفي لما سواه من الآلهة والأنداد »^(١) .

١٨ — وفسر العبادة بالتوحيد ، كما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾^(٢) ، قال : « معناه : وحدوه وخضوه بالعبادة »^(٣) .

١٩ — أما ابن العربي فقد فسر الإله أنه المعبود ، وأن العبادة هي الحكمة التي خلق لأجلها الجن والإنس ، فعند قوله تعالى : ﴿ وإلهم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾^(٤) قال : « هذه الآية هي أصل في التوحيد ، ويتعلق بها مسائل ، ومنها : بيان معنى الإله » .

٢٠ — قال : « الإله : هو المعبود ، وهي الفائدة التي خلق لأجلها الخلق : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ »^(٥) .

٢١ — ثم بين استحقاق الله للعبودية ، والتحذير من الشرك في عبادته ، لانفراده بالإلهية والربوبية والملك ، فقال :

« وفي قوله : ﴿ إله واحد ﴾ ، فوصف نفسه بالإلهية ما يقتضي استحقاق العبودية ، فدل على أن صلاح التوحيد مرتبط بصلاح العبودية ، وأن فسادها مرتبط بفسادها ، والمعنى : أن العبادة مرتبطة بالتوحيد ، فإن صلح قبلت العبادة ، وإلا فلا » .
وعند الآية نفسها قال : « وفيها : التحذير من الرياء في عبادته ، والشرك به ، لانفراده بالألوهية والربوبية والملك ... »^(٦) .

فبين رحمه الله انفراد الله تعالى بالعبادة ، وأنه المستحق لها ، وحذر من الشرك في

(١) المحرر الوجيز (٤/٥٥٠) .

(٢) سورة البقرة : ٢١ .

(٣) المحرر الوجيز (١/١٠٥) .

(٤) سورة البقرة : ١٦٣ .

(٥) سورة الذاريات : ٥٦ .

(٦) قانون التأويل للقاضي ابن العربي (٣٠٠) . ط . دار الغرب .

(٧) ذكره المحقق عن ابن العربي في معرفة قانون التأويل (٥٠/ب) - نسخة الإسكوريال (٢٩٧) .

عبادته تعالى ؛ لأن الله تعالى منفرد بها ، وهو معنى « لا إله إلا الله » .

ولا يزال حديثه عن المسائل في هذه الآية ، فقد ذكر أن المعبود هو الله وحده لا شريك له ، الرحمن الرحيم .

٢٢— وبين معنى النفي والإثبات في قول « لا إله إلا الله وحده لا شريك له » ، فقال :

« لا إله إلا الله : نفي لكل إله سواه بجميع المعاني ، وقوله : « وحده » تأكيد للنفي من كل وجه . « لا شريك له » إشارة إلى نفي أن يكون هو جعله معيناً أو ظهيراً^(١) .

ففي قوله : « نفي لكل إله سواه » يبينه تفسيره للإله بالمعبود فيما تقدم ، فمعنى نفي الإله عنده : نفي المعبود سوى الله تعالى .

٢٣— وأما القاضي عياض فعند شرحه لكلمة التوحيد التي تضمنها الأذان قال :

« وصرح بإثبات الوجدانية والإلهية ، ونفي ضدها من الشركة المستحيلة في حقه ، وهذه عمدة الإيمان والتوحيد »^(٢) .

فمراده بالإثبات : إثبات الوجدانية في قوله « إلا الله » ، ومراده بالنفي : نفي الإلهية عما سوى الله .

٢٤— وأما القرافي فقد بين أن معنى النفي تقدير صفة مضمرة ، فقال :

« وليس المراد من النفي نفي المعبود كيف كان ، لوجود المعبودين في الوجود ، كالكواكب والأصنام ، بل ثم صفة مضمرة ؛ تقديره : لا معبود مستحق للعبادة إلا الله ، ومن لم يضم هذه الصفة لزمه أن يكون تشهده كذباً »^(٣) .

(١) القبس (٢/٤٠٧) .

(٢) إكمال المعلم (٢/٢٥٣-٢٥٤) .

(٣) نقله في مواهب الجليل (١/٤٣٩) .

فهذا التقدير الذي ذكره يبين عنايته واهتمامه ببيان معنى : لا إله إلا الله^(١) .

٢٥— وذكر أيضاً أن الله تعالى واحد في ذاته لا نظير له ، ولا شريك ، وأن العبادة حق الله تعالى ، ولا يستحقها غيره سبحانه ، فقال :
« في ذكر مسائل في العقيدة بالله ﷻ : ... وأنه واحد في ذاته لا نظير له ، ولا شريك ، ولا يستحق العبادة غيره سبحانه »^(٢) .

وما أجمله هنا في شأن العبادة ، فصلّه في موضع آخر ، فقال :
« الذي يجب توحيد الله تعالى به من التعظيم بالإجماع ، فذلك كالصلوات على اختلاف أنواعها ، والصوم على اختلاف رتبة في الفرض والنفل والنذر ، فلا يجوز أن يفعل شيء من ذلك لغير الله تعالى ، وكذلك الحج ونحو ذلك ، وكذلك الخلق والرزق والإماتة والإحياء ... فيجب على كل أحد أن يعتقد توحيد الله تعالى ، وتوحيده بهذه الأمور ... وكذلك يجب توحيده تعالى باستحقاق العبادة والألوهية ... »^(٣) .

فما أجمال هذا البيان وأبدعه وأتمه لمعنى « لا إله إلا الله » ، أي : لا معبود بحق إلا الله .

٢٦— وذكر مثل هذا المعنى الصفّي^(٤) في تفسير « لا إله إلا الله » بقوله :
« جملة (لا إله إلا الله) خبر ، ومعناه الحقيقي : لا معبود بحق إلا الله ، ويلزم من ذلك كونه مستغنياً عما عداه ، ومفتقراً إليه كل ما سواه »^(٥) .

(١) وتقدير الصفة المضمرة التي ذكرها هو الصواب ، قال البقاعي : لا إله إلا الله ، أي : انتفى انتفاءً عظيماً أن يكون معبودٌ بحق غير الملك الأعظم . فتح المجيد (٦٨) .

(٢) الذخيرة للقرافي (٢٣٢/١٣) .

(٣) الفروق للقرافي (٤٨/٣) . ط. دار الكتب العلمية .

(٤) هو يوسف بن إسماعيل الصفّي المصري المالكي ، فقيه نحوي واعظ ، تصانيفه : حاشية على الجواهر الزكية في حل ألفاظ العشماوية لابن تركي في الفقه ، ونزهة الأرواح في بعض أوصاف الجنة دار الأفراس . مات سنة ١١٩٣هـ . انظر معجم المؤلفين (٢٧٤/١٣) .

(٥) حاشية سنية وتحقيقات بهية (٦) . ط. الحلبي ١٣٦٧هـ .

٢٧— وبين أبو عبد الله القرطبي رحمه الله معنى « لا إله إلا الله » : لا معبود إلا الله ، ووجوب إفراد الله تعالى بالعبادة ، قال - عند قوله تعالى : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾^(١) - : « قوله : لا إله إلا هو : نفي وإثبات ، أولها كفر ، وآخرها إيمان ، ومعناه : لا معبود إلا الله »^(٢) .

٢٨— وقال - عند قوله تعالى : ﴿ وأنا ربكم فاعبدون ﴾^(٣) - : « ﴿ أنا ربكم ﴾ أي : إلهكم وحدي . ﴿ فاعبدون ﴾ أي : أفردوني بالعبادة »^(٤) .

٢٩— وذكر أن الله تعالى هو المعبود الذي لا شريك له ، فلا يعبد معه غيره ، قال - عند قوله تعالى : ﴿ وما من إله إلا الله الواحد القهار ﴾^(٥) - : « ﴿ وما من إله ﴾ أي : معبود . ﴿ إلا الله الواحد القهار ﴾ : الذي لا شريك له »^(٦) .

وعند قوله تعالى : ﴿ ولا تدع مع الله إلهاً آخر ﴾^(٧) قال : « أي : لا تعبد معه غيره ، فإنه لا إله إلا هو ، نفي لكل معبود ، وإثبات لعبادته »^(٨) .

فما ذكره رحمه الله غاية في بيان معنى « لا إله إلا الله » ، حيث بين معنى النفي والإثبات ، وأنه لا معبود إلا الله وحده ، الذي يجب أن يفرد بالعبادة .

(١) سورة البقرة : ١٦٣ .

(٢) تفسير القرطبي (١٩١/٢) .

(٣) سورة الأنبياء : ٩٢ .

(٤) تفسير القرطبي (٣٣٨/١١) .

(٥) سورة ص : ٦٥ .

(٦) تفسير القرطبي (٢٢٤/١٥) .

(٧) سورة القصص : ٨٨ .

(٨) تفسير القرطبي (٣٢٢/١٣) .

٣٠— وأما أبو العباس القرطبي رحمه الله ، فقد بين معنى « لا إله إلا الله » ، وأنها تعني عبادة الله وحده دون ما سواه ، قال - عند شرحه حديث : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ... » - :

« قد روي من طرق ، ففي بعضها : « شهادة أن لا إله إلا الله » ، وفي بعضها : « على أن تعبد الله وتكفر بما دونه »^(١) ، فالأولى نقل للفظ ، والأخرى نقل بالمعنى ، والأصل نقل اللفظ ، وهو المتفق عليه »^(٢) .

فالرواية الثانية كالمفسرة للأولى ، ومعناها ظاهر في بيان كلمة التوحيد .

٣١— وقال في تعريفه للوتر :

« إن الوتر يراد به التوحيد ، فيكون المعنى : أن الله في ذاته وكماله وأفعاله واحد ، ويجب التوحيد ، أي : أن يوحد ، ويعتقد انفراده بالألوهية دون خلقه »^(٣) .

٣٢— وعند شرحه حديث : « أنت إلهي ، لا إله إلا أنت » قال :

« أي : لا معبود غيرك ، ولا معروف بهذه المعرفة سواك »^(٤) .

٣٣— وقال في موضع آخر :

« من مات لا يتخذ معه شريكاً في الإلهية ، ولا في الخلق ، ولا في العبادة ؛ دخل

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب دعاؤكم إيمانكم ، الفتح (٤٩/١) برقم (٨) ، ومسلم في كتاب الإيمان بهذه الرواية أيضاً ، وهي قوله ﷺ : " على أن يعبد الله ويكفر بما دونه " (٤٥/١) برقم (١٦) تحت باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام .

(٢) المفهم (١٦٩/١) .

(٣) المفهم (١٨/٧) .

(٤) المفهم (٣٩٩/٢) .

٣٤— وعند شرحه لحديث : « وجهت وجهي ... » :

« (حنيفاً) أي : مائلاً عن جميع المعبودات سوى الله تعالى . (نسكي) أي : ما أتنسك به من القرب والعبادات » (٢) .

٣٥— وأما الشاطبي رحمه الله فقد ذكر أن الله ﷻ هو المعبود بحق وحده سبحانه لا شريك له في ذلك ، قال - بعد إirاده قول الله تعالى : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص ... ﴾ الآية (٣) - :

« وما أشبه ذلك من الآيات التي لا تكاد تحصى كلها دالة على أن المقصود التعبد لله ، وإنما أوتوا بأدلة التوحيد ليتوجهوا إلى المعبود بحق وحده سبحانه لا شريك له ، ولذلك قال تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ (٥) ، وقال : ﴿ هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ﴾ (٦) . ومثله سائر المواضع التي

(١) المفهم (١/٢٩٠) . والحديث أخرجه مسلم عن ابن عباس فيما يقوله ﷻ في قيام الليل ، ونصه : " اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيام السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهي لا إله إلا أنت " . في كتاب صلاة المسافرين وقصرها (١/٥٣٢) رقم (٧٦٩) . وأخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ﴾ ، الفتح (١٣/٣٧١) برقم (٧٣٨٥) .

(٢) المفهم (٢/٤٠٠) .

(٣) سورة الزمر : ٣ .

(٤) سورة محمد : ١٩ .

(٥) سورة هود : ١٤ .

(٦) سورة غافر : ٦٥ .

نص فيها على كلمة التوحيد لا بد أن أعقب بطلب التعبد لله وحده ...»^(١) .

والآية التي أورد نص في التوحيد ، وقد فسرها الشاطبي بما يدل على أن معنى « لا إله إلا الله » : لا معبود بحق إلا الله .

٣٦— وأما ابن أبي جمرة الأندلسي فقد ذكر عند شرحه حديث : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ... » أنه يفيد الإقرار بالوحدانية ، ونفي الشريك ... قال :

« يعني : على مقتضى ما جئت به ، وما جاء ﷺ به هو الإقرار بالوحدانية على ما هي عليه من الخلال والكمال ، ونفي الشريك والضد والصاحبة ... »^(٢) .

٣٧— وذكر أن حقيقة التوحيد هي عبادة الله تعالى وحده ، وألا يشرك به شيئاً ، فعند شرحه حديث معاذ ﷺ : كنت رديف رسول الله ﷺ ، فقال : « يا معاذ ! » . قلت : لبيك وسعديك . ثم قال مثله ثلاثاً : « هل تدري ما حق الله على عباده ؟ » . قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » . ثم سار ساعة فقال : « يا معاذ ! » . قلت : لبيك وسعديك . قال : « وهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه ؟ » . قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « حق العباد على الله أن لا يعذبهم »^(٣) . قال :

« وأشار بقوله ﷺ : (أن يعبدوه) إلى امتثال الحكمة في الأمر بالنهي ... وأشار بقوله : (ولا يشركوا به شيئاً) إلى حقيقة التوحيد »^(٤) .

وذكر أن كل ما يعبد من دون الله من جملة الطواغيت .

(١) الموافقات (١/٥٥-٥٦) . ط. دار المعرفة - بيروت ، لبنان ١٤١٥ هـ . ط. الأولى .

(٢) بهجة النفوس (٣/١٣٢) . ط. دار الجليل - بيروت ، لبنان . الطبعة الثالثة .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب اللباس ، باب إرداف الرجل خلف الرجل . (١٠/٤١٢ رقم ٥٩٦٧) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة (١/٣٤٣ رقم ٣٠) .

(٤) بهجة النفوس (٣/١٢١) .

٣٨— فعند حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ومنه : « من كان يعبد شيئاً فليتبعه » ،

قال :

« ثم ذكر الشمس والقمر ، ثم عمم بذكر الطواغيت دليل على أن كل ما يعبد من دون الله كائناً ما كان من جملة الطواغيت ... »^(١) .

فحقيقة التوحيد : هي عدم الشرك ، وبطلان عبادة ما سوى الله ، وهذا يدل على أن معنى « لا إله إلا الله » : لا معبود بحق إلا الله .

وذكر التائي^(٢) أن الله ﷻ هو المعبود المستحق للعبادة وحده .

٣٩— قال - عند شرحه قول ابن أبي زيد في مقدمة رسالته في باب الوجدانية ،

وقوله : « وأن الله واحد » - :

« إذ معناه : لا معبود يستحق العبادة غيره ، ولا إله إلا هو »^(٣) .

وهذا نص في أن معنى « لا إله إلا الله » : نفي شريك معبود معه ﷻ ، ومن هنا

قال - في شرحه للرسالة عند قوله : « لا إله غيره » - :

« تأكيد ومبالغة في ثبوت الوجدانية ونفي إله آخر ، إذ صيغة الإثبات والنفي

أبلغ في نفي الكمية المتصلة والمنفصلة »^(٤) .

٤٠— وأكد هذا المعنى عند قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة

(١) بهجة النفوس (٢٣/٢) .

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن خليل التائي الفقيه الفرضي ، كان موصوفاً بدين وعفة وصيانة وفضل وتواضع ، وهو من كبار القضاة في الديار المصرية ، من كتبه : فتح الجليل - شرح به مختصر خليل في الفقه - ، وتنوير المقالة في شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، وخطط السداد والرشد نظم مقدمة ابن رشد . مات سنة ٩٤٢هـ .

انظر : نيل الابتهاج (٥٨٨) ، وشجرة النور (٢٧٢) ، والأعلام (٣٠٢/٥) .

(٣) تنوير المقالة في حل ألفاظ الرسالة (١٥٣/١) . تحقيق وتعليق وتخريج د. محمد عايش عبدالعال ، ط. الأولى ١٤٠٩هـ .

(٤) تنوير المقالة في حل ألفاظ الرسالة (١٥٤/١) .

سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ﴿١﴾ بقوله :

« ودعاهم ﷻ إلى توحيد الله ، وترك ما عبده من دونه ، كالمسيح ، والأخبار والرهبان » ﴿٢﴾ .

فبين أن التوحيد هو عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه ، وهو معنى التوحيد .

٤١ — وعند قوله تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب

العرش عما يصفون ﴾ ﴿٣﴾ قال :

« وهذا برهان على وحدانية الله تعالى ، والضمير في قوله : ﴿ فيهما ﴾

للسموات والأرض ، و ﴿ إلا الله ﴾ صفة للآلهة ، و ﴿ إلا ﴾ بمعنى غير .

فاقتضى الكلام أمرين :

أحدهما : نفي كثرة الآلهة ، ووجوب أن يكون الإله واحداً .

الثاني : أن يكون ذلك الواحد هو الله دون غيره ، ودل على ذلك قوله : ﴿ إلا

الله ﴾ ﴿٤﴾ .

٤٣ — وأما الخطاب ﴿٥﴾ فقد فسر الإله بالمعبود ، قال :

« والإله : المعبود » ﴿٦﴾ .

ثم نقل قول القرافي السابق ذكره مقراً له ، المتضمن بيان النفي ، وأنه ليس نفيًا

(١) سورة آل عمران : ٦٤ .

(٢) التسهيل (١٩٥/١) .

(٣) سورة الأنبياء : ٢٢ .

(٤) ابن جزّي ومنهجه في التفسير (٥٢١/١) . ط. دار القلم ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ . دمشق .

(٥) هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن الرعيني المغربي ، أبو عبد الله ، المعروف بالخطاب ، كان متقناً محصلاً

نقاداً ، عارفاً بالتفسير ووجوهه ، فرضياً . من كتبه : هداية السالك المحتاج - في مناسك الحج - ،

ومواهب الجليل في شرح مختصر خليل ، ست مجلدات في فقه المالكية ، وشرح نظم نظائر رسالة

القيرواني لابن غازي ، وغيرها . مات سنة ٩٥٤هـ .

انظر : نيل الابتهاج (٥٩٢) ، والأعلام (٥٨/٧) .

(٦) مواهب الجليل للمغربي (٤٣٩/١) . ط. دار الفكر - الثانية ، بيروت ١٣٩٨هـ .

للمعبود كيف كان لوجود المعبودين ، كالكواكب ... بل ثم صفة مضمرة تقديرها : لا معبود مستحق للعبادة إلا الله^(١) .

وأورد أيضاً قول القرطبي أبي العباس المشتمل بيان مسائل العقيدة في الأذان ، قال :

« لأنه بدأ بالأكبرية ، وهي وجود الله تعالى ووجوبه وكماله ، ثم ثنى بالتوحيد ونفي الشريك »^(٢) .

وبذلك يتضح معنى التوحيد ، إذ فسر الإله بالمعبود بحق ، وأقرّ ما تضمنته الشهادة من التوحيد لله تعالى ، ونفي الشريك ، فظهر مراده من أن الله تعالى هو المستحق للعبادة وحده ، وبطلان عبادة ما سواه .

٤٤ — وسئل زروق^(٣) عن معنى « لا إله إلا الله » ، فقال :

« الإله أطلقته العرب على كل معبود بحق أو باطل ، فجاء الشرع فنفي ما سواه ، وهو : لا إله إلا الله ، أي : لا معبود بحق إلا الله ، لأنه لا مستحق للاتصاف بالكمالات سواه »^(٤) .

وفي هذا القول نص صريح في أن معنى كلمة التوحيد : نفي المعبودات سوى الله تعالى ، وإثبات العبادة له وحده دون شريك .

(١) انظر ص ٥١ .

(٢) المفهم للقرطبي (١٤/٢) ، ومواهب الجليل (٤٩٣/١) .

(٣) هو أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى الرفسي الفاسي ، زروق ، فقيه محدث ، أخذ عن أئمة المشرق والمغرب ، له تصانيف كثيرة يميل فيها إلى الاختصار مع التحرير ، منها : شرح مختصر خليل ، والنصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية ، والقواعد في التصوف ، واللجنة للمعتصم من البدع بالسنة ، وشرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، وغيرها . مات سنة ٨٩٩هـ .

انظر : شجرة النور (٢٦٧) ، والأعلام (٩١/١) .

(٤) النوازل لأبي الحسن العلمي (٢٩٧/٣) . ط . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية ١٤٠٩هـ .

٤٦— وبين التلمساني الفاسي^(١) معنى « لا إله إلا الله » ، فقال :

« إنما يسلط النفي في كلمة الشهادة على كل ما يفرضه العقل من عدد كل إله معبود بالحق خاصة ، لا على الآلهة المعبودة بباطل ، إذ النفي إنما يقع على ما لم يكن لا على ما كان . والمعبود بباطل لا عبرة بألوهيته ، لأنه لا يستحق عبادة »^(٢) .

٤٧— وفسر ابن عرضون^(٣) قول التلمساني ، فقال :

« جواب المفتي صريح في أن النفي لا يتسلط على المعبود بباطل ، فلا معنى للتردد في ذلك ، وقد قال : لأن النفي إنما يقع على ما لم يكن لا على ما كان ، والذي لم يكن هو المعبود بحق غير مولانا جل وعز ، فهذا هو المنفي الذي يتسلط النفي عليه .

وأما المعبود بباطل فهذا هو موجود ، ولكن لا غيرة بألوهيته وبتسميته إلهاً ، فإذا قلت : لا رجل في الدار إلا زيد ، فقد خبرت بنفي حقيقة الرجل من الدار غير زيد ، ولو سمي القلم أو المعارض بالرجل ، فلا ينتفي من الدار وجود القلم وإن سمي بالرجل »^(٤) .

وكلام التلمساني وابن عرضون نحو من كلام زروق الذي مضى .

٤٨— وقد أقر هذه الأقوال صاحب كتاب النوازل بإيراده هذه النقول عند بيانه معنى « لا إله إلا الله » .

(١) أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن جلال التلمساني ، مفتي فاس وشيخ الجماعة بها ، فقيه عالم قدوة مفضل ، مات سنة ٩٨١هـ . انظر شجرة النور (٢٨٥) .

(٢) النوازل (٢٩٥/٣) .

(٣) هو أحمد بن الحسن بن عرضون ، أبو العباس ، قاض من فقهاء المالكية ، مغربي من أهل شفشاون ، له كتب ، منها : اللائق لعلم الوثائق - فقه - ، وآداب الزواج وتربية الولدان . مات سنة ٩٩٢هـ .

انظر الأعلام (١١٠/١) .

(٤) النوازل (٢٩٥/٣) .

٤٩ — وبنفس المعنى نقل ميارة قول ابن عاشر مقرأً له ، فقال :

« لا شك أنها مشتملة على نفي وإثبات ، فالنفي كل فرد من أفراد حقيقة الإله غير مولانا جل وعز ، والمثبت من تلك الحقيقة فرد واحد ، وهو مولانا جل وعز . وأتى بالآ لقصد حقيقة الإله عليه ﷺ ، بمعنى : أنه لا يحكم أن توجد تلك الحقيقة لغيره تعالى عقلاً ولا شرعاً ... » .

ثم ذكر أن الله ﷻ هو المستحق للعبادة ، فقال :

« لا مستحق للعبودية له موجود أو في الوجود إلاّ الفرد الذي هو خالق العالم جلّ وعزّ ... وهو صريح في أن المنفي هو ما قد يتوهم من تعدّد المعبود بحق »^(١) .

٥٠ — وقال أبو القاسم الفجيجي^(٢) :

« ومعنى لا إله إلاّ	الله جلّ الربّ نعم المولى
ما في الوجود من إله يعبد	بالحق إلاّ الله فرد صمد
وهي رد خطأ المعتقد	أن إله الحق ذو تعدد

فصرح أيضاً بأن المنفي هو ما قد يتوهم من تعدد المعبود بحق ، وأما المعبود بباطل فلم يتعرض له ، إذ هو موجود فلا يصح نفيه »^(٣) .

(١) الدر الثمين والمورد المعين (٥٣/١) . ط. الحلبي - مصر ، ط. الأخيرة ١٣٧٣هـ .

(٢) هو أبو القاسم بن محمد بن عبد الجبار الفجيجي ، فقيه مغربي محدّث ، تولى الإفتاء والقضاء ، واشتغل بالتدريس ، وامتاز بالشجاعة والفروسية واستعمال آلات الحرب ومباشرتها بنفسه ، شارك في معركة وادي المخازن التي سحق فيها الجيش المغربي الجيش البرتغالي ، مات سنة ١٠١١هـ .
انظر : أعلام المغرب العربي (١٤٣/٢) ، وموسوعة أعلام المغرب (١١٦٢/٣) .

(٣) الدر الثمين (٥٤) .

٥١- وقد نظم هذا المعنى الأجهوري^(١) ، فقال :

وكلمة التوحيد مفهوماً تفيد	نفي الإله عن سوى الله المجيد
كذلك للسبكي والقرافي	تفيد بالمنطوق ذا يا وافي
مبناه الاستثناء من النفي يفيد	ضده لا السكوت عنه يا رشيد
أي أن ما استثنى فيه ما حصل	ضد الذي منه الثني بلا زلل ^(٢)

٥٢- وقال الهبطي^(٣) في جواب له عن معنى « لا إله إلا الله » :

« اعلم - هداك الله للتحقيق ، وسلك بك سواء الطريق - أنها على الجملة دون التفصيل ، خبر عن نفي الألوهية عن غير الله ، أي : عدمها في حق غيره عدم استحالة ، بحيث لا تقبل الوجود بوجه ولا بحال^(٤) ، والمقصود بإثباتها لله وجودها له ... »^(٥) .

(١) هو علي بن محمد بن عبد الرحمن بن علي ، أبو الإرشاد ، نور الدين الأجهوري المصري المالكي ، عالم أديب مشارك في الفقه والكلام والحديث ومصطلحه والسيرة النبوية والمنطق وغيرها ، من كتبه : مواهب الجليل في تحرير ما حواه مختصر خليل ، وشرح الدرر السنية في نظم السيرة النبوية ، والنور الوهاج في الكلام على الإسراء والمعراج ، وشرح رسالة ابن أبي زيد ، وغيرها . مات سنة ١٠٦٦ هـ . انظر : معجم المؤلفين (٢٠٧/٧) ، والأعلام (١٣/٥) .

(٢) فضائل شهر رمضان للأجهوري (٢٤٦-٢٤٧) . ط . دار القاضي عياض - القاهرة .

(٣) هو عبدالله بن محمد الهبطي ، أبو محمد ، من كبار الزهاد في المغرب ، أصله من صنهاجة طنجة ، ولما استولى السلطان محمد الشيخ على ملك المغرب بفاس دعاه إليه ففاوضه في أمر الدين والأمة ، وكان السلطان يطيعه ويحله ، صنف كتباً أكبرها : الإشادة بمعرفة مدلول كلمة الشهادة ، وله منظومة في فقه مالك ، وأجوبة في مسائل من التوحيد . مات سنة ٩٦٣ هـ . انظر الأعلام (١٢٨/٤) .

(٤) الصواب ما ذكره الله ﷻ من تسمية ما عُبد من دونه آلهة ، قال تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ﴾ ، والعرب أطلقوا الإله على كل معبود ، فجاء الشرع بالكلمة العاصمة بنفي ما سوى الله إلهاً بحق ، أي : لا معبود حق إلا الله تعالى .

(٥) التوازل (٢٩٨/٣) .

٥٣— وذكر النفراوي^(١) عند شرحه لجمال الأذان ، وعند قوله : « أشهد أن لا إله إلا الله ... » :

« قوله : أي أتحقق وأذعن أن لا معبود بحق سواه » .

فبين أن معنى كلمة التوحيد : إفراد الله تعالى بالعبادة ، ومن هنا فسر الإخلاص الوارد في قوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾^(٢) بقوله : « الإخلاص : إفراد المعبود بالعبادة »^(٣) .

٥٥— وأما محمد بن يحيى المختار ، فقال - عند شرحه حديث ابن عمر : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ... »^(٤) - :

« أي : لا إله معبود على الحق إلا الله عَزَّ وَجَلَّ »^(٥) .

وعند قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾^(٦) قال :

« أي منقادون إلى العمل بمقتضى الشهادة ، وهو اختصاص الله تعالى بالوحدانية والعبادة ، وعدم إشراك شيء به ... »^(٧) .

(١) هو أحمد بن غنيم أو غانم بن سالم بن مهنا ، شهاب الدين النفراوي الأزهرى المالكي ، فقيه من بلدة نفرى بمصر ، وكان ذا علم وفضل وذكاء ، له كتب ، منها : الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، ورسالة في التعليق على البسملة . مات سنة ١١٢٦هـ ، وقيل : ١١٢٠هـ .
انظر : سلك الدرر (١/١٤٨) ، والأعلام (١/١٩٢) .

(٢) سورة البينة : ٥ .

(٣) الفواكه الدواني (١/١٤٤) .

(٤) سبق تخريجه ص ٦٦ .

(٥) نور الحق الصبيح (١/٤١) . ط . دار عالم الكتب - الرياض .

(٦) سورة آل عمران : ٦٤ .

(٧) نور الحق الصبيح (١/٣٥) .

فما ذكره رحمه الله يجلي معنى التوحيد ، وأن معناه عنده : لا معبود بحق إلا الله .
٥٦ — وأما الميلي فقد فسر الإله بالمعبود ، قال :

« فإذا كانت العبادة هي الاتقياد والخضوع على وجه التقرب ، فإن الإله هو المعبود تلك العبادة ، فمن قصرها على الله فقد وحّده ، وعبد عبادة شرعية ، ومن وجد هذا المعنى في نفسه لغير الله فقد اتخذ ذلك الغير إلهاً ، وكانت عبادته شركية ، سواء سماه إلهاً أم لم يسمّه إلهاً ، وسواء عبّر عن المعنى الذي في نفسه بالعبادة أم عبر عنه بعبارة أخرى ، فإن تسمية الشيء بغير اسمه لا ييطل حقيقته ، ولا يغيّر حكمه »^(١) .

٥٧ — وقال أيضاً :

« يدخل المرء في الإسلام بقوله : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ومعنى الجملة الأولى : أنه لا يعترف لغير الله بقوة غيبية تخضع لها روحه ، فلا يخضع لسواه ولا يعبد إلا إياه . ومعنى الجملة الثانية : أن لا يعبد بهواه ، ولا بهوى أحد من أهل المترلة والجاه ، وإنما يعبد بما جاء به الرسول .

فمحصل الجملتين : أن لا يعبد إلا الله وأن لا يعبد إلا بما شرعه على لسان رسوله . وعلى هذين الأصلين انبنى الإسلام »^(٢) .

فبين أن العبادة حق الله تعالى وحده ، وصرفها لغيره شرك ، وهو معنى « لا إله إلا الله » .

٥٨ — وأكد هذا المعنى بقوله :

« وهذه أركان الإسلام الخمسة إنما شرعت - كسائر العبادات - للاحتفاظ بالتوحيد ، والابتعاد عن الوثنية ، فلم يكتف بالشهادتين بالتوحيد المجرد ، حتى صرح بنفي التعدد ، وحصر التشريع في شخص المرسل بالتبليغ .

ولم يقتصر في الصلاة على افتتاحها بالتكبير الذي فيه تعريض باطراح الأوثان ،

(١) رسالة الشرك ومظاهره (٩٠) للميلي .

(٢) رسالة الشرك ومظاهره (٣٢) للميلي .

حتى خللت به وكرّر فيها مخاطبة ربّ العالمين بإياك نعبد وإياك نستعين ، وزكاة المرء شعار غناه ، ودليل اعترافه للربّ بجليل نعماه ، وأنه لا دخل فيها للأصنام وكل ما سواه .

والصوم يذر فيه الصائم شهوته وطعامه وشرابه من أجل مولاه ، ويراقبه وهو صائم ، ولو انفرد بمحل سكناه .

والحج فاتحة الإحرام المصحوب بالتلبية المتكررة في كل حال ، وهي صريحة في حياطة التوحيد بنكران الشريك » .

ثم نقل قول أبي إسحاق الشاطبي في الموافقات : « نحن نعلم أن النطق بالشهادتين والصلاة وغيرها من العبادات إنما شرعت للتقرب بها إلى الله ، والرجوع إليه ، وإفراده بالتعظيم والإجلال ، ومطابقة القلب للجوارح في الطاعة والانقياد »^(١) .

٥٩ — وأما ابن عاشور^(٢) فقد بيّن معنى « لا إله إلا الله » في تفسير قوله تعالى : ﴿ وإلهكم إله واحد ... ﴾^(٣) ، فقال :

« والإله في كلام العرب هو المعبود ، ولذلك تعددت الآلهة عندهم ، وأطلق لفظ الإله على كل صنم عبده ، وهو إطلاق ناشئ عن الضلال في حقيقة الإله ؛ لأن عبادة من لا يغني عن نفسه ولا عن عابده شيئاً عبث وغلط ، فوصف الإله هنا بالواحد ؛ لأنه في نفس الأمر هو المعبود بحق ، فليس إطلاق الإله على المعبود بحق

(١) رسالة الشرك (٢٠) .

(٢) هو محمد الطاهر بن عاشور ، رئيس المفتين المالكيين بتونس ، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس ، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة ، له مصنفات مطبوعة ، من أشهرها : التحرير والتنوير - في تفسير القرآن - ، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام ، والوقف وآثاره في الإسلام ، وموجز البلاغة . مات سنة ١٣٩٣هـ . انظر الأعلام (١٧٤/٦) .

(٣) سورة البقرة : ١٦٣ .

نقلًا في لغة الإسلام ، ولكنه تحقيق للحق»^(١) .

فبين بهذا الكلام المستقيم أن العبادة وإن صرفت لغير الله ظلماً وجهاً ، فإنها لا اعتداد بها ، وإنما العبرة بعبادة المستحق ، بأن يعبد وحده ، وهذه هي حقيقة كلمة التوحيد .

٦٠ — وذكر أيضاً أن ما ورد في القرآن من إطلاق لفظ (الآلهة) على أصنامهم فهو في مقام التغليظ لزعمتهم ، نحو : ﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة ﴾^(٢) ، قال :

« والقرينة هو الجمع ، ولذلك لم يطلق في القرآن الإله بالإنفراد على المعبود بغير حق »^(٣) .

٦١ — وعند قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون ﴾ قال :

« وفرع فيما أوحى إليهم أمره إياهم بعبادته على الإعلان بأن لا إله غيره ، فكان استحقاق العبادة خاصاً به تعالى »^(٤) .

وعند قوله تعالى : ﴿ الله خير أم ما يشركون ﴾ قال :

« أجملت الاستدلال على أحقية الله تعالى بالإلهية وحده »^(٥) .

وبهذا يتبين أن العبادة حق الله وحده ، وهو معنى التوحيد .

(١) التحرير والتنوير (٧٤/٢) . ومراده : أن الشرع لم ينقل كلمة المعبود من حقيقتها اللغوية إلى حقيقة شرعية جديدة ، كما هو الحال في (الوضوء) ، (الصلاة) ... ، وإنما هي إحقاق للحق في هذه الكلمة (الإله) ، وإطلاقها على المستحق لها وحده .

(٢) سورة الأحقاف : ٢٨ .

(٣) التحرير والتنوير (٧٤/٢) .

(٤) التحرير والتنوير (٤٩/١٧) .

(٥) التحرير والتنوير (١٨/٢٠) .

٦٢- ويبيّن الشيخ محمّد بن الأمين رحمه الله معنى « لا إله إلا الله » ، فقال :

« معناها : لا معبود بحق إلا الله »^(١) .

٦٣- وقال في كلام كالشرح لهذا المعنى الموجز : « إن توحيد الألوهية هو معنى

كلمة (لا إله إلا الله) ، وهي بلا شك متضمنة لجميع الشرائع »^(٢) .

٦٤- وقال : « إن الركن الأكبر - الذي هو توحيد الله بأنواعه ، المستلزم

إفراده بالعبادة وحده - هو منتهى التحرر من الرقّ والعبودية للمخلوقين ، ومن

جملتهم النفس والهوى والشيطان ... »^(٣) .

٦٥- وذكر أن التوحيد مبني على أصليين ، هما : النفي والإثبات في « لا إله إلا

الله » ، قال :

« فهو مبني على أصليين ، هما : النفي والإثبات في « لا إله إلا الله » ، فمعنى

النفي منها : خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادة كائنة ما

كانت ، ومعنى الإثبات منها : هو إفراده جلّ وعلا وحده بجميع أنواع العبادة على

الوجه الذي شرع أن يعبد به . قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن

اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾^(٤) »^(٥) .

وزاد المعنى السابق توضيحاً ، حيث بيّن أن الدين الإسلامي قائم على هذه

الكلمة ، فقال - عند تفسير قوله تعالى : ﴿ قل إنما يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد

فهل أنتم مسلمون ﴾^(٦) - :

« إن حصر الوحي في آية الأنبياء هذه في توحيد العبادة حصر له في أصله

(١) أضواء البيان (٤/ ٥٠٨ ، ٦/ ٢٧٣) ، ومعارج الصعود (١٤٣) .

(٢) معارج الصعود (٤٠) للشيخ محمّد الأمين . ط. دار المجتمع ، ط. الأولى ١٤٠٨هـ .

(٣) فحج التشريع الإسلامي للشنقيطي (١١) . ط. الجامعة الإسلامية - ط. الأولى .

(٤) سورة النحل : ٣٦ .

(٥) المعين والزاد - جمع سيد الأمين بن المامي الجكني (٦٥) . ط. الأولى ١٣٩٦هـ .

(٦) سورة الأنبياء : ١٠٨ .

الأعظم ، الذي يرجع إليه جميع الفروع ، لأن شرائع الأنبياء كلهم داخلية في ضمن معنى « لا إله إلا الله » ؛ لأن معناها : خلع جميع المعبودات غير الله جل وعلا في جميع أنواع العبادات ، وإفراده جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات ، فيدخل في ذلك جميع الأوامر والنواهي القولية والفعلية والاعتقادية ^(١) .

فتفسير الشيخ رحمه الله لمعنى « لا إله إلا الله » هو الصواب الذي سار عليه بعض علماء المالكية ، كما ذكرت في هذا المبحث .

وفيه تبين مدى عناية أئمة المالكية وعلمائهم رحمهم الله تعالى بكلمة التوحيد ، وبيان معناها عندهم ، فـ « لا إله إلا الله » معناها عندهم : لا معبود بحق إلا الله تعالى ، أو إفراد الله تعالى بالعبادة ، وهو الحق الذي تدل عليه النصوص الشرعية من الكتاب والسنة ، وسار عليه سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين ، وسطره أئمة المالكية ، وذلك من خلال النصوص التي تم نقلها عنهم رحمهم الله تعالى في هذا المبحث .

(١) أضواء البيان (٨/٣) .

المبحث الثالث

شروط « لا إله إلا الله »

تحدث علماء المالكية عن شروط للشهادة ، وأفردوها بالذكر مقترنة بأدلتها الكاشفة عنها ، أذكرها فيما يلي بنصوص مختلفة لعلمائهم تكشف عن اهتمامهم بها . من ذلك أنهم تكلموا عن مسألة مهمة في هذا الباب :

وهي : ما إذا نطق غير المسلم بكلمة التوحيد ، فينظر إن كان من أهل الأوثان والمشركون ومن لا يوحد ، فإنه يقبل منه ذلك الإقرار بالتوحيد ؛ لأنه لم يكن يقر به .

وإن كان من أهل الكتاب ممن يقرّ بالتوحيد ، فلا يكتفى بعصمته بقوله : لا إله إلا الله .

وقد بين الإمام مالك رحمه الله ذلك في كلامه على ثبوت حد الردّة ، فلم يكتف رحمه الله بمجرد التشهد والإقرار بالنبي ﷺ ، ومعرفة الفرائض ، بل لا بد من ثبوت الإسلام عنده ، وتطبيقه لشرائعه وأحكامه .

١— قال ابن القاسم :

« سمعت مالكا يقول : لا يقتل على الارتداد إلا من ثبت عليه أنه كان على الإسلام ، يعرف ذلك منه طائعا يصلي ، مقرّا بالإسلام »^(١) .

٢— وذكر أصبغ أن ابن وهب قال بمثل ما قال مالك^(٢) .

٣— وبين هذا المعنى ابن رشد بقوله :

« وجه ما ذهب إليه ابن وهب ومالك فيما حكى ابن القاسم ، من أنه لا يستتاب ولا يقتل حتى يصلي : اتباع ظاهر قول النبي ﷺ : « من بدل دينه فاضربوا عنقه » ؛ لأنه لا يستحق أحد التسمية بأنه على دين الإسلام إلا بالتمادي على فعل

(١) البيان والتحصيل (٤٣٣/١٦) .

(٢) البيان والتحصيل (٤٣٣/١٦) .

شرائعه ، من الصلاة والزكاة والصيام والحج ، لقول النبي ﷺ : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً »^(١) .

ومعنى قولهم : إن المحكوم له بالإسلام لا يكتفى في حقه بالتشهد للحكم بإسلامه حتى يحقق الناطق لها ما يترتب عليها من شرائع الإسلام الظاهرة ، كالصلاة والزكاة ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾^(٢) .

٤— ونقل ابن بطلال عن المهلب^(٣) قولاً على سبيل الإقرار أنه لا يعصم الدم والمال إلا هذه الدعائم الخمس وإدامتها ، فعند شرح حديث : « بني الإسلام على خمس ... » قال ابن بطلال :

« قال المهلب : فهذه الخمس هي دعائم الإسلام ، التي بها ثباته ، وعليها اعتماده ، وبإدامتها يعصم الدم والمال ، ألا ترى قوله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقّها ، وحسابهم على الله » ؟ »^(٤) .

٥— وذكر ابن رشد أنه لا بد مع الإقرار بالتزام سائر قواعد الإسلام ، قال - في معنى قوله : « حتى يقولوا : لا إله إلا الله » - :

« أي : حتى يسلموا ، فيقولوا : لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ، ويلتزموا

(١) البيان والتحصيل (١٦/٤٣٤-٤٣٥) .

(٢) سورة التوبة : ٥ .

(٣) هو المهلب بن أحمد بن أبي صفرة أسيد بن عبدالله ، الأسدي الأندلسي ، مصنف شرح صحيح البخاري ، كان أحد الأئمة الفصحاء الموصوفين بالذكاء ، وله كلام في شرح الموطأ . مات بالأندلس عام ٤٣٥ هـ .

انظر : السير (١٧/٥٧٩) ، وبغية الملتبس (٤٧١) .

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطلال (١/٥٩) .

سائر قواعد الإسلام»^(١) .

٦— ولحظ هذا المعنى القاضي عياض رحمه الله ، فقال : « اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال : لا إله إلا الله ، تعبير عن الإجابة إلى الإيمان ، وأن المراد بهذا مشركو العرب ، وأهل الأوثان ، ومن لا يوحد ، وهم كانوا أول من دعي إلى الإسلام وقوتل عليه ، فأما غيرهم ممن يقرّ بالتوحيد فلا يكتفى في عصمته بقوله : لا إله إلا الله ، إذ كان يقولها في كفره ، وهي من اعتقاده ، ولذلك جاء في الحديث الآخر : « وأني رسول الله ، وقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة »^(٢)»^(٣) .

٧— وذكر ابن عبد البر أن الكافر إذا قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، غير جاد ، فإن ذلك لا يدخله في الإسلام ، قال : « وكل كافر قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، لاعباً غير راغب في الإسلام ، فإن ذلك لا يوجب عليه الدخول في الإسلام إذا أباه ، وإنما يدخل في الإسلام الراغب الطائع غير المكروه »^(٤) .

٨— ويمثل ذلك ما نقله المواق^(٥) من :

« أن نطق الكافر بالشهادتين ، ووقف على شرائع الإسلام وحدوده ، ثم التزمها إسلامه^(٦) ، وإن أبى من التزامها لم يقبل منه إسلامه ، ولم يكره على التزامها ، وترك

(١) البيان والتحصيل (٢٣٠/١٧) .

(٢) خرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله (٥١/١) برقم (٢١) ، والبخاري في كتاب الإيمان ، باب ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ .

الفتح (٧٥/١) برقم (٢٥) .

(٣) إكمال المعلم (٢٤٦/١) .

(٤) الكافي لابن عبد البر (١٠٩٣/٢) . مكتبة الرياض الحديثة ، ط. الأولى ١٣٩٨ هـ .

(٥) هو محمد بن يوسف بن أبي القاسم بن يوسف العبدوي الغرناطي ، أبو عبد الله المواق ، فقيه كان عالم غرناطة وفقيها وإمامها وصالحها ، المتحلي بالوقار ، وخاتمة علماء الأندلس الكبار ، له : التاج والإكليل في شرح مختصر خليل ، وسنن المهتدين في مقامات الدين . مات سنة ٨٩٧ هـ .

انظر : شجرة النور (٢٦٢) ، ونيل الابتهاج (٥٦١/٢) .

(٦) كذا في النص ، والمعنى : حكم بإسلامه .

على دينه ، ولم يعد مرتدًا»^(١) .

٩- وقال الصاوي^(٢) : « ولا بد في تقرير الإسلام من الوقوف على الدعائم والتزامه الأحكام بعد نطقه بالشهادتين ، فمن نطق بهما ثم رجع قبل أن يقف على الدعائم فلا يكون مرتدًا»^(٣) .

١٠- وقال الخرشي^(٤) : « ولا يتقرر الإسلام إلا بالنطق بالشهادتين مع التزام أحكامهما»^(٥) .

١١-١٢- ونظيره ما ذكره الأزهرى^(٦) والدسوقي^(٧) .

وخلاصة القول : أن عصمة الدم والمال لا تتحقق إلا بالتزام شرائع الإسلام وأحكامه من الكافر الكتابي ، ولا يكتفى بالإقرار فقط ، بل لا بد من أن يتبع ذلك العمل بشرائع الإسلام وأحكامه ، فذكرهم تلك التفاصيل بما يدل على اهتمام هؤلاء الأئمة رحمهم الله بهذه الكلمة العظيمة ، وما يلزم لها .

فإذا كان غير المسلم مطالباً بالعمل بمقتضى « لا إله إلا الله » إذا أسلم ليقبل إسلامه ، فلا شك ولا ريب أن المسلم الأصلي من باب أولى .

(١) مواهب الجليل (٣٧٠/٨) . دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى - بيروت ١٤١٦هـ .

(٢) هو أحمد بن محمد الخلوئي ، الشهير بالصاوي ، فقيه مالكي ، نسبته إلى " حباء الحجر " في إقليم الغربية بمصر . من كتبه : حاشية تفسير الجلالين ، وبلغة السالك لأقرب المسالك على الشرح الصغير للشيخ أحمد الدردير ، والفرائد السنية شرح همزية البوصيري . مات سنة ١٢٤١هـ . انظر الأعلام (٢٤٦/١) .

(٣) بلغة السالك (٢٢٤/٤) .

(٤) هو محمد بن عبد الله الخرشي المالكي ، أبو عبد الله ، أول من تولى مشيخة الأزهر ، كان فقيهاً فاضلاً ورعاً ، متفق على فضله وحسن سيرته ، من كتبه : الشرح الكبير على متن خليل - في فقه المالكية - ومنتهى الرغبة في حل ألفاظ النخبة لابن حجر في مصطلح الحديث ، والفرائد السنية شرح المقدمة السنوسية في التوحيد . مات سنة ١١٠١هـ .

انظر : سلك الدرر (٦٢/٢) ، والأعلام (٢٤٠/٦) .

(٥) الخرشي على مختصر خليل (٦٢/٨) .

(٦) انظر جواهر الإكليل (٢٧٧/٢) .

(٧) انظر حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (٣٠١/٤) .

ومن هنا جاء الردّ من علماء المالكية رحمهم الله تعالى على من تمسّك بالأحاديث المطلقة في فضل « لا إله إلاّ الله » ، وبينوا أن « لا إله إلاّ الله » لها مستلزمات وشروطاً ، ولا بد من العمل بمقتضاها .

١٣ — وفي هذا يقول ابن القاسم :

« قلنا لمالك : الإيمان قول وعمل ، أو قول بلا عمل ؟ قال مالك : بل قول وعمل »^(١) .

١٤ — وقال أشهب بن عبد العزيز - مبيناً قول مالك في كون العمل من الإيمان واستدلّاه بما ورد في القرآن الكريم - : « قال مالك : أقام الناس يصلون نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً ، ثم أمروا بالبيت الحرام ، فقال تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾^(٢) يعني : صلاتكم إلى بيت المقدس » .

١٥ — قال مالك : « وإني لأذكر بهذه الآية قول المرجئة : إن الصلاة ليست من الإيمان »^(٣) .

(١) البيان والتحصيل (٥٨٥/١٨) .

الإيمان قول وعمل واعتقاد ، وقد ورد هذا القول عن ابن مسعود ، وحذيفة ، والإمام الشافعي ، والإمام أحمد ، وهو قول الثوري ، والأوزاعي ، والحسن ، ومعمّر بن راشد ، وابن جريج ، وسفيان بن عيينة ، وعطاء ، وطاوس ، ومجاهد ، وابن المبارك ، والفضيل بن عياض ، وابن أبي شيبة ، وغيرهم من السلف . بل ذكر الحافظ أن اللالكائي روى في كتاب السنة بسند صحيح عن البخاري قال : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار ، فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص . [الشريعة للآجري (١١٨) ، السنة للالكائي (٨٤٨/٤-٨٤٩) ، التمهيد لابن عبد البر (٢٥٣/٩) ، حلية الأولياء لأبي نعيم (١١٥/٩) ، مناقب الشافعي للبيهقي (٣٨٥/١) ، فتح الباري (٤٧/١)] . وانظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (١٧٣/١-١٧٤) .

وحكى الإجماع على ذلك غير واحد من العلماء ، كالشافعي ، والبخاري ، وابن عبد البر . [شرح السنة للبخاري (٣٨/١-٣٩) ، التمهيد (٢٣٨/٩) ، جامع العلوم والحكم لابن رجب (٦٢/١)] .

(٢) سورة البقرة : ١٤٣ .

(٣) ترتيب المدارك (٤٣/٢) .

وقال أبو سلمة الخزاعي^(١) : « قال مالك : الإيمان المعرفة والإقرار والعمل »^(٢).

ففي كلام مالك في هذه النصوص بيان ثلاثة شروط :

أولها : علم الناطق بلا إله إلا الله ، ومعناها وهو ما أراد بالمعرفة .

والثاني : نطق لسانه بكلمة التوحيد ، وهو مراده بالإقرار .

والثالث : العمل بمقتضى هذه الشهادة ، وذلك بالائتمار بما أمر الله به فعلاً ،

وترك ما نهى عنه .

وأشار ابن بطال رحمه الله في شرحه لصحيح البخاري إلى أن لا إله إلا الله لا بد

لها من حق وفرض ، وذلك فيما نقله عن السلف ، قال :

١٦ — « سأل هشام بن عبد الملك^(٣) الزهري^(٤) فقال : حدثنا بحديث النبي

ﷺ : « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، وإن زنى وإن سرق »^(٥) .

فقال الزهري : « أين يذهب بك يا أمير المؤمنين ؟! إن كان هذا قبل الأمر

(١) منصور بن سلمة بن عبد العزيز ، أبو سلمة الخزاعي ، البغدادي ، ثقة ثبت حافظ ، ت ٢١٠ هـ .
التقريب (٥٤٧) .

(٢) رواه الخلال في السنة (رقم ١٠٠٦) ، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٨٠٦/٢ رقم ١٠٩٦) ، واللالكائي
في شرح السنة (٨٤٨/٤ رقم ١٥٨٧) .

(٣) هو هشام بن عبد الملك بن مروان ، من ملوك الدولة الأموية في الشام ، كان حسن السياسة ، يقظاً في
أمره ، يباشر الأعمال بنفسه . مات سنة ١٢٥ هـ .

انظر : الأعلام (٨٦/٨) ، والسير (٣٥١/٥) .

(٤) هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري ، أحد الفقهاء والمحدثين والأعلام
التابعين بالمدينة ، رأى عشرة من الصحابة رضي الله عنهم ، وروى عن جماعة من الأئمة . مات سنة ١٢٤ هـ ،
وقيل : ١٢٣ هـ . والله أعلم .

انظر : السير (٣٢٦/٥) ، ووفيات الأعيان (١٧٧/٤) .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله . الفتح
(١٠٩/٣) برقم (١٢٣٧) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ،
ومن مات مشركاً دخل النار (٩٤/١) برقم (٩٤) .

والنهي»^(١) .

وأورد أثر الحسن^(٢) ، قال : ذكر الطبري^(٣) بسنده قال : قيل للحسن : من قال : لا إله إلا الله ، دخل الجنة ؟ فقال : « من قال : لا إله إلا الله ، فأدى حقها وفرضيتها ؛ دخل الجنة »^(٤) .

١٧ — وكذا أورد قول وهب بن منبه^(٥) : « إن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك »^(٦) ، ثم قال :

« فإنما أراد بالأسنان القواعد التي بني الإسلام عليها ، التي هي كمال الإيمان ودعائمه »^(٧) .

١٨ — وعقب ابن العربي على قول وهب بن منبه : « لا إله إلا الله مفتاح له

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٢٠٨/١) .

(٢) هو الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ، من سادات التابعين وكبرائهم ، جمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة . قال الذهبي : كان سيد أهل زمانه علماً وعملاً . مات سنة ١١٠ هـ .

انظر : السير (٥٦٣/٤) ، ووفيات الأعيان (٦٩/٢) .

(٣) هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب ، أبو جعفر الطبري ، أحد أئمة العلماء ويرجع إلى رأيه لمعرفة وفضله ، وقد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، وكان حافظاً لكتاب الله ، عالماً بالقراءات ، بصيراً بالمعاني ، فقيهاً في أحكام القرآن ، عالماً بالسنن وطرقها ، وصحيحها وسقيمها ، وناسخها ومنسوخها ، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم . له تاريخ الأمم والملوك ، وكتاب التفسير ، وكتاب تهذيب الآثار ، وغيرها . مات سنة ٣١٠ هـ .

انظر : تاريخ بغداد (١٥٩/٢) ، وطبقات المفسرين (١٠٦/٢) .

(٤) أورده ابن سعد في الطبقات (١٤٠/٧) ، والذهبي في السير (٥٨٤/٤) .

(٥) هو وهب بن منبه بن كامل بن سبيح بن ذي كبار ، أبو عبد الله الأنباري اليماني ، تابعي ثقة ، وكان على قضاء صنعاء . قيل : مكث عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءاً . مات سنة ١١٤ هـ ، وقيل : ١١٣ هـ .

انظر : طبقات ابن سعد (٥٤٣/٥) ، والسير (٥٤٤/٤) .

(٦) ذكره البخاري تعليقاً في كتاب الجنائز ، باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله (١٠٩/٣) برقم (١٢٣٦) ، ووصله في التاريخ ، وأبو نعيم في الحلية .

(٧) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٢٣٧/٣) .

أسنان ، إن جئت بالمفتاح بأسنانه فتح لك ، وإلا لم يفتح » بقوله :
« وقول وهب بن منه صحيح ، فإن الأسنان إذا كملت في المفتاح فتح من
غير ريب ، وإن زالت الأسنان أو بعضها كان الشك في حال الفتح والفتح
والمفتوح »^(١).

وذكر الشنقيطي^(٢) عند حديث عتبان رضي الله عنه^(٣) : أن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنكر
على محمود بن الربيع رضي الله عنه تحديثه بحديث عتبان لما يقتضيه ظاهره من أن النار محرمة
على جميع الموحدين ، وأحاديث الشفاعة دالة على أن بعضهم يعذب ، قال :
« ولكن للعلماء أجوبة عن ذلك ؛ منها : أن ذلك فيمن قال الكلمة ، وأدى
حقها وفرضيتها ، فيكون الامتثال والانتفاء مدرجين تحت الشهادتين »^(٤) .
وبعد هذا البيان الشافي من أئمة المالكية ، نذكر أقوالهم في الشروط التي لا بد
لقائل « لا إله إلا الله » من تحقيقها ، ومنها :

(١) عارضة الأحوذى (١٠/١٠٥) .

(٢) هو محمد الخضر بن عبدالله بن أحمد ابن مايابي الجكني الشنقيطي ، مفتي المالكية بالمدينة المنورة ، ولد
وتفقه بشنقيط ، وهاجر إلى المدينة فتولى الإفتاء بها ، كان حافظاً لأغلب الكتب الستة ، ومختصر خليل
وشروحه وحواشيه ، وموطأ مالك . من كتبه : كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا البخاري ،
وغیره . مات سنة ١٣٥٤هـ .

انظر ترجمته في كوثر المعاني لابن أحمد الأمين (٧/١) ، والأعلام (١١٣/٦) .

(٣) الحديث عن عتبان : أن النبي ﷺ قال : « إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله ، يبتغي
بذلك وجه الله ﻻ ﻳﺮﻭﻱ » : أخرجه البخاري (٥١٨/١) برقم (٤٢٤) كتاب الصلاة ، باب إذا دخل بيتا
يصلي حيث يشاء ، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب الرخصة في التخلف عن
الجماعة بعذر (٤٥٥/١) برقم (٣٣) .

(٤) كوثر المعاني الدراري للشنقيطي (١١٢/٧) .

الشرط الأول : وجوب نطق اللسان مقروناً بتصديق القلب

١٩ — قال ابن العربي :

« قال مالك - في الكافر يوجد عند الدرب فيقول جئتُ مستأمنًا أطلب الأمان - : هذه أمور مشككة ، وأرى أن يردّ إلى مأمنه ولا يُحكم له بحكم الإسلام ؛ لأن الكفر قد ثبت له ، فلا بد أن يظهر منه ما يدلّ على أن الاعتقاد الفاسد قد تبدل باعتقاد صحيح ، يدلّ عليه قوله ، ولا يكفي فيه أن يقول : أنا مسلم ، ولا أنا مؤمن ، ولا أنا أصلي ، حتى يتكلم بالكلمة العاصمة التي علق النبي ﷺ الحكم بها عليه في قوله : " أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها ، وحسابهم على الله " ^(١) .

فصرّح رحمه الله بشرط الإقرار .

٢٠ — قال ابن القاسم :

« سمعت مالكا يقول - في النصراني يصحب القوم ، فيصليّ بهم أياماً ، ثم يتبين لهم أمره - : إنهم يعيدون كل صلاتهم في الوقت وفي غيره . قيل لمالك : أفيقتل بما أظهر من الإسلام عليه ، ومن إخفاء الكفر ؟ قال : لا أرى ذلك عليه ^(٢) .

وقد تقدّم قول مالك في النصراني يتشهد ^(٣) ، ولا يكون التشهد إلاّ بالنطق بكلمة التوحيد ، وهنا لم يعتد مالك رحمه الله بإظهار الإسلام من هذا النصراني ؛ لأنه لم يكن مقروناً بتصديق القلب ، فأمرهم بإعادة الصلاة ، فجمع بين النطق وتصديق القلب .

٢١ — ورأي سحنون في ذلك كمالك في إعادة الصلاة ، إلاّ أنه فرق من حيث القتل بين من يفعله خائفاً يداري عن نفسه وماله فلا سبيل عليه ، أو يفعله وهو

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٤٨٢/١) . ط. دار المعرفة - بيروت ، لبنان .

(٢) البيان والتحصيل (٤٢٦/١٦-٤٢٧) .

(٣) انظر قول مالك ص ٣٤ .

آمن^(١) .

٢٢— قال مالك في الرجل يقول : كفر بالله أو أشرك بالله ثم يحنث : « إنه ليس عليه كفارة ، وليس بكافر ولا مشرك حتى يكون قلبه مضمرًا على الشرك والكفر ، ويستغفر الله ولا يعد إلى شيء من ذلك ، وبئس ما صنع ! »^(٢) .

فعلق الحكم بحصول الشرك والكفر على ما انعقد عليه القلب ، وعليه فلا يحكم بالإسلام إلا بالنطق بالمنعقد عليه القلب .

٢٣— قال ابن أبي زيد القيرواني^(٣) في خطبة رسالته :

« باب ما تنطق به الألسنة ، وتعتقد الأفئدة من واجب أمور الديانات ومن ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان : أن الله واحد لا إله غيره ، ولا شبيهه ، ولا نظير له ، ولا ولد له ، ولا والد له ، ولا صاحبة له ، ولا شريك له ... »^(٤) .

فقرن بين النطق باللسان والإيمان بالقلب لحصول الإسلام المعتد به .

٢٤— وأما الباقلاني ، فقد ذكر أن القلب هو محل التصديق ، والإقرار باللسان ، والعمل بالجوارح ، وجميعها متلازمة . قال :

« واعلم أن محل التصديق القلب ، وهو أن يصدق القلب بأن الله واحد ، وأن الرسول حق ، وأن جميع ما جاء به الرسول حق ، وما يوجد من اللسان - وهو الإقرار - ، وما يوجد من الجوارح - وهو العمل - ، فإنما ذلك عبارة عما في القلب

(١) البيان والتحصيل (١٦/٤٢٦-٤٢٧) .

(٢) الموطأ (٢/٣٨٠) .

(٣) هو الإمام العلامة القدوة الفقيه ، عالم أهل المغرب ، أبو محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني ، المالكي ، ويقال له : مالك الصغير ، وكان أحد من برز في العلم والعمل ، حاز رئاسة الدين والدنيا ، ورُحل إليه من الأقطار ، ونُجِب أصحابه ، وكثر الآخذون عنه ، وهو الذي لخص المذهب ، وملا البلاد من تواليفه . من كتبه : النوادر والزيادات ، واختصر المدونة ، وكتاب الرسالة ، وكتاب الثقة بالله والتوكل عليه ، وكتاب إعجاز القرآن ، وكتاب العتبية على الأبواب ، ورسالة في التوحيد ، وغيرها . مات سنة ٣٨٦هـ . انظر : السير (١٧/١٠) ، وشجرة النور (١/٩٦) .

(٤) رسالة ابن أبي زيد القيرواني (١٧) . ط . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، ط . الثالثة

ودليل عليه ^(١) .

٢٥ — وقال :

« ونطق اللسان بالإيمان لا ينفع مع إصرار القلب على الكفر » ^(٢) .

٢٦ — وبين أن الإقرار بدون تصديق القلب لا ينفع في الآخرة ، قال :

« فلو أقرّ بلسانه ، وعمل بأركانه ، ولم يصدق بقلبه ؛ نفعه ذلك في أحكام الدنيا ، ولم ينفعه في الآخرة ، وقد بين ذلك ﷺ حيث قال : « يا معشر من آمن بلسانه ولما يدخل الإيمان في قلبه » ^(٣) » ^(٤) .

وبين بطلان قول الكرامية ^(٥) والمرجئة ^(٦) في قولهم : إن الإيمان إقرار باللسان ، وإن كان مجرداً !

٢٧ — فعند قوله تعالى : ﴿ ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ ^(٧) قال :

« هذه الآية حجة على الكرامية - ومن وافقهم من المرجئة - في قولهم : إن

(١) الإنصاف للباقلاني (٥٥) .

(٢) الإنصاف للباقلاني (٥٥-٥٦) .

(٣) خرجه الإمام أحمد (٤٢١/٤) برقم (١٩٧٧٦) ، وأبو داود في كتاب الأدب ، باب الغيبة برقم

(٤٨٨٠) ، والبيهقي في السنن (٤١٨/١٠) برقم (٢١١٦٤) . قال الأرناؤوط : إسناده حسن .

المسند (٤٢١/٤) .

(٤) الإنصاف (٥٥-٥٦) .

(٥) هم أتباع محمد بن كرام السجستاني المبتدع ، اشتهر عنهم القول بأن الإيمان هو القول باللسان دون

المعرفة بالقلب ، فمن نطق بلسانه ولم يعترف بقلبه فهو مؤمن ! وزعموا أن المنافقين كانوا مؤمنين

بالحقيقة ! ويرى بعض مصنفي كتب المقالات إدراجهم ضمن فرق المرجئة .

انظر : عقائد الثلاث والسبعين فرقة (٢٧٥/١) ، ومنهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل (٤٤١) .

(٦) المرجئة هم من يقول بالإرجاء ، أي بمعنى التأخير ، ومن ذلك قولهم عن الإيمان : إنه تصديق القلب !

وبذلك لم يدخلوا العمل في مسمى الإيمان ، وكذا قولهم : إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، وإنه لا يجوز

الاستثناء في الإيمان ! وهذا النوع من الإرجاء هو الذي بدّعه السلف .

انظر : منهج الشهرستاني (٤٨١) ، عقائد الثلاث والسبعين فرقة (٢٧١/١) ، وكتاب القدرية

والمرجئة نشأتها وأصولها وموقف السلف منها د. ناصر العقل (٧٨) .

(٧) سورة الحجرات : ١٤ .

الإيمان إقرار اللسان دون عقد القلب ، وقد ردّ الله قولهم في موضع آخر من كتابه : ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ﴾^(١) ، ولم يقل : كتب في ألسنتهم^(٢) .

٢٨ — ونقل ابن بطال قول شيخه المهلب :

« الإسلام على الحقيقة هو الإيمان الذي هو عقد القلب المصدق لإقرار اللسان ، الذي لا ينفع عند الله غيره ، ألا ترى قول الله للأعراب الذين قالوا : آمنا بألسنتهم دون تصديق قلوبهم : ﴿ قل لم تؤمنوا ﴾ ، فنفى عنهم الإيمان لما عري من عقد القلب بقوله : ﴿ ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾^(٣) .

فبين أن عقد القلب المصدق لإقرار اللسان هو المتعين ، ولا ينفع عند الله غيره .

٢٩ — وعند شرحه حديث أنس رضي الله عنه قال رضي الله عنه : « يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وفي قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وفي قلبه وزن بُرة من خير ، ويخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وفي قلبه وزن ذرة من خير^(٤) » قال ابن بطال :

« الأمة مجمعة على أن قول : لا إله إلا الله ، هو صريح الإيمان ، والتصديق الذي شبه بالذرة عمل القلب أيضاً » .

وأكد هذا المعنى بما نقله عن بعض العلماء :

« يحتمل أن تكون الذرة والشعيرة والبرة التي في القلب كلها من التصديق ، لأن قول : « لا إله إلا الله » باللسان لا يتم إلا بتصديق القلب^(٥) .

وهذا يجلي شرط الإقرار بلا إله إلا الله ، وهو تصديق القلب .

٣٠ — وفي باب : ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى ، علق

(١) سورة المجادلة : ٢٢ .

(٢) الإنصاف : ٥٦ .

(٣) شرح صحيح البخاري (٨٠/١) .

(٤) خرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب زيادة الإيمان ونقصانه (١٠٣/١) برقم (٤٤) ، ومسلم في

كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة (١٨٢/١) برقم (١٩٣) .

(٥) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠٢/١-١٠٣) .

على هذا الباب قائلاً :

« غرضه في هذا الباب الرد على من زعم من المرجئة أن الإيمان قول باللسان دون عقد القلب ، ألا ترى أنه ﷺ لم يقتصر على قوله : « الأعمال بالنيات » حتى أكد ذلك ببيان آخر ، فقال : « من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ... » الحديث »^(١) .

٣١— وقال مبطلاً قول المرجئة في الإيمان : إنه الإقرار باللسان دون عقد القلب :

« من أقوى ما يرد به عليهم : إجماع الأمة على إكفار المنافقين ، وإن كانوا قد أظهروا الشهادتين . قال تعالى : ﴿ ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله ﴾^(٢) »^(٣) .

فما ذكره رحمه الله يبين ما يلزم من قال : لا إله إلا الله ، من عقد القلب عليها ، وأنه الذي ينفع عند الله ﷻ .

٣٢— وذكر ابن عبد البر أن النية لا تكفي للدخول في الإسلام ، بل لا بد أن تقترن بكلمة التوحيد .

فبعد إيراده قول ابن القاسم إجازته للكافر أن يغتسل قبل إظهار الشهادة بلسانه إذا اعتقد الإسلام بقلبه ، قال : « وهو قول ضعيف في النظر ، مخالف للأثر ، وذلك أن أحداً لا يكون بالنية مسلماً دون القول ، حتى يلفظ شهادة الإيمان وكلمة الإسلام ، ويكون قلبه مصدقاً للسانه في ذلك ، فكما لا يكون مسلماً حتى يشهد شهادة الحق ، فكذلك لا يكون متطهراً ولا مصلياً حتى ينطق بالشهادة ، وإنما تعتقده الأفئدة من الإسلام والإيمان ما تنطق به الألسنة ، والإيمان عندنا الإقرار باللسان والتصديق بالقلب ، وإنما بعث رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى أن يقولوا :

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٢٠/١) .

(٢) سورة التوبة : ٨٤ .

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٨٠/١-٨١) .

لا إله إلا الله ، وقال ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله ، صادقاً من قلبه دخل الجنة »^(١) ، وقال للسوداء : « أتشهدين أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ » . والآثار بهذا المعنى كثيرة جداً ، وهذا قول جماعة أهل السنة في الإيمان : أنه قول باللسان ، وتصديق بالقلب ، ويزكو بالعمل . قال الله ﷻ : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾^(٢) .^(٣)

٣٣ — وذكر ابن رشد أن مجرد قول القائل : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له » باللسان دون اعتقاد في القلب لا يحقق الإيمان ، قال : « فمن قال بلسانه : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ولم يعتقد تصديق ذلك بقلبه ، فليس بمؤمن »^(٤) .

٣٤ — ورد المازري احتجاج غلاة المرجئة بحديث ابن الدخشم ، ومنه قول النبي ﷺ : « أليس يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ » . فقالوا : إنه يقول ذلك وما هو في قلبه ! فقال ﷺ : « لا يشهد أحد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فيدخل النار »^(٥) . وقالوا : إن الشهادتين تنفع وإن لم تعتقد في القلب ، فقال رحمه الله :

« معناه : أنه لم يصح عن النبي ﷺ ما حكوا عنه ، من أن ذلك ليس في قلبه ، والحجة في قول النبي ﷺ ، وهو لم يقل ذلك ولم يشهد به عليه »^(٦) .

(١) نص الحديث المخرج في الصحيحين عن معاذ ﷺ أن النبي ﷺ قال : " ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار " . البخاري في العلم ، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم (٢٢٦/١) برقم (١٢٨) ، ومسلم في الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (٦١/١) برقم (٣٢) .

(٢) سورة فاطر : ١٠ .

(٣) الكافي (١٥٢/١-١٥٣) .

(٤) البيان والتحصيل (٥٨٦/١٨) .

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (٦١/١) برقم (٣٣) .

(٦) المعلم بفوائد مسلم (١٩٦/١) . ط . دار الغرب الإسلامي - ط . الثانية ١٩٩٢ م .

٣٥— وقال أيضا :

« وقد قيد في حديث آخر بقوله : « غير شاكّ فيهما »^(١) ، وهذا أيضاً يؤكد ما قلناه »^(٢) .

فرده رحمه الله على المرجئة في ذلك يبين اهتمامه الشديد في بيان ما يلزم قائل لا إله إلا الله ، من التصديق القلبي ، وأنها لا تنفع بدونه .

٣٦— وقال - عند شرحه حديث : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ... »^(٣) - :

« وفسّر مجرّد الإيمان الذي هو التصديق ، والذي محله القلب ، وفسّر الإسلام الذي هو العمل الظاهر من شهادة اللسان ، وأعمال البدن ، والذي بمجموعهما يتم الإيمان والإسلام ، إذ إقرار القلب وتصديقه دون نطق اللسان لا ينجي من النار ، ولا يستحقّ صاحبه اسم الإيمان في الشرع ، وإذ^(٤) نطق اللسان دون إقرار القلب وتصديقه لا يغني شيئاً ، ولا يسمّى صاحبه مؤمناً ، وهو النفاق والزندقة ، وإنما يستحقّ هذا الاسم من جمعهما »^(٥) .

٣٧— وعقب على قول المازري في استدلاله برواية ابن الدخشم في الردّ على غلاة المرجئة القائلين : إن الشهادتين تنفع وإن لم تعتقد في القلب ! بقوله :

« وقد ورد في الحديث من رواية البخاري : « ألا تراه قال : لا إله إلا الله ،

(١) هذه الرواية من حديث أبي هريرة عند الإمام مسلم في كتاب الإيمان (١/٥٥-٥٧) برقم (٢٧) .

(٢) المعلم بفوائد مسلم (١/١٩٤) .

(٣) خرجه الشيخان . وهو عند مسلم بهذا اللفظ في كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام

والإحسان (١/٣٦) برقم (٨) . وخرجه البخاري بلفظ آخر في كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل

النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان (١/١١٤) برقم (٤٩) .

(٤) كذا في النص ، ولعل الواو زائدة كي يستقيم المعنى .

(٥) إكمال المعلم (١/٢٠٣) .

يبتغي بها وجه الله ؟ ^(١) . فهذه الزيادة تخرس غلاة المرجئة ^(٢) .

٣٨ — وأما أبو عبدالله القرطبي فقد ذكر أن من أقرّ بلسانه وكفر بقلبه فهو منافق ، فقال عند قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ ^(٣) :

« هذا إعلام من الله تعالى بأن المنافق كافر ، أي : أقرّوا باللسان ثم كفروا بالقلب » ^(٤) .

والمعنى : أنه لا بدّ مع الإقرار باللسان من تصديق القلب ، وإلا فلا إيمان .
وذكر القرطبي أبو العباس أن التلفظ بالشهادتين دون استيقان القلب لا ينفع في الإيمان ، وأبطل قول غلاة المرجئة في ذلك .

٣٩ — ففي تلخيص مسلم عند باب : لا يكفي مجرد التلفظ بالشهادتين بل لا بد من استيقان القلب ، قال :

« هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة القائلين : إن التلفظ بالشهادتين كافٍ في الإيمان ! وأحاديث هذا الباب تدلّ على فساد مذهب ، بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها ، ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق ، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح ، وهذا باطل قطعاً » ^(٥) .

٤٠ — وفي كلامه عن أول الواجبات قال :

« هو التلفظ بكلمتي الشهادة مصدّقاً بها » .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب المساجد في البيوت (٥١٩/١) برقم (٤٢٥) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر (٤٥٥/١-٤٥٦) عن عتب بن مالك رضي الله عنه برقم (٣٣) .

(٢) إكمال المعلم (٢٦٧/١) .

(٣) سورة المنافقون : ٣ .

(٤) تفسير القرطبي (١٢٤/١٨) .

(٥) المفهم (٢٠٤/١) .

٤١— وقال :

« وأما النطق باللسان فمظهر لما استقرّ في القلب من الإيمان »^(١) .

فقيد التلفّظ بكلمتي الشهادة بالتصديق القلبي ، وهو غاية في الوضوح في اشتراط
التصديق القلبي لمن قال : لا إله إلاّ الله .

٤٢— وعند شرحه حديث معاذ : « ما من عبد يشهد أن لا إله إلاّ الله وأن
محمدًا عبده ورسوله ، إلاّ حرّمه الله على النار »^(٢) ، قال :

« وقد زاد البخاري قيد : « صدقاً من قلبه » ، وهي زيادة حسنة تنصّ على
صحة ما تضمّنته الترجمة المتقدّمة ... وعلى فساد مذهب المرجئة »^(٣) .

٤٣— وقال ابن أبي جمرة - عند حديث أبي هريرة أنه قال للنبي ﷺ : من أسعد
الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا
يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيت من حرصك على
الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلاّ الله ، خالصاً من
قلبه - أو نفسه - »^(٤) - :

« فيه دليل على أن من اعتقد الإيمان دون النطق به لا يسعد به ، ولن تناله هذه
الشفاعة الخاصة ؛ لأنه ﷺ شرط في ذلك التلفّظ ، والشرط إذا عدم عدم
المشروط »^(٥) .

٤٤— وأما التثائي فقال في شرحه لرسالة ابن أبي زيد القيرواني ، في باب تعريف
الإيمان : الإيمان بالقلب والنطق باللسان :

« واعتبر النطق باللسان لأنه إما شرط في الإيمان أو شطر منه ... »^(٦) .

(١) المفهم (١/١٨٢) .

(٢) سبق تخريجه ص ٦٨ .

(٣) المفهم (١/٢٠٨) .

(٤) خرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب الحرص على الحديث (١/١٩٣) برقم (٩٩) .

(٥) بهجة النفوس (١/١٣٧) .

(٦) تنوير المقالة في حل ألفاظ الرسالة (١/١٤٩) . وشرط الشيء : نصفه ، أو جزؤه . قيل في المثل : =

ثم نقل قول الجمهور : لو آمن بقلبه ولم ينطق بلسانه فكافر .

ونقل قول القاضي عياض المتقدم في اشتراط النطق والاعتقاد لتحقيق الإيمان^(١) .
مما يظهر اشتراطه لقائل : لا إله إلا الله ، من اليقين القلبي ، فإذا كان النطق شرطاً في الإيمان ، فينتفي المشروط بعدم الشرط ، ولو كان شرطاً له فواضح .

٤٥ — ونقل الونشريسي عن جمهور الأئمة والعلماء كفر من اعتقد الإسلام بقلبه ولم ينطق بلسانه ، فقال :

« جمهور الأئمة والعلماء من المسلمين قد قالوا : إن الإنسان إذا اعتقد الإسلام بقلبه ، ولم يظهره بنطق لسانه بالشهادتين ، فإنه لا يخلصه عند الله ، ولا يحكم له بحكم الإسلام »^(٢) .

٤٦ — وأما ميارة فقد بين أن النطق بكلمة التوحيد تظهر ما في القلب من الإيمان ، قال :

« جعلها الشرع ترجمة على ما في القلب من الإسلام ... إلى أن قال : فاختار لأئمة عليه الصلاة والسلام في ترجمة الإيمان هذه الكلمة المشرفة السهلة نطقاً وذكراً ، الكثيرة الفوائد علماً وحسباً ، فما تعبوا فيه من تعلم عقائد الإيمان الكثيرة والمفصلة جمع لهم ذلك كله في حرز هذه الكلمة المنيع ، وتمكنوا من ذكر عقائد الإيمان كلها بذكر واحد خفيف على اللسان ، ثقیل في الميزان »^(٣) .

فجعل رحمه الله النطق بكلمة التوحيد ترجماناً لما في القلب من الإيمان ، وهذا ظاهر في اشتراط الإيمان في القلب لمن نطق بالتوحيد .

= احلب حلباً لك شطره . وجمعه أشطر . ويقال : شاطرتُ فلاناً مالي : إذا ناصفته . انظر : الصحاح للجوهري (٦٩٧/٢) .

والصواب أن النطق شرط ، كما ذكره القاضي عياض . انظر ص ٩٥ .

(١) تنوير المقالة في حل ألفاظ الرسالة (١٥٠/١) .

(٢) المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب للونشريسي (١٩٠/٢) .

إشراف د. محمد حجي . ط. دار الغرب الإسلامي - بيروت ١٤٠١ هـ .

(٣) الدر الثمين والمورد المعين (٥٠/١) .

٤٧- ويّين النفراوي أهمية اقتران النطق بالتصديق القلبي ، قال في شرحه لرسالة ابن أبي زيد القيرواني :

« فمن أقرّ بلسانه ولم يصدّق بقلبه يقال له : منافق وزنديق »^(١) .

والمعنى أن إقرار اللسان يبنى على التصديق الحاصل في القلب ، وإلا فلا ينفعه عند الله .

٤٨- وقال الغلاوي^(٢) - وهو يتكلم عن التصديق بالقلب والنطق بالشهادتين - :

« ولا تكفي النية بهما في دخول الإسلام ، بل يشترط النطق فيه بشهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله »^(٣) .

٤٩- وذكر محمد المختار أن التصديق يكون بالقلب واللسان معاً ، قال في شرحه للبخاري - عند قوله تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ - :
« أي : لا دين مرضيّ عند الله إلا الإسلام ، وهو التصديق بوحداية الله تعالى ، ورسالة نبيّه ﷺ بالقلب واللسان معاً » .

ونقل قول القسطلاني^(٤) مقرأً له عند شرحه حديث سعد بن أبي وقاصّ ﷺ ؛ أن رسول الله ﷺ أعطى رهطاً وسعد جالس ...^(٥) .

(١) الفواكه الدواني (٤٥/١) .

(٢) هو محمد عبدالله بن البشير الغلاوي ، قال نجل حفيده محمد الأمين السالك : كان من الزهاد ، من كتبه : فرض العين ، وميراث فرض العين ، وله نظم يسمى تقديس القدوس عدد أبياته ١٠٢ صدره بقوله : صلى الإله على المختار سيدنا هو الشفيع غداً في سائر الأمم

مات سنة ١٢٩٣هـ . انظر ترجمته في مقدمة فرض العين لنجل حفيده محمد الأمين السالك (٨) .

(٣) فرض العين (٢٧) . ط. الأولى - دبي ١٤١٩هـ . دار القلم للنشر والتوزيع .

(٤) هو أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبدالملك القسطلاني العتيبي المصري ، أبو العباس شهاب الدين ، من علماء الحديث ، له : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، والمواهب اللدنية في المنح الحمديّة - في السيرة النبوية - ، ولطائف الإشارات في علم القراءات ، وغيرها . مات سنة ٩٢٣هـ .

انظر : البدر الطالع (١٠٢/١) ، والضوء اللامع (١٠٣/٢) .

(٥) والحديث خرجه البخاري : عن سعد بن أبي وقاصّ ؛ أن رسول الله ﷺ أعطى رهطاً وسعد جالس ، فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أعجبهم إليّ ، فقلت : يا رسول الله ! ما لك عن فلان ؟ فوالله إني =

٥٠ — « وفيه دليل على أن الإقرار باللسان لا ينفع إلا إذا اقترن به الاعتقاد بالقلب ، وعليه الإجماع »^(١) .

فبين أنه لا بد من الإقرار المقترن بالاعتقاد في القلب ، وإلا لم ينفع صاحبه .

٥١ — وذكر ابن العربي أن الإيمان لا يصح إلا بقول : لا إله إلا الله ، قال - في تفسير قوله تعالى : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾^(٢) - :

« وفرعون لم يقبل منه ما قال ؛ لأنه عدل عن لفظ : لا إله إلا الله^(٣) ، وهو لفظ مخصوص بالإيمان ، لا يجوز غيره »^(٤) .

٥٢ — قال الشيخ عثمان بن فودي^(٥) :

« وقد انعقد الإجماع على أن من أقرّ بالشهادتين جرت عليه الأحكام الإسلامية ، فيناكح ، ويؤم ، وتؤكل ذبيحته ، ويرثه المسلمون ويرثهم ، ويدفن في

= لأراه مؤمناً . فقال : أو مسلماً . فسكت قليلاً ثم غلبي ما أعلم عنه فعدت لمقاتي ، فقلت : ما لك عن فلان ؟ فوالله إني لأراه مؤمناً . فقال : أو مسلماً . ثم غلبي ما أعلم منه فعدت لمقاتي ، وعاد رسول الله ﷺ . ثم قال : « يا سعد ! إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه ، خشية أن يكبه الله في النار » . كتاب الإيمان ، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة كان على الاستسلام أو الخوف من القتل (٧٩/١) برقم (٢٧) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب تأليف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه (١٣٢/١) برقم (١٥٠) .

(١) نور الحق الصبيح (٨١/١) .

(٢) سورة يونس : ٩٠ .

(٣) ما ذكره ابن العربي بين أن الحكم بالإسلام متوقف على النطق بالشهادة ، وإلا وفرعون قال ما قال وقت الغرغرة ، والذي لا تقبل منه التوبة كما قال تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار ... ﴾ ، فلو نطق بالشهادة لم تقبل منه في هذا الوقت .

(٤) عارضة الأحوذى (٢٧١/١١) .

(٥) هو عثمان بن فودي النيجيري ، عالم فاضل ، مالكي المذهب ، صاحب دعوة ، قال البهي : هو مؤسس النهضة الحالية في إفريقيا الغربية . مات سنة ١٢٣٢هـ . انظر مقدمة كتاب إحياء السنة وإخماد البدعة .

مقابرهم»^(١) .

فبين أهمية الإقرار بالشهادتين ، وبه يحكم بالإسلام .

٥٣ — وذكر محمد حبيب الله الحكني^(٢) « تصريح الفقهاء بأن الكافر الأصلي إن

أبى أن يصرح بالشهادتين لا يزال كافراً حتى ينطق بالشهادتين ، قال في المراصد :

فإن يكن والنطق منه ما اتفق فإن يكن عجزاً يكن كمن نطق

وإن يكن ذلك عن إباء فحكمه الكفر بلا امتراء

فالتصميم القلبي دون نطق بالشهادتين لا يكفي الإسلام ، إذ النطق شرط فيه ،

فلا تجري عليه أحكامه الظاهرة ، وكذا لا ينفعه في الباطن إن أظهر خلافه ، كأبي

طالب ، إلا إذا كان عاجزاً عن النطق مع قيام القرائن على أنه أذعن بقلبه ، قد أشار

خليل في مختصره لذلك بقوله : لا الإسلام إلا لعجز»^(٣) .

٥٤ — وبين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله أن مذهب أهل السنة

والجماعة أن الإيمان شامل للقول والعمل مع الاعتقاد ، فقال :

« إن الحق الذي لا شك فيه ، الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة : أن الإيمان

شامل للقول والعمل مع الاعتقاد ، وذلك ثابت في أحاديث صحيحة كثيرة ، منها

حديث وفد عبدالقيس المشهور ، ومنها حديث : « من قام رمضان إيماناً

واحترساً... » الحديث^(٤) ، فسمي فيه قيام رمضان إيماناً ، وحديث : « الإيمان

بضع وسبعون شعبة - وفي بعض رواياته : بضع وستون شعبة - أعلاها شهادة أن

(١) إحياء السنة وإخماد البدعة (٧٤) . ط. المؤتمر العالمي الرابع للسيرة النبوية بالأزهر ١٤٠٦هـ . ط. الثانية .

(٢) هو محمد حبيب الله بن عبدالله بن أحمد مايابى الحكني الشنقيطي ، عالم بالحديث ، ولد وتعلم بشنقيط ، واستقر بالقاهرة معلماً في الأزهر ، من كتبه : زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم ، ودليل السالك إلى موطأ مالك ، وغيرهما . مات سنة ١٣٦٣هـ . انظر الأعلام (٦/٧٩) .

(٣) فتح المنعم (٨/٩) .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (١٤/١) .

لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق»^(١)»^(٢) .

هـ — وقال أيضاً في موضع آخر :

« إن مسمى الإيمان الشرعي الصحيح ، والإسلام الشرعي الصحيح : هو استسلام القلب بالاعتقاد ، واللسان بالإقرار ، والجوارح بالعمل»^(٣) .
فكلام الشيخ يؤكد ما كان عليه السلف رحمهم الله في بيان الإيمان الشرعي ،
وأنه القول والاعتقاد والعمل ، ولا يكفي الإتيان بواحد دون الآخر ، بل لا بد منها
جميعاً .

وعليه فلا بد لمن قال : لا إله إلا الله ، من الاعتقاد الجازم بها .
وبذلك يظهر مدى اهتمام الأئمة من المالكية بهذا الشرط ، حيث بينوا أن النطق
باللسان لا بد أن يقترن به الاعتقاد القلبي ، وذلك يتضح من خلال النصوص المنقولة
عنهم في هذا المبحث .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٦٣/١) ، إلا أن فيه : « أفضلها » بدل « أعلاها » .

(٢) أضواء البيان (٢٠١/٧) .

(٣) أضواء البيان (٦٣٦/٧ و ٤٤٠/٦ و ٢٧٩/٧) .

الشرط الثاني : العلم بمعنى كلمة التوحيد

وقد اعتنى مالك بهذا الشرط ، ويّين أنه لا بدّ في عتق الكفارات والظهار - بعد اشتراط الإيمان - من عقل الإسلام .

فبعد اشتراط مالك الإيمان في كفارات العتق والظهار سئل عن الصبي والجارية الصغيرة ، فقال :

٥٦- « وأحبّ إليّ أن يعتق من صلّى وصام »^(١) .

٥٧- ويّين ابن القاسم معنى قول مالك : « صلي وصام » ، فقال :

« فمعنى قوله : من صلي وصام ، أي : من قد عقل الإسلام ؛ الصلاة والصيام »^(٢) .

وفي رواية أخرى : « إن كان كبيراً يعقل الإسلام ، ويعرف ما أجاب إليه »^(٣) .

ومما يبيّن هذا المعنى عند مالك ويوضحه : تفضيله في العتق من صلي وصام على الأعجمي الذي أجاب إلى الإسلام ، ومعنى ذلك : أن مالكا رحمه الله قدّم من صلي وصام وعقل الإسلام ، وعرف معناه على الأعجمي الذي لا يعرف معنى ما أجاب إليه .

٥٨- قال ابن القاسم : « وسألت مالكا عن الأعجمي يشتريه فيعتقه عن

ظهاره ، قال : نعم ؛ إن كان من ضيق النفقة فأرجو أن يجزئ عنه . وقال أيضاً : ومن صلّى وصام أحبّ إليّ من أعجمي قد أجاب إلى الإسلام »^(٤) .

(١) المدونة (٧٥/٣) . ط. دار صادر .

(٢) المدونة (١٧٥/٣) .

(٣) المدونة (١٧٨/١) .

(٤) المدونة (٧٥/٣) .

ومعلوم أن من أعظم ما يجب معرفة معناه : الشهادتين ، إذ بهما يدخل في التوحيد ، ويقرّ بالرسالة ، ويعلم ما يلزم من ذلك ، وهذا ظاهر من تقديم مالك رحمه الله في الكفارات من عقل الإسلام ، وتفضيل من صلى وصام وعقل الإسلام على الأعجمي الذي أجاب إلى الإسلام .

٥٩ — ومن ذلك أيضاً في اشتراطه عقل الدين والعلم به ما ذكره ابن القاسم بقوله : « لا يجبر الصبي المسي على الإسلام إذا كان قد عقل دينه »^(١) .

قال محمد بن خالد^(٢) : وأراه قد ذكره عن مالك .

فما نقله ابن القاسم عن مالك هنا يبين اهتمام مالك رحمه الله بمعرفة وعقل الدين ، إذ أنه لم يجبر هذا الصبي على الإسلام إن كان يعرف دينه ويعقله .

وأما إذا لم يعقل دينه فيجبر على الدخول في الإسلام .

وهذا ظاهر في اشتراط العلم بما يدين به الإنسان ، وما يلزم من ذلك ، فالمسلم لا بد من معرفته بأصل الإسلام (كلمة التوحيد) ، والعلم بمعناها .

٦٠ — كما يبيّن ذلك أن مالكا سئل : عن رجل نادى رجلاً باسمه ، فقال :

ليك اللهم ليك ، أعليه شيء ؟ قال مالك : « إن كان جاهلاً أو على وجه السفه^(٣) فلا شيء عليه »^(٤) .

(١) البيان والتحصيل (٤٣٧/١٦) .

(٢) هو محمد بن خالد بن مرتنيل مولى عبدالرحمن بن معاوية ، يعرف بالأشج ، قرطبي نبيه ، رحل فسمع من ابن القاسم ، وابن وهب ، وأشهب ، وابن نافع ، ونظرائهم من المدنيين والمصريين ، وكان الغالب عليه الفقه ولم يكن له علم بالحديث . مات سنة ٢٢٠هـ ، وقيل : ٢٢٤هـ .

انظر : الدياج (٣٣٠) ، وجذوة المقتبس (٥٣) .

(٣) ويقصد بذلك السفه الذي بمعنى الجنون ، والله أعلم .

(٤) البيان والتحصيل (٣٧٠/١٦) .

٦١- وبين ابن رشد معنى ذلك ، فقال :

« أما الجاهل فبين أنه لا شيء عليه ، لأنه لا يدري ما معنى الكلام »^(١) .

فهذا يبين أن الإمام مالكا رحمه الله اعتبر ضرورة تحقيق العلم بمعنى ما يقول حتى يعد مسلماً ، ولذا لم ير على من تلفظ بهذا الكلام الخطير شيئاً إذا كان جاهلاً لا يعرف معنى ما يقول ، وهكذا من ينطق بكلمة التوحيد لزمه معرفة معنى ما نطق به ، فكما أن من تلفظ بالشرك وهو جاهل لا يعرف معنى ما تلفظ به لم يعدّوه مشركاً ، فكذلك من نطق بكلمة التوحيد وهو جاهل بمعناها لا يعتدّ بإسلامه .

٦٢- وفي رواية يجيى عن مالك « فيمن ارتدّ بعد أن شهد وأقرّ بالنبي ﷺ وعرف الفرائض ... وتشهد به بعد العلم به ، وهو ممن لا يعذر بالجهالة ؟ فلم يجب بشيء »^(٢) .

فهنا ذكر أنه تشهد وأقرّ عن علم ، وهو ممن لا يعذر بالجهالة ، فهذا يبين اشتراط العلم بمعنى الشهادة والإقرار بالرسالة عند مالك رحمه الله .

وأما كونه لم يجب بشيء فكما ذكر ابن رشد « أنه لا يقتل عند مالك على الكفر من أنكر الإسلام من أهل الذمة إلا من رؤي يصلي »^(٣) .

فاشترط أيضاً العمل بشرائع الإسلام في حال إسلامه لثبوت الردّة ، فذكرهم للعلم هنا لمن أقرّ بالشهادتين وعرف الفرائض يدلّ على اهتمامهم الكبير بهذا الشرط من شروط كلمة التوحيد ، فصّرّحوا هنا بالعلم بما تشهد وأقرّ به ، وهو نصّ في اشتراط العلم بمعنى كلمة التوحيد .

(١) البيان والتحصيل (٣٧١/١٦) .

(٢) البيان والتحصيل (٤٣٣/١٦) .

(٣) انظر البيان والتحصيل (٤٣٤/١٦) .

والمجموع ما تقدّم يتبيّن أن مالكا رحمه الله اعتنى بشروط كلمة التوحيد ، ومن ذلك العلم بمعنى هذه الكلمة .

٦٣ — وذكر ابن بطل قول مالك : « ليس العلم بكثرة الرواية ، وإنما هو نور يضعه الله في القلوب »^(١) ، ثم قال : « يعني بذلك فهم معانيه واستنباطه » .

فمن نطق بكلمة التوحيد فلا بدّ أن يعرف معنى هذه الكلمة وما يلزم لها .

٦٤ — وقد ذكر القاضي عياض كلاماً نفيساً بيّن فيه أن المعرفة مرتبطة بالشهادتين ، لا تنفك إحداها عن الأخرى ، فقال - عند حديث عثمان رضي الله عنه المرفوع : « من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله ؛ دخل الجنة »^(٢) - :

« وقد يحتجّ به أيضاً من يرى أن معرفة القلب مجردة نافعة دون النطق بالشهادتين ، لاقتصاره على العلم ، ومذهب أهل السنة أن المعرفة مرتبطة بالشهادتين ، لا تنفع إحداها ولا تنجي من النار دون الأخرى ، إلا لمن لم يقدر عليها من آفة بلسانه ... »^(٣) .

فكلامه رحمه الله غاية في الحسن ، حيث يكشف عن مذهب أهل السنة الذي يوجب ضرورة النطق بالشهادتين حالة كونهما مرتبطتين بالعلم بدلالاتهما ليعدّ إسلام هذا معتبراً ، ليخرج من نطق بهما جاهلاً معناه فلا يعتدّ بإسلامه ، وتظهر قيمة هذا الشرط فيمن نطق بهما جاهلاً معناه ثم ظهر منه ما يفيد ارتداده عن الإسلام ، فمثل هذا لا يعدّ مرتدّاً ؛ لأنه لم يحكم بإسلامه حتى يعدّ راجعاً عنه ، بل هو ما زال مقيماً على كفره .

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطل (١/١٥٧) .

(٢) خرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (١/٥٥) برقم (٢٦) .

(٣) إكمال المعلم (١/٢٥٣) .

٦٥ — ونقل القرطبي عند قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(١) قول ابن عباس وسعيد بن جبير في (شهادة الحق) أنها لا إله إلا الله ، ويبيّن أن الشهادة بالحق لا تنفع إلاّ مع العلم كما ينطق بذلك ظاهر الآية . ثم قال :

« وشرط سائر الشهادات في الحقوق وغيرها أن يكون الشاهد عالماً بها »^(٢) .

فإذا كان العلم بالشهادة شرطاً في الحقوق الدنيوية ، فكيف بأعظم شهادة على أجلّ مشهود : التوحيد . كما قال تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣) ، فالعلم بها من باب أولى .

٦٦ — وذكر الونشريسي^(٤) فتوى أحمد بن عيسى^(٥) فقيه بجانة^(٦) عمّن نطق بكلمة التوحيد مع جهل معناها ، قال :

« من نشأ بين أظهر المسلمين ، وهو ينطق بكلمة التوحيد ، مع شهادة الرسول ﷺ ، ويصوم ويصلي ، إلاّ أنه لا يعرف المعنى الذي انطوت عليه الكلمة الكريمة ... لا يضرب له في التوحيد بسهم ، ولا يفوز منه بنصيب ، ولا ينسب إلى إيمان ولا

(١) سورة الزخرف : ٨٦ .

(٢) تفسير القرطبي (١٢٣/١٦) .

(٣) سورة آل عمران : ١٨ .

(٤) هو أحمد بن يحيى بن محمّد الونشريسي ، نزيل مدينة فاس وفتيها ، فقيه مالكي أخذ عن علماء تلمسان ، من كتبه : إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك ، والمعيّار المعرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس وبلاد المغرب ، والقواعد في فقه المالكية ، وغيرها . مات سنة ٩١٤هـ .

انظر : جذوة الاقتباس (١٥٦/١) ، والأعلام (٢٦٩/١) .

(٥) هو أحمد بن عيسى بن أبي هلال الأشجعي ، فقيه أندلسي من أهل بجانة ، رحل إلى المشرق ، كان فقيهاً صالحاً ، مات سنة ٤٠٠هـ . انظر : أعلام المغرب العربي (٣٥٠/٢) .

(٦) بجانة : مدينة بالأندلس من أعمال كورة البيرة ، خربت وانتقل أهلها إلى المرية ، وبينها وبين غرناطة مائة ميل . انظر : معجم البلدان (٣٣٩/١) . ط . دار صادر .

إسلام ، بل هو من جملة الهالكين ، وزمرة الكافرين ، وحكمه حكم المجوس في جميع أحكامه ، إلا في القتل ؛ فإنه لا يقتل إلا إذا كان امتنع عن التعليم^(١) «^(٢) .

فما نقله الونشريسي نصّ في أن العلم بمعنى كلمة التوحيد شرط من شروط لا إله إلا الله .

٦٧— ونقل نفس المعنى ميارة^(٣) .

٦٨— وقال محمد بن يحيى المختار - عند شرح حديث : « ... وأعلمكم بالله أنا ... » ، وتفسير البخاري للمعرفة بأنها فعل القلب - :

« (فعل القلب) أي : اعتقاده أن الله واحد لا شريك له ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ، جاء من عنده بالحق مبشراً ونذيراً ، وأما مجرد التلفّظ بالشهادتين من غير اعتقاد لما تضمنتا فليس بمعرفة ، بل هو نفاق «^(٤) .

٦٩— وعند قوله تعالى : ﴿ ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾^(٥) قال :

« فدلّت الآية الكريمة على أنّ المعرفة بالله تعالى التي يثاب عليها إنما هي معرفة القلب ، أي : اعتقاد وحدانيته وصدق رسوله ﷺ بالقلب ، وأما التلفّظ بما يدل على ذلك من غير اعتقاد لمضمونه فلا يثاب عليه ؛ لأنه ليس بمعرفة لله ﷻ ، بل هو عين

(١) وهذه وإن كانت شرطاً ، إلا أنّها تحمل على من لا يعرف معناها حتى في التطبيق ، أما من صلّى وصام وقام بالأركان ، إلاّ أنه يجهل المعنى فلا يحكم بكفره ، وأرى أن لا تؤخذ الفتوى المتقدمة على عمومها ، إذ لو أخذناها على عمومها دون تخصيص لها لأخرجنا الجَمّ الغفير من عامّة المسلمين من الإسلام ، والله أعلم .

(٢) المعيار العرب (٣٨٣/٢) .

(٣) انظر الدرّ الثمين والمورد المعين (٥٤/١-٥٥) .

(٤) نور الحق الصبيح (٦٠/١) .

(٥) سورة البقرة : ٢٢٥ .

النفاق الذي هو أسوأ الكفر ، أعاذنا الله منه »^(١) .

وهذا يبيّن أنّ المعرفة من شروط « لا إله إلا الله »^(٢) .

٧٠ — وقال الميلي^(٣) :

« مجرّد النطق بالشهادتين لا يطرد عن ساحة القلب شبح الشرك ، ولا سيما نطق من لُقّنهما تقليداً عادياً خالياً من فهم معناهما ، وإنما اعترف بهما بحكم الوسط ، لا باضطرار العلم ، ولم ينطق المشركون بالشهادتين لما دعاهم رسول الله ﷺ لأنهم عالمون بمعناها ، ويرون النطق بهما التزاماً لما يدعو إليه الرسول ، ونبدأ لما يخالف دعوته ، وقد أصابوا في هذا الرأي ، ثم اختاروا بعد ذلك الرأي الناشئ عن العلم باللغة ومعاني الكلام : التمسك بما وجدوا عليه آباءهم ! وقد أخطأوا في هذا الاختيار ، ولو رأوا مجرّد التشهد كافياً في رفع وصف الشرك عنهم - مع بقائهم على عقائدهم الباطلة ، وعوائدهم القبيحة - لأقرّوا واستراحوا »^(٤) .

ثم ذكر أن التلفظ بالشهادتين لا ينفع ما لم يعلم معناها ، ويعلم بمقتضاها من أفراد الله تعالى بالعبادة دون ما سواه ، فقال :

٧١ — « فوصف الشرك يلحق من أخذ بحظ من عقائد وعوائد سمي الإسلام أهلها - من أجلها - : مشركين ، ولا يغني مع ذلك تلفظه بالشهادتين » .
ومرادهم أنهم لعدم معرفتهم معنى الشهادتين المقتضي أفراد الله بالعبادة وقعوا فيما يخالفها من الشرك .

(١) نور الحق الصبيح (٦١/١) .

(٢) ويمثل ذلك قال الشنقيطي في شرحه لصحيح البخاري : انظر كوثر المعاني الدراري (١٣/٢) ، عند حديث : « أنا أعلمكم بالله » .

(٣) هو الشيخ مبارك الميلي ، أحد مؤسسي جمعية العلماء المسلمين بالجزائر ، كان له دعوة إصلاحية في جنوب الجزائر ، له : رسالة الشرك ومظاهره . انظر كتاب الإسلام الجزائري (١٨٨) .

(٤) رسالة الشرك ومظاهره (٢٨-٢٩) . ط . الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية . ط . الأولى ١٤٠٧ هـ .

الشرط الثالث : الإخلاص لمن قال : « لا إله إلا الله »

٧٢— قال أشهب : سألنا مالكا عن قوله : ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾^(١) ، قال :

« لا بأس أن يحب الرجل الثناء الحسن إذا خلصت فيه النية » .

٧٣— قال ابن العربي :

« صدق مالك ؛ مدار كل نية وعمل على الإخلاص »^(٢) .

فنبه ابن العربي على أن الإخلاص مطلوب في كل شيء ، وأعظم ما يطلب فيه الإخلاص : كلمة التوحيد ، فلا بدّ لقائلها من الصدق والإخلاص .

٧٤— وقال ابن أبي زيد في متن الرسالة :

« وفرض على كل مؤمن أن يريد بكل قول وعمل من البر وجه الله الكريم ، ومن أراد بذلك غير الله لم يقبل عمله »^(٣) .

فقوله : « أن يريد بكل قول ... » يدخل فيه كلمة التوحيد التي لا بد من الصدق والإخلاص في النطق بها ، وإلا لم تقبل .

٧٥— وذكر في تعريف الإيمان أنه « قول باللسان ، وإخلاص بالقلب ، وعمل بالجوارح ... » إلى قوله : « ولا قول إلا بعمل ، ولا قول وعمل إلا بنية ، ولا قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة »^(٤) .

وذكر أن هذا من قول مالك ، قال : « وكله قول مالك ، فمنه ما هو منصوص

(١) سورة الشعراء : ٨٤ .

(٢) القيس (١٠٧٨/٣) .

(٣) متن رسالة ابن أبي زيد القيرواني (١٩٤) .

(٤) الجامع لابن أبي زيد القيرواني (١٤٢) .

من قوله ، ومنه ما هو معلوم من مذهبه))^(١) .

وأورد ابن بطلال أثراً عن عبدالله بن عمرو بن العاص يذكر فيه فضل لا إله إلا الله ، وأنها كلمة الإخلاص التي لا يقبل الله عملاً حتى يقولها ، قال :

« وذكر الطبري بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : « إن الرجل إذا قال : لا إله إلا الله ، فهي كلمة الإخلاص التي لا يقبل الله عملاً حتى يقولها ... »^(٢) .

٧٦— وفي شرحه لحديث أبي هريرة رضي الله عنه^(٣) قال :

« وفيه : أن الشفاعة إنما تكون في أهل الإخلاص خاصة ، وهم أهل التصديق بوحداية الله ورسوله ، لقوله ﷺ : (خالصاً من قلبه - أو : نفسه -) »^(٤) .

٧٧— وأورد الطرطوشي حديث معاذ بن جبل : « ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلاّ حرمه الله على النار »^(٥) ، وحديث أبي هريرة : « من أحق الناس بشفاعتك ... » ، وحديث عتبان : « لن يوافي عبد يوم القيامة بقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يبتغي بها وجه الله ؛

(١) الجامع لابن أبي زيد القيرواني (١٤٩) .

(٢) شرح صحيح البخاري (١٣٢/١٠) .

(٣) الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : يا رسول الله ! من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : « لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله ، خالصاً من قلبه - أو : نفسه - » . أخرجه البخاري في العلم : باب الحرص على الحديث . الفتح (١٩٣/١) ، وفي الرقاق : باب صفة الجنة والنار (٤١٨/١١) .

(٤) شرح صحيح البخاري (١٧٦/١) .

(٥) تقدم تخريجه ص ٦٨ .

إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ»^(١) .

فإيراده^(٢) لهذه الأحاديث يظهر اهتمامه بهذا الشرط من شروط لا إله إلا الله .

٧٨— وقال عبدالحق الإشبيلي^(٣) :

« والمقصود أن يموت الرجل ولا يكون في قلبه إلا الله وحده ؛ لأن المدار على القلب الذي ينظر فيه ، وتكون النجاة بسببه ، وأما حركة اللسان دون أن تكون ترجمة عما في القلب فلا فائدة فيها ، ولا خير عندها »^(٤) .

وكلامه نصّ في أهمية الإخلاص لمن نطق بالتوحيد .

٧٩— وقال الغلاوي - وهو يتحدث عن الشهادتين - :

« ويقولها مخلصاً بها ، ليسلم من النفاق »^(٥) .

٨٠— وذكر القاضي عياض رحمه الله الأحاديث التي جاءت مطلقة في فضل لا إله إلا الله ، كما أوردها مسلم في صحيحه ، ثم قال - مقررّاً مذهب أهل السنة والجماعة بأجمعهم ، من السلف الصالح وأهل الحديث والفقهاء - :

« من مات على الإيمان وشهد مخلصاً من قلبه بالشهادتين ، فإنه يدخل

(١) تقدم تخريجه ص ٦٨ .

(٢) الدعاء المأثور وآدابه (١٨٦-١٨٧) .

(٣) هو أبو محمد عبدالحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي الأندلسي الإشبيلي ، المعروف ابن الخراط ، عالم بالحديث وعلمه ، عارف بالرجال ، موصوف بالخير والصلاح والزهد والورع ولزوم السنة ، من كتبه : مصنف كبير جمع فيه بين الكتب الستة ، وله كتاب الرقاق ، وكتاب العاقبة في الوعظ . مات سنة ٥٨١ هـ . انظر : السير (١٩٨/٢١) .

(٤) العاقبة في ذكر الموت والآخرة (ص ١٤٥) . ط. مكتبة دار الأقصى - الكويت ، ط. الأولى ١٤٠٦ هـ .

(٥) فرض العين (٢٧) .

الجنة»^(١) .

٨١— وعند حديث : « إنما الأعمال بالنيات »^(٢) قال :

« إن الحديث مفسر لقوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾^(٣) .

ونقل عن بعض شيوخه قولهم : « (إنما الأعمال بالنيات) يرجع إلى معنيين :

أحدهما : تجريد العمل من الشرك بالله بخالص التوحيد .

والآخر : تجريده بخالص السنة »^(٤) . بمعنى أن يطابق العمل ما جاءت به السنة من غير مضادة أو معاندة .

٨٢— وذكر ابن أبي جمرة أن « لا إله إلا الله » لا تنفع قائلها إلا مع الإخلاص

فيها ، فقال - في شرحه لحديث : « أمرت أن أقاتل الناس ... » - :

« وفيه دليل على أن هذا الذكر الخاص - وهو قول : لا إله إلا الله - إذا كانت خالصة أمان لصاحبها في الظاهر والباطن ، فالأمان الذي هو في الظاهر هو ما تضمنه قوله ﷺ : « فقد عصموا مني » ، والأمان الذي هو في الباطن هو تضمنه قوله ﷺ : ﴿ ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب ﴾^(٥) »^(٦) .

٨٣— وقال - عند حديث أبي هريرة : « من أسعد الناس بشفاعتك ... » - :

(١) إكمال المعلم (٢٥٥/١) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٩/١) برقم

(١) . ومسلم في كتاب الإمارة ، باب قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنية » . (٣/١٥١٥) برقم (١٩٠٧) .

(٣) سورة البينة : ٥ .

(٤) إكمال المعلم (٣٣٢/٦) .

(٥) سورة الرعد : ٢٨ .

(٦) بحجة النفوس (١٣٣/٣) .

« ظاهر الحديث يدلّ على أنه لا يسعد بشفاعة النبي ﷺ يوم القيامة إلاّ من قال : لا إله إلاّ الله ، خالصاً من قلبه أو نفسه »^(١) .

٨٤ — ويبيّن ابن جزى معنى الإخلاص المذكور في قوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ ، فقال :

« الإخلاص يراد به التوحيد وترك الشرك ، أو ترك الرياء . وذلك أن الإخلاص مطلوب في التوحيد وفي الأعمال ، وعدم الإخلاص في التوحيد هو الشرك الجلي ، وعدم الإخلاص في الأعمال هو الشرك الخفي ، وهو الرياء »^(٢) .

٨٥ — وقال محمّد بن يحيى المختار عند حديث أبي هريرة : « أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلاّ الله ، خالصاً من قلبه ... »^(٣) الحديث :
« يعني أن أسعد الناس بشفاعته ﷺ في القيامة من قال : لا إله معبود على الحقّ إلاّ الله ، قولاً خالصاً لا شائبة معه »^(٤) .

٨٦ — وعرف محمّد الأمين الإخلاص بأنه « أفراد المعبود بالقصد في كلّ ما أمر بالتقرّب به إليه »^(٥) .

٨٧ — وعند قوله تعالى : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾^(٦) قال :
« أمر الله نبيّه أن يعبدّه في حال كونه مخلصاً له الدين ، أي : مخلصاً في عبادته من جميع أنواع الشرك ، صغيرها وكبيرها » .

(١) بهجة النفوس (١/١٣٠) .

(٢) التسهيل (٤/٤١٥) . ط . دار الكتب الحديثة - مصر . تحقيق محمّد عبدالمنعم وإبراهيم عطوه .

(٣) سبق تخريجه ص ٩٧ .

(٤) نور الحقّ الصبيح (١/٢٣٥) .

(٥) أضواء البيان (٧/٤٢) .

(٦) سورة الزمر : ٢ .

٨٨— وقال أيضاً عند الآية : ﴿ألا لله الدين الخالص﴾^(١) :

« أي : التوحيد الصافي من شوائب الشرك ، أي : هو المستحق لذلك وحده ، وهو الذي أمر به ، وقول من قال من العلماء : إن المراد بالدين الخالص كلمة لا إله إلا الله ، موافق لما ذكرناه »^(٢) .

٨٩— وأكد هذا المعنى عند قوله تعالى : ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون﴾^(٣) فقال :

« ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن جميع الرسل جاؤوا بإخلاص التوحيد لله ، الذي تضمنته كلمة لا إله إلا الله... »^(٤) .

فذكر أن المراد بالآية : ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ التوحيد ؛ كلمة « لا إله إلا الله » ، وأن تكون خالصة من شوائب الشرك ، فتعريفه للإخلاص بأنه أفراد المعبود بالقصد في كل ما أمر بالتقرب به إليه يدخل فيه كلمة التوحيد دخولاً أولياً لا ابتناء كل الأمور عليها ، مما يدل على عنايته بهذا الشرط من شروط « لا إله إلا الله » .

(١) سورة الزمر : ٣ .

(٢) أضواء البيان (٧/٤٢-٤٣) .

(٣) سورة الزخرف : ٤٥ .

(٤) أضواء البيان (٧/٢٥٤) .

الشرط الرابع : الإيمان بكل ما جاء به النبي ﷺ مع الانقياد لأمر الله ورسوله ﷺ

جاء في حديث أبي هريرة عند مسلم ؛ أن النبي ﷺ قال : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَيُؤْمِنُوا بِمَا جِئْتُ بِهِ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ »^(١) .

فقلوه : « وَيُؤْمِنُوا بِمَا جِئْتُ بِهِ » نص في شرط الإيمان بكل ما جاء به النبي ﷺ .

٩٠ — وفي هذا قال معن^(٢) :

« وَكُتِبَ إِلَى مَالِكٍ مِنَ الْمَغْرِبِ يُسْأَلُ عَنْ قَوْمٍ يَصَلُّونَ رَكْعَتَيْنِ ، وَيَجْحَدُونَ السَّنَةَ ، وَيَقُولُونَ : مَا نَجِدُ إِلَّا رَكْعَتَيْنِ !

قال مالك : أَرَى أَنْ يُسْتَتَابُوا ، فَإِنْ تَابُوا وَإِلَّا قُتِلُوا »^(٣) .

٩١ — وَبَيَّنَ ابْنُ رَشْدٍ مَعْنَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

« لِأَنَّ صَلَاةَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَالْعِشَاءِ الْأَخِيرَةَ أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ لَا يُقَالُ فِيهَا : إِنِّهَا سَنَةٌ ! بَلْ هِيَ فَرِيضَةٌ أَحْكَمْتُهَا السَّنَةُ ، وَانْعَقَدَ عَلَيْهَا الْإِجْمَاعُ ، فَمَنْ جَحَدَ ذَلِكَ كَانَ كَافِرًا »^(٤) .

فحكم عليهم مالك بالقتل ؛ لأنهم لم ينقادوا لأمر رسول الله ﷺ ، الذي بيّن مقدار الصلوات بقوله وفعله .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله (٢٥/١) برقم (٢١) .

(٢) هو معن بن عيسى بن يحيى القزاز ، فقيه ثقة ثبت ، كان من كبار أصحاب مالك ، وأخرج له البخاري ومسلم . وقرأ الموطأ على مالك لهارون الرشيد وابنيه ، وكان يتوسد عتبة باب مالك ، وهو ممن خلف مالكا في الفقه في المدينة . مات سنة ١٩٨ هـ .

انظر : ترتيب المدارك (١٤٨/٣) ، وشجرة النور (٥٦) .

(٣) البيان والتحصيل (٤٣٧/١٦) .

(٤) البيان والتحصيل (٤٣٧/١٦) .

٩٢— قال ابن بطلال - عند حديث : « أمرت أن أقاتل الناس ... » - :

« وقاتل آخرين من أهل الكفر كانوا يوحدون الله ، غير أنهم كانوا ينكرون نبوة محمد ﷺ ، فقال : « أمرت أن أقاتل الناس ... » ، وذلك أن كفرهم كان جحداً بالنبوة ، فمن أقر بما عليه قوتل^(١) فقد حرم دمه وماله ، إلا بظهور نقض شرائط ما أقر به بعد الإقرار بجملته ، وذلك هو الحق الذي كشف عنه قوله ﷺ : « إلا بحققها » ، ولو أن أهل الأوثان وحد بعضهم وشهد أن لا إله إلا الله ، وحكم له بحكم الإسلام في منع نفسه وماله ، ثم عرضت عليه شرائع الإسلام بعد ذلك فامتنع من الإقرار برسول الله ؛ كان لا شك بالله كافراً ، وعاد حريئاً ، وكذلك الذي أقر بنبوة محمد لو أنكر شيئاً من الفرائض لعاد حريئاً^(٢) كافراً^(٣) .

فبيّن أن الإقرار بلا إله إلا الله له شروط ، فمن نقضها فليس بحرام الدم والمال ، ومن ذلك الإقرار بالرسالة ، فمن لم يؤمن بما جاء به النبي ﷺ ، فلا ينفعه الإقرار بكلمة التوحيد ، إذ لم يأت بشروطها .

٩٣— وقال الباجي رحمه الله :

« وأمرنا ﷺ بأن نؤمن بالله وحده لا شريك له ولا ظهير ، ولا ند ولا صاحبة ولا ولد ، ونؤمن بملائكته وكتبه ورسله ، وأن المسيح عيسى بن مريم عبد الله ورسوله ، ونؤمن بالبعث بعد الموت ، والحساب والثواب والعقاب ، وأن من آمن بمحمد ﷺ وبما جاء به فلا بد له من الجنة ، وأن من كفر به - أو بشيء مما جاء

(١) أي : الإقرار بالشهادتين ، ومراده أن من أقر بالذي يكون عليه قتال الناس : يحرم دمه وماله .

(٢) وهاتان الصورتان تفيدان جهل كل بما نطق به ، وذلك لأن المرتد على حسب قول مالك ، وقد سبق من أقر بالشهادتين وعمل بما لزمته به من تشريعات ، ثم طرأ عليه بعد ذلك الارتداد .

(٣) شرح صحيح البخاري (٥٣/٢) .

به - فإنه مخلّد في النار ...»^(١) .

٩٤- وقال ابن العربي :

« ولا ينفع الإيمان بالله ما لم يقترن به تصديق رسول الله »^(٢) .

٩٥- وأكّد هذا المعنى القاضي عياض رحمه الله بقوله :

« فالإيمان بالنبى ﷺ واجب متعيّن ، لا يتم إيمان إلاّ به ، ولا يصحّ إسلام إلاّ معه . قال الله تعالى : ﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا أعتدنا للكافرين سعيراً ﴾^(٣) »^(٤) .

ولا ريب أنّ الإيمان بالنبى ﷺ يلزم منه الإيمان بكل ما جاء به عليه الصلاة والسلام .

٩٦- كما نبه على ذلك القاضي عياض ، فقال :

« والإيمان به ﷺ هو تصديق نبوته ورسالة الله له ، وتصديقه في جميع ما جاء به وما قاله ، ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان بأنه رسول الله ، فإذا اجتمع التصديق بالقلب والنطق بالشهادة بذلك باللسان ، ثم الإيمان به والتصديق له ، كما ورد في الحديث نفسه من رواية عبدالله بن عمر رضي الله عنهما : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله » ، وزاده وضوحاً في حديث جرير ، إذ قال : أخبرني عن الإسلام . قال النبيّ ﷺ : « أن تشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله ... » وذكر أركان الإسلام »^(٥) .

(١) رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي عليها (٨٣) .

(٢) عارضة الأحوزي (٢٧١/١١) .

(٣) سورة الفتح : ١٣ .

(٤) الشفا (٥٣٨/٢) .

(٥) الشفا للقاضي عياض (٥٣٩/٢) .

وبيّن أبو العباس القرطبي رحمه الله أنّ النطق بكلمة التوحيد والرسالة متلازمان .

٩٧— قال - عند رواية : « أمرت أن أقاتل الناس ... » - :

« ظاهره أن من نطق بكلمة التوحيد فقط حكم له بحكم الإسلام ، وهذا الظاهر متروك قطعاً ؛ إذ لا بدّ مع ذلك النطق بالشهادة بالرسالة »^(١) .

٩٨— وقال أيضاً : « فمن وحّد الله تعالى ولم يؤمن بالنبى ﷺ لم ينفعه إيمانه بالله تعالى ، ولا توحيده ، وكان من الكافرين بالإجماع القطعي »^(٢) .

٩٩— وذكر محمد بن يحيى المختار عند حديث وفد عبد القيس - وفيه : « أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ » . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله »^(٣) - قوله :

« فالإيمان بالله وحده اعتقاد هاتين الشهادتين جزماً والنطق بهما داخلاً في الإيمان بالله وحده ؛ لأنّ من لم يصدق بها كان مكذباً لله تعالى ، لأنّ الله تعالى شهد له بالرسالة »^(٤) .

وبعد ذكر هذه الشروط بيّن أئمة المالكية أنه لا بدّ لقائل لا إله إلاّ الله من الموت عليها أيضاً ليتحقق له دخول الجنة .

١٠٠— فنقل ابن بطال قول شيخه المهلب مقرّأ له في شرحه : باب من كان

(١) المفهم (١٨٧/١-١٨٨) .

(٢) المفهم (٢٩١/١) .

(٣) خرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب أداء الخمس من الإيمان (١٢٩/١) برقم (٥٣) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين (٤٧/١) برقم (١٧) .

(٤) نور الحق الصبيح (١٥١/١) . وذكر مثل هذا المعنى الشنقيطي في شرحه لصحيح البخاري : كوثر المعاني الدراري (٤٠٩/١) ، وزاد : « وهذا فيه من غاية تعظيمه عليه الصلاة والسلام ما يدهش العقول ؛ حيث إنّ الله تعالى جعل الإيمان به عليه الصلاة والسلام إيماناً به تعالى وحده » .

آخر كلامه لا إله إلا الله :

« لا خلاف بين أئمة المسلمين أنه من قال : لا إله إلا الله ، ومات عليها لا بدّ له من الجنة ، ولكن بعد الفصل بين العباد وردّ المظالم إلى أهلها - وذكر حديث معاذ : أن النبي ﷺ حين أرسله إلى اليمن أوصاه أن ييسّر ولا يعسر ، ويشتر ولا ينفر ، وقال : (إنه سيقدم عليك قوم من أهل الكتاب يسألونك : ما مفتاح الجنة ؟ فقل : شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له)^(١) »^(٢) .

١٠١ — وقال الطرطوشي :

« وحسبك شرفاً وجلالة لهذه الكلمة ما روى أبو داود : أن النبي ﷺ قال : « لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » ، فمفتاح الدخول في الإسلام : لا إله إلا الله ، ونخاتم الخروج من الدنيا والقدوم على الله تعالى : لا إله إلا الله »^(٣) .

وأورد حديث ابن عمر ﷺ : أن عمر بن الخطاب رأى طلحة ثقيلاً فقال له : مالك ؟ قال : كلمة سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يقولها أحد عند موته إلا

(١) حديث بعث معاذ ﷺ إلى اليمن مخرج في الصحيحين : البخاري في كتاب الزكاة ، باب وجوب الزكاة (٢٦١/٣) برقم (١٣٩٥) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (٥٠/١) برقم (١٩) .

وأما هذه الرواية فليست في الصحيحين ، فقد خرجها الإمام أحمد في مسنده (٢٤٢/٥) (٢٢١٠٢) ، والبخاري (١٠٤/٧) برقم (٢٦٦٠) ، والطبراني في الدعاء (١٤٨٨/٣) برقم (٨٤٧٩) .

وكلهم من طريق شهر بن حوشب وهو ضعيف ، ولم يدرك معاذاً ، وإسماعيل بن عياش روايته عن أهل بلده ضعيفة ، وهذا منها ، فهو بهذه الرواية ضعيف . وقد صح عن معاذ معناه بغير هذا السياق : أن النبي ﷺ قال : " ما من نفس تموت وهي تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله يرجع ذلك إلى قلب مؤمن إلا غفر الله لها " . والأحاديث في الصحيحين تؤيد هذا المعنى ، وقد مرت في هذا البحث . مسند الإمام أحمد (٢٢٩/٥) (٢١٩٩٨) .

(٢) شرح صحيح البخاري (٢٣٦/٣) .

(٣) الدعاء المأثور وآدابه (١٨٧) .

أشرق لها لونها ، ونفس كربه ، ورأى ما يسره » . فقلت : ما منعي أن أسأله عنها
إلا القدرة عليها . قال عمر بن الخطاب : أنا أعلمها . قال : وما هي ؟ قال :
تعلم كلمة أفضل من كلمة أراد عليها عمه : لا إله إلا الله ؟ فقال طلحة : هي
هي^(١) ، وحديث معاذ : « من كان آخر كلامه : لا إله إلا الله ؛ دخل
الجنة »^(٢) .

١٠٢ — وقال القاضي عياض :

« وأن كل من مات على الإيمان وشهد مخلصاً من قلبه بالشهادتين فإنه يدخل
الجنة »^(٣) .

فنصّ على أنه لا بدّ من الموت على الإيمان والإخلاص .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٦١/١) ، وأبو يعلى (٢٢/٢) (٦٥٥) ، والنسائي في عمل اليوم
والليلة (١٠٩٩) . وإسناده صحيح كما ذكر الأرناؤوط في حاشية المسند .

(٢) سبق تخريجه ص ٤٢ .

(٣) إكمال المعلم (٢٥٥/١) .

المبحث الرابع

التوحيد أول دعوة الرسل

أثار المتكلمون مسألة أول واجب على المكلف ، وسلوكوا في إثبات معرفة الله ﷻ^(١) شططاً ، بعد اتفاق معظمهم على أن الأمر بعبادته سبحانه ليس أول واجب ، وحكي عن الأشعري^(٢) القول بأن أول واجب على المكلف المعرفة ، ومعناها عندهم : معرفة وجود الله وتفرّده بخلق العالم^(٣) .

وقال الباقلاني^(٤) : « أول ما فرض الله ﷻ على جميع العباد : النظر في آياته ... والثاني من فرائض الله ﷻ على جميع العباد : الإيمان به والإقرار بكتبه ورسوله ... »^(٥) .

وقال الجويني^(٦) : « أول ما يجب على العاقل البالغ باستكمال سنّ البلوغ أو

(١) قول أهل السنة والجماعة : إن معرفة الخالق والإقرار بربوبيته أمر فطري ، فطر الله عليه خلقه ، فإذا

كانت المعرفة مركوزة في الفطر ، فكيف يكون أول واجب على المكلف ؟

(٢) هو علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبدالله بن موسى بن بلال بن أبي بردة

بن أبي موسى الأشعري ، وكنيته أبو الحسن ، وينسب إليه مذهب الأشاعرة . قال الذهبي : ولأبي

الحسن ذكاء مفرط ، وتبحّر في العلم ، وله أشياء حسنة ، وتصانيف جمّة تقضي له بسعة العلم ، له من

التصانيف : الفصول في الرد على الملحدين ، وكتاب الموجز ، وكتاب خلق الأعمال ، وكتاب

الصفات ، وكتاب اللمع في الرد على أهل البدع ، وغيرها .

انظر : تاريخ بغداد (٣٤٦/١١) ، السير (٨٥/١٥) .

(٣) انظر شرح جوهرة التوحيد (٣٧) .

(٤) سبقت ترجمته ص ٣٧ .

(٥) الإنصاف (٢٢) .

(٦) هو محمد بن عبدالله بن يوسف بن عبدالله بن يوسف بن محمد بن حيويه الجويني ، الفقيه الشافعي

الملقب ضياء الدين ، كان قليل الرواية للحديث معرضاً عنه مع كثرة قراءته ، كما قال عن نفسه : =

الحلم شرعاً : القصد إلى النظر الصحيح ...»^(١) .

وقالت طائفة من المتكلمين^(٢) : أول واجب الشكّ .

وبعضهم حدّد مطالب يتوصّل بها إلى إثبات وجود الله تعالى ، ولا يعرفها إلاّ الراسخون في العلم ، وبها النجاة .

قال شارح الجوهرة : « وهذه المطالب السبعة لا يعرفها إلاّ الراسخون في العلم » . ثم قال : « وقال السنوسي^(٣) : وبها ينجو المكلف من أبواب جهنّم السبعة »^(٤) .

فانظر كيف جعل السنوسي عاقبة ترك هذه المطالب على المكلف ، سواء كان من العوام أو من العلماء الراسخين في العلم ، وانظر اعتراف الباجوري بأنه لا يعلمها إلاّ الراسخون في العلم ! فيكونون على هذا هم الناجين فقط دون من سواهم ! ويكون العوام - وهم أكثر المسلمين - ليسوا بناجين من النار ، بل حتى العلماء الذين ليسوا براسخين في العلم ! وفي هذا تحجير لواسع ، وتضييق لرحمة الله ،

= " قرأت خمسين ألفاً في خمسين ألفاً ، ثم خلّيت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة ، وركبت البحر الخضم " . وله من الكتب : البرهان - في أصول الفقه - ، وتلخيص التقريب ، والإرشاد ، وغيرها . مات سنة ٤٧٨هـ .

انظر : وفيات الأعيان (١٦٧/٣) ، السير (٤٦٨/١٨) .

(١) الإرشاد للجويني (٢٥) . تحقيق أسعد تميم - بيروت ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ط. الأولى ١٤٠٥هـ .

(٢) وهو قول أبي هاشم الجبائي المعتزلي ، وقد أخذ به الغزالي ، ونسبه ابن حزم إلى الأشعرية . انظر الجبائيات (٣٣٣) ، الفصل (٧٤/٤) ط. المحققة ، منهج ابن تيمية في الرد على الأشاعرة (٩٣٥/٣) .

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر التلمساني الحسني ، متكلم أشعري ، وله مشاركة في الحديث . من كتبه : أم البراهين . مات سنة ٨٩٥هـ .

(٤) شرح جوهرة التوحيد (٤٢) .

وابتداع لقول لم يسبقوا إليه^(١) .

وذكر الباجي عن شيخه القاضي أبي جعفر السمناني^(٢) أنه كان يقول :
« القول بأن النظر أوّل الواجبات مسألة من مسائل الاعتزال ، بقيت في المذهب^(٣)
عند من التزمها »^(٤) .

وهذه لفظة مهمة لبيان المشرب الذي استقى منه هؤلاء مذهبهم .

والذي عليه سلف الأمة : أن أوّل واجب على المكلف الشهادتان : شهادة أن لا
إله إلا الله ، وشهادة أن محمداً رسول الله ، وإفراد الله بالعبودية ، وهو ما دلّت عليه
النصوص من الكتاب والسنة .

فجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال
تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾^(٥) ،
وقوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحى إليه أنه لا إله إلاّ أنا
فاعبدون ﴾^(٦) .

ومن السنة حديث معاذ المشهور ، لما بعثه إلى اليمن : « إنك تأتي قوماً أهل

(١) منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الخالق (٣١٦/١) لعبد اللطيف محمد نور .

(٢) هو أبو جعفر محمد بن أحمد بن محمد بن محمود القاضي السمناني ، فقيه متكلم أشعري ، وهو من
أصحاب أبي بكر الباقلاني الملازمين له . مات سنة ٤٤٤ هـ .

انظر : الأنساب للسمعاني (١٤٩/٧) ، والسير (٦٥١/١٧) .

(٣) يريد مذهب الأشاعرة .

(٤) نقله عنه ابن رشد في البيان والتحصيل (٥٨-٥٩) . قال ابن حجر : " وقد وافق أبو جعفر

السمناني - وهو من رؤوس الأشاعرة - على هذا ، وقال : إن هذه المسألة بقيت في مقالة الأشعري

من مسائل المعتزلة " . انظر الفتح (٣٤٩/١٣) .

(٥) سورة النحل ٣٦ .

(٦) سورة الأنبياء : ٢٥ .

كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله .»

ويلاحظ التصريح بلفظ أول في الحديث : « فليكن أول ما تدعوهم إليه » ، فهو نص في الموضوع .

وكذلك إجماع أئمة الدين وعلماء المسلمين أن كل كافر يدعى إلى الشهادتين ، بذلك يصير مسلماً .

قال ابن المنذر : « أجمع كل من أحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر إذا قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وأنّ كل ما جاء به محمد حقّ ، وأبرأ إلى الله من كل دين يخالف دين الإسلام - وهو بالغ صحيح العقل - أنه مسلم ، فإن رجع بعد ذلك فأظهر الكفر كان مرتدّاً ، ويجب عليه ما يجب على المرتدّ »^(١) .

وبعد ؛ فإن أئمة المالكية تكلموا عن أول واجب على المكلف ، وهو الشهادتان ، وردّوا على المخالف في ذلك .

١- قال ابن العربي :

« قال مالك - في الكافر يوجد عند الدرب ، فيقول : جئت مستأمناً أطلب الأمان - : هذه أمور مشكّلة ، وأرى أن يرد إلى مأمنه ، ولا يحكم له بحكم الإسلام ؛ لأن الكفر قد ثبت له ، فلا بدّ أن يظهر منه ما يدلّ على أن الاعتقاد الفاسد الذي كان يدلّ عليه قوله الفاسد قد تبدّل باعتقاد صحيح يدلّ عليه قوله ، ولا يكفي فيه أن يقول : أنا مسلم ، ولا : أنا مؤمن ، ولا : أنا أصلي ،

(١) الإجماع (١٥٤) . دار طيبة . وأورد القرطبي هذا الإجماع عن ابن المنذر كما سيأتي .

حتى يتكلّم بالكلمة العاصمة التي علق النبي ﷺ الحكم بها عليه في قوله :
(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني
دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها ، وحسابهم على الله) (١) .

فمالك رحمه الله لم يحكم للكافر بالإسلام حتى يدلّ اعتقاده الفاسد باعتقاد
صحيح ، يدلّ عليه قوله : ولم يكتف بأن يقول : أنا مسلم ، أو : مؤمن ، ولا : أنا
أصلي ، حتى ينطق بكلمة التوحيد العاصمة : لا إله إلاّ الله .
فتعليقه الحكم بإسلامه على قولها مما يدلّ على أنها أوّل واجب .

٢— وذكر محمد بن رشد - وقد تقدّم - أن مذهب القاسم وروايته هذه عن
مالك أن الصغير من سبي أهل الكتاب لا يجبر على الإسلام ، ولا يحكم له بحكمه ،
حتى يجيب إليه (٢) .

٣— ويبيّن معنى الإجابة في رواية سحنون عن ابن القاسم عن مالك . قال في
المدونة :

« قلت : كيف الإسلام الذي إذا أجابت إليه الجارية (٣) حلّ وطؤها والصلاة
عليها ؟ قال : قال مالك : إذا شهدت أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً عبده ورسوله ، أو
صلّت فقد أجابت » (٤) .

فحكم بالإسلام لمن أجاب ، ومعنى الإجابة : شهادة أن لا إله إلاّ الله ، مما يدلّ
على أنها أوّل واجب عنده ، وكذلك عند تلميذه ابن القاسم .

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٤٨٢/١) . ط. دار المعرفة - بيروت ، لبنان .

(٢) البيان والتحصيل (٢١٣/٢-٢١٤) .

(٣) وكلامه هنا عن الجارية المشتركة ، لقوله تعالى : ﴿ لا هنّ حلّ لهم ولا هم يحلّون لهنّ ﴾ ، بخلاف
الكتابية .

(٤) المدونة (١٧٩/١) .

٤— فقد سئل عن امرأة نصرانية ، قال لها ختنها : أسلمي يا فلانة ، حتى نغسلك ونصلي عليك . فقالت : نعم . وأمرت بغسل ثيابها ، وقالت : كيف أقول ؟ قال : قلت لها : قولي : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأن عيسى بن مريم روح الله وكلمته . فقالت كل هذا ، ثم ماتت ، فدفنت في قبور النصارى ؟ فقال ابن القاسم : « اذهب فانبشها ، ثم اغسلوها وصلّوا عليها ، إلا أن تكون قد تغيّرت »^(١) .

فحكم ابن القاسم بإسلامها بمجرد نطقها بالشهادتين ، مما يدلّ على أن ابن القاسم رحمه الله يرى أنها أوّل واجب .

٥— وصرّح ابن رشد أنه مذهب سحنون^(٢) .

٦— وذكر القاضي ابن نصر معنى يتبيّن منه أن أوّل واجب هو قول : لا إله إلا الله ، قال :

« ومن مات من السبي قبل التلفّظ بالشهادتين فلا يُغسل ، ولا يصلى عليه ؛ لأنه مات على أصل الكفر ، لأنه لم يثبت له الإسلام ، لا من جهة الاعتقاد ولا الحكم ؛ لأنه لم يكن سوى سبيه ، والسبي لا يزول عنه حكم الكفر ، وإن قالها ابتداءً غسّل وكفّن وصلي عليه ، وكذلك إن قالها عن تلقين إذا كان طوعاً من غير إكراه ؛ لأن الظاهر إجابته إلى الإسلام ، وتدينه به »^(٣) .

فلو كان ثمة واجب قبل التلفّظ بالشهادتين لما علّق الحكم بإسلامه عليهما ، مما يظهر أن الشهادتين أوّل واجب عنده رحمه الله .

(١) البيان والتحصيل (٢/٢٥٦) .

(٢) البيان والتحصيل (٢/٢١٣) .

(٣) المعونة على مذهب عالم المدينة (١/٢٠١) .

٧- وأكّد هذا المعنى ابن بطال رحمه الله ، فعند حديث : « أمرت أن أقاتل الناس ... » قال :

« ... وحديث هذا الباب إنما قاله ﷺ في حال قتاله لأهل الأوثان ، الذين كانوا لا يقرّون بتوحيد الله ، وكانوا إذا قيل لهم : لا إله إلا الله ، يستكبرون ، فدعاهم النبي ﷺ إلى الإقرار بالوحدانية ، وخلع ما دونه من الأوثان ، فمن أقرّ بذلك منهم كان في الظاهر داخلاً في صبغة الإسلام »^(١) .

فتبيّن من قوله : « فدعاهم النبي ﷺ إلى الإقرار بالوحدانية ... » أنّ أوّل واجب هو الدعوة إلى التوحيد ، إذ به يكون المقرّ به داخلاً في صبغة الإسلام .

٨- وقال - عند شرح حديث وفد عبد قيس ، مبيناً أهمية الصلاة - :

« قرن الله تعالى التقى ونفى الإشراك به تعالى بإقامة الصلاة ، فهي أعظم دعائم الإسلام بعد التوحيد »^(٢) .

فنص على أن التوحيد هو أعظم الدعائم ، مما يبيّن أنه أوّل واجب .

٩- وذكر ابن عبد البرّ أنّ تحقق الإسلام لا يكون إلاّ بالشهادة مما يظهر أنّها أوّل الواجبات ، قال :

« فكما لا يكون مسلماً حتى يشهد بشهادة الحقّ ، فكذلك لا يكون متطهراً ولا مصلياً حتى ينطق بالشهادة »^(٣) .

١٠- وقد تكلم الباجي في مسألة أوّل الواجبات كلاماً نفيساً ، صدّره بنقله عن شيخه أبي جعفر السمناني بأنّ « النظر أوّل الواجبات : مسألة من مسائل الاعتزال

(١) شرح صحيح البخاري (٥٣/٢) .

(٢) شرح صحيح البخاري (١٥٢/٢) .

(٣) الكافي في فقه أهل المدينة (١٥٣/١) .

بقيت في المذهب ... » ، ثم قال :

« فمن جعله أول الواجبات أوجبه بالعقل ، إذ لا يصح أن يعلم أحد أن الله أوجب عليه النظر وهو لا يعلم الله إلا بعد النظر ... ومن أصول أهل السنة أن العقل لا حظر فيه ولا إباحة ... » .

واستدلّ الباجي رحمه الله على من قال : إن النظر والاستدلال أول الواجبات ، بإجماع المسلمين في جميع الأعصار على تسمية العامة والمقلّدين : مؤمنين . قال :

« فلو كان ما ذهبوا إليه صحيحاً لما صحّ أن يسمى مؤمناً إلا من عنده علم بالنظر والاستدلال ، وأيضاً لو كان الإيمان لا يصح إلا بعد النظر والاستدلال لجاز للكفار إذا غلب عليهم المسلمون أن يقولوا لهم : لا يحلّ لكم قتلنا ؛ لأنّ من دينكم أن الإيمان لا يصحّ إلا بعد النظر والاستدلال ، فأخرونا حتى ننظر ونستدلّ !

وهذا يؤدّي إلى تركهم على كفرهم ، وأن لا يقاتلوا حتى ينظروا ويستدلّوا !! » . قال : « ولا خلاف في بطلان هذا »^(١) .

١١ — وذكر الطرطوشي ما يدلّ على أنّ « لا إله إلا الله » هي أول واجب ، وآخر واجب . فقال - عند حديث : « لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ : لا إله إلا الله » - :

« فمفتاح الدخول في الإسلام : لا إله إلا الله ، وخاتم الخروج من الدنيا والقُدوم على الله : لا إله إلا الله »^(٢) .

١٢ — وأكّد هذا المعنى بقوله :

« اعلموا - أرشدكم الله تعالى - أنّ لا إله إلا الله هي العروة الوثقى ، ومركب النجاة ، وسفينة نوح ؛ من عدل عنها هلك ، ومن ركبها خلص ونجا ، وهي قطب

(١) البيان والتحصيل (١/٥٨-٥٩) .

(٢) الدعاء المأثور وآدابه (١٨٧) .

الإسلام ، وقاعدة الأديان ، وما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه بها»^(١) .

فنص على أن لا إله إلا الله قاعدة الأديان ، وقاعدة الشيء أساسه وأوله الذي ينبنى عليه غيره ، مما يبين أنها أول واجب .

١٣ — وبين هذا المعنى الزرقاني ، فقال :

« لا إله إلا الله : هي الكلمة العليا ، والقطب الذي تدور عليه رحى الإسلام ، والقاعدة التي بني عليها أركانها ، والشعبة التي هي أعلى شعب الإيمان »^(٢) .

١٤ — وبمثل ذلك المعنى قال ابن جزى - عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾^(٣) - :

« المقصود الأعظم من هذه الآية الأمر بتوحيد الله ، وترك ما عبد من دونه ، لقوله في آخرها : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ ، وذلك الذي يترجم عنه بقولنا : لا إله إلا الله ، فيقتضي ذلك الأمر بالدخول في دين الإسلام ، الذي قاعدته التوحيد »^(٤) .

فنص على أن قاعدة دين الإسلام التوحيد ، مما يبين أنه أول واجب .

١٥ — وذكر هذا المعنى الهبطي فقال :

« الحمد لله الذي جعل التوحيد أول قواعد الإسلام ، وعبر عن ذلك بأن لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ، لجميع الأنام ... » .

ونظمه بقوله :

(١) الدعاء المأثور وآدابه (١٨٥) .

(٢) شرح الزرقاني (٢٩/٢) .

(٣) سورة البقرة : ٢١ .

(٤) التسهيل (٧٠/١) .

توحيده أوّل فرض يا فتى فانهض إلى تحصيله إلى متى

كيف يصح يا بنيّ في الوجود عبادة من جاهل بالمعبود^(١)

١٦— وبمثل قولهم ذكر ابن عاشر في نظمه - تحت عنوان : كتاب أمّ القواعد ، وما انطوت عليه من القواعد - أن جميع القواعد مندرجة في كلمة التوحيد ، فقال :

« قواعد الإسلام خمس واجبات وهي الشهاداتتان فرض الباقيات »^(٢)

فنصّ على أن الشهادتين هي أمّ القواعد ، وغيرها ينبني عليها .

١٧— وقال ابن العربي - عند حديث : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله ، ويؤمنوا بالذي جئت به ... »^(٣) - :

« فالواجب هو الإيمان ، وكل ما قال الرسول على الجملة منه أصول وفروع ، وأوائل وأواخر ، فأصوله وأوائله ما بني الإسلام عليه ، على ما في حديث ابن عمر : « بني الإسلام على خمس ... » ، وإن كانت كلها دعائم فإن عمدها الشهادة ، بها يحكم للمرء بالإيمان ، وبها تتخذ أصلاً يبنى عليه غيره ، وإن توقف عنها مع القدرة عليها كان كافراً »^(٤) .

فنصّ على أن الواجب هو الإيمان بكل ما جاء به النبي ﷺ ، وأنّ منه أوائل وأصول ، وهي ما بني عليه الإسلام ، ودعائم لا تقوم إلاّ على الشهادة ، إذ هي الأصل الأصيل الذي يحكم بإسلام من نطق بها .

١٨— وذكر أيضاً : « أن الكافر لو صلى أو فعل فعلاً من خصائص الإسلام ،

(١) النوازل (٢٩٦/٣-٢٩٩) .

(٢) الدر الثمين والمورد المعين شرح المرشد المعين لابن عاشر (٢١) . ط. دار الفكر .

(٣) سبق تخريجه ص ٢٩ .

(٤) عارضة الأحوذى (٧٩/١٠) .

فإنه لا يكون مسلماً بذلك ، إما أنه يقال له : ما وراء هذه الصلاة ؟ فإن قال : صلاة مسلم . قيل له : قل : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإن قالها تبين صدقه ، وإن أبي علمنا أن ذلك تلاعب ^(١) .

١٩ — وقال أيضاً — في الذي قال : سلام عليكم — :

« يكلف الكلمة ؛ فإن قالها تحقق رشاده ، وإن أبي تبين عناده وقتل ^(٢) » .

فلم يحكم بالإسلام لمن أتى فعلاً من خصائص الإسلام حتى يقول : لا إله إلا الله .

وكذا من ألقى السلام ؛ يكلف الكلمة ، وبها يتحقق إسلامه ، مما يبين أنها أول الواجبات عنده رحمه الله .

وأما القرطبي ؛ فقد ذكر عند قوله تعالى : ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ... ﴾ ^(٣) الخلاف في أول الواجبات : هل هو النظر والاستدلال ، أو الإيمان الذي هو التصديق الحاصل في القلب الذي ليس من شرط صحته المعرفة ^(٤) ؟ ثم بعد ذلك أورد مقالة الباجي السالفة ^(٥) في ردّه على المتكلمين ، ثم قال :

٢٠ — « هذا هو الصحيح في الباب ، قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، ويؤمنوا بي وبما جئت به ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقّها ، وحسابهم على الله » ، وترجم ابن

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٤٨٢/١) .

(٢) أحكام القرآن (٤٨٢/١) .

(٣) سورة الأعراف : ١٨٥ .

(٤) لعل مراده هنا بالمعرفة التي يقصدها المتكلمون .

(٥) انظر ص ١٢٤ .

المنذر^(١) في كتاب الإشراف : (ذكر صفة كمال الإيمان) : أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر إذا قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله ، وأنّ كل ما جاء به محمد حقّ ، وأبرأ من كلّ دين يخالف دين الإسلام - وهو بالغ صحيح العقل - أنه مسلم ، وإن رجع بعد ذلك وأظهر الكفر كان مرتدّاً ، يجب عليه ما يجب على المرتدّ .

وقال أبو حفص الزنجاني : وكان شيخنا القاضي أبو جعفر أحمد بن محمد السمناني يقول : أول الواجبات الإيمان بالله ورسوله وبجميع ما جاء به ، ثم النظر والاستدلال المؤديان إلى معرفة الله تعالى ، فيتقدم وجوب الإيمان بالله تعالى عنده على المعرفة بالله .

قال : وهذا أقرب إلى الصواب ، وأرفق بالخلق ؛ لأنّ أكثرهم لا يعرفون حقيقة المعرفة والنظر والاستدلال . فلو قلنا : إنّ أول الواجبات المعرفة بالله ؛ لأدّى إلى تكفير الجَمّ الغفير والعدد الكثير ، وألا يدخل الجنة إلّا آحاد الناس ، وذلك بعيد ؛ لأنّ الرسول ﷺ قطع بأنّ أكثر أهل الجنة أمته ، وأنّ أمم الأنبياء كلّهم صفّ واحد^(٢) ، وأمته ثمانون صفّاً ، وهذا يبيّن لا إشكال فيه ، والحمد لله^(٣) .

٢١- ثم بعد ذلك ذكر ما ذهب إليه بعض المتكلمين إلى أنّ من لم يعرف الله تعالى بالطرق التي طرقوها ، والأبحاث التي حرروها ؛ لم يصحّ إيمانه وهو كافر ،

(١) أوردت مقالة ابن المنذر في أول الفصل ، وهي هنا من نقل القرطبي لها .

(٢) وهذا وهم ، والصواب : مائة وعشرون صفّاً كما جاء في حديث ابن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : " أهل الجنة عشرون ومئة صفّ ، منهم ثمانون من هذه الأمة " . وقال عفان مرة : " أنتم منهم ثمانون صفّاً " . أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٧/٥) (٢٢٩٤٠) ، وابن أبي شيبة (٤٧٠/١١-٤٧١) ، والترمذي (٢٥٤٦) ، وقال : هذا حديث حسن . وصححه الحاكم على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي . وأخرجه أيضاً ابن حبان (٧٤٥٩) وإسناده صحيح .

(٣) تفسير القرطبي (٣٣٢/٧) .

فيلزم على هذا تكفير أكثر المسلمين ، وأوّل من يبدأ بتكفيره آباؤه وأسلافه وجيرانه !
وقد أورد على بعضهم هذا ، فقال : لا تشنّع عليّ بكثرة أهل النار !

٢٢— قال القرطبي :

« وهذا القول لا يصدر إلّا من جاهل بكتاب الله وسنة نبيّه ﷺ ؛ لأنه ضيق
رحمة الله الواسعة على شرذمة يسيرة من المتكلمين ، واقتحموا في تكفير عامّة
المسلمين ، أين هذا من قول الأعرابي الذي كشف عن فرجه ليبول - وانتهره
أصحاب النبيّ ﷺ - : اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً . فقال النبيّ ﷺ :
« لقد حجّرت واسعاً »^(١) . خرجه البخاري والترمذي وغيرهما من الأئمة . أترى
هذا الأعرابي عرف الله بالدليل والبرهان والحجة والبيان ؟ وأنّ رحمته وسعت كلّ
شيء ، وكم من مثله محكوم بالإيمان ، بل اكتفى ﷺ من كثير ممن أسلم بالنطق
بالشهادتين .

وحتى إنه اكتفى بالإشارة في ذلك ، ألا تراه قال للسوداء : « أين الله ؟ » ،
قالت : في السماء . قال : « من أنا ؟ » . قالت : أنت رسول الله . قال : « أعتقها
فإنّها مؤمنة »^(٢) ؟

ولم يكن هناك نظر ولا استدلال ، بل حكم بإيمانهم من أول وهلة ، وإن كان
هناك عن النظر والمعرفة غفلة . والله أعلم »^(٣) .

ولقد أطال القرطبي الكلام حول هذه المسألة ، وبيّن أقوال أئمة السلف في
ذلك ، وردّ على المخالفين من المتكلمين ، وبيّن فساد ما ذهبوا إليه ، وخطورة ما
يترتب عليه .

(١) خرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب رحمة الناس والبهائم (٤٣٨/١٠) برقم (٦٠١٠) .

(٢) سبق تخريجه ص ٣١ .

(٣) تفسير القرطبي (٣٣٢-٣٣٣/٧) .

٢٣— فقال - عند حديث بعث معاذ إلى اليمن : « فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ... »^(١) ، وعن استدلالهم ببعض ما جاء في رواياته : « فإذا عرفوا الله فأخبرهم » على أن أول واجب المعرفة - قال القرطبي :

« فإذا عرفوا الله فأخبرهم ؛ أي : إن أطاعوا بالنطق بذلك ، أي : بكلمتي التوحيد ، كما قال في الرواية الأخرى : « فإن هم أطاعوا بذلك فأعلمهم .. » ، فسمى الطوعية بذلك والنطق به : معرفة ؛ لأنه لا يكون غالباً إلا عن المعرفة ، وهذا الذي أمر النبي ﷺ به معاذاً هو الدعوة ، على ما يأتي في الجهاد .

وعلى هذا فلا يكون في حديث معاذ حجة لمن تمسك به من المتكلمين على أن أول واجب على كل مكلف معرفة الله تعالى بالدليل والبرهان ، بل هو حجة لمن يقول : إن أول الواجبات التلفظ بكلمتي الشهادة مصداقاً بها ... » .

ثم يبين اختلاف المتكلمين ، فقال :

« وقد اختلف المتكلمون في أول الواجبات على أقوال كثيرة ؛ منها ما يشنع ذكره ، ومنها ما ظهر ضعفه .

والذي عليه أئمة الفتوى وبهم يقتدى - كمالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة السلف - : أن أول الواجبات على المكلف الإيمان التصديقي الجزمي ، الذي لا ريب معه بالله تعالى ورسله وكتبه ، وما جاءت به الرسل ، على ما تقرر في حديث جبريل ، كيفما حصل ذلك الإيمان ، وبأي طريقة إليه توصل ،

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد : باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٣٥٩/١٣ ح ٧٣٧٢) ، ومسلم في كتاب الإيمان : باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (٣١٠/١ ح ١٩) .

قال أبو العباس : « المراد بالعبادة هنا هو النطق بشهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، كما جاء في الرواية الأخرى مفسراً : " فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله " . » المفهم (١٨١/١) .

وأما النطق باللسان فمظهر لما استقرّ في القلب من الإيمان ، وسبب ظاهر تترتب عليه أحكام الإسلام»^(١) .

٢٤— وفي موضع آخر قال — عند ذكره أركان الإيمان — :

« مذهب السلف وأئمة الفتوى من الخلف : أن من صدق بهذه الأمور تصديقاً جزماً لا ريب فيه ، ولا تردد ولا توقف ؛ كان مؤمناً حقيقة ، وسواء كان ذلك عن براهين ناصعة ، أو عن اعتقادات جازمة . على هذا انقضت الأعصار الكريمة ، وبهذا صرحت فتاوى أئمة الهدى المستقيمة ، حتى حدثت مذاهب المعتزلة والمبتدعة ، فقالوا : إنه لا يصح الإيمان الشرعي إلا بعد الإحاطة بالبراهين العقلية والسمعية ، وحصول العلم بنتائجها ومطالبها ، ومن لم يحصل إيمانه كذلك فليس بمؤمن ، ولا يجزئ إيمانه بغير ذلك ! وتبعهم على ذلك جماعة من متكلمي أصحابنا ؛ كالقاضي أبي بكر ، وأبي إسحاق الإسفراييني ، وأبي المعالي في أول قوله ، والأول هو الصحيح ، إذ المطلوب من المكلفين ما يقال عليه : إيمان ، كقوله تعالى : ﴿ آمنوا بالله ورسوله ﴾^(٢) ، ﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله ﴾^(٣) ، والإيمان هو التصديق لغة وشرعاً^(٤) ، فمن صدّق بذلك كله ولم يجوز نقيض شيء من ذلك فقد عمل بمقتضى ما أمره الله به ، على نحو ما أمره الله تعالى ، ومن كان كذلك فقد تقصى عن عهدة الخطاب ، إذ قد عمل بمقتضى السنة والكتاب ، ولأن رسول الله ﷺ وأصحابه بعده حكموا بصحة إيمان كل من آمن وصدق بما ذكرناه ، ولم يفرّقوا بين من آمن عن برهان أو عن غيره ، ولأنهم لم يأمرُوا أجلاف العرب بترديد النظر ، ولا سألوهم عن أدلة تصديقهم ، ولا أرجؤوا إيمانهم حتى ينظروا ، وتحاشوا عن إطلاق الكفر على

(١) المفهم (١/١٨٢) .

(٢) سورة الحديد : ٧ .

(٣) سورة الفتح : ١٣ .

(٤) الصواب أن الإيمان في اللغة التصديق والإقرار ، وأما في الشرع فهو قول واعتقاد وعمل .

أحد منهم ، بل سموهم المؤمنين ، والمسلمين ، وأجروا عليهم أحكام الإيمان ، ولأن البراهين التي حررها المتكلمون ورتبها الجدليون إنما أحدثها المتأخرون ، ولم يخض في شيء من تلك الأساليب السلف الماضون ، فمن المحال والهذيان أن يشترط في صحة الإيمان ما لم يكن معروفاً ، ولا معمولاً به لأهل ذلك الزمان ، وهم من هم فهماً عن الله ، وأخذاً عن رسول الله ﷺ ، وتبليغاً لشريعته ، وبياناً لسنته وطريقته ^(١) .

٢٥— وفي سياق كلام له حول ذم الكلام بين فساد طريقته ، وخطورة مسلكهم ، فقال :

« ولو لم يكن في الكلام شيء يذم به إلاّ مسألتان هما من مبادئه ؛ لكان حقيقاً بالذم ، وجديراً بالترك :

إحدهما : قول طائفة منهم : إن أول الواجبات الشك في الله تعالى .

والثانية : قول جماعة منهم : إن من لم يعرف الله تعالى بالطرق التي طرقوها ، والأبحاث التي حرروها ، فلا يصح إيمانه وهو كافر .

فيلزمهم على هذا تكفير أكثر المسلمين من السلف الماضين ، وأئمة المسلمين ، وأن من يبدأ بتكفيره أباه وأسلافه وجيرانه ، وقد أورد على بعضهم هذا ، فقال : لا يُشنع عليّ بكثرة أهل النار ! وكما قال : ثم إن من لم يقل بهاتين المسألتين من المتكلمين ردوا على من قال بهما بطرق النظر والاستدلال ، بناء منهم على أن هاتين المسألتين نظريتان ، وهذا خطأ فاحش ، فالكل يخطئون الطائفة الأولى بأصل القول بالمسألتين ، والثانية بتسليم أن فسادها ليس بضروري ، ومن شك في تكفير من قال : إن الشك في الله تعالى واجب ، وأن معظم الصحابة والمسلمين كفار ، فهو كافر شرعاً ، أو مختل العقل وضعاً ، إذ كل واحدة منهما معلومة الفساد بالضرورة الشرعية الحاصلة بالأخبار المتواترة القطعية ، وإن لم يكن كذلك فلا ضروري يصار

(١) المفهم (١/١٤٥-١٤٦) .

إليه في الشرعيات ، ولا العقليات»^(١) .

٢٦— وأما ابن أبي جمرة ؛ فقال - عند شرحه حديث وفد عبد قيس : « شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله »^(٢) - :

« فيه دليل على أنّ أول الواجبات الإيمان قبل النظر والاستدلال »^(٣) .

٢٧— ونقل محمد المختار قول ابن أبي جمرة السالف على سبيل الإقرار^(٤) .

٢٨— وقال الملي - في بيان أول واجب تحت عنوان : أول ما يدعو إليه المرسلون - :

« إنّ القرآن العظيم يقصّ علينا في جلاء ووضوح أنّ أول ما يدعو إليه الأنبياء والمرسلون - صلوات الله عليهم أجمعين - هو توحيد الله ، وأول ما ينكرونه على قومهم الشرك ومظاهره ، وعلى حكم هذه السنة الرشيدة جاءت بعثة خاتم النبيين ﷺ ، فعنيت بالدعوة إلى التوحيد والتحرز من الشرك ، والتحذير منه ، وما ذلك إلا لشدة الحاجة إلى معرفته ، وإنك لتجد تلك العناية ظاهرة في الكتاب وأطوار البعثة وأركان الدين »^(٥) .

٢٩— وبعد أن ذكر الغلاوي في نظمه في باب العقائد :

أول ما يجب إثبات الوجود لله قل دليله الخلق الموجود

قال : « أول ما يجب بعد التصديق بالقلب والنطق بالشهادتين »^(٦) .

(١) المفهم (٦/٦٩٣) .

(٢) سبق تخريجه ص ٤٧ .

(٣) بهجة النفوس (١/٩٨) .

(٤) انظر نور الحق الصبيح (١/١٥١) .

(٥) رسالة الشرك ومظاهره (١٨) .

(٦) فرض العين (٢٧) . ط. دار القلم للنشر والتوزيع ، ط. الأولى ١٤١٩هـ - دبي .

فذكر أن أول ما يجب التصديق بالقلب ، ولم يذكر نظراً أو استدلالاً .

٣٠- ونقل محمد المكي الناصري قول ابن كثير^(١) مقرأً له في بيان التوحيد الذي

جاءت به الرسل :

« والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال ﷺ : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحى إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون ﴾^(٢) »^(٣) .

وختاماً يتبين أن قول أكثر علماء المالكية في مسألة أول واجب على المكلف هو ما دلت عليه النصوص الشرعية كما سلف بيانه ، وأن من خالف في ذلك فقد خالف جمهور المسلمين ، وقد نص القرطبي^(٤) رحمه الله على خطأ المتكلمين في مسألة أول واجب على المكلف ، وذكر أن القول بأن أول واجب على المكلف الإيمان التصديقي الجزمي : هو قول أئمة الفتوى مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل ، وغيرهم من أئمة السلف . وأن مما يلزم به هؤلاء المتكلمون في قولهم بالنظر أو الشك تكفير عامة المسلمين ، من لدن صحابة رسول الله ﷺ ومن بعدهم ، وردّ عليهم بأن قائل ذلك كافر شرعاً أو محتل العقل وضعاً ، وعندما أورد عليهم ذلك قالوا : إن العامة لا يطالبون بالنظر!^(٥)

(١) هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير البصري ، عماد الدين ، أبو الفداء ، حافظ ومؤرخ وفقيه ، أمعن النظر في العلل والرجال ، له تصانيف مفيدة ، منها : التفسير المشهور قد جمع فيه فأوعى ، ونقل المذاهب والأخبار والآثار ، وكتاب البداية والنهاية ، وكتاب التكميل في معرفة الثقات والضعفاء . مات سنة ٧٧٤هـ . انظر : الدرر الكامنة (١/٣٩٩) ، والبدر الطالع (١/١٥٣) .

(٢) سورة الأنبياء : ٢٥ .

(٣) التيسير (٥/٤٢٢) .

(٤) انظر ص ١٣٥ .

(٥) ومن ألزم العامة بالنظر بأنه أول ما يجب عليهم فقد كفرهم ، وإن لم يقل به .

ومعلوم أنه يلزم من هذا القول بأن أول الواجبات توحيد الله تعالى ، إذ إن الرسل اكتفوا فيمن دعوهم بالإيمان ، حتى وإن لم يسبق ذلك نظر .

وهذا بحمد ذاته يكفي لردّ مقالة المتكلمين القائلين بوجوب النظر ، وبهذا يظهر مدى اهتمام أئمة المالكية ببيان أول ما دعت إليه الرسل ، من توحيد الله ﷻ ، وهو ما دعت إليه النصوص من الكتاب والسنة ، والله الحمد والمنّة .

الفصل الثاني

توحيد المعرفة

وفيه مبحثان :

- ◀ المبحث الأول : إقرار الكفار بتوحيد المعرفة .
- ◀ المبحث الثاني : الاحتجاج بهذا الإقرار على توحيد العبادة .

مَهْيَدٌ

لما كانت معرفة الله ﷻ من الأمور التي فطر عليها الخلائق فإن غالبهم استجاب لنداء الفطرة هذا ، وأقرّوا بمعرفة الله ﷻ ، كما قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾^(١) .

وقال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾^(٢) .

بل حتى إبليس أقرّ به ، كما قال تعالى عنه : ﴿ قال ربّ فأنظرني إلى يوم يبعثون ﴾^(٣) .

وفرعون قال لقومه : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾^(٤) ، وذكر الله ﷻ كذبه في قوله : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾^(٥) ، أي : أنه على يقين بوجود الله ﷻ وإن جحد ذلك ظاهراً .

وفيما يلي أعرض أقوال المالكية في هذا المبحث من جهتين :

١— إقرار الكفار بتوحيد المعرفة .

٢— الاحتجاج بهذا الإقرار على توحيد العبادة .

(١) سورة الزمر : ٣٨ .

(٢) سورة الزخرف : ٨٧ .

(٣) سورة ص : ٧٩ .

(٤) القصص : ٣٨ .

(٥) النمل : ١٤ .

المبحث الأول

إقرار الكفار بتوحيد المعرفة

فطر الله تعالى عباده على الإيمان به ، كما قال تعالى : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾^(١) .

كما أوضح هذا الأمر النبي ﷺ ، وذلك فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه ؛ أن النبي ﷺ قال : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء^(٢) ؟ » . ثم يقول أبو هريرة : فطرة الله التي فطر الناس عليها^(٣) .

وذكر ابن عبد البر أن القول بأن الفطرة هي الإسلام هو قول سلف الأمة أجمع ؛ قال : « ... وقال آخرون : الفطرة هاهنا الإسلام ، قالوا : وهو المعروف عند عامة السلف من أهل العلم بالتأويل ، قد أجمعوا في قوله ﷺ : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ على أن قالوا : فطرة الله : دين الله الإسلام^(٤) . واحتجوا بقول أبي هريرة في هذا الحديث : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾^(٥) .

(١) سورة الروم : ٣٠ .

(٢) قال ابن حجر : تنتج : قال أهل اللغة : نُتِجَت الناقة على صيغة ما لم يسم فاعله . بهيمة جمعاء : أي لم يذهب من بدنها شيء ، سميت بذلك لاجتماع أعضائها . الجدعاء : هي المقطوعة الأذن . انظر : فتح الباري (٢٤٥/٣) .

(٣) خرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين (٢٤٥/٣) برقم (١٣٨٥) ، ومسلم في كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٠٤٧/٤) برقم (٢٦٥٨) .

(٤) قال مجاهد : ﴿ فطرة الله ﴾ أي : الإسلام . وقال البخاري : باب لا تبديل لخلق الله ، أي : لدين الله ، والفطرة : الإسلام . انظر تفسير الطبري (١٨٣/١٠) ، وصحيح البخاري مع الفتح (٣٧٢/٨) .

(٥) التمهيد (٧٢/١٨) . ط . المملكة المغربية ١٤٠٧ هـ .

وفي حديث عياض بن حمار رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تعالى أنه قال :
« خلقت عبادي حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ،
وأمرهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً ... » الحديث^(١) .

وهذا صريح في أنه خلقهم على الحنيفية ، وأن الشياطين اجتالتهم^(٢) بعد ذلك .

وقد بين أئمة المالكية أن الفطرة هي دين الإسلام ، فلما ذكر مالك حديث أولاد
المشركين واحتجاج القدرية به على أن الكفر والمعاصي ليستا بقدر الله ، بل مما فعله
الناس ، لأن كل مولود يولد على الفطرة ، وكفره بعد ذلك من الناس ، قال مالك :
« احتجوا عليهم بآخره ، وهو قوله : (الله أعلم بما كانوا عاملين)^(٣) »^(٤) .

فردُّ مالك على القدرية بآخر الحديث يبين أن الفطرة عنده هي الإسلام ، لأن
القدرية قالوا : إن كل مولود يولد على الفطرة سليماً ، وأما كفره فقد حصل من
الناس ، فبين أن آخر الحديث يبين أن كل شيء بقدر الله ﷻ ، فإذا كان قد ولد

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الجنة ونعيمها وأهلها ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة
وأهل النار (٢١٩٧/٤) برقم (٢٨٦٥) .

وأخرج أبو داود بسنده عن ابن وهب قال : سمعت مالكا قيل له : إن أهل الأهواء يحتجون علينا بهذا
الحديث . قال مالك : « احتج عليهم بآخره » : قالوا : أرأيت من يموت وهو صغير ؟ قال : « الله
أعلم بما كانوا عاملين » . سنن أبي داود (برقم ٤٧١٥ ص ٦٦٦ ، ط . دار السلام) : باب ذراري
المشركين .

(٢) قال القاضي عياض : " اجتالتهم " أي : استخفّوهم فذهبوا بهم وجالوا معهم وساقوهم إلى ما أرادوه
بهم . انظر إكمال المعلم (٣٩٥/٨) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين (٢٤٥/٣) برقم (١٣٨٣) ، ومسلم
في كتاب القدر ، باب معنى : كل مولود يولد على الفطرة (٢٠٤٩/٤) برقم (٢٦٥٩) .

(٤) فبين مالك أن لا حجة فيه للقدرية ، فإنهم لا يقولون : إن نفس الأبوين خلقا تهوّد وتصره ، بل هو
تهوّد وتنصّر باختباره ، لكنهما كانا سبباً في ذلك بالتعليم والتلقين ، فإذا أضيف إليهما بهذا الاعتبار ،
فلأن يضاف إلى الله الذي هو خالق كل شيء بطريق الأولى ، فالله وإن خلقه على الفطرة سليماً ، فقد
قدر عليه ما سيكون بعد ذلك » .

على الفطرة التي هي الإسلام ، فكذا تغيره - أي كفره - بعد ذلك بقدر الله ، وإن كان ثمة أسباباً لهذا التغير من الأبوين وغيرهما .

فهو مع رده على القدرية ، إلا أنه جعل مقابل الكفر الذي طرأ الإسلام الذي هو الأصل ، وهو الفطرة^(١) .

٢- وأيضاً ترجم في موطنه : « باب ما جاء في السنة في الفطرة »^(٢) لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : « خمس من الفطرة : تقليم الأظفار ، وقصّ الشارب ، وتنف الإبط ، وحلق العانة ، والاختتان » .

قال أبو الوليد الباجي - مبيناً مراد الإمام مالك في هذا - :

« قوله : خمس من الفطرة : يريد والله أعلم من سنة الدين الذي يوصف بأنه الفطرة ، قال الله عز وجل : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ .

يريد والله أعلم : الدين الذي ولدوا عليه ، وخلقوا عليه ، ومنه ما روي عن النبي ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه »^(٣) .

(١) ومما يقوي معنى الفطرة عند مالك ، وأنها الإسلام ما ذكره ابن حجر نقلاً عن شمس الدين ابن القيم في بيان سبب اختلاف العلماء في معنى الفطرة في هذا الحديث : أن القدرية كانوا يحتجون على أن الكفر والمعصية ليسا بقضاء الله ، بل مما ابتدأ الناس إحداثه ، فحاول جماعة من العلماء مخالفتهم بتأويل الفطرة على غير معنى الإسلام ، ولا حاجة لذلك ؛ لأن الآثار المنقولة عن السلف تدل على أنهم لم يفهموا من لفظ الفطرة إلا الإسلام ، ولا يلزم من حملها على ذلك موافقة مذهب القدرية ؛ لأن قوله : « فأبواه يهودانه ... » الخ : محمول على أن ذلك يقع بتقدير الله تعالى ، ومن ثم احتج عليهم مالك بقوله في آخر الحديث : « الله أعلم بما كانوا عاملين » . فتح الباري (٢٥٠/٣) ط. السلفية ، وأحكام أهل الذمة لابن القيم (٥٣٠/٢) .

(٢) الموطأ (٧٠٢/٢) .

(٣) المنتقى شرح الموطأ (٢٣٢/٧) .

٣— وعند شرحه لحديث : « كل مولود يولد على الفطرة ... » قال :

« ومعنى الحديث في الشرع : الحالة التي خلقوا عليها من الإيمان والمعرفة به والإقرار بالربوبية . فأبواه هما اللذان يصرفانه عن الفطرة ، وما خلق عليه من الإيمان إلى دين اليهودية أو النصرانية »^(١) .

٤— وقال الباقلاني :

« يجب أن يعلم أن العالم محدث ، وهو عبارة عن كل موجود سوى الله تعالى ، والدليل على حدوثه تغيره من حال إلى حال ، ومن صفة إلى صفة ، وما كان هذا سبيله ووصفه كان محدثاً ، وقد بين نبينا ﷺ هذا بأحسن بيان يتضمن أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة ، لما قالوا له : يا رسول الله ! أخبرنا عن بدء هذا الأمر ؟ فقال : « نعم ؛ كان الله ولم يكن شيء قبله ، ثم خلق السماوات والأرض »^(٢) ، فأثبت أن كل موجود سواه محدث مخلوق ، وكذلك الخليل عليه السلام إنما استدلل على حدوث الموجودات بتغيرها^(٣) وانتقالها من حالة إلى حالة ؛ لأنه لما رأى الكوكب ﴿ قال هذا ربّي ... ﴾ الخ الآيات .

فعلم أن هذه لما تغيرت وانتقلت من حال إلى حال دلت على أنها محدثة مفطورة مخلوقة ، وأن لها خالقاً ، فقال عند ذلك : ﴿ وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض ... ﴾^(٤) .

٥— ونقل ابن عبد البر عن سحنون في مسألة الطفل يحكم بكفره بأبويه ، فإذا لم يكن بين أبوين كافرين فهو مسلم ، ووجه ذلك أن الله تعالى قد أخذ عليهم العهد

(١) المنتقى (٣٣/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء (٤٠٣/١٣) برقم (٧٤١٨) .

(٣) الذي جاء عن السلف في تفسير قوله تعالى : ﴿ فلما أفلت .. ﴾ - كما ذكر الطبري - : « أفل :

معناه غاب وذهب » . تفسير الطبري (٢٤٦/٥) . ومراده هنا بالتغير الاستدلال على نفي الصفات

الفعلية لله تعالى كما هو مذهب الأشاعرة ، فليتنبه !

(٤) الإنصاف (٣٠) .

بقوله : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾^(١) .

فمراد سحنون ظاهر في أنه يحكم بالميثاق الذي أخذه الله على العباد ، وأقرّوا به قبل خروجهم إلى الدنيا ، فحكم بإسلام الطفل ، مما يبيّن أنّ الإسلام هو الذي فطر عليه جميع الخلائق .

٦— وقال ابن عبد البر :

« من أحسن ما روي في تأويل قوله ﷻ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ... ﴾ الآية^(٢) : حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن ناس من أصحاب النبي ﷺ في قول الله ﷻ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ... ﴾ قال : لما أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يهبطه من السماء مسح صفحة ظهره اليمنى ، فأخرج منها ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ كهيئة الذر، فقال : ادخلوا النار ولا أبالي ، فذلك قوله : أصحاب اليمين والشمال . ثم أخذ منهم الميثاق فقال : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قالوا : بلى ؛ فأعطاه طائفة طائعين ، وطائفة كارهين على وجه التقية . فقال هو والملائكة : شهدنا ؛ أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا : إنما أشرك آبائنا من قبل . قالوا : فليس أحد من ولد آدم إلّا وهو يعرف الله أنّه ربّه ، وذلك قوله ﷻ : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾^(٣) ، وذلك قوله : ﴿ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾^(٤) يعني : يوم أخذ الميثاق^(٥) .

(١) فتح الباري (٢٤٩/٣) .

(٢) سورة الأعراف : ١٧٢ .

(٣) سورة آل عمران : ٤٩ .

(٤) سورة الأنعام : ١٤٩ .

(٥) التمهيد لابن عبد البر (٨٥/١٨-٨٦) .

٧- وذكر السهيلي^(١) عند قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم ... ﴾

قوله :

« وذلك أن العهد الذي هو الفطرة التي فطر الناس عليها من توحيد الله ، فكل مولود يولد على تلك الفطرة ، وعلى ذلك الميثاق ، فلولا أن أبويه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه حتى يسودّ قلبه بالشرك لما حال عن العهد »^(٢) .

فنصّ على أن الفطرة التي يفطر الخلق عليها هي التوحيد .

٨- وقال القاضي عياض - عند شرحه حديث : « كل مولود يولد على

الفطرة ... » - :

« أي تولد متممة الخلق ، سالمة من النقص والتغير ، ولم يلحقها جدع ، وهو قطع الأذن وغير ذلك ، إلّا بعد ولادتها ... والفطرة : هي ما فطر عليه العبد في أصل خلقته وابتدائها ، قبل معرفته بشيء من قبل بني آدم ، من التهيؤ لقبول الهداية ، والسلامة من ضدّ ذلك^(٣) ، حتى يدخل عليه من أبويه وقريبه ومرتبّه وقربنه ما يغيّره عن ذلك ... »^(٤) .

٩- ورجّح أبو العباس القرطبي ما نقل عن السلف في تفسير الآية : ﴿ فطرة الله

(١) هو عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد بن أصبغ بن حسين بن سعدون السهيلي ، أبو القاسم وأبو زيد ، صاحب كتاب الروض الأنف ، في شرح سيرة سيدنا رسول الله ﷺ ، أجاد فيه وأفاد ، وذكر أنه استخرجه من مائة وعشرين . وله كتاب الإعلام بما أهم في القرآن من الأسماء والأعلام ، وله كتاب الفرائض ، وكان عالماً بلسان العرب ، يتوقّد ذكاءً . مات سنة ٥٨١هـ .

انظر : تذكرة الحفاظ (٤/١٣٤٨) ، والديباج (٢٤٦) .

(٢) الروض الأنف للسهيلي (٢/٢٧٥) . مكتبة ابن تيمية - القاهرة ١٤١٠هـ .

(٣) تفسير الفطرة بالتهيؤ والسلامة لا يناقض قولنا : إن المراد بالفطرة الإسلام ، فقد ذكر القرطبي في القول الذي يليه معنى ذلك ؛ فتأمّله .

(٤) إكمال المعلم (٨/١٥٠) .

التي فطر الناس عليها ^(١) : أنها الإسلام .

وردّ الأقوال الأخرى لمخالفتها للأدلة ، فقال - عند شرحه لحديث : « ما من مولود إلاّ يولد على الفطرة ... » - :

« اختلف الناس في الفطرة المذكورة في هذا الحديث وفي الآية :

ف قيل : هي سابقة السعادة والشقاوة . وهذا إنما يليق بالفطرة المذكورة في القرآن ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ ^(٢) ، وأما في الحديث فلا ؛ لأنه أخبر في بقية الحديث بأنها تبدل وتغير .

وقيل : هي ما أخذ عليهم من الميثاق ^(٣) وهم في أصلاب آبائهم . وهذا إنما يليق بالرواية التي جاء فيها : « كل مولود يولد على الفطرة » ، ويبعد في رواية من رواه : « على هذه الملة » ، وهي إشارة إلى ملة الإسلام .

وقال بظاهر هذه الآية طائفة من المتأولين ، وهذا القول أحسن ما قيل في ذلك إن شاء الله تعالى ؛ لصحة هذه الرواية ، ولأنها مبينة لرواية من قال : على الفطرة .

ومعنى الحديث : أن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق ، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات ، فما دامت باقية على ذلك القبول ، وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ، ودين الإسلام هو الدين الحق ، وقد جاء ذلك صريحاً في الصحيح : جبل ^(٤) الله الخلق على معرفته ، فاجتالتهم الشياطين ^(٥) ، وقد

(١) سورة الروم : ٣٠ .

(٢) سورة الروم : ٣٠ .

(٣) كما قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾ .

(٤) قال ابن فارس : " الجبل : الخليفة " . معجم مقاييس اللغة (١/٥٠٢) .

(٥) يريد حديث عياض بن حمار رضي الله عنه : " خلقت عبادي حنفاء كلهم " . وقد مضى . وهو هنا يرويه بالمعنى .

تقدّم هذا المعنى ، وقد دلّ على صحة هذا المعنى بقية الخبر ، حيث قال : « كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسّون فيها من جدعاء ؟ » يعني : أن البهيمة تلد ولدها كامل الخلق سليماً من الآفات ، فلو نزل على أصل تلك الخلقة ل بقي كاملاً بريئاً من العيوب ، لكن يتصرّف فيه ، فتجذع أذنه ، ويوسم وجهه ، فتطراً عليه الآفات والنقائص ، فيخرج عن الأصل ، وكذلك الإنسان ؛ وهو تشبيه واقع ووجهه واضح»^(١) .

فما ذكره رحمه الله هو القول الصواب في معنى الفطرة المنقول عن السلف ، وما ذكره في قوله : إن الله خلق قلوب بني آدم مؤهّلة لقبول الحق ، وقوله - في تعريف الفطرة - : « أي جبلة الله التي جبلهم عليها ؛ من التهيؤ لمعرفة والإقرار به » فليس مخالفاً للقول الصحيح^(٢) .

ويوضح ذلك ما ذكره ابن حجر فيما نقله عن الطيبي أن المراد بالفطرة : تمكن الناس من الهدى من أصل الجبلة ، والتهيؤ لقبول الدين ، فلو ترك المرء عليها لاستمرّ على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها ؛ لأن حسن هذا الدين ثابت في النفوس ، وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية ، كالتقليد .

ثم قال الحافظ : وإلى هذا مال القرطبي في المفهم .

فقول القرطبي موافق للمشهور عن السلف ؛ لأن السلف الذين فسروا الفطرة بالإسلام لم يقصدوا أن المولود يولد عالماً بأحكام الدين ، وإنما قصدوا أن الفطرة تستلزم معرفة الله وتوحيده من غير سبب خارجي^(٣) .

وذكر ابن حجر نقلاً بعد قول القرطبي السابق عن شمس الدين - ابن القيم - ما

(١) المفهم (٦/٦٧٥) .

(٢) مسائل العقيدة في كتابي المعلم والمفهم - رسالة دكتوراه - : عبد الله بن محمد الرميان (١/١٦٠) .

(٣) دلائل التوحيد لمحمد جمال الدين القاسمي ص (٢٢) . دار الكتب العلمية - بيروت ، ط . الأولى ١٤٠٥ هـ .

يوضح هذا المعنى ، فقال : ليس المراد بقوله : « يولد على الفطرة » أنه خرج من بطن أمه يعلم الدين ؛ لأن الله يقول : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ﴾ ، ولكن المراد : أن الفطرة مقتضية لمعرفة دين الإسلام ومحبته ... كل مولود يولد على إقراره بالربوبية ، فلو خلّي وعدم المعارض لم يعدل عن ذلك إلى غيره^(١) .

١٠ — وقال ابن رشد :

« وقد نبّه الله تبارك وتعالى عباده المكلفين على الاستدلال بمخلوقاته على ما هو عليه من صفات ذاته وأفعاله في غير ما آية من كتابه . قال تعالى : ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض ... ﴾^(٢) . وأورد قصة إبراهيم عليه السلام ، ثم قال :

« فاستدل إبراهيم عليه الصلاة والسلام بما عاين من حركة الكواكب والشمس والقمر على أنها محدثة ؛ لأن الحركة والسكون من علامات المحدثات^(٣) ، ثم علم أن كل محدث فلا بدّ له من محدث ، وهو الله ربّ العالمين^(٤) .

وحكم لأولاد المشركين بالإسلام ؛ لأنهم ولدوا على الفطرة ، قال :

« والذي يشهد له قول النبي ﷺ : « كلّ مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرّانه ... » أن يحكم للصغير من أولاد المشركين كيف ما كان - ما لم تكن له ذمّة ، ولم يكن معه أبواه - بحكم الإسلام^(٥) .

(١) فتح الباري (٣/٢٩٣) .

(٢) سورة الأنعام : ١٨٥ .

(٣) وقد تقدم الكلام في معنى الأفعال عن السلف ، وما ذكره ابن رشد هنا يتوافق مع كلام الباقلاني السابق . انظر ص ١٤٦ والتعليق عليه .

(٤) البيان والتحصيل (١/١٥-١٦) .

(٥) البيان والتحصيل (٢/٢١٥) .

١١ — أما القرطبي فقد أطلال الكلام في بيان معنى الفطرة ، وذكر الأقوال في ذلك مبتدئاً بما نقل عن السلف ، مع ذكر أدلتهم السابقة ، قائلاً :

« واستدلوا أيضاً بقوله ﷺ : « خمس من الفطرة - وذكر منها - : قص الشارب » ، وهو من سنن الإسلام ، وعلى هذا التأويل فيكون معنى الحديث : أن الطفل خلق سليماً من الكفر على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه ، وأنهم إذا ماتوا قبل أن يدركوا في الجنة ؛ أولاد مسلمين كانوا أو أولاد كفار » .

وختم الأقوال بقول أبي العباس القرطبي السابق : « أن الله خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق ... » ، ثم قال :

١٢ — « وهذا القول - مع القول الأول المنقول عن السلف - موافق له في المعنى ، وأن ذلك بعد الإدراك حين عقلوا أمر الدنيا ، وتأكدت حجة الله عليهم بما نصب من الآيات الظاهرة : من خلق السماوات والأرض ، والشمس والقمر ، والبر والبحر ، واختلاف الليل والنهار ، فلما عملت أهواؤهم فيهم أتهم الشياطين فدعتهم إلى اليهودية والنصرانية ، فذهبت بأهوائهم يميناً وشمالاً ، وأنهم إن ماتوا صغاراً فهم في الجنة ، أعني جميع الأطفال ؛ لأن الله تعالى لما أخرج ذرية آدم من صلبه في صورة الذرّ أقرّوا له بالربوبية ، وهو قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾ ، ثم أعادهم في صلب آدم بعد أن أقرّوا له بالربوبية ، وأنه لا إله غيره ، ثم يكتب العبد في بطن أمه شقيّاً أو سعيداً على الكتاب الأول ، فمن كان في الكتاب الأول شقيّاً عمر حتى يجري عليه القلم فينقض الميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم بالشرك ، ومن كان في الكتاب الأول سعيداً عمر حتى يجري عليه القلم فيصير سعيداً ، ومن مات صغيراً من أولاد المسلمين قبل أن يجري عليه القلم فهم مع آبائهم في الجنة ، ومن كان من أولاد المشركين فمات قبل أن يجري عليه القلم فليس يكونون مع آبائهم ؛

لأنهم ماتوا على الميثاق الأول الذي أخذ عليهم في صلب آدم ولم ينقض الميثاق .

ذهب إلى هذا جماعة من أهل التأويل ، وهو يجمع بين الأحاديث ، ويكون معنى قوله ﷺ - لما سئل عن أولاد المشركين ، فقال - : « الله أعلم بما كانوا عاملين » - يعني : لو بلغوا - .

ودل على هذا التأويل أيضاً حديث البخاري عن سمرة بن جندب ، عن النبي ﷺ - الحديث الطويل ؛ حديث الرؤيا - وفيه قوله ﷺ : « وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإبراهيم عليه السلام ، وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة » . قال : فقيل : يا رسول الله ! وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ : « وأولاد المشركين » ، وهذا نص يرفع الخلاف ، وهو أصح شيء روي في هذا الباب ^(١) .

١٣ - وأكد هذا المعنى عند قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ... ﴾ بقوله : « وقد استدل بهذه الآية من قال : من مات صغيراً دخل الجنة ؛ لإقراره في الميثاق الأول ، ومن بلغ العقل لم يغنه الميثاق الأول ، وهذا القائل يقول : أطفال المشركين في الجنة ، وهو الصحيح في الباب » ^(٢) .

١٤ - وذكر ابن العربي معنى الفطرة في شرحه للحديث : « كل مولود ... » أنها الابتداء على ما في الكتاب الأول حين خلق الله القلم ، حين أخرج الناس من صلب آدم كهية الذر ، ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ... ﴾ ^(٣) فأقر الجميع بذلك لله سبحانه ، ثم لما أوجدتهم في حالة الدنيا أطواراً انقسمت حالهم .

١٥ - ثم بين ما يطرأ على تلك الفطرة من الفساد ، فقال :

(١) تفسير القرطبي (١٤/٣٠-٣١) .

(٢) تفسير القرطبي (٧/٣١٧) .

(٣) سورة الأعراف : ١٧٢ .

« وضرب النبي ﷺ المثل بالبهيمة التي تنتج سليمة لا جدع فيها ، ثم تجدع بعد ذلك فتعاد لأحد القسمين ، وهو ما يطرأ من الفساد في الاعتقاد »^(١) .

١٦— وأكد هذا المعنى أيضاً ، فقال :

« إن الميت إن كان كبيراً فهو محمول على ظاهر الإيمان الذي كان عليه ، وإن كان صغيراً فحكمه حكم خاصته ، حتى قال علماؤنا : إن الرجل إذا اشترى الأبوين ومعهما ولد صغير ومات أنه محمول على حال الشاري من الإيمان لا على حال أبويه ، وقد قال ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ... » الحديث »^(٢) .

١٧— وبين أن الأصل الذي يخلق عليه الدين ، ثم بعد ذلك يحصل التغير لتلك الفطرة ، ومراده أن المرء يولد على الإسلام ، فقال :

« وذلك أن المراد يخلق سليماً على الملة والفطرة والدين ، ثم تنشأ العيوب ، فإن تمادى هلك أو عذب ، وإن عاد على حال السلامة نجح وسلم »^(٣) .

فبين معنى الفطرة ، وأنها الميثاق الذي أخذ على بني آدم وهم في الأصلاب ، ثم بعد ذلك ما يحصل من الفساد في الاعتقاد أمر طارئ إما على يدي أبويه وإما بقرين ... وهذا كله يظهر معنى الفطرة الذي يتوافق مع قول السلف .

١٨— وأورد المازري الخلاف في معنى الفطرة ، ثم ردّ الأقوال المخالفة لتفسير الفطرة بالإسلام ، مما يظهر تأييده لهذا القول . فعند شرحه لحديث : « كل مولود يولد على الفطرة ... » قال :

(١) عارضة الأحوذى (٣٠٤/٨) .

(٢) القبس (٤٣٥/٢) .

(٣) عارضة الأحوذى (٥٤/١٣) .

« ذهب بعض الناس إلى أنّ المراد بالفطرة المذكورة في الحديث ما أخذ عليهم وهم في أصلاب آبائهم ، وأنّ الولادة تقع عليها حتى يقع التغيير بالأبوين . وذهب بعض الناس إلى أنّ الفطرة هي ما قضي عليه من سعادة أو شقاوة يصير إليها ، وهذا التأويل إنما يليق بما في بعض الطرق ، وهو قوله : « على الفطرة » مطلقاً ، وأمّا ما وقع في بعض الطرق - وهو قوله : « على هذه الفطرة » ، وقوله في أخرى : « إلاّ وهو على هذه الملة » - فإنّ هذه الإشارة إلى فطرة معينة ، وملة معيّنة تمنع هذا التأويل ، وقد يتعلق هؤلاء بقوله : « إنّ الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً »^(١) ، وظاهر هذا يمنع من كل مولود على هذه الفطرة ، وقد ينفصل الآخرون عنه بأن المراد به حالة ثانية طرأت عليه من التهيؤ للكفر وقبوله عليه ، غير الفطرة التي ولد عليها ، وقال آخرون : يحتمل أن يريد بالفطرة ما هيئ له ، وكان مناسباً لما وضع في العقول ، وفطرة الإسلام صوابها كالموضوع في العقل ، وإنما يدفع العقل عن إدراكه آفة وتغيير من قبل الأبوين وغيرهما »^(٢) .

فذكره الأقوال السابقة والرد عليها ، ثم ذكر تفسير الفطرة بالإسلام ووجه ذلك ، وعدم رده عليها يدل على اختياره لهذا القول .

١٩ - وقد وجه أيضاً الحديث القدسي الذي قال الله تعالى فيه - فيما يرويه عنه رسوله ﷺ - : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادي كلّم ضال إلاّ من هديته ... »^(٣) ، فقال :

« ظاهره أنّ الناس على الضلال يخلقون إلاّ من هداه سبحانه ، وقد ذكر في الحديث الآخر أنّهم على الفطرة يولدون ، وقد يراد بهذا هاهنا وصفهم بما كانوا عليه

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل ، باب فضائل الخضر عليه السلام (١٨٥٢/٤) برقم (١٧٢) .

(٢) المعلم (١٨٠/٣) .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم (١٩٩٤/٤) برقم (٢٥٧٧) .

قبل بعثة النبي ﷺ ، أو أنهم إن تركوا وما في طباعهم من إثارة الراحة وإهمال النظر ضلوا إلا من هداه سبحانه»^(١) .

٢٠— وقد جمع القرطبي بين الحديثين بأنه لا تعارض بينهما ، فقال :

« لا معارضة بين قوله تعالى : « كلكم ضال إلا من هديته » وبين قوله : « كل مولود يولد على الفطرة » ؛ لأنّ هذا الضلال المقصود في هذا الحديث هو الطارئ على الفطرة الأولى المغيّرها ، الذي بينه النبي ﷺ بالتمثيل في بقية الخبر ، حيث قال : « كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء » . »^(٢) .

٢١— وذكر ابن عبد البصري : « أنّ الخلق يقرّون بربوبيته ، وإنما جحدوا معرفة التوحيد الذي تعبدهم به على السنة السفراء ... »^(٣) .

٢٢— وأورد القرافي قول الباجي السابق في معنى الفطرة^(٤) ، ثم قال :

« قال بعض العلماء : حمل الفطرة على التهيؤ أحسن ؛ أي خلق الإنسان على حالة لو خلّي وإياها لكان موحدًا ، وإنما العوائد تمنع .

ووجه الترجيح في القضاء على أولاد الكفار بأحكام الكفر من الاسترقاق وغيرها مع حصول الإيمان الفعلي خلاف القواعد ، وأيضاً فإننا نقطع أنّ الطفل يتعذر في مجاري العادات أنه عارف بالله تعالى ، فلا يمكن أن يكون ولد على الفطرة إلا بمعنى التهيؤ والقبول »^(٥) .

فما ذكره القرافي عن بعض العلماء مقرّراً له لا يختلف عن قول السلف في معنى

(١) المعلم (١٦٥/٣) .

(٢) المفهم (٥٥٢/٦) .

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٥٠٩/٨) . تحقيق د. محمد رشاد سالم . ط. دار الكنوز الأدبية .

(٤) قول أبي الوليد الباجي ص ١٤٥ .

(٥) الذخيرة (٢٧٩/١٣) .

الفطرة كما سبق ، وذكر القرطبي أنهما متفقان في المعنى^(١) .

ويوضح ذلك فيما نقله : « خلق الإنسان على حالة لو خلي لكان موحّداً » ، فهذا يفهم منه أنه على الإسلام في الأصل ، وإنما يحصل له بعد الإدراك والعقل معرفة الحق ؛ لأنه لا يولد عالماً ، وإذا ما طرأ على تلك الفطرة طارئ من الأبوين أو غيرها ، انصرفت تلك الفطرة إلى اليهودية أو النصرانية .

٢٣— وأما ابن أبي جمرة فعند شرحه حديث سمرة بن جندب الطويل في صحيح البخاري ، وفيه : « ... والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم ، والصبيان حوله فأولاد الناس »^(٢) ، قال :

« احتمل الألف واللام هنا أن تكون للجنس ، فيكون المراد : أولاد المؤمنين والكافرين ؛ لأنه قد جاء أن أولاد الكفار يكونون في الجنة خدماً للمؤمنين ، لأنهم على فطرة الإسلام ، فيكونون بعد في أصل الإسلام ، لأنه ﷺ قد قال : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه » . »^(٣) .

فصرح رحمه الله ببيان معنى الفطرة وأنها الإسلام الذي يولد عليه « أولاد الناس » كما في رواية البخاري لحديث إبراهيم ، فكانوا في كفالة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، لأنهم ولدوا على الفطرة - الإسلام - .

(١) ما ذكره القرطبي ص ١٥٢ .

(٢) الحديث عن سمرة بن جندب قال : كان النبي ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه ، فقال : « من رأى منكم الليلة رؤيا ؟ » . قال : فإن رأى أحد رؤيا قصها ، فيقول ما شاء الله . فسألنا يوماً فقال : « هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا ؟ » . قلنا : لا . قال : « لكني رأيت الليلة رجلين أتياني ، فأخذا بيدي ... » فذكر الحديث بطوله . خرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين (٢٥١/٣) برقم (١٣٨٦) .

(٣) بهجة النفوس (١٢٣/٢) .

٢٤ — وبين ابن جزى إقرار جميع الخلق بربوبيته سبحانه ، فقال :

« اعلم أن العالم العلوي والسفلي كله محدث بعد العدم ، شاهد على نفسه بالحدوث ، وشاهد لخالقه بالقدم^(١) ، وذلك لما يبدو عليه من تغير الصفات وتعاقب الحركات والسكنات ، وغير ذلك من الأمور الطارئات ، وكل محدث لا بد له من محدث أوجده ، وخالق خلقه ، إذ لا بد لكل فعل من فاعل ، فجميع الموجودات من الأرض والسموات والحيوان والجمادات والجبال والبحار والأنهار والأشجار والثمار والأزهار والرياح والسحاب والأمطار والشمس والقمر والنجوم والأزهار ، واختلاف الليل والنهار ، وكل صغير وكبير : تظهر منه آثار الصنعة ولطائف الحكمة والتدبير ، ففي كل شيء دليل ساطع وبرهان قاطع على وجود الصانع ، وهو ربّ العالمين ، وخالق الخلق أجمعين ، الملك الحقّ المبين ، الذي احتجب عن الأبصار بكبريائه وعلو شأنه ، وظهر للبصائر بقوة سلطانه ووضوح برهانه ، فما أعظم برهان الله ، وما أكثر الدلائل على الله : ﴿ أفي الله شكّ فاطر السماوات والأرض ﴾^(٢) ، وحسبك الفطرة التي فطر الناس عليها ، وما يوجد في النفوس ضرورة من افتقار العبودية ، ومعرفة الربوبية : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾^(٣) (٤) .

٢٥ — وقال - عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ فطرت الله التي فطر الناس

(١) القديم ليس من أسماء الله تعالى الحسنى ، قال تعالى : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن .. ﴾ ، وقال

ﷺ : « اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ... » الحديث .

خرجه الإمام مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٤/٢٠٨٤) برقم (٢٧١٣) .

(٢) سورة إبراهيم : ١٠ .

(٣) سورة الزمر : ٣٨ .

(٤) القوانين الفقهية (١٧) .

عليها ﴿^(١)﴾ - :

« منصوب على المصدر ؛ كقوله : ﴿ صبغة الله ﴾^(٢) ، أو مفعول بفعل مضمر تقديره : الزموا فطرة الله ، أو عليكم فطرة الله . ومعناه : خلقة الله ، والمراد به دين الإسلام ؛ لأن الله خلق الخلق عليه ، إذ هو الذي تقتضيه عقولهم السليمة ، وإنما كفر من كفر لعارض أخرجه عن أصل فطرته ، كما قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرّانه ... » .

﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ : يعني بخلق الله الفطرة التي خلق الناس عليها من الإيمان ، ومعنى أن الله لا يبدلها : أي لا يخلق الناس على غيرها ، ولكن يبدلها شياطين الإنس والجنّ بعد الخلقة الأولى^(٣) .

٢٦- وأما الزرقاني فذكر عند شرحه حديث : « كل مولود يولد على الفطرة » أن الحديث عامّ في جميع المولودين على ظاهره ، وأصرح منه رواية البخاري : « ما من مولود إلّا وهو على الفطرة^(٤) » ، ثم ردّ على الذين لا يرون العموم ، فقال :

« ويكفي في الردّ عليهم الرواية عن أبي هريرة رضي الله عنه : « ليس من مولود إلّا على هذه الفطرة ، حتى يعرب عنه لسانه » ، وأصرح منه رواية : « كل بني آدم ... » .
ثم بين معنى الفطرة ، فقال : « وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام ، قال ابن عبد البر : وهو المعروف عند عامة السلف ... - ثم ذكر الآية : ﴿ فطرت

(١) سورة الروم : ٣٠ .

(٢) سورة البقرة : ١٣٨ .

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل (٣/٢٦٥-٢٦٦) .

(٤) لم أجدها في البخاري ، وهي عند مسلم في كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة من رواية ابن نمير (٤/٢٠٤٨) برقم (٢٦٥٨) .

الله... ﴿١﴾ ، وحديث أبي هريرة وحديث عياض بن حمار^(١) - ﴿٢﴾ - ، ثم قال - :
« ورجح بقوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله ﴾ ، لأنها إضافة
مدح ، وقد أمر الله نبيه بلزومها ؛ فعلم أنها الإسلام »^(٢) .

فنص على أن معنى الفطرة : الإسلام .

٢٧— ونقل محمد المختار قول ابن حجر في الفتح عند شرح الحديث : « كل
مولود ... » : « تعميم الوصف المذكور في المولودين ... »^(٣) .

ثم أورد الخلاف في معنى الفطرة ، ثم قال :
« وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة في الحديث : الإسلام »^(٤) .

٢٨— وقال ابن عاشور :

« أمّا المخلوقات الأرضية الفضلاء فهم مخلوقون للطاعة ، قال تعالى : ﴿ وما
خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون ﴾^(٥) ، فزيغ الزائغين عن طاعة الله تعالى انحراف
منهم عن الفطرة التي فطروا عليها ، وهم في انحرافهم متفاوتون ، فالضالون الذين
أشركوا بالله فجعلوا له أنداداً ، والعصاة الذين لم يخرجوا عن توحيده ولكنهم ربما
خالفوا بعض أوامره قليلاً أو كثيراً : هم في ذلك آخذون بجانب من الإباق ،
متفاوتون فيه »^(٦) .

٢٩— وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ... ﴾^(٧) قال :

(١) حديث أبي هريرة سبق تخريجه ١٤٣ ، وحديث عياض بن حمار سبق تخريجه ص ١٤٤ .

(٢) شرح الزرقاني على موطأ مالك (٨٧/٢) .

(٣) فتح الباري (٢٤٨/٣) .

(٤) نور الحق الصبيح (٧٤٩/٢-٧٥٠) .

(٥) سورة الذاريات : ٥٦ .

(٦) تفسير التحرير والتنوير (٢/١٠) .

(٧) سورة الروم : ٣٠ .

« أي : الدين الذي هو فطرة الله ؛ لأن التوحيد هو الفطرة ، والإشراك تبديل للفطرة » .

٣٠ — وبين معنى الفطرة بقوله :

« ومعنى فطر الناس على الدين الحنيف : أن الله خلق الناس قابلين لأحكام هذا الدين ، وجعل تعاليمه مناسبة لخلقهم غير مجافية لها ، غير نائين عنه ، ولا منكرين له ، مثل إثبات الوجدانية لله ؛ لأن التوحيد هو الذي يساوق العقل والنظر الصحيح ، حتى لو ترك الإنسان وتفكيره - ولم يلقن اعتقاداً ضالاً - لاهتدى إلى التوحيد بفطرته »^(١) .

٣١ — وعند قوله تعالى : ﴿ فطرت الله ﴾ قال : « تصريح بأن الله خلق الناس سائلة عقولهم مما ينافي الفطرة ، من الأديان الباطلة والعادات الذميمة ، وأن ما يدخل عليهم من الضلالات ما هو إلا من جرّاء التلقّي والتعوّد ، وقد قال النبي ﷺ : يولد على الفطرة ، ثم يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمةً جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء ؟ أي : كما تولد البهيمة من إبل أو بقر أو غنم كاملة جمعاء أي بذيلها ، أي : تولد كاملة ويعمد بعض الناس إلى قطع ذيلها وجدعه ، وهي الجدعاء » .

٣٢ — وبين اختصاص الإسلام بكونه دين الفطرة ، وكون الإسلام هو الفطرة ، وملازمة أحكامه لمقتضيات الفطرة صفة اختصّ بها الإسلام من بين سائر الأديان^(٢) .

٣٣ — وعند قوله تعالى : ﴿ إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات ... ﴾^(٣) قال :

(١) التحرير والتنوير (٩٠/١٠) .

(٢) التحرير والتنوير (٩٢/١٠) .

(٣) سورة آل عمران : ١٩٠ .

« فوجه دلالة هاته الآيات على الوحدانية أنّ هذا النظام البديع في الأشياء المذكورة ، وذلك التدبير في تكوينها وتفاعلها ، وذهابها وعودها ومواقيتها ؛ كل ذلك دليل على أنّ لها صانعاً حكيماً متّصفاً بتمام العلم والقدرة التي تقتضيها الإلهية . ولا جرم أن يكون الإله الموصوف بهاته الصفات واحداً ، لاعتراف المشركين بأن نواميس الخلق وتسيير العالم في فعل الله تعالى ، إذ لم يدعوا لشركائهم الخلق ، ولذلك قال تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ ، وذكر في سورة النحل الاستدلال ببعض ما هنا على أن لا إله مع الله ، فالمقصود التذكير بانتفاء حقيقة الإلهية عن شركائهم »^(١) .

٣٤ — وأما الشيخ الشنقيطي فقد بين أنّ الإقرار بتوحيد الربوبية أمر فطري ، فطر الله الخلائق عليه ، وتعرفه النفوس ؛ حيث يقول :

« هذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء ؛ قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾^(٢) ، وقال : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبّر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾^(٣) »^(٤) .

فالشيخ يؤكّد أنّ القلوب مفطورة على هذا النوع من التوحيد ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ أفى الله شك ﴾ ، وقوله ﷺ : « ما من مولود يولد إلاّ على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه »^(٥) .

(١) التحرير والتنوير (٨٨/٢) .

(٢) سورة الزخرف : ٨٧ .

(٣) سورة يونس : ٣١ .

(٤) أضواء البيان (٤١٠/٣) .

(٥) جهود محمّد الأمين في تقرير عقيدة السلف (٩٩/١) د. عبدالعزيز الطويان .

٣٥ — وذكر ابن باديس أنّ الله أوجد خلقه على التوحيد . قال - عند قوله تعالى : ﴿ لتندر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ - :

« خلق الله الخلق حنفاء موحّدين ، فأتتهم الشياطين فأضلّتهم عن سواء السبيل ».

٣٦ — ثم بيّن حال تلك الأمة التي ما أنذر آباؤها ، فهي مشغلة بما توارثته من آبائها ؛ من عبادة الأوثان ، وارتكاب الإثم والعدوان ، وأنواع الضلال والخسران ، معرضة عن توحيد خالق الأرض والسموات ، وعن النظر فيما نصب للدلالة عليه من الآيات ، طال عليها أمد الجهالة ، واستولت عليها أسباب الضلالة ، فتمكنت منها الغفلة التمكن التام ، فذهبت في أوديتها البعيدة المدى كالأنعام ، أو أضلّ من الأنعام^(١) .

فظهر من كلامه أنّ التوحيد هو الذي خلق الله عليه الخلق ، وأنّ ما حصل لهم بعد ذلك من الشياطين التي أدّتهم إلى تقليد آبائهم وأتباعهم ، والإعراض عن توحيد الخالق سبحانه ، فهم بحاجة إلى من ينبّههم من غفلتهم ، ويدعوهم إلى أصل فطرتهم .

٣٧ — وذكر محمّد المكيّ أنّ الإسلام هو دين الفطرة القيم الذي لا تناقض في عقيدته ، ولا اعوجاج في شريعته ، فهو الملائم للفطرة ، المنسجم معها منذ البداية ، وهو الموافق للنظر الصحيح ، والمطابق للعقل السليم^(٢) .

وذكر أقدم وأول ميثاق أخذته الله على كافة العباد وهم يزالون في أصلاب آبائهم سرّاً مكنوناً في عالم الغيب ، وهذا الميثاق هو ميثاق فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وهو يتضمّن في جوهره الإقرار بربوبية الله وبعبودية الإنسان ، على أساس من التوحيد والإيمان ، فما من إنسان وكل إلى فطرته الأولى ، ولم تتعرض فطرته لعوامل

(١) تفسير ابن باديس (٢٨٩) .

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٤٠/٥) .

التشويه والإفساد ؛ إلاّ وهو مقرّ بالوهية الله وربوبيته للعباد ، ومعترف من أعماق قلبه بهذا الميثاق ، وملتزم بجميع نتائجه وآثاره على الإطلاق ، دون معارضة ولا جحود ، وبدون أي قيد من القيود ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ .

حتى إذا ما وقع الإنسان بين أيد غير أمينة ، فعملت على تشويه فطرته وإفسادها انحرافاً عن الفطرة السليمة ، واختلطت عليه العقيدة الصحيحة بالمعتقدات السقيمة ، ونسي الميثاق الأزلي المعقود بين فطرته وبين ربّه ، ووقع في شرك الشيطان وحزبه^(١) . ثم استدلّ بحديث عياض بن حمار ، وبحديث أبي هريرة : « كل مولود يولد على الفطرة » .

وبهذه النقول عن هؤلاء الأئمة يتبيّن أنّ غالب الخلائق تقرّ بربوبية الله ﷻ ، وهو مقتضى الفطرة .

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٢/٢٩٠) .

المبحث الثاني

الاحتجاج بهذا الإقرار على

توحيد العبادة

تقدم في الكلام على معرفة الخلق لربهم أنها أمر فطري قد غرس في نفوس البشري أصل خلقتهم ، فيلزم من هذا الإقرار إفراده تعالى وحده بالعبادة ، كما قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني ﴾^(٢) . وكقوله سبحانه - مشنّعاً على المشركين بعبادتهم غيره سبحانه - : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ﴾^(٤) .

فالربوبية تقتضي استحقاق العبادة لله الخالق وحده ، والآيات في هذا المعنى كثيرة ، أي التي تنكر على هؤلاء كيف أقرّوا بالربوبية وأنكروا الألوهية ؟! كما في قوله تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ . قال عكرمة في تفسير الآية : ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ، فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره !^(٥) .

وأئمة المالكية ساروا على هذا النهج القرآني القويم في الاحتجاج على هؤلاء المقرّين بالربوبية ، ومطالبتهم إياهم بحقها المتمثل في الالتزام بعبادته ﷻ وحده لا شريك له .

(١) سورة الزخرف : ٨٧ .

(٢) سورة يس : ٢٢ .

(٣) سورة النحل : ١٧ .

(٤) سورة الأنعام : ١٠٢ .

(٥) تفسير الطبري (٣١٢/٧) .

١- قال الباقلاني :

« ويجب أن يعلم أنّ صانع العالم جلّت قدرته واحد أحد ، ومعنى ذلك أنه ليس معه إله سواه ، ولا يستحق العبادة إلاّ إياه »^(١) .

فأثبت الربوبية ، ولازم من أثبتها أن يفرد الله تعالى بالعبادة ، إذ لا يستحق العبادة إلاّ هو سبحانه .

٢- أما ابن بطال فعند شرحه حديث : أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله ندّاً وهو خالقك »^(٢) قال :

« كيف تقتله وقد خلق رزقه ؟! فلا يأكل من رزقك شيئاً ، فمن خلقك وخلقه ورزقك ورزقه أحقّ بالعبادة من الند الذي اتخذت معه شريكاً »^(٣) .

٣- وعند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾^(٤) نقل قول شيخه المهلب مقرأ له :

« فمن علم أنّ الله خلق كل شيء فقدّره تقديراً ، فلا ينسب شيئاً من الخلق إلى

(١) الإنصاف (٣٣) .

(٢) خرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب كون الشرك أقبح الذنوب (٩٠/١) برقم (٨٦) ، والبخاري بلفظ : « أي الذنب أكبر عند الله ؟ » في كتاب التفسير ، باب ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ (٤٩٢/٨) برقم (٤٧٦١) .

(٣) شرح صحيح البخاري (٥٢٢/١٠) .

(٤) قال عكرمة : « نهاهم الله تعالى أن يشركوا به شيئاً ، وأن يعبدوا غيره ، أو يتخذوا له ندّاً وعدلاً في الطاعة ، فقال : كما لا شريك لي في خلقكم وفي رزقكم الذي أرزقكم ، وملكي إياكم ، ونعمتي التي أنعمتها عليكم ؛ فكذلك فأفردوا لي الطاعة ، وأخلصوا لي العبادة ، ولا تجعلوا لي شريكاً وندّاً من خلقي ، فإنكم تعلمون أنّ كل نعمة عليكم فمّني » . تفسير الطبري (١٩٩/١) . ط. الباز .

غيره ، فلهذا ذكر هذه الآيات في نفي الأنداد والآلهة المدعوة معه ، فمنها ما حذر به المؤمنين ، ومنها ما وبخ به الكافرين الضالين ، ثم أثنى على المؤمنين في قوله : ﴿ والذي لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ ، يريد : كما يدعو عبدة الأوثان لترزقهم وتعافيتهم ، وهي لا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً .

فبيّن أنّ الله ﷻ هو الخالق الرازق ، فمن خلق ورزق أحقّ أن يعبد ، فالأوثان وغيرها لا ترزق ولا تعافي ، ولا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً .

٤— وذكر الباجي في رده على راهب فرنسا قوله :

« ولو جاز أن يقال : عيسى - عليه الصلاة والسلام - هو الخالق ، لما ظهر من ذلك على يده ، والمنفرد بفعله ؛ لجاز أن نقول : إن آدم وإبراهيم وموسى ومحمداً وسائر الأنبياء عليهم السلام انفردوا بخلق ما ظهر على أيديهم ، وإن جميعها من خلقهم ، وإنهم لذلك آلهة يعبدون ! وذلك محال ؛ فلا خالق إلا الله ، ولا معبود سواه ، وهؤلاء أنبياء مكرمون ورسل مؤيدون ، صدقهم الله تعالى بما ظهر على أيديهم من المعجزات التي لا يقدر عليها غيره ، ولا يصح أن يخلقها سواه »^(١) .

فمراده رحمه الله أن الذي خلق وأوجد هو الذي يستحق أن يعبد ، وهؤلاء الأنبياء والرسل إنما هم من خلقه ، ولكن الله أيدهم بالمعجزات ليظهر صدقهم وتقبل رسالتهم .

٥— وقال ابن عطية - عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني ﴾ - :

« تقرير لهم على جهة التوبيخ في هذا الأمر الذي يشهد العقل بصحته : أن من فطر واخترع وأخرج من العدم إلى الوجود ؛ فهو الذي يستحق أن يُعبد » .

(١) رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين (٦١-٦٢) .

وفي موضع آخر قال - عند قوله تعالى : ﴿ أَجِئْنَا لنعبد الله وحده ... ﴾ - :

« ظاهر قولهم وحده أنهم أنكروا أن يتركوا أصنامهم ويفردوا العبادة لله مع إقرارهم بالإله الخالق المبدع »^(١) .

٦- وأكد هذا المعنى عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحى إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون ﴾ ، فقال :

« ثم عدد الله تعالى بعد ذلك نوعاً آخر من كفرهم ، وذلك أنهم مع اتخاذهم آلهة كانوا يقرّون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق ، إلاّ أنهم قال بعضهم : اتخذ الملائكة بنات ! وقال نحو هذه المقالة النصارى في عيسى بن مريم ، واليهود في عزيز ، فجاءت هذه الآية رادّة على جميعهم منبهة عليهم »^(٢) .

والمعنى : كيف تقرون أن الله تعالى هو الخالق الرازق ، ثم بعد ذلك تعبدون غيره ؟؟!

٧- وعند قوله تعالى : ﴿ فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلاّ الضلال ﴾^(٣) قال :

« أي : المستوجب للعبادة والألوهية ، وإذا كان ذلك فتشريك غيره ضلال وغير حق »^(٤) .

فما ذكره رحمه الله في الكشف عما ترشد إليه الآية نص على أنه إذا كان الله ربكم الحق ، فهو المستوجب للعبادة وحده .

(١) المحرر الوجيز (٢/٤١٩) .

(٢) المحرر الوجيز (١٠/١٣٩) .

(٣) سورة يونس : ٣٢ .

(٤) المحرر الوجيز (٣/١١٨) .

وذكر القرطبي هذا المعنى .

٨— فعند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾^(١) قال :

« بين أنه المتفرد بقدرة الإيجاد ، فهو الذي يجب أن يعبد »^(٢) .

٩— وعند قوله تعالى : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ... ﴾ قال :

« أي الذي تحقّ له الألوهية ، ويستوجب العبادة ، فتشريك غيره ضلال وغير حق » .

وبين أيضا الاحتجاج على هؤلاء المشركين المقرين بأن الله خلقهم بأن الإقرار بمخلوقيتهم لله ﷻ يستوجب القيام بحق الخالقية ، وهو أن يعبدوه وحده .

١٠— فعند قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ قال :

« أمر بالعبادة له ... ﴾ الذي خلقكم ﴿ : خص تعالى خلقه ، فذكر ذلك حجة عليهم وتقرّيعاً لهم »^(٣) .

١١— وعند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ قال :

« أي : ذلكم الذي فعل هذه الأشياء - من خلق السماوات والأرض - هو ربكم لا ربّ لكم غيره ... ﴾ فاعبدوه ﴿ : أي وحدّوه وأخلصوا له العبادة ...

(١) سورة الأعراف : ٥٤ .

(٢) تفسير القرطبي (٢١٨/٧) .

(٣) تفسير القرطبي (٢٢٦/١) .

﴿ أفلا تذكرون ﴾ : أي إنها مخلوقاته فتستدلوا بها عليه ^(١) .

١٢ — وذكر عند قوله تعالى : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ :

« عجب نبيه ﷺ من إضمارهم على الشرك وإصرارهم عليه ، مع إقرارهم بأنه خالقهم ورازقهم ، ثم يعمد إلى حجر يعبدونه من غير حجة » ^(٢) .

١٣ — وعند قوله تعالى : ﴿ الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ ^(٣) قال :

« نزه سبحانه وتعالى نفسه عما قاله المشركون ؛ من أن الملائكة أولاد الله ! يعني بنات الله ! ﷻ وعما قالت اليهود : عزيز ابن الله ! جلّ الله تعالى . وعما قالت النصارى : المسيح ابن الله ! تعالى الله عن ذلك .

﴿ ولم يكن له شريك في الملك ﴾ كما قال عبدة الأوثان .

﴿ وخلق كل شيء ﴾ لا كما قال المجوس والثنوية ^(٤) : إن الشيطان - أو الظلمة - يخلق بعض الأشياء !! ولا كما يقول من قال : للمخلوق قدرة الإيجاد .
فالآية ردّ على هؤلاء .

﴿ فقدره تقديراً ﴾ أي : قدر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراده ، لا عن سهوة وغفلة ، بل جرت المقادير على ما خلق الله إلى يوم القيامة ، وبعد القيامة ،

(١) تفسير القرطبي (٣٠٨/٨) .

(٢) تفسير القرطبي (٣٥/١٣) .

(٣) سورة الفرقان : ٢ .

(٤) الثنوية : فرقة تنسب إلى ماني بن فاتك المولود سنة ١٢٦ م ، فارسي الأصل ، وتقوم عقيدتهم على ثنائية الإله ، فهناك إله للنور وإله للظلمة ، والأول إله للخير والخصب والثمار ، والثاني إله للشر والدمار ! انظر : نقد المسلمين للثنوية المجوس (٧) من رسائل الإمام القاسم الرسي . ط. دار الآفاق ، ط. الأولى ١٤٢٠ هـ ، القاهرة .

فهو الخالق المقدر ، فإياه فاعبدوه»^(١) .

فمراده إظهار ما دلت عليه النصوص من أن هؤلاء يقرون بأن الله ربهم الذي خلقهم ورزقهم ، ثم هم بعد ذلك لا يخصصونه بالعبادة ، وهذا من انتكاس الفطر والعياذ بالله .

١٤ — وأما أبو العباس القرطبي ، فعند حديث : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى ... »^(٢) قال :

« أي : دليلان على وجود الحق سبحانه وقهره وكمال إلهيته ... »^(٣) . - إلى قوله - :

« وأيضاً كل ما في هذا العالم علويه وسفليه دليل على نفوذ قدرة الله ، وتما قهره واستغناؤه ، وعدم مبالاته ، وذلك كله يوجب عند العلماء بالله خوفه وخشيته ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ، وخص هنا خسوفهما بالتخويف ؛ لأنهما أمران علويان نادران طارئان عظيمان ، والنادر العظيم مخوف موجه ، بخلاف ما يكثر وقوعه ، فإنه لا يحصل منه ذلك غالباً ، وأيضاً فلما وقع فيهما من الغلط الكثير للأمم التي كانت تعبدهما ، ولما وقع للجهال من اعتقاد تأثيرهما »^(٤) .

فبين أن هذه المخلوقات العظيمة تدل على عظمة خالقها الذي أوجد كل ما في هذا العالم وأحكمه ، وقهر المخلوقات بقدرته ، فذلك كله يوجب خوفه وخشيته

(١) تفسير القرطبي (١٣/٢-٣) .

(٢) خرجه البخاري في كتاب الكسوف ، باب الصدقة في الكسوف (٥٢٩/٢) برقم (١٠٤٤) ، ومسلم في كتاب الكسوف ، باب صلاة الكسوف (٦١٨/١) برقم (٩٠١) .

(٣) المفهم (٥٥٢/٢) .

(٤) المفهم (٥٥٣/٢) .

وتعظيمه وحده ، لأنه الموجد لتلك المخلوقات العظيمة التي عبدت من دون الله ؛ كالشمس والقمر .

١٦— وأما ابن جزى ؛ فعند تفسيره لسورة الإخلاص قال :

« وقد أقام الله في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته ، وذلك في القرآن كثير جداً ، فمنها قوله تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾^(١) ؛ لأنه إذا ثبت أن الله تعالى خالق لجميع الموجودات لم يمكن أن يكون واحد منها شريكاً له ... »^(٢) .

١٧— وقال أيضاً :

« تقرير يقتضي الرد على من عبد غير الله ... وذكر من أول السورة أنواعاً من مخلوقاته تعالى على وجه الاستدلال بها على وحدانيته ، ولذلك أعقبها بقوله : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾^(٣) .

١٨— وأكد هذا المعنى عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾^(٤) ، فقال :

« نزلت في كفار العرب الذين يقرّون بالله ويعبدون معه غيره »^(٥) .

١٩— وعند قوله تعالى : ﴿ إنّ ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾^(٦) قال : « كأنه يقول : إنما أدعوكم إلى عبادة ربكم الذي خلق السماوات والأرض ، فكيف تنكرون ذلك وهو الحقّ

(١) سورة النحل : ١٧ .

(٢) التسهيل (٤/٤٤٦) . وانظر ابن جزى ومنهجه في التفسير (١/٥٢٠) .

(٣) التسهيل (٢/٢٧٧) .

(٤) سورة يوسف : ١٠٦ .

(٥) التسهيل (٢/٢٣٥) .

(٦) سورة الأعراف : ٥٤ .

المبين ١٩! ﴿١﴾ .

وبيّن بطلان عبادة الأصنام ، إذ لا تقدر على خلق شيء .

٢٠ — فقال — عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ... ﴾ الآية (٢) :

﴿ تنبيه بالأصغر على الأكبر من باب أولى وأحرى ، والمعنى : أن الأصنام التي تعبدونها لا تقدر على خلق الذباب ولا غيره ، فكيف تعبد من دون الله الذي خلق كل شيء ﴾ (٣) .

٢١ — وعند قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يقول ابن جزري تحت عنوان :

﴿ ثلاث فوائد :

الأولى : الآية ضمنت دعوة الخلق إلى عبادة الله بطريقتين :

أحدهما : إقامة البراهين بخلقهم وخلقهم السماوات والأرض والمطر .

الآخر : ملاطفة جميلة بذكر ما لله عليهم من الحقوق ومن الإنعام ، فقد ذكر أولاً ربوبيته لهم ، ثم ذكر خلقته لهم وآبائهم ؛ لأن الخالق يستحق أن يعبد ، ثم ذكر ما أنعم الله به عليهم من جعل الأرض فراشاً والسماء بناءً ، ومن إنزال المطر ، وإخراج الثمرات ؛ لأن المنعم يستحق أن يعبد ويشكر .

(١) التسهيل (١٦٣/٢) .

(٢) سورة الحج : ٧٣ .

(٣) التسهيل (١٠٠/٣) .

الثانية : المقصود الأعظم من هذه الآية الأمر بتوحيد الله ، وترك ما عبد من دونه ، لقوله في آخرها : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾ ، وذلك الذي يترجم عنه بقولنا : لا إله إلا الله ، فيقتضي ذلك الأمر بالدخول في دين الإسلام ، الذي قاعدته التوحيد ...

الثالثة : وقول : لا إله إلا الله ، تكون في القرآن بعد ذكر المخلوقات والتنبيه على الاعتبار في الأرض وفي السماوات ، والحيوان والنبات ، والرياح والأمطار ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ... وأكثر ما يأتي ذكر المخلوقات في القرآن في معرض الاستدلال على وجوده تعالى ، وعلى وحدانيته ^(١) .

فمراده رحمه الله ظاهر في بيان أسلوب القرآن في دعوة الناس إلى الإيمان بالله تعالى ، فإيجاد المخلوقات من أعظم الأدلة التي استعملها القرآن لإثبات وجود الباري ﷻ ، والتدليل على تفرده بالربوبية والألوهية : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ ^(٢) .

٢٢ — وقال القرافي في دياحة كتاب الذخيرة :

« الحمد لله الذي تجلّى لخلقه في عجائب مبتدعات صنعته ، واحتجب عنهم كمال هويته ، وتفرد بوجوب الوجود ^(٣) ، فهو الأبدى في قيوميته ، وتوحد بالإيجاد ، فكل الأكوان خاضعة لجلال هيته ، وتنزّه عن الشبيه والشريك ؛ فهو الواحد الأحد في إلهيته » ^(٤) .

فبيّن ربوبية الله ﷻ وعظمته ، وأنه سبحانه الواحد الأحد في إلهيته ، المنزّه عن الشريك .

(١) التسهيل (١/٧٠-٧١) ، وابن جزري ومنهجه في التفسير (١/٥٢٤-٥٢٥) .

(٢) سورة الأعراف : ٥٤ .

(٣) إطلاق لفظ « واجب الوجود » على الله ﷻ مما ابتدعه الفلاسفة ، وتبعهم المتكلمون على ذلك ، وليس في الكتاب والسنة إطلاق هذا الاسم على الله ﷻ ، والأصل في أسمائه ﷻ التوقيف .

(٤) الذخيرة (١/٣٣) .

٢٣- وأطال ابن العربي الكلام حول النظر في الآيات والمخلوقات ، وذلك لتثبت القلوب على التوحيد والعبادة ، فقال :

« أمر الله تعالى بالنظر في آياته والاعتبار بمخلوقاته في أعداد كثيرة من آي القرآن ، أراد بذلك زيادة في اليقين وقوة في الإيمان ، وتثبيتاً للقلوب على التوحيد » .

٢٤- ثم بين أن الإيمان بالله بمعرفته ومعرفة صفاته وأفعاله وملكوته في أرضه وسمائه ، ولا يحصل ذلك إلا بالنظر في مخلوقاته ، وهي لا تحصى كثرة ، وأمها السماوات ، فترى كيف بنيت وزينت من غير فطور ، ورفعت بغير عمد ، وخولف مقدار كواكبها ، ونصبت سائرة شارقة وغاربة ، منيرة وممحوة ، كل ذلك بحكمة ومنفعة ... الخ .

فذكر ملكوت الله ﷻ في أرضه وسمائه ، ما فيهما من المخلوقات والكائنات والإنسان وإيجاده ، وما فيه من الآيات .

٢٥- ثم قال :

« فينظر حينئذ أنه عبد مربوب مكلف مخوف بالعذاب إن قصر ، مرجى بالثواب إن ائتمر ، فيقبل على عبادة مولاه ، فإنه وإن كان لا يراه يراه ، ولا يخشى الناس ، فالله أحق أن يخشاه » ^(١) .

فما ذكره رحمه الله من الاستدلال بأمر الربوبية ، من الخلق والتدبير وغيرهما دال على وحدانية الله تبارك وتعالى ، وبين ذلك قوله في آخر حديثه - بعد أن ذكر المخلوقات وما فيها من الآيات والعبر - : « ينظر حينئذ أنه عبد مربوب ... فيقبل على عبادة مولاه ... ولا يخشى الناس فالله أحق أن يخشاه » .

٢٦- ويمثل قوله ما ذكره التائي بعد إيراد محاجة فرعون لموسى بقوله : ﴿ وما رب العالمين ﴾ إلى أن قال له موسى ﷺ : ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما

(١) انظر أحكام القرآن (٢/٨١٦-٨١٨) .

إن كنتم موقنين ﴿^(١)﴾ قال :

« تستدلون بما أقول فتعرفون ربكم ، وهذا غاية الإرشاد لتنبهه أولاً على الاستدلال بالعام - وهو خلق السماوات والأرض وما بينهما - ، ثم ما هو أقرب إليهم - وهو أنفسهم وأموالهم - ، ثم بالشرق والمغرب وما بينهما من الميزات والموجودات ، لزيادة بيان وتدرج في الاستدلال ، وليعلم أن في كل شيء دليلاً على وحدانيته ﴿^(٢)﴾ .

٢٧- وذكر الثعالبي ^(٣) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ... ﴾ ^(٤) قوله :

« معناه : وحدوه وخصّوه بالعبادة ، وذكر تعالى خلقه لهم إذ كانت العرب مقرة بأن الله خلقها ، فذكر ذلك سبحانه حجة عليهم ﴿^(٥)﴾ .

٢٨- ونقل محمد المختار عند شرحه باب قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ ^(٦) كلام ابن حجر على سبيل الإقرار في أن الآية وردت في إثبات استحقاق الخالق بالعبادة ، لانفراده بالخلق وإقامة الحجة على من يعبد ما لا يخلق وهم يخلقون ، فقال :

(١) سورة الشعراء : ٢٤ .

(٢) تنوير المقالة في حل ألفاظ الرسالة (١/١٦٦) .

(٣) هو عبدالرحمن بن مخلوف الثعالبي الجزائري المغربي المالكي ، صاحب التصانيف ، اختصر تفسير ابن عطية ، وشرح ابن الحاجب الفرعي ، وعمل في الوعظ وغير ذلك . مات سنة ٨٧٥هـ .

انظر : الضوء اللامع (٤/١٥٢) ، ونيل الابتهاج (١/٢٥٧) .

(٤) سورة البقرة : ٢١ .

(٥) تفسير الثعالبي (١/١٩٥) . ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت ، لبنان . ط. الأولى .

(٦) سورة الصافات : ٩٦ .

« أتعبدون ما لا يخلق وتدعون عبادة من خلقكم !؟ »^(١) .

وأما ابن عاشور فقد أطلال الكلام حول الاحتجاج بالربوبية على الألوهية من خلال تفسيره لعدة من الآيات .

٢٩ — فعند قوله تعالى : ﴿ ذلکم الله ربکم لا إله إلاّ هو خالق کل شيء فاعبدوه ... ﴾^(٢) قال :

« جملة : ﴿ فاعبدوه ﴾ مفرّعة على قوله : ﴿ ربکم لا إله إلاّ هو ﴾ ، وقد جعل الأمر بعبادته مفرّعاً على وصفه بالربوبية والوحدانية ؛ لأن الربوبية مقتضية استحقاق العبادة ، والانفراد بالربوبية يقتضي تخصيصه بالعبادة »^(٣) .

٣٠ — وعند قوله تعالى : ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنین ﴾^(٤) قال :

« وهو يخلص للاستدلال على تفرد الله بالإلهية إلزاماً لهم بما يقرّون به من أنه رب السماوات والأرض وما بينهما ، ويقولون بأن الأصنام لا تخلق شيئاً »^(٥) .

٣١ — وبين هذا المعنى أيضاً عند قوله تعالى : ﴿ لا إله إلاّ هو يحيي ويميت ربکم ورب آبائکم الأولین ﴾^(٦) ، فقال :

« لأن انفراده بربوبية السماوات والأرض وما بينهما دليل على انفراده بالإلهية ،

(١) نور الحق الصبيح (٦٣٣/١٠) . وانظر فتح الباري (٥٢٩/١٣) .

(٢) سورة الأنعام : ١٠٢ .

(٣) التحرير والتنوير (٨٦/٢٣) .

(٤) سورة الشعراء : ٢٤ .

(٥) التحرير والتنوير (٢٨٣/٢٥) .

(٦) سورة الدخان : ٨ .

أي على بطلان إلهية أصنامهم»^(١) .

٣٢ — وعند قوله تعالى : ﴿ وله من في السماوات والأرض وله الدين واصباً ﴾^(٢) قال :

« ضمير " له " عائد إلى اسم الجلالة من قوله : ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين ﴾ ، فعطفه على جملة : ﴿ إنما هو إله واحد ﴾ ؛ لأن عظمة الإلهية اقتضت الرهبة منه ، وقصرها عليه مناسب أن يشار إلى أن صفة المالكية تقتضي إفراده بالعبادة »^(٣) .

٣٣ — قال : « المقصود : التعريض بشكر الله على نعمه وأن لا يعبدوا غيره ... - إلى قوله - : ففي ذلك كله إدماج الاستدلال على انفراده بالخلق والتدبير ، فهو الرب الحق المستحق للعبادة ... »^(٤) .

٣٤ — وختم حديثه حول هذا المعنى ؛ فعند قوله تعالى : ﴿ قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض ... ﴾ حيث قال :

« لما تقرر بالقول السابق^(٥) عبودية ما في السماوات والأرض لله ، وأن مصير كل ذلك إليه ؛ انتقل إلى تقرير وجوب إفراده بالعبادة ، لأن ذلك نتيجة لازمة لكونه مالكا لجميع ما احتوته السماوات والأرض »^(٦) .

وأما محمد الأمين فقد بين أن الإتيان بتوحيد الربوبية لا ينفع إلا إذا انضم له توحيد الألوهية .

(١) التحرير والتنوير (٢٨٤/٢٥) .

(٢) سورة النحل : ٥٢ .

(٣) التحرير والتنوير (١٧٥/١٤) .

(٤) التحرير والتنوير (٣١٧/١٧) .

(٥) يريد في الآية التي قبلها : ﴿ قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله ... ﴾ ، ومراده المالكية .

(٦) التحرير والتنوير (١٥٦/٧) .

٣٥- قال - عند تفسير قوله تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾^(١) - :

« صرّح الله تعالى في هذه الآية الكريمة بأن الكفار يقرّون بأنه - جل وعلا - ربهم الرازق المدبّر للأمور ، المتصرف في ملكه بما يشاء ، وهو صريح في اعترافهم بربوبيته ، ومع هذا أشركوا به جل وعلا ، والآيات الدالة على أنّ المشركين يقرّون بربوبيته جلّ وعلا - ولم ينفعهم ذلك ؛ لإشراكهم معه غيره في حقوقه جلّ وعلا - كثيرة ، كقوله : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾^(٣) ، وقوله : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله - إلى قوله - : فأني تسحرون ﴾^(٤) ، إلى غير ذلك من الآيات ، ولذا قال تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون ﴾^(٥) ، والآيات المذكورة صريحة في أنّ الاعتراف بربوبيته جل وعلا لا يكفي في دخول دين الإسلام ، إلّا بتحقيق معنى لا إله إلاّ الله نفياً وإثباتاً »^(٦) .

٣٦- ثم بين أنّ الآيات الدالة على توحيد الربوبية إنما هي لإلزام المشركين أن يوحدوه في العبادة ، فيقول :

« ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جل وعلا

(١) سورة يونس : ٣١ .

(٢) سورة الزخرف : ٨٧ .

(٣) سورة الزخرف : ٩ .

(٤) سورة المؤمنون : ٨٤-٨٩ .

(٥) سورة يوسف : ١٠٦ .

(٦) أضواء البيان (٢ / ٤٨١-٤٨٢ و ٣ / ٧٤-٧٥ ، ٤١٠) ، والمعين والزاد ص (٦٥) .

على وجوب توحيده في عبادته ، ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير ، فإذا أقرّوا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه المستحق لأن يعبد وحده ؛ لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يُعبد وحده»^(١) .

٣٧— ثم ذكر أن الله ﷻ وبخ الكفار على إقرارهم بربوبيته ثم هم بعد ذلك يشركون في ألوهيته ، فقال :

« من أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار - إلى قوله - : فسيقولون الله ﴾^(٢) ، فلما أقرّوا بربوبيته وبخهم منكراً عليهم شركهم به غيره بقوله : ﴿ أفلا تتقون ﴾ ، إلى غير ذلك من الآيات » .
وذكر أن المشركين في حال الشدة يفرعون إلى الله ، ويخلصون العبادة ، ويعرضون في حال الرخاء ، وهو تذكير للكفار بما في نفوسهم من التوحيد .

٣٨— فعند قوله تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضرّ في البحر ضلّ من تدعون إلاّ إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً ﴾^(٣) قال :

« لا يخفى على الناظر في هذه الآية الكريمة أنّ الله ذمّ الكفار وعاتبهم بأنهم في وقت الشدائد والأهوال خاصة يخلصون العبادة له وحده ، ولا يصرفون شيئاً من حقّه لمخلوق ، وفي وقت الأمن والعافية يشركون به غيره في حقوقه الواجبة له وحده ، التي هي عبادته وحده في جميع أنواع العبادة ، ويعلم من ذلك أنّ بعض جهلة المتسمّين بالإسلام أسوأ حالاً من عبدة الأوثان ؛ فإنهم إذا دهمتهم الشدائد وغشيتهم الأهوال والكروب التجأوا إلى غير الله ممّن يعتقدون فيه الصلاح ! في الوقت الذي

(١) أضواء البيان (٤١١/٣ و ٨١٣/٥ و ٦٢٠/٦) .

(٢) سورة يونس : ٣١ .

(٣) سورة الإسراء : ٦٧ .

يخلص فيه الكفار العبادة لله ، مع أن الله جل وعلا أوضح في غير موضع أن إجابة المضطر وإنجاده من الكرب من حقوقه التي لا يشاركه فيها غيره^(١) ...»^(٢) .

٣٩— وعند قوله تعالى : ﴿ وهو الذي يريكم آياته ويترل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب ﴾^(٣) قال :

« ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه جلّ وعلا هو الذي يري خلقه آياته ، أي : الكونية القدرية ؛ فيجعلها علامات لهم على ربوبيته ، واستحقاقه العبادة وحده ، ومن تلك الآيات : الليل والنهار ، والشمس والقمر ، كما قال تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ﴾^(٤) ، ومنها : السماوات والأرض وما فيها ، والنجوم ، والرياح ، والسحاب ، والبحار ، والأنهار ، والعيون ، والجبال ، والأشجار ... الخ »^(٥) .

٤٠— وختم كلامه في ذلك بأن الاستفهامات المتعلقة بآيات توحيد الربوبية استفهامات تقرير لا إنكار . يقول :

« إن كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير ، يراد منها أنهم إذا

(١) ولذا أسلم عكرمة رضي الله عنه ؛ فقد روى سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ لما أهدر يوم الفتح دم جماعة - منهم عكرمة ابن أبي جهل - هرب من مكة وركب البحر ، فأصاهم عاصف ، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة : أخلصوا ! فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئا . فقال عكرمة : لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص ما ينجيني في البر غيره ، اللهم إن لك عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده ، فلأجدته عفواً كريماً . فجاء فأسلم .

والقصة خرجها أبو يعلى في مسنده (١٠١/٢) برقم (٧٥٧) ، وابن عبد البر في التمهيد (١٧٥/٦) ، وذكرها الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٩/٦) .

(٢) أضواء البيان (٦١٤/٣-٦١٥) .

(٣) سورة غافر : ١٣ .

(٤) سورة فصلت : ٣٧ .

(٥) أضواء البيان (٧٤/٧) .

أقرّوا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار ؛ لأن المقرّ بالربوبية يلزمه الإقرار بالآلوهية ضرورة ، نحو قوله تعالى : ﴿ أفى الله شك ﴾^(١) ، وقوله : ﴿ قل أغير الله أبغي ربّاً ﴾^(٢) - وإن زعم بعض العلماء أنّ هذا استفهام إنكار - لأن استقراء القرآن دلّ على أنّ الاستفهام المتعلّق بالربوبية استفهام تقرير وليس استفهام إنكار ، لأنهم لا ينكرون الربوبية كما رأيت كثرة الآيات الدالة عليه^(٣) .

٤١- وذكر أيضاً عند قوله تعالى : ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ﴾^(٤) :

« ولا شك أنّ الجواب الذي لا جواب لهم غيره هو : لا ؛ أي : ليس من شركائنا من يقدر على أن يفعل من ذلك المذكور ؛ من الخلق والرزق والإماتة والإحياء ، فلما تعيّن اعترافهم وبّخهم منكرّاً عليهم بقوله : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾^(٥) .

فتوحيد الربوبية^(٦) مستلزم لتوحيد الألوهية ، وتوحيد الألوهية متضمّن لتوحيد الربوبية .

٤٢- وذكر ابن باديس عند قوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلاّ

(١) سورة إبراهيم : ١٠ .

(٢) سورة الأنعام : ١٦٤ .

(٣) أضواء البيان (٤١٤/٣) .

(٤) سورة الروم : ٤٠ .

(٥) أضواء البيان (٤١٣/٣) .

(٦) أطال الشيخ محمد الأمين الكلام على أنّ الله ﷻ هو المستحق للعبادة وحده ، لأمر كلها داخلية في الربوبية ، أخذاً من قوله تعالى : ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ . انظر معارج الصعود (٣٠٧) .

إياه ﴿١﴾ قوله :

« وجيء باسم الرب في مقام الأمر يقصر العبادة عليه ، تنبيهاً على أن الذي يستحقّ العبادة هو من له الربوبية بالخلق والتدبير والملك والإنعام ، وليس ذلك إلاّ له ، فلا يستحقّ العبادة بأنواعها سواه ، فهو تنبيه بوحداية الربوبية التي من مقتضاها انفراده بالخلق والأمر الكوني الشرعي على وحدانية الألوهية التي من مقتضاها استحقاقه وحده عبادة جميع مخلوقاته » ﴿٢﴾ .

٤٣ — وقال محمد المكي - عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم ﴾ ﴿٣﴾ - : « يثبت الله عبودية المخلوقات كلها للإله الواحد الأحد ؛ فله ما سكن وله ما تحرك في الليل والنهار من كافة العوالم ، وجميع الأفلاك ، ما علا منها وما سفلى ، وما نطق وما لم ينطق » ﴿٤﴾ .

٤٤ — وفي الآية التي بعدها : ﴿ قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض ﴾ ﴿٥﴾ قال :

« وفي ثاني آية منه يلحق كتاب الله للرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام ما يفحم به المشركين المعاندين ، فيتساءل في لهجة الاستنكار والاستغراب : كيف يتخذ الإنسان له ولياً غير الله ؟! وكيف يستنصر بمن سواه ؟ والله مبدع السماوات والأرض ، الذي يرزق الخلق ويطعمهم ، وهو مع ذلك غني عنهم جميعاً ... » ﴿٦﴾ .

(١) سورة الإسراء : ٢٣ .

(٢) تفسير ابن باديس (٦٣) .

(٣) سورة الأنعام : ١٣ .

(٤) التيسير في أحاديث التفسير (١١٠/٢) .

(٥) سورة الأنعام : ١٤ .

(٦) التيسير (١١٠/٢) .

٤٥ — ويقول أيضاً :

« ولا شك أن مجرد الفكر السليم والفطرة التي فطر الناس عليها يدفعان بالإنسان مهما بلغ من الجحود والعناد إلى الاعتراف والاقتناع بأن شهادة الخالق هي فوق شهادة كل مخلوق كيفما كان : ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ ^(١) » ^(٢) .

٤٦ — وعند قوله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا آمن أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ ^(٣) يقول :

« ويأخذ كتاب الله في التنبيه على بعض الحقائق الكونية التي تساعد الإنسان على الوصول بنفسه إلى إدراك عقيدة التوحيد الأساسية ، متى أحسن التأمل فيها ، واستخلص العبرة منها :

الحقيقة الأولى : أنه ما من جنس جنس ، ونوع نوع ، وصنف صنف ؛ من أجناس الأحياء وأنواعها وأصنافها إلا وله من الخصائص والصفات المشتركة ، والنواميس الثابتة لسائر أطوار حياته ما يجعله ﴿ أمة واحدة ﴾ مشابهة لما في النوع الإنساني نفسه ، من أمم مختلفة الألسنة ومختلفة الألوان ، ولا تقل حكمة الله في بقية خلقه ، وعنايته بتدبير أمره عن عنايته بالإنسان وتدبيره لأمره ، وحكمته في خلقه .

الحقيقة الثانية : أن كل ما خلق الله من عوالم الأحياء على تعدد أجناسها ، وتنوع أنواعها ، واختلاف أصنافها هو في نهاية الأمر كما في بدايته شيء واحد متماثل ، ونظام واحد متكامل ؛ لأنه انبثق عن خالق واحد ، نفخ فيه الروح ، له الخلق والأمر ، وهو الحي القيوم .

(١) سورة الأنعام : ١٩ .

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (١١٢/٢) .

(٣) سورة الأنعام : ٢٠ .

الحقيقة الثالثة : أن الحق ﷻ الذي انفرد بخلق كل شيء قد انفرد أيضاً بتدبير كل شيء ، فما من شيء - صغر أو كبر ، جلّ أو حقّر - إلّا وهو محل العناية الإلهية ، بحيث لا يلحقه أدنى تفريط ولا إهمال ، ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ﴾^(١) ، وما من جزء من أجزاء الكون إلّا وهو يسير إلى مصيره المحتوم ، وفق تدبير محكم ونظام مرسوم ، لا يتخلف عنه قلامة ظفر ، فمشيئة الله هي القانون الحتمي الأول ، وتدبير الله هو القانون الحتمي الأخير .

وبديهي أن إدراك هذه الحقائق الثلاث كافٍ لأن يجعل من له أدنى مسكة من العقل ، وأقل حظ من التفكير ، وأبسط نصيب من الملاحظة مؤمناً بالله من أعماق قلبه حق الإيمان ، بعيداً كل البعد عن الشرك بالله وعبادة الأصنام والأوثان^(٢) .

٤٧ — وأكد هذا المعنى عند قوله تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض ... ﴾^(٣) بقوله :

« ورغماً عن وضوح الحجة وسلامة البرهان على أن الله الذي يرزق عباده هو الذي يستحق عبادتهم وطاعتهم ، ومن عبده هو الذي يكون على هدى ، وأن من لا تأثير له في خلق ولا رزق ، ولا شرك له في السماوات والأرض ينبغي أن يهمل ويسقط من الحساب ، ومن عبده هو الضال المضلّ ... »^(٤) .

ومما سبق يتبيّن خطأ وضلال من أضنوا أنفسهم وبذلوا جهدهم ، وأفنوا أعمارهم لتقرير توحيد الربوبية على أنه الذي جاءت به الرسل أممها^(٥) دون

(١) سورة البقرة : ٢٥٥ .

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (١٢٢/٢-١٢٣) .

(٣) سورة سبأ : ٢٤ .

(٤) التيسير في أحاديث التفسير (١٩٠/٥) .

(٥) كما يقول به المتكلمون . انظر : أصول الدين للبغدادى (ص ١٢٣) ، وشرح أسماء الله الحسنى للرازي (ص ١٢٤) .

سواه ، إذ إنه من المقرر في الفطر معرفة الله ﷻ ، ودلائل ربوبيته ﷻ واضحة في كل شيء ، فالبعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، وهذا الكون بما فيه من النظام البديع المحكم كله يدل عليه ﷻ ، ولهذا كان إقرار الخلق بالله من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته^(١) .

يوضح ذلك : أن مبدأ الانحراف - الذي وقعت فيه البشرية عبر التاريخ - عن حقيقة التوحيد لم يكن شركاً في الربوبية ، بل كان شركاً في الألوهية في الغالب ، وهكذا كل انحراف إنما وقع عن طريق الانحراف في العبادة . قال تعالى - عن قوم نوح - : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾^(٢) .

والعرب كانت على بقية من دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام ؛ حتى جاء عمرو بن عامر الخزاعي بأصنام من الشام إلى الجزيرة ، فنصب هبل وعبداه وعظمه ، وتبعه الناس في ذلك^(٣) .

وقد بين القرطبي أن شهادة أن لا إله إلا الله تعني عبادة الله وحده دون سواه ، ولم يذكر قول المتكلمين الذين جعلوا معناها : أي لا خالق ولا موجود إلا الله !

قال - عند شرحه لحديث ابن عمر رضي الله عنهما الذي قال فيه ﷺ : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ... » - :

« قد روي من طرق ؛ ففي بعضها : « شهادة أن لا إله إلا الله » ، وفي بعضها : « على أن تعبد الله وتكفر بما دونه » ، فالأولى نقل للفظ ، والأخرى نقل

(١) انظر شرح الطحاوية (٢٤) ، وتطهير الجنان (٥) .

(٢) سورة نوح : ٢٣ .

(٣) فتح الباري (٣٨٣/٨) ، وشرح الطحاوية (٢٦) ، وصيانة الإنسان (٤٦٥) .

بالمعنى»^(١) .

وقال في موضع آخر : « من مات لا يتخذ معه شريكاً في الإلهية ولا في الخلق ولا في العبادة دخل الجنة »^(٢) .

وقد تبين مما سبق رد القرطي على المتكلمين في (مسألة أول واجب على العبد) ، وتشنيعه عليهم فيما ذهبوا إليه ، وبين أنّ أول الواجبات النطق بكلمة التوحيد عند شرحه لحديث معاذ رضي الله عنه .

(١) المفهم (١/١٦٩) .

(٢) المفهم (١/٢٩٠) .

الباب الثاني

العبادة

وفيه فصلان :

الفصل الأول : تعريف العبادة لغةً واصطلاحاً

الفصل الثاني : أنواع العبادة وشروط صحتها ، وفيه ثلاثة مباحث :

◀ المبحث الأول : الأنواع الباطنة ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى : المحبة

المسألة الثانية : الخوف والرجاء

المسألة الثالثة : التوكل

المسألة الرابعة : الصبر

المسألة الخامسة : التوبة

◀ المبحث الثاني : الأنواع الظاهرة ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى : الذكر

المسألة الثانية : الدعاء

المسألة الثالثة : الذبح

المسألة الرابعة : النذر

المسألة الخامسة : الطواف

◀ المبحث الثالث : في شروط صحة العبادة عند المالكية

الفصل الأول

تعريف العبادة لغةً واصطلاحاً

العبادة في اللغة :

قال في المعجم الوسيط : عَبَدَ الله عبادةً وعبوديةً : انقاد له ، وخضع وذلّ .
والعبادة هي الخضوع للإله على وجه التعظيم^(١) .

وقال الجوهري : « العبادة الطاعة والتعبد والتنسك .. وأصل العبودية الخضوع والذلّ .

وقال ابن الأنباري : فلان عابد ، وهو الخاضع لربه ، المستسلم لقضائه ، المنقاد لأمره^(٢) .

وقال الراغب الأصفهاني : « العبودية إظهار التذلل ، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل^(٣) .

وقال القرطبي : « أصل العبودية الخضوع والذلّ ، والتعبد التذليل^(٤) .

وقال الشيخ محمد الأمين : « العبادة لغةً الذلّ والخضوع ، فكل مذلّ معبد ، ومنه قيل للرقيق عبد^(٥) .

فمعاني العبادة في اللغة تدور حول التذلل والخضوع .

(١) المعجم الوسيط (٥٧٩) حرف العين . ط. المكتبة الإسلامية - إستانبول ، تركيا .

(٢) تهذيب اللغة (٢/٢٣٦) .

(٣) المفردات في غريب القرآن (٣١٩) . ط. دار المعرفة - بيروت .

(٤) تفسير القرطبي (٥٦/١٧) .

(٥) معارج الصعود (٤٠-٤١) .

العبادة في الاصطلاح :

تقدّم - عند الكلام على معنى التوحيد - أنّ المراد به إفراد الله بالعبادة التي هي حقّ الله على العباد ، كما في حديث معاذ رضي الله عنه قال : « كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار ، فقال لي ... الخ »^(١) .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناه التوحيد »^(٢) . قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون ﴾^(٣) .

قال القرطبي : « المعنى : وما خلقت أهل السعادة من الجنّ والإنس إلاّ ليوحّدون »^(٤) .

أما من لم يوحد الله تعالى من الكفرة فإنهم قد تذللوا لقضائه الذي قضاه عليهم ؛ لأنّ قضاءه جار عليهم لا يمتنعون منه إذا نزل بهم ، كما قال ابن عباس في الآية : « وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ لعبادتنا والتذلّل لأمرنا »^(٥) .

فبين أنّ العبادة والتوحيد بينهما ارتباط وثيق ، فالعبادة هي ذات القربة ، وأما توحيد العبادة فالمراد صرفها لله وحده لا شريك له ، مما يبيّن أهمية الكلام عن العبادة كما سيأتي .

وقد ذكر علماء المالكية عدة تعريفات للعبادة متقاربة المعاني ، وقبل ذكر أقوالهم ينبغي التنبيه على أنّ العبادة تطلق باعتبارين :

الأول : من جهة نوع ما يتعبد به ، وهي فعل الأمر وترك النهي .

الثاني : من جهة فعل العبد ، وهو الخضوع والذلّ .

(١) تقدّم تخرجه ص ٦٨ .

(٢) درجات الصاعدين إلى مقامات الموحدين في علم التوحيد (٣٠٠) ، الرسالة الثانية عشرة ضمن رسائل عبدالله بن سعدي الغامدي بعنوان : عقيدة الموحدين . مكتبة الطرفين ، ط. الأولى ١٤١١ هـ .

(٣) سورة الذاريات : ٥٦ .

(٤) تفسير القرطبي (٥٥ / ١٧) .

(٥) تفسير الطبري (٤٧٦ / ١١) .

وكلاهما تضمّنه كلام المالكية فيما يلي :

فقد خرج الإمام مالك في موطنه حديث الرجل الذي رآه النبي ﷺ قائماً في الشمس ، فقال : « ما بال هذا ؟ » . فقالوا : نذر ألا يتكلم ، ولا يستظلّ من الشمس ، ولا يجلس ، ويصوم . فقال رسول الله ﷺ : « مروه فليتكلم ، وليستظلّ ، وليجلس ، وليتمّ صيامه »^(١) .

١— ثم قال مالك : « ولم أسمع أن رسول الله ﷺ أمره بكفارة ، وقد أمره رسول الله ﷺ أن يتمّ ما كان لله طاعة ويترك ما كان لله معصية »^(٢) .

فبيّن الإمام مالك أن معنى العبادة : الطاعة ، التي هي فعل الأمر وترك النهي ، وهو ما أشار إليه بقوله : إن النبي ﷺ أمره بفعل ما كان لله طاعة ، وترك ما كان لله معصية .

وعلى ذلك عرّف أبو العباس القرطبي العبادة بقوله :

٢— « وعبادة الله إنما هي امتثال أوامره الواجبة والمندوبة ، واجتناب نواهيه المحظورة والمكروهة »^(٣) .

وفي موضع آخر قال : « أصل العبادة الخضوع والتذلل ، وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات ؛ لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى »^(٤) .

فسمى تلك الأوامر والنواهي وظائف هنا ، وأفصح عن حقيقة العبادة بأنها الخضوع والتذلل .

٣— وقال ابن عطية - في تفسير قوله تعالى : ﴿ أبحسب الإنسان أن يترك

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور ، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية (٥٨٥/١١) برقم (٦٧٠٤) .

(٢) موطأ مالك ، باب ما لا يجوز من النذور في معصية الله (٣٧٨/٢) برقم (٦) .

(٣) المفهم (٨٦/٤) .

(٤) المفهم (١٨١/١) .

سدى ﴿١﴾ - : « معناه : مهملاً لا يؤمر ولا ينهى » ﴿٢﴾ .

٤- وزاد الأمر وضوحاً قوله :

« نعبد : نقيم الشرع والأوامر ، مع تذلل واستكانة ، والطريق المذلل يقال له معبد ، وكذلك البعير . قال طرفة :

تباري عتاقاً ناجياتٍ وأتبعْتُ وظيفاً وظيفاً فوق مورٍ مُعَبَّدٍ ﴿٣﴾ .

وإقامة الشرع تكون بفعل المأمور واجتناب المحذور ، وهو حقيقة العبادة .

٥- وقال محمد الأمين - عند قول الله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلاّ

ليعبدون ﴾ - :

« إلاّ لأمرهم بعبادتي وأبتليهم ، أي : أختبرهم بالتكاليف ، ثم أجازيهم على أعمالهم ؛ إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر » ﴿٤﴾ .

٦- وأفصح عن هذا المعنى بقوله :

« التقرب إلى الله جلّ وعلا بامثال ما شرع وأمر به واجتناب ما نهى عنه على وجه الخضوع والذلّ والمحبة » ﴿٥﴾ .

وتعريفه رحمه الله من التعريفات الجامعة التي تشمل جميع أفرادها ؛ فامثال الأمر واجتناب النهي مع الإتيان بركني العبادة - كمال الذلّ مع كمال المحبة - هو حقيقة العبادة .

٧- وقال الباجي : « العبادة : هي الطاعة والتذلل لله تعالى باتباع ما

(١) سورة القيامة : ٣٦ .

(٢) المحرر الوجيز (١٥/٢٢٦) .

(٣) المحرر الوجيز (١/١١٥) . وقائل البيت هو طرفة بن العبد ، شاعر جاهلي . "شرح المعلقات" (٤٣) .

(٤) أضواء البيان (٧/٦٧٣) .

(٥) معارج الصعود (٤١) .

شرع»^(١) .

وطاعته باتباع ما شرع إنما تكون بفعل ما أمر وترك ما نهى .

٨— ونحوه قول ابن العربي :

« والعبادة هي التذلل والخضوع للمعبود بما يكون من فعل يقصد به خدمته في أمره »^(٢) .

٩— وقال القرافي :

« أمرنا سبحانه أن نظهر الذلّ والانقياد لجلاله »^(٣) .

ومراد الانقياد لأمره ونهيه ، وهو معنى العبادة .

١٠— وأما القرطبي فقال :

« وحقيقة العبادة : الطاعة بغاية الخضوع ، ولا يستحقّها أحد سوى المالك المعبود »^(٤) .

١١— وقال الخرشي :

« العبودية : إظهار التذلل ، والعبادة أبلغ منها ؛ لأنها غاية التذلل ، ولا يستحقّها إلا من له غاية الإفضال ، وهو الله سبحانه »^(٥) .

وهذا التعريف - والذي قبله - فيه بيان استحقاق العبادة لله وحده .

١٢— وأشار لهذا المعنى ابن عاشور ، فقال :

« ولما كان التذلل والخضوع إنما يحصل عن صدق اليقين كان الإيمان بالله

(١) الحدود للباجي (٥٧) . ط. دار الآفاق الجديدة ، ط. الأولى - القاهرة ، مصر ١٤٢٠هـ .

(٢) عارضة الأحوذى (٧١/١١) .

(٣) الذخيرة (١٨٩/٢) .

(٤) تفسير القرطبي (١٣٠/١١) .

(٥) الخرشي على مختصر سيدي خليل (١٣/١) . دار صادر - بيروت .

وتوحيده بالإلهية مبدأ العبادة ؛ لأنّ من أشرك مع المستحقّ ما ليس بمستحق فقد تباعد عن التذلل والخضوع له»^(١).

١٣— وفي موضع آخر قال :

« العبادة تعرف بأنها فعل ما يرضي الربّ من خضوع وامثال واجتناب ، أو هي فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيماً لربّه »^(٢).

فذكر امثال الأمر واجتناب النهي إرضاءً لله تعالى ، وهذه حقيقة العبادة .

١٤— ونحو ذلك ما ذكره ابن باديس بقوله :

« العبادة : نهاية الذلّ والخضوع ، مع الشعور بالضعف والافتقار ، وإظهار الانقياد والامثال ، ودوام التضرّع والسؤال »^(٣).

وبالجملة : فائمة المالكية قد عُنوا بحدّ العبادة ، وجاءت تعريفاتهم متقاربة يجمعها وصف العبادة بامثال الأوامر واجتناب النواهي على وجه التذلل والخضوع والمحبة للمعبود ﷺ ، سواء كانت قولية أو فعلية أو قلبية .

(١) التحرير والتنوير (٣٢٦/١) .

(٢) التحرير والتنوير (١٨٠/١) .

(٣) تفسير ابن باديس (٦٢) .

الفصل الثاني

أنواع العبادة وشروط صحتها

وفيه ثلاثة مباحث :

◀ المبحث الأول : الأعمال الباطنة

◀ المبحث الثاني : الأعمال الظاهرة

◀ المبحث الثالث : شروط صحة العبادة

المبحث الأول

الأعمال الباطنة

وفيه المسائل الآتية :

المسألة الأولى : المحبة

المسألة الثانية : الخوف والرجاء

المسألة الثالثة : التوكل

المسألة الرابعة : الصبر

المسألة الخامسة : التوبة

المسألة الأولى : المحبة

تقدّم الكلام على معنى العبادة وأنّ لها ركنين هما : كمال الذلّ مع كمال المحبة ؛ فالعبد محبّ خاضع لمولاه .

وقد دلّ كتاب الله ﷻ وسنة نبيّه عليه الصلاة والسلام على هذا الأصل :

قال تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربّصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾^(١) .

وقال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتّخذ من دون الله أنداداً يحبّونهم كحبّ الله والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله ﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه ... ﴾^(٣) .

وخرّج الشيخان عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما ، وأن يحبّ المرء لا يحبه إلاّ الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار »^(٤) .

(١) سورة التوبة : ٢٤ .

(٢) سورة البقرة : ١٦٥ .

(٣) سورة المائدة : ٥٤ .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان (٦٠/١) برقم (١٦) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان خصال من اتصف بهنّ وحد حلاوة الإيمان (٦٦/١) برقم (٤٣) .

وفي البخاري وغيره أنّ رجلاً كان يؤتى به إلى النبي ﷺ قد شرب الخمر ، فقال رجل : اللهم العنه ! ما أكثر ما يؤتى به ! فقال رسول الله ﷺ : « لا تلعه ؛ فإنه يحب الله ورسوله »^(١) .

وفي الصحيحين عن أنس ﷺ أنّ رجلاً سأل النبي ﷺ فقال : متى الساعة يا رسول الله ؟ قال : « ما أعددت لها ؟ » . قال : ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ؛ ولكني أحب الله ورسوله . فقال رسول الله ﷺ : « أنت مع من أحبيت » . قال أنس : فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشدّ من قوله : « أنت مع من أحبيت »^(٢) .

فهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة ، والذي عليه سلف الأمة وأئمتها أنّ الله ﷻ محبوب لذاته محبة حقيقية ، بل هي أكمل محبة ، كما قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشدّ حبا لله ﴾ .

وكذلك هو سبحانه يحبّ عباده المؤمنين محبة حقيقية ، إلّا أنّ الجهمية المبتدعة أنكرت حقيقة المحبة بين الخالق والمخلوق ، وتبعهم على ذلك طوائف من المتكلمين ، وزعموا أنّ المحبة لا تكون إلّا لمناسبة بين المحبّ والمحجوب ، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة^(٣) .

(١) فتح الباري (٧٥/١٢) ، كتاب الحدود ، باب ما يكره من لعن شارب الخمر ، برقم (٦٧٨٠) .

(٢) خرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر بن الخطاب ﷺ (٤٤/٧) برقم (٣٦٨٨) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب ، باب المرء مع من أحب (٢٠٣٢/٤) برقم (٢٦٣٩) .

(٣) أول من ابتدع هذا الكلام هو الجعد بن درهم ، وقتله خالد بن عبد الله القسري على تلك المقالة . وخرّج البخاري في خلق أفعال العباد (ص ٧) بسنده عن حبيب بن أبي حبيب قال : شهدت خالد بن عبد الله القسري بواسط في يوم أضحى ، وقال : ارجعوا فضحوا تقبل الله منكم فإني مضحّ بالجعد بن درهم ؛ زعم أنّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله علواً كبيراً عما يقول ابن درهم . ثم نزل فذبحه . وكذا ذكره الآجري (٩٧) ، والبيهقي (٢٠٥/١٠-٢٠٦) ، والبخاري في خلق أفعال العباد . ط . مؤسسة الرسالة ، ط . الأولى ١٤٠٤ هـ .

ثم أخذ المذهب عنه الجهم بن صفوان ، وقتله مسلم بن أحوز أمير خراسان ، ثم بعد ذلك أخذ المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد تلك المقالة ، واشتهرت في زمن المأمون .

قال شيخ الإسلام : « وأصل قولهم هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة من البراهمة والمتفلسفة ، ومبتدعة أهل الكتاب ، الذين يزعمون أن الرب ليس له صفة ثبوتية أصلاً ، وهؤلاء هم أعداء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، الذي قال الله عنه : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾^(١) ...

فمن أنكر أن يحب الله أحداً من عباده فإنه يعني إنكار أن يتخذ الله خليلاً لنفسه ، بحيث يحب الله عبده ويحبه العبد على أكمل ما يصلح للعباد ، كما أن إنكار محبة الله لأحد من عباده يستلزم إنكار مشيئته ، وهو يستلزم إنكار كونه رباً خالقاً ، فصار إنكارها مستلزماً لإنكار كونه رب العالمين ، ولكونه إله العالمين ، وهذا قول أهل التعطيل والجحود . ومن المعلوم أنه قد دلّ الكتاب والسنة ، واتفق سلف الأمة على أن الله يحب ويرضى ما أمر بفعله من واجب ومستحب ، ويجب من التزم ذلك الواجب والمستحب^(٢) .

وعلى هذا نصّ أئمة المالكية في إثبات المحبة للخالق ﷻ ، وكلامهم في ذلك على النحو التالي :

أولاً : إثبات محبة العبد لله ﷻ ، وبيان وجوبها .

ثانياً : البرهان على محبة العبد لله تعالى .

(١) سورة النساء : ١٢٥ .

(٢) محبة الله والحب بين العبد والرب لشيخ الإسلام (٥٢-٥٣) .

أولاً : إثبات محبة العبد لله ﷻ وبيان وجوبها

١— من ذلك ما ذكره مالك رحمه الله أن أقرب العلماء قرب رضا ومحبة إلى الله ﷻ وأولاهم به أكثرهم له خشيةً ، أي : خوفاً^(١) .

فمراد مالك أن العلماء هم أهل الخشية والمحبة لله ﷻ ، وفي ذلك إثبات محبة العبد لله تعالى ، قال بعض السلف : « من كان بالله أعرف كان منه أخوف »^(٢) ، والمحبة ثمرة المعرفة .

وخرج الإمام مالك أحاديث تدلّ على إثبات محبة الله ﷻ :

٢— منها ما رواه بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أعرابياً أدرك النبي ﷺ فقال : متى تقوم الساعة ؟ فقال : « وما أعددت لها ؟ » . قال : لا شيء ؛ والله لإني قليل الصلاة ، قليل الصيام ، إلاّ أني أحب الله ورسوله ، فقال النبي ﷺ : « فإنك مع من أحببت »^(٣) .

فرواية مالك لهذا الحديث تبين اهتمامه وحرصه على بيان تلك المحبة بين الخالق والمخلوق .

٣— وبين ابن بطال وجوب إخلاص المحبة لله ﷻ ورسوله ، وتقديمها على كل شيء ، فقال :

« ... وذلك أن الرجل إذا تذكر سالف أيادي الله^(٤) وأيادي رسوله ﷺ ، وما

(١) كفاية الطالب (٦٦٣/٢) . ط. دار الفكر - بيروت ١٤١٢هـ .

(٢) خرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة قال : حدثنا أبو حاتم الرازي ، ثنا أحمد بن أبي الحواري ، قال : سمعتُ أحمد بن عاصم الأنطاكي يقول : فذكره . قال أحمد : صدق والله . (٧٢٨/٢) برقم (٧٨٩) ، والبيهقي في شعب الإيمان عن الإمام أحمد رحمه الله (٤٨٧/١) برقم (٧٩٣) ، وعن الجنيدي (٥٠٤/١) برقم (٨٥١) .

(٣) البيان والتحصيل (٢٣٢/١٧) . والحديث متفق عليه مع الاختلاف في بعض الألفاظ وقد سبق تخريجه .

(٤) ومعنى قوله هنا : « سالف أيادي الله .. » أي : نعم الله ، وهذا يتضح من سياق الكلام . وأهل -

منّ عليه أن هداه للإسلام وأنقذه من الضلالة ، وعرفه الأسباب التي توخيه إلى النجاة من عذاب الأبد والخلود في جهنم ، وغير ذلك من النعم التي وصلت إليه به ، مما لا كفاء لها ولا استحقاقها من الله لسابقة تقدمت منه إلاّ بفضلته تعالى ؛ وجب أن يخلص المحبة لله ولرسوله فوق كل شيء من جميع المحابّ»^(١) .

٤— وجعل ابن رشد المحبة ثمرة من ثمار العلم بالله وصفاته ، فقال :

« ... ومن عرف أن جميع النعمة منه أحبه ، وأثمرت المحبة آثارها المعروفة »^(٢) .

٥— وبين ابن عطية وجوب محبة الله ﷻ ، حيث قال :

« ومحبة العبد لله تعالى يلزم عنها ولا بد أن يطيعه ، وتكون أعماله بحسب إقبال النفس »^(٣) .

٦— ثم وصف حال المؤمنين بأنهم أشدّ حباً لله لإخلاصهم وتيقنهم الحق^(٤) .

٧— وذكر القاضي عياض أن المحبة تترتب على العلم به سبحانه فيما أورده عند حديث : « ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان ... » :

« وحبّ العبد له على قدر معرفته لجلاله وكمال صفاته وتقديسه عن النقائص ، وفيض إحسانه ، وأنّ الكل منه ، وكل جمال وجلال فمضاف إليه ، وكل فضل وإجمال فمن بسط يديه ، لا إله غيره »^(٥) .

ومرادّه أنه كلما قوي العلم بالله ازدادت خشيته التي هي سبيل لتعظيمه ومحبته

= السنة والجماعة يثبتون اليدين لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته ، كما قال تعالى : ﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾ .

(١) شرح صحيح البخاري (٦٨/١) .

(٢) فتاوى ابن رشد (١٦٢٥/٣) . ط. دار الغرب .

(٣) المحرر الوجيز (٨٠/٣-٨١) .

(٤) المحرر الوجيز (٥٥/٢) .

(٥) إكمال المعلم (٢٧٨/١) .

تعالى في النفوس ، قال القرطبي : « فالحبة ثمرة المعرفة ؛ فتقوى وتضعف بحسبها »^(١).

٨ — ثم بين لازم تلك المحبة بقوله :

« ومن محبته ومحبة رسوله التزام شريعته ووقوفه عند حدوده ، ومحبة أهل ملته ، وهو تمام محبته »^(٢).

٩ — وأما أبو عبدالله القرطبي فقد نصّ على إجماع الأمة على وجوب محبة الله ﷻ ورسوله ﷺ ، فقال - عند قول الله تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾^(٣) - :

« في الآية دليل على وجوب حبّ الله ورسوله ، ولا خلاف في ذلك بين الأمة ، وأنّ ذلك مقدم على كلّ محبوب »^(٤).

ثم بين أنّ محبة العبد لله تعالى مترتبة على محبة الله ﷻ للعبد ، فقال - عند قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله ﴾^(٥) - :

١٠ — « لأنّ الله تعالى أحبهم أولاً ، ثم أحبوه ، ومن شهد له محبوبه بالمحبة كانت محبته أتم ، قال الله تعالى : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾^(٦) »^(٧).

(١) انظر المفهم (٢٢٧/١) .

(٢) إكمال المعلم (٢٧٩/١) .

(٣) سورة التوبة ٢٤ .

(٤) تفسير القرطبي (٩٥/٨) .

(٥) سورة البقرة ١٦٥ .

(٦) سورة المائدة ٥٤ .

(٧) تفسير القرطبي (٢٠٤/٢) .

وعلى هذا فلا يمكن أن يكون العبد المؤمن محباً لله والله تعالى غير محبٍّ له^(١) ، بل بقدر محبة العبد لربه ﷻ يكون حبُّ الله له ، وإن كان جزاء الله لعبده أعظم ، كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي : « إن الله تعالى يقول : من تقرب إليَّ شبراً تقربتُ إليه ذراعاً ، ومن تقرب إليَّ ذراعاً تقربتُ إليه باعاً ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولةً »^(٢) .

١١ — وأثبت أبو العباس القرطبي جواز إضافة المحبة لله تعالى ، وإطلاقها عليه محباً ومحبوباً^(٣) ، كما قال تعالى : ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾^(٤) ، ثم بين أن بعض المتكلمين قد تأوّل محبة العبد لله تعالى بالإرادة ، والإرادة إنما تتعلق بالحادث لا بالقديم^(٥) ، ومنهم من قال : لأن محبتنا إنما تتعلق بمستلذّ محسوس ، والله منزّه عن ذلك ، وهؤلاء تأوّلوا محبة العبد لله بطاعته له وتعظيمه إياه وموافقته له على ما يريد منه ، ثم قال :

« وأما أرباب القلوب ؛ فمنهم من لم يتأوّل محبة العبد لله تعالى حتى قال : المحبة لله تعالى هي الميل الدائم بالقلب الهائم^(٦) . وقال أبو القاسم القشيري^(٧) : أما محبة

(١) أي المحبة الصادقة الخالصة من أهل الإيمان ، لا من الأحرار والرهبان ، كما قال تعالى : ﴿ وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة * تصلى ناراً حامية ﴾ .

(٢) خرجه البخاري في كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ ويحذرکم الله نفسه ﴾ (٣٨٤/١٣) برقم (٧٤٠٥) .

(٣) فهو وإن أثبت إضافة المحبة لله تعالى إلا أنه قال بالتأويل كغيره من المتكلمين حيث يقول : « ولا يختلف النظار من أهل السنة وغيرهم أنها مؤولة في حق الله تعالى » . انظر المفهم (٢١٢/١) .

(٤) سورة المائدة : ٥٤ .

(٥) ويقولهم هذا أنكروا خاصية الإلهية وخاصية العبودية ، والأدلة تثبت محبة العبد لربه والرب لعبده ، فهم في الحقيقة أنكروا خاصة الخلق والأمر ، والغاية التي وجدوا لأجلها ؛ فإن الخلق والأمر والثواب والعقاب إنما تنشأ عن المحبة ولأجلها ، وهي الحق الذي به خلقت السموات والأرض ، وهي الحق الذي تضمنه الأمر والنهي ، وهي سر التأليه وتوحيدها هو شهادة أن لا إله إلا الله .

(٦) هذا الحدّ للمحبة لا تمييز فيه بين المحبة الخاصة والمشاركة ، والصحيحة والمعلولة .

(٧) هو أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك القشيري ، أشعري صوفي صنف كتباً ، منها : نحو القلوب ، ولطائف الإشارات ، والجواهر ، والمناجاة . مات سنة ٤٦٥ هـ .

انظر : تاريخ بغداد (٨٣/١١) ، والسير (٢٢٧/١٨) ، ووفيات الأعيان (٢٠٥/٣) .

العبد لله تعالى فحالة يجدها العبد من قلبه ، تلطف عن العبارة ، وقد تحمله تلك الحالة على التعظيم لله تعالى وإيثار رضاه وقلة الصبر عنه والاحتياج إليه وعدم الفرار عنه ، ووجود الاستئناس بدوام ذكره » .

١٢ — ثم أفصح عن حقيقة محبة العبد لله تعالى فقال :

« فهؤلاء قد صرّحوا بأن محبة العبد لله تعالى هي ميل من العبد وتوقان ، وحال يجدها المحب من نفسه من نوع ما يجده في محبوباته المعتادة له^(١) ، وهو صحيح . والذي يوضحه : أن الله تعالى قد جبلنا إلى الميل إلى الحسن والجمال والكمال ، فبقدر ما ينكشف للعاقل من حسن الشيء وجماله مال إليه ، وتعلق قلبه به ، حتى يفضي الأمر إلى أن يستولي ذلك المعنى عليه ، فلا يقدر على الصبر عنه ، وربما لا يشتغل بشيء دونه . ثم الحسن والكمال نوعان : محسوس ، ومعنوي . فالمحسوس كالصور الجميلة المشتهاة لنيل اللذة الجسمانية ، وهذا في حق الله تعالى محال قطعاً^(٢) .

أما المعنوي فكمن اتّصف بالعلوم الشريفة ، والأفعال الكريمة ، والأخلاق الحميدة ؛ فهذا النوع تميل إليه النفوس الفاضلة والقلوب الكاملة ميلاً عظيماً ، فترتاح لذكره ، وتنعم بجُبره^(٣) وخبره ، وتهتز لسماع أقواله ، وتتشوف لمشاهدة أحواله ، وتلتذّ بذلك لذة روحانية لا جسمانية ، كما تجده عند ذكر الأنبياء والعلماء

(١) يريد أنها محبة حقيقية وإن لم تكن مثل محبة المخلوق للمخلوق ، فإن محبة المؤمن لربه فوق محبته لجميع المحبوبات ، كما قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حُباً لله ﴾ .

(٢) إن أراد في الدنيا فنعم ؛ لأنّ العباد لن يروا ربه في الدنيا ، وأما في الآخرة فإن المؤمنين يرون ربه ، ولذة نظرهم إلى وجهه الكريم فوق كلّ لذة يجدها في الجنة ، وفي الدعاء المأثور : « وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم » . ولذة نظرهم ناشئة عن كمال محبتهم ، وكمال جلاله وجماله .

وحديث « النظر إلى وجهك » أخرجه النسائي (٣/٥٤-٥٥) في السهو ، باب نوع آخر (يعني من الدعاء بعد الذكر) ، واللالكائي رقم (٨٤٥) ، وصححه الحاكم (١/٧٠٥) ، وقال الأرئوط : إسناده قوي . انظر : صحيح ابن حبان (٥/٣٠٥) في الحاشية .

(٣) قوله (بجُبره) أي : بمعرفتها له .

والفضلاء والكرماء من الميل واللذة والركة والأنس ، وإن كنا لا نعرف صورهم المحسوسة ، وربما قد نسمع أن بعضهم من غير الأنبياء قبيح الصورة الظاهرة أو أعمى أو أجذم ، ومع ذلك فذلك الميل والأنس والتشوق موجود لنا .

ومن شكّ في وجدان ذلك أو أنكره كان عن جبلة الإنسانية خارجاً ، وفي غمار المعتهين والجاهل .

وإذا تقرر ذلك ؛ فإذا كان هذا الموصوف بذلك الكمال قد أحسن إلينا ، وفاضت نعمه علينا ، ووصلنا ببره وعطفه ولطفه ؛ تضاعف ذلك الميل ، وتجدد ذلك الأنس حتى لا نصبر عنه ، بل يستغرقنا ذلك الحال إلى أن نذهل عن جميع الأشغال ، بل ويطرأ على المشتهر بذلك نوع اختلال^(١) ، وإذا كان ذلك في حق من كماله وجماله مقيداً مشوباً بالنقص ، معرضاً للزوال كان من كماله وجماله واجباً مطلقاً لا يشوبه نقص ، ولا يعتريه زوال ، وكان إنعامه وإحسانه أكثر ، بحيث لا ينحصر ولا يعد أولى بذلك الميل ، وأحق بذلك الحب . وليس ذلك إلاّ لله وحده ، ثم لمن خصه الله بما شاء من ذلك الكمال ، وأكمل نوع الإنسان محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فمن تحقق ما ذكرناه واتصف بما وصفناه كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . ومن كان كذلك تأهل للقائهما بالاتصاف بما يرضيهما واجتناب ما يسيئهما ، ويستلزم ذلك كله الإقبال بالكلية عليهما والإعراض عما سواهما إلاّ بإذنهما وأمرهما^(٢) .

فما قرره أبو العباس من إثبات محبة العبد لله تعالى وتركه التأويل الذي يقول به المتكلمون هو الصواب ، وقد سبق أن خالف المتكلمين أيضاً في مسألة أول واجب

(١) كأنه يشير إلى ما يحدث لبعض الصوفية من الصعق والغشي من شدة المحبة ، وهو مذموم شرعاً ، وذكره لهذه الحال ليبين أن المحبة على حقيقتها ، وأن لها أثراً في نفس من عقل حتى ربما أصاب المبالغ في هذا اختلال وهو يريد بذلك الردّ على من أنكرها ، ومما يدل على هذا أنه أجهز على المانعين منها وذمهم ، والله أعلم .

(٢) المفهم (١/٢١٢-٢١٤) .

على المكلف ، واتبع طريقة سلف الأمة في ذلك .

١٣ — وبنحو ما قال القرطبي تكلم ابن جزى عن المحبة ، وقسمها إلى درجتين ، وبين ما يجب من ذلك ، فقال :

« اعلم أن محبة العبد لربه على درجتين :

إحداهما : المحبة العامة التي لا يخلو منها كل مؤمن ؛ وهي واجبة .

والأخرى : المحبة الخاصة التي ينفرد بها العلماء الربانيون ، والأولياء والأصفياء ، وهي أعلى المقامات ، وغاية المطلوبات ؛ فإن سائر مقامات الصالحين - كالخوف والرجاء والتوكل وغير ذلك - مبنية على حظوظ النفس^(١) ، ألا ترى أن الخائف إنما يخاف على نفسه ، بخلاف المحبة ، وأن الراجي إنما يرجو منفعة نفسه ، بخلاف المحبة ؛ فإنها من أجل المحبوب ، فليست من المعاوضة » .

١٤ — وفي موضع آخر قال :

« فالتامة لجميع المسلمين ، ولا يصح الإيمان إلا بها »^(٢) .

فجعل المحبة شرطاً لصحة الإيمان .

١٥ — ثم بين أن معرفة الله ﷻ هي السبيل الموصل إلى محبته سبحانه ، فقال :

« واعلم أن سبب محبة الله معرفته ، فتقوى المحبة على قدر المعرفة ، وتضعف على قدر ضعف المعرفة ؛ فإن الموجب للمحبة أحد أمرين ، وكلاهما إذا اجتمع في شخص من خلق الله تعالى كان في غاية الكمال :

(١) وهذا الكلام فيه نظر ؛ إذ إن الخوف والرجاء والتوكل والمحبة كلها من العبادات القلبية ، لا كما قال : « مبنية على حظوظ النفس » ! وكلامه هذا خطأ ظاهر ، قال تعالى : ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ ، وبهذا يعلم بطلان مقولة الصوفية : « ما عبدنا الله طمعاً في جنته ، ولا خوفاً من ناره ، بل محبة له » ! لو لم يكن في الرد عليهم إلا قول الله ﷻ : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ لكان كافياً .

(٢) القوانين الفقهية (١/٤٦٨) .

الموجب الأول : الحسن والجمال . والآخر : الإحسان والإجمال .

فأما الجمال فهو محبوب بالطبع ؛ فإن الإنسان بالضرورة يحب كل ما يستحسن .

والإجمال : مثل جمال الله في حكمته البالغة ، وصناعته البديعة ، وصفاته الجميلة الساطعة الأنوار ، التي تروق العقول وتهيج القلوب ، وإنما يدرك جمال الله تعالى بالبصائر لا بالأبصار^(١) .

وأما الإحسان : فقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، وإحسان الله إلى عباده متواتر ، وإنعامه عليهم باطن وظاهر ، ﴿ وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها ﴾^(٢) ، وكيفيك أنه يحسن إلى المطيع والعاصي ، والمؤمن والكافر ، وكل إحسان ينسب إلى غيره فهو في الحقيقة منه ، وهو المستحق للمحبة وحده^(٣) .

١٦ — ثم أفصح عن أثر تلك المحبة بقوله :

« واعلم أنّ محبة الله إذا تمكنت من القلب ظهرت آثارها على الجوارح ؛ من الجدّ في طاعة الله والنشاط لخدمته ، والحرص على مرضاته ، والتلذذ بمناجاته ، والرضا بقضائه ، والشوق إلى لقائه ، والأنس بذكره ، والاستيحاش من غيره ، والفرار من الناس ، والانفراد في الخلوات^(٤) ، وخروج الدنيا من القلب ، ومحبة كل من يحبه الله ، وإيثاره على كل ما سواه^(٥) .

(١) وهذا في الدنيا ؛ أما في الآخرة فإن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم من غير إحاطة به ﷻ .

(٢) سورة إبراهيم : ٣٤ .

(٣) أشار الآبي إلى هذا المعنى بعد إيراد الأقوال في محبة العبد لله تعالى . انظر : إكمال إكمال المعلم (٢٣٧/١) .

(٤) وقوله : إن من آثار المحبة « الاستيحاش من غيره ، والفرار من الناس ، والانفراد في الخلوات » فيه نظر ؛ إذ إنّ النبي ﷺ - وهو أشدّ الناس خشية وتعظيماً وحباً لله ﷻ - لم ينفرد من الناس ويستوحش منهم ، ويذهب إلى الخلوات ! والخير كل الخير في اتباعه عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ .

(٥) التسهيل (١١٨/١) .

١٧- وأثبت ابن عاشور محبة العبد لله على حقيقتها دون تأويل ، فقال :

« والمحبة : انفعال نفساني ينشأ عند الشعور بحسن شيء من صفات ذاتية أو إحسان ، أو اعتقاد أنه يجب المستحسن ويجر إليه الخير ؛ فإذا حصل ذلك الانفعال عقبه ميل وانجذاب إلى الشيء المشعور بمحاسنه ، فيكون المنفعل محباً ، ويكون المشعور بمحاسنه محبوباً ، وتعد الصفات التي أوجبت هذا الانفعال جمالاً عند المحب »^(١).

وبين أن هذا الحسن الموجب للمحبة يستمد من الحواس في إدراك المحاسن الذاتية المعروفة بالجمال ، ويستمد أيضاً من التفكير في الكمالات المستدل عليها بالعقل ، وهي المدعوة بالفضيلة ، وكذلك يحب المؤمنون الله تعالى ، ويحبون النبي ﷺ تعظيماً للكمالات ، واعتقاداً بأنهما يدعوانهم إلى الخير ، ويحب الناس أهل الفضل الأولين كالأنبياء والحكماء والفاضلين ، ويحبون سعة الخير من الحاضرين ، وهم لم يلقوهم ولا رأوهم^(٢).

١٨- ورد قول المتكلمين : (إن المحبة والجمال مقصورة على المحسوسات)
قائلاً :

« فالذين قصروها على المحسوسات لم يثبتوا غير المحبة المادية ، والذين لم يقصروها عليها أثبتوا المحبة الرمزية ؛ أعني المتعلقة بالأكوان غير المحسوسة ، كمحبة العبد لله تعالى ؛ وهذا هو الحق » .

١٩- وأكد قوله السابق بقوله :

« فإننا نسمع بصفات مشاهير الرجال ، مثل الرسل وأهل الخير والذين نفَعوا

(١) التحرير والتنوير (٢٢٥/٣) .

(٢) انظر المرجع نفسه (٢٢٥/٣) .

الناس ، والذين اتصفوا بمحامد الصفات ، كالعلم والكرم والعدل ، فنجد من أنفسنا ميلاً إلى ذكرهم ثم يقوى ذلك الميل حتى يصير محبة منا إياهم ، مع أننا ما عرفناهم ، ألا ترى أن مزاوله كتب الحديث والسيرة مما يقوي محبة المزاوِل في الرسول ﷺ ، وكذلك صفات الخالق تعالى لما كانت كلها كمالات وإحساناً إلينا وإصلاحاً لفاسدنا ، أكسبنا اعتقادها إجلالاً لموصوفها ، ثم يذهب ذلك الإجلال يقوى إلى أن يصير محبة . وفي الحديث : « ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار »^(١) ، فكانت هذه الثلاثة من قبيل المحبة ، ولذلك جعل عندها وجدان حلاوة الإيمان ، أي وجدانه جميلاً عند معتقده »^(٢) .

٢٠ — وأثبت الملي محبة العبد لله تعالى مستدلاً على ذلك بآية التوبة وحديث : « ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان ... » . ثم بيّن أن « محبة غير الله إما أن تكون في الله أو مع الله ؛ فالمحبة في الله أن يحب من يحبه الله ، والله يحب المحسنين ، والمتقين ، والتوايين ، والمتطهرين ، وإذن تكون محبة غير الله من معنى محبة الله مقوية لها ، غير متنافية معها . والمحبة مع الله أن يتعلق قلبك بسواه ، فتغفل عن الله ، وتتوجه إلى غيره بالرغبة والرغبة ، فستكون محبتك هذه مغنية عن محبة الله منافية لها .

فالمحبة في الله محمودة متعديّة إلى كل داع إلى الله ؛ من الأنبياء والمرسلين ، والأولياء والصالحين ، والعلماء العاملين ... والمحبة مع الله ذميمة حاملة لكل ما في الشرك من مساوئ وأضرار »^(٣) .

وذكر أن المؤمن يحب الله لما يعلم له من الحق المقدم على سائر الحقوق ، فقال : « من استكمل الإيمان علم أن حق الله ورسوله أكد عليه من حقّ أبيه وأمه ،

(١) سبق تخريجه ص ١٩٧ .

(٢) التحرير والتنوير (٢٢٧/٣) .

(٣) رسالة الشرك ومظاهره (١٨٠) .

وولده وزوجه ، وجميع الناس ؛ لأن الهدى من الضلال والخلاص من النار إنما كان بالله على لسان رسوله ، ومن علامات محبته نصر دينه ، والفعل والذب عن شريعته»^(١) .

٢١- وذكر محمد المكي الناصري أن محبة العباد وخضوعهم لله ﷻ هو حال المؤمنين الصادقين ، فعند قول الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ قال :

« تتناول الآيات الكريمة في هذا السياق بالوصف والتعقيب طائفة من الناس غلبت عليها روح الانتهازية ، فتجاهلت طاعة الله ومحبته ، ونسيت قضاءه وقدره ، والتزمت بدلاً من ذلك طاعة بعض المخلوقين ، إذ ملأت قلوبها بمحبتهم والخضوع لهم ، ومسايرتهم في أهوائهم ابتغاء مرضاتهم ، فجعلت من هواهم المدخول قانوناً متبعاً ، ومن كلمتهم السفلى كلمةً علياً ، وبذلك كله إقامتهم مقام الأضداد المنافسين ، أو الأشباه المماثلين للحق جل جلاله ، وذلك قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ ، ثم عقت الآية على ذلك بما يوضح البون الشاسع والفرق الكبير بين هذه الطائفة الخاسرة والمؤمنين الخالص ، فقالت : ﴿ والذين آمنوا أشدَّ حباً لله ﴾ ، وإذن فلن يستبدلوا بمحبة الله وطاعته طاعة ولا محبة أحد سواه»^(٢) .

ومرادُه أن محبة العباد لله تعالى وخضوعهم له الذي هو حقيقة العبادة هو المتعين على العباد ، وليس ذلك لأحد سواه من المخلوقين .

(١) المرجع نفسه (١٨٠) .

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (١٠٠/١) .

ثانيًا : البرهان على محبة العبد لله تعالى

ذكر الله تبارك وتعالى أن محبة العباد له ليست مجرد دعوى من غير دليل يثبت تلك المحبة . قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾^(١) .

وذكر أهل التفسير الخلاف^(٢) في سبب نزول هذه الآية : هل هي في وفد نجران أو في غيرهم ؟

وعلى كل حال ؛ فالآية سواء نزلت في وفد نجران أو في غيرهم ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وهي تدل على علامة محبة العبد لله ﷻ ، وهي اتباع النبي ﷺ ؛ فلا تنال محبة الله ﷻ إلا باتباع نبيه ظاهراً وباطناً ، وتصديقه خبراً ، وطاعته أمراً ، وإجابته دعوة ، وإيثاره طوعاً .

وقد ذكر أئمة المالكية هذه العلامة وغيرها من العلامات الدالة على صدق محبة العبد لله ﷻ ، ومن ذلك :

٢٢ — ما ذكره ابن بطال عند حديث أنس رضي الله عنه : قال عليه الصلاة والسلام : « آية الإيمان حبّ الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار »^(٣) وجوب محبة الأنصار ؛ لأنهم جاؤوا بشرط المحبة ، وهو اتباع الرسول ﷺ ، فقال :

(١) سورة آل عمران : ٣١ .

(٢) ذكر هذا الخلاف الطبري (٢٣١/٣) ، وابن عطية (٧٩/٢-٨٠) ، والقرطبي (٦٠/٤) .

قال ابن جرير : « قل - يا محمد ! - للوفد من نصارى نجران : إن كنتم ترعمون أنكم تحبون الله وأنكم تعظمون المسيح ، وتقولون منه ما تقولون ، حباً منكم ربكم ، فحققوا قولكم الذي تقولونه إن كنتم صادقين باتباعكم إياي ، فإنكم تعلمون أني رسول الله إليكم » اهـ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب علامة الإيمان حبّ الأنصار (٦٢/١) برقم (١٧) ، ومسلم باختلاف يسير في اللفظ في كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن حبّ الأنصار وعلي ﷺ من الإيمان وعلاماته وبغضهم من علامات النفاق (٨٥/١) برقم (٧٤) .

» ... فصَحَّ أنَّ الأنصار المبتدئون بالبيعة على إعلان توحيد الله وشريعته حتى يموتوا على ذلك ، فحبهم علامة الإيمان ، ومجازاة لهم على حبهم من هاجر إليهم ومواساتهم لهم في أحوالهم كما وصفهم الله تعالى ، واتباعاً بحب الله لهم بقوله : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ... ﴾ ، فكان الأنصار ممن اتبعه أولاً ، فوجبت لهم محبة الله ، ومن أحب الله وجب على العباد حبه))^(١) .

فبيّن أن الطريق لمحبة الله ﷻ هو اتباع النبي ﷺ .

٢٣— وعلى هذا نقل ابن عطية الخلاف الذي مؤداه واحد في سبب نزول الآية : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله ... ﴾^(٢) .

٢٤— وبنحو ذلك ذكر القرطبي أبو عبدالله عند تفسيره لهذه الآية^(٣) .

٢٥— وقال أيضاً عند قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشدَّ حُباً لله ﴾ :

» لأنَّ الله تعالى أحبهم أولاً ، ثم أحبوه ، ومن شهد له محبوبه بالمحبة كانت محبته أتمَّ))^(٤) .

٣٠— وأما ابن أبي جمرة ، فقد ذكر عند شرحه حديث أبي هريرة : » ... أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ... » الخ : أن محبة الله ورسوله هي أصل كل محبة ، وما جاء في بقية الحديث علامات لصدق دعوى تلك المحبة وبرهان عليها ، فقال :

» هذه الثلاثة الألفاظ ترجع إلى اللفظ منها ، وهو أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ؛ لأن من ضرورة المحبة لله ولرسوله أن يدخل من ذكر بعد في ضمنه ،

(١) شرح صحيح البخاري (٦٩/١) .

(٢) المحرر الوجيز (٧٩/٢-٨٠) .

(٣) تفسير القرطبي (٦٠/٤) .

(٤) تفسير القرطبي (١٣٧/٢) .

لكن فائدة إخباره ﷺ بتينك الحاليتين اللتين ذكرتا بعد ذلك اللفظ يريد به أن من ادعى حب الله ورسوله ﷺ فليختبر نفسه في حب المرء لماذا يحبّه ؟ وفي الإكراه على الكفر كيف يجد نفسه إن ابتلي بذلك ؟ لأنه قد يسبق للنفوس دعاء^(١) بحب الله وحبّ رسوله ﷺ ، فجعل ﷺ هاتين العلامتين تفرق بين الدعوى والحقيقة ، ومثل هذا قوله ﷺ : ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾^(٢) ؛ لأن حقيقة الإيمان أن يتوكل صاحبه في كلّ أموره على ربّه ، ويعتمد عليه وإن كان بغير ذلك فإنما هو دعوى ، وكذلك من ادعى حبّ الله وحبّ رسوله ﷺ ، ثم لم يصدق في تينك العلامتين المذكورتين ، فحبّه دعوى لا حقيقة^(٣) .

ولا ريب أن من أحبّ الله ورسوله وجب أن تكون سائر أحواله القلبية والقولية والفعلية تابعة لمراد الله ورسوله ؛ فيحب ما أحب الله ، ويكره ما يكره سبحانه ، ويؤثر مرضاته على ما سواه ، فهذه من علامات المحبة الصادقة ولوازمها كما قال ابن عباس : « من أحبّ في الله وأبغض في الله ، ووالى في الله ، وعادى في الله ، فإنما تُنال ولاية الله بذلك ، ولن يجد عبد طعم الإيمان - وإن كثرت صلاته وصومه - حتى يكون كذلك ، وقد صارت عامّة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً^(٤) » .

٣١- وأوضح ابن جزى معنى قول الله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله ﴾

(١) كذا في النص ، ولعل الصواب : « ادعاء » .

(٢) سورة المائدة : ٢٣ .

(٣) هجة النفوس (٢٦/١) .

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد (٣٥٣) عن ابن عباس موقوفاً ، وفيه ليث بن أبي سليم ضعيف مختلط .
ورواه أبو نعيم في الحلية (٣١٢/١) عن ابن عمر مرفوعاً ، وفيه أيضاً ليث ، ورواه الطبراني (١٣٥٣٧) وفيه اضطراب .

ويشهد لأوله حديث أبي أمامة عند أبي داود (٤٦٨١) ، وحديث معاذ بن أنس عند أحمد (٤٤٠/٣) والترمذي (٢٥٢١) .

فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴿ بقوله :

« جعل اتباع النبي ﷺ علامة على محبة العبد لله تعالى ، وشرطاً في محبة الله للعبد ومغفرته له »^(١) .

٣٢— وبنحو ذلك ما ذكره الشنقيطي في الجمع بين حديث أبي هريرة في قوله : « ما سواهما » ، وقصة الخطيب^(٢) وقوله : « ومن يعصهما فقد غوى » بقوله :

« ومن محاسن الأجوبة في الجمع بين حديث الباب وقصة الخطيب أن تشية الضمير هنا للإيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين ، لا كل واحدة منهما ، فإنها وحدها لاغية إذا لم ترتبط بالأخرى ؛ فمن يدعي حب الله مثلاً ولا يحب رسوله لا ينفعه ذلك ، ويشير إليه قوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ ، فأوقع متابعة مكتنفة بين قطري محبة العباد ومحبة الله تعالى للعباد »^(٣) .

ومراده أن محبة العبد لله تعالى ورسوله متلازمان ، وأن البرهان عليها اتباع النبي ﷺ ، وبين ذلك استشهاده بهذه الآية : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني ﴾ .

٣٣— وذكر هذا المعنى ابن عاشور عند قوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله ... ﴾ فقال :

« وتعليق محبة الله إياهم على ﴿ فاتبعوني ﴾ المعلق على قوله : ﴿ إن كنتم تحبون الله ﴾ ينتظم من قياس شرطي اقتراي ، ويدل على الحب المزعوم إذا لم يكن معه اتباع الرسول فهو حب كاذب ؛ لأن الحب لمن يحب مطيع ، ولأن ارتكاب ما يكرهه

(١) التسهيل (١/١٨٦) .

(٢) حديث الخطيب هذا أخرجه مسلم عن عدي بن حاتم ؓ أن رجلاً خطب عند النبي ﷺ فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى . فقال رسول الله ﷺ : « بشس خطيب أنت ! قل : ومن يعص الله ورسوله » . صحيح مسلم (٢/٥٩٤) برقم (٨٧٠) .

(٣) كوثر المعاني (١/٥٢٠) .

المحجوب إغاظه له وتلبس بعدوه .

وأكد هذا المعنى بقوله :

« فتعليق لزوم اتباع الرسول على محبة الله تعالى ؛ لأنّ الرسول دعا إلى ما يأمر الله به وإلى إفراد الوجهة إليه ، وذلك كمال المحبة »^(١) .

٣٤— وبين الميلي أنّ آيتي المائدة وآل عمران ، وهما : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ... ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ أفادت « خمس صفات هي الدلائل على صدق المحبة لله ، وهي : اتباع الرسول ﷺ ، والتراحم مع الإخوان في الدين والشدة على الأعداء فيه ، والقيام بكل ما يؤيد الدين وعدم التقصير في الصدع بالحق مراعاةً للناس »^(٢) .

ومما سبق يتلخّص من كلام المالكية ما يلي :

أولاً : أنهم يثبتون محبة العبد لله ﷻ ، وبيّانهم عظيم منزلتها ووجوبها ، وأنها أصل كلّ محبة ، فكل محبة محمودة كمحبة الأنبياء والملائكة والمؤمنين ، فهي داخلة ضمن محبة الله ﷻ .

ثانياً : أن من البراهين الدالة على محبة العبد لربه اتباع النبي ﷺ ، وأن تكون سائر أحوال العبد منقاداً لله ورسوله ، وبهذا تحصل المحبة لله تعالى التي هي من العبادات الباطنة .

(١) التحرير والتنوير (٢٢٨/٣) .

(٢) رسالة الشرك (١٨٢) .

المسألة الثانية : الخوف والرجاء

إنَّ من أجلّ العبادات القلبية الخوف والرجاء ، إذ بهما يسير المرء إلى الله ﷻ سيراً سوياً ، فخوفه ووجهه من الله يمنعه من معصيته ومخالفة أمره ، ورجاؤه ورغبته تمنعه من القنوط واليأس من رحمة الله ، على أن يكون كما قال مطرف بن عبدالله^(١) رحمه الله : « لو وزن رجاء المؤمن وخوفه ما رجح أحدهما صاحبه »^(٢) ، أي : يجعلهما كجناحي الطائر والجناحان للطائر إذا لم يكونا متساويين سقط .

وقال سهل بن عبدالله^(٣) : « الرجاء والخوف زمانان على الإنسان ؛ فإذا استويا استقامت أحواله ، وإن رجح أحدهما بطل الآخر »^(٤) ، فمن غلب خوفه وقع في نوع من اليأس ، ومن غلب رجاءه وقع في نوع من الأمن من مكر الله .
وقد جاءت النصوص الشرعية مبينة أهمية تلك المنزلة القلبية الإيمانية .

قال تعالى - في آل زكريا عليهم السلام - : ﴿ إِنْهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾^(٥) .

وقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو

(١) هو مطرف بن عبدالله بن الشخير الحرشي البصري ، كان رأساً في العلم والعمل ، ومن كبار التابعين ، ثقة له فضل وورع وعقل وأدب ، ولد في حياة النبي ﷺ ، ومات سنة ٩٥ هـ .
انظر : تذكرة الحفاظ (١/٦٤) ، والحلية (٢/١٩٨) .

(٢) خرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/١٢) برقم (١٠٢٤) ، وأبو نعيم في الحلية (٢/٢٠٨) .

(٣) هو سهل بن عبدالله بن يونس التستري ، أبو محمد ، أحد الصوفية وعلمائهم ، والمتكلمين في علوم الرياضات والإخلاص ، وغيوب الأفعال . له كتاب في تفسير القرآن مختصر ، وكتاب رقائق المحبين ، وغير ذلك . مات سنة ٢٨٣ هـ .

انظر : الحلية (١٠/١٨٩) ، وطبقات الصوفية (٢٠٦) .

(٤) تفسير القرطبي (١٠/٢٨٠) .

(٥) سورة الأنبياء : ٩٠ .

رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو
الالباب ﴿١﴾ .

وقال تعالى - في وصف بعض عباده الصالحين - ﴿ ويرجون رحمته ويخافون
عذابه ﴾ ﴿٢﴾ .

ففي هذه الآية الكريمة يقرن الله ﷻ بين الرجاء والخوف .

ودخل النبي ﷺ على رجل وهو في الموت فقال له : « كيف تجدك ؟ » . قال :
أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبي . فقال رسول الله ﷺ : « لا يجتمعان في قلب
عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف » ﴿٣﴾ .

ومن دعائه عليه الصلاة والسلام : « اللهم إني أسلمت نفسي إليك ، ووجهت
وجهي إليك ، وألجأت ظهري إليك ، وفوضت أمري إليك ، رغبة ورهبة٤﴾
إليك » ﴿٥﴾ .

وروى ابن جرير من طرق عدة عن ابن مسعود ؓ أنه قال : « أكبر الكبائر
الإشراك بالله ، واليأس من رَوْح الله ، والقنوط من رحمة الله ، والأمن من

(١) سورة الزمر : ٩ .

(٢) سورة الإسراء : ٥٧ .

(٣) أخرجه الترمذي (٩٨٨) ، وابن ماجه في كتاب الزهد ، باب ذكر الموت والاستعداد له (١٤٢٣/٢)
برقم (٤٢٦١) ، والبيهقي في شعب الإيمان ، باب الرجاء من الله تعالى (٤/٢) برقم (١٠٠١) ،
والمقدسي في المختارة (٤١٣/٤) برقم (١٥٨٧) .

ونقل صاحب تحفة الأحوذى (٥٠/٤) قول المنذري : إسناده حسن . وحسنه الألباني في صحيح سنن
الترمذي (٥٠٣/١) برقم (٩٨٣) .

(٤) الرغبة والرهبة ترجع إلى معنى الخوف والرجاء .

(٥) رواه البخاري في كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ﴾
(٤٦٢/١٣) برقم (٧٤٨٨) ، ومسلم في كتاب الذكر ، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع
(٢٠٨١/٤) برقم (٢٧١٠) .

مكر الله»^(١) . وقال الشاعر^(٢) :

ليس يرجو الله إلاّ خائفٌ من رجا خاف ومن خاف رجا

وقال أيضاً :

أيا عجباً للناس في طول ما سهواً ولو أنهم يرجون خافوا كما رجوا^(٣)

وقد تكلم أئمة المالكية عن هذا النوع من العبادة بإسهاب ، ويمكن حصر كلامهم في الفقرة التالية :

أهمية الخوف والرجاء وضرورة الجمع بينهما :

اعتنى أئمة المالكية بمقامي الخوف والرجاء ، وأهما يتصلان اتصالاً مباشراً بالإيمان واليقين ؛ فكلما قوي إيمان العبد و يقينه قوي خوفه ورجاؤه ، ومع ذلك فهذان المقامان العظيمان يجب أن يجمع بينهما كي تستقيم أحوال العبد ، فخوفه يردعه ، ورجاؤه يؤمّله ، فهو بينهما .

ومن ذلك :

١ — ما ذكره أصبغ فيما يرويه عن أشهب قال : « ما رأيت مالكا قطّ رافعاً بصره إلى امرأة ، وما هو إلاّ ناكس هكذا إذا أتته امرأة تسأله ، وما رأيت قطّ رافعاً بصره إلاّ مرتين في سوداوين : إحداهما امرأة خلف بن عمر ، وكانت سوداء وغدة^(٤)

(١) تفسير الطبري (٤٢/٤) ، وقال ابن كثير : وهو صحيح إليه بلا شك - يعني ابن مسعود - .

(٢) هو أبو العتاهية إسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان العنزي ، قال في المواعظ والزهد فأجاد . مات سنة ٢١١ هـ ، وقيل : ٢١٣ هـ .

انظر : السير (١٠/١٩٥) ، ووفيات الأعيان (١/٢١٩) .

(٣) ديوان أبي العتاهية (٢٩٦ و ١١٩-١٢٢) .

قال بعض السلف : « من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن » .
انظر فتاوى شيخ الإسلام (٨١/١٠) .

(٤) قال ابن فارس : « وغد : كلمة تدلّ على دناءة ، ورجل وغد : وهو الدنيء ، من قولك : وغدّهم أغدّهم : إذا خدمتهم » . معجم مقاييس اللغة (٦/١٢٨) .

أرسلتها مولاتها إليه في شيء - أو قال : تسأله عن شيء - ، وامرأة أخرى سوداء كبيرة أخته وهي ترعد فقالت : يا أبا عبدالله ! إن صاحبي - أو قالت : ابني - استرفعي دراهم فكانت إلى جني فتمت ، ثم قمت أكنس البيت فإذا بها ، فأخذتها فجعلتها تحت الحصير ، فأتاني بعد ذلك فطلبها مني ، فقلت : ما دفعت إليّ شيئاً ، فقال : بلى والله ! فقلت : لا والله ما أخذتها منك ، فقال : بلى . فقلت : عليّ المشي إلى بيت الله ... ثم ذكرت ما كان .

فقال لها مالك : عليك المشي فامشي . فقالت : يا أبا عبدالله ما أقدر ! قال : تركبين وتهدين . قالت : يا أبا عبدالله ! ما أقدر على شيء . قال : وهي في ذلك ترعد فرعة ، فرأيت مالكاً صعد منها البصر وردده ، فقال : اذهبي فليس عليك شيء . فلما أدبرت قال مالك : لئن دخلت هذه الجنة ما ضرّها سوادها شيئاً ؛ هذه في سوادها وحالها خائفة وجلة مما وقعت فيه ، وأخرى أهيأ منها وأقبل وأنطق وأعقل وأعرف منها لعلّها لا تخاف ما خافت هذه ! لئن دخلت هذه الجنة ما ضرّها سوادها ^(١) .

٢- « وقال أشهب إثر ذلك : ما الدين وما الأمر إلاّ الخوف .

٣- وقال أصبغ : وهو الخشية ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾ ^(٢) . وقال أيضاً : وبلغني عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقول : كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار به جهلاً ^(٣) . ^(٤) .

٤- قال مالك : « صلى بالناس عمر بن عبدالعزيز المكتوبة ، فقرأ بهم :

(١) البيان والتحصيل (١٨/٥٥٧-٥٥٨) .

(٢) سورة الرعد : ٢١ .

(٣) خروجه البيهقي في شعب الإيمان ، باب في الخوف من الله تعالى (١/٤٧١) برقم (٧٤٦) ، والإمام أحمد

في الزهد (٢٣١) برقم (٨٦٢) .

(٤) البيان والتحصيل (١٨/٥٥٧-٥٥٨) .

﴿ والليل إذا يغشى ﴾ ، فلما بلغ : ﴿ فأندرتكم ناراً تُلْظِي ﴾ خنقته العبرة فلم يستطع أن يجاوز ذلك ، ثم أعادها فلما بلغ ذلك الموضع أيضاً خنقته العبرة ، فتركها ، ثم قرأ : ﴿ والسماء والطارق ﴾ .

قال ابن رشد : ((هذا من فعل عمر بن عبدالعزيز نهاية في الخوف لله ، ومن بلغ هذا الحد فهو من أهل الجنة^(١) بفضل الله ، قال تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾^(٢) .

٥— وقد نظم ابن الفرضي^(٣) في بيان مقامي الخوف والرجاء ، واجتماعهما في قلب المؤمن بقوله :

« أسير الخطايا عند بابك واقف	على وجل مما به أنت عارف
يخاف ذنباً لم يغب عنك غيبها	ويرجوك فيها فهو راج وخائف
ومن ذا الذي يرجو سواك ويتقي	ومالك في فصل القضاء مخالف
فيا سيدي لا تخزني في صحيفتي	إذا نُشرت يوم الحساب الصخائف
وكن مؤنسي في ظلمة القبر عندما	يصد ذوو القربى ويجفو المؤلف
لئن ضاق عني عفوك الواسع الذي	أرجي لإسرافي فإنني لتالف ^(٤) .

فجمع بين الخوف والرجاء في أعظم مقام يقومه العبد .

٦— وبين ابن بطل أن حال العباد بين الخوف والرجاء هو المطلوب ؛ لأنهم لا

(١) الجنة ترجى ، ولا يقطع لمعين بجنة أو نار إلا من شهد له النص من الكتاب والسنة .

(٢) البيان والتجصيل (٧/٢٨٠-٢٨١) .

(٣) هو أبو الوليد وأبو محمد عبدالله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي القرطبي المعروف بابن الفرضي ، الحافظ المشهور ، كان فقيهاً عالماً بعلم الحديث ورجاله ، بارعاً في الأدب وغيره ، وله من التصانيف : تاريخ علماء الأندلس ، قتله البربر يوم فتح قرطبة سنة ٤٠٣ هـ .

انظر نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٢/١٢٩) .

(٤) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لابن المقرئ (٢/١٢٩) . ط. دار صادر الثانية ١٩٩٧ م .

يعلمون ما يختم لهم به ، فقال :

« في تغييب الله عن عباده خواتيم أعمالهم حكمة بالغة وتدبير لطيف ، وذلك أنه لو علم أحد خاتمة عمله لدخل الإعجاب والكسل من علم أنه يختم له بالإيمان ، ومن علم أنه يختم له بالكفر يزداد غيًّا وطغياناً وكفراً ، فاستأثر الله تعالى بعلم ذلك ليكون العباد بين خوف ورجاء ، فلا يعجب المطيع لله بعمله ، ولا ييأس العاصي من رحمته ، ليقع الكلّ تحت الذلّ والخضوع لله والافتقار إليه »^(١) .

٧— وذكر ما يثمره الخوف عند شرحه حديث حذيفة وأبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « كان رجل ممن كان قبلكم يسيء الظنّ بعمله ، فقال لأهله : إذا أنا متّ فخذوني فذروني في البحر في يوم صائف . ففعلوا به ، فجمعه الله ثم قال : ما حملك على الذي صنعت ؟ قال : مخافتك . فغفر له »^(٢) ذكره بقوله :

« فغفر الله له بشدة مخافته ، وأقرب الوسائل إلى الله خوفه ، وألا يأمن المؤمن مكره »^(٣) .

٨— ويبيّن أيضاً - عند شرحه حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان ﷺ إذا أمرهم من الأعمال بما يطيقون قالوا : لسنا كهيتك يا رسول الله ! إنّ الله قد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول : « إنّ أتقاكم وأعلمكم بالله أنا »^(٤) - بقوله :

« فإنما قالوا ذلك رغبة في التزيّد من الأعمال ، لما كانوا يعلمونه من اجتهاده في العبادة ، وهو قد غفر له ما تقدّم من ذنبه ، فعند ذلك غضب إذ كان أولى منهم

(١) شرح صحيح البخاري (٢٠٤/١٠) .

(٢) خروجه مسلم في كتاب التوبة ، باب سعة رحمة الله (٢١٠٩/٤) برقم (٢٨٥٦) .

(٣) شرح البخاري (١٩٠/١٠) .

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان - باب قول الرسول ﷺ : « أنا أعلمكم بالله » (٧٠/١) برقم

بالعمل ، لعلمه بما عند الله تعالى . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾^(١) ، وقد قال ﷺ : « أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا »^(٢) ، وفي اجتهاده في عمله وغضبه من قولهم دليل أنه لا يجب أن يتكل العامل على عمله ، وأن يكون بين الرجاء والخوف^(٣) .

٩— وأكد هذا المعنى فيما نقله عن المهلب قال :

« وفيه من الفقه : أن الرجل الصالح يلزمه من التقوى والخشية ما يلزم المذنب التائب ، لا يؤمن الصالح صلاحه ، ولا يؤيس المذنب ذنبه ويقنطه ، بل الكل خائف راج ، وكذلك أراد تعالى أن يكون عباده واقفين تحت الخوف والرجاء اللذين ساس بهما خلقه سياسة حكمة لا انفكاك منها »^(٤) .

فبين تلازم الخوف والرجاء في قلب المؤمن ، وهو مراد الله ﷻ .

١٠— وذكر ابن عبد البرّ حديث عبادة بن الصامت ﷺ قال : كنّا عند النبي ﷺ في مجلس فقال : « تباعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ولا تزنوا - وقرأ عليهم الآية - فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله ﷻ عليه فهو إلى الله ؛ إن شاء عذبه وإن شاء غفر له »^(٥) ، ثم قال :

« هذا من أصحّ حديث يروى عن النبي ﷺ ، وعليه أهل السنة والجماعة ، وهو يضاهي قول الله ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾^(٦) ، والآثار في هذا الباب كثيرة جداً لا يمكن أن يحيط بها كتاب ،

(١) سورة فاطر : ٢٨ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢١٧١/٤) برقم (٢٨١٩) .

(٣) شرح صحيح البخاري (٧٢/١-٧٣) .

(٤) شرح صحيح البخاري (٧٣/١) .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الحدود ، باب توبة السارق (١٠٨/١٢) برقم (٦٨٠١) ، ومسلم في كتاب الحدود ، باب الحدود كفارات لأهلها (١٣٣٣/٣) برقم (١٧٠٩) .

(٦) سورة النساء : ١١٦ .

فالأحاديث اللينة ترجى ، والشديدة تخشى ، والمؤمن موقوف بين الخوف والرجاء ،
والمذنب إن لم يتب في مشيئة الله ... »^(١) .

فجمع بين الخوف والرجاء ، وهي الحال التي يكون عليها أهل الإيمان .

١١ — وذكر أيضاً أن هذه هي حال الأنبياء والرسل ، فقال :

« المؤمن خوفه ورجاؤه معتدلان ، ومعلوم أن الأنبياء الرسل أشدّ خوفاً لله ،
وأكثر إشفاقاً ووجلاً ، ولذلك كانوا أرفع درجات وأعلى منازل »^(٢) .

١٢ — وذكر الطرطوشي أن من آداب الدعاء : « أن يكون راغباً راهباً متذللاً
خاشعاً ، قال الله سبحانه : ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً
وكانوا لنا خاشعين ﴾ أي : رغبة فيما عندنا ورهبة »^(٣) .

وأكد هذا المعنى بقوله :

« أن يقوى رجاءه في مولاه ، ولا يقنط من رحمة الله » .

١٣ — وقال - مبيناً أهمية الجمع بين الرجاء والخوف - :

« ومن شروط الثقة بالله سبحانه قوة الرجاء فيما عنده »^(٤) .

فبين حال المؤمن في دعائه الذي هو العبادة ، كما قال تعالى : ﴿ ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم
داخرين ﴾^(٥) أن يكون خائفاً راجياً .

١٤ — وجعل ابن رشد الخوف والرجاء من ثمرات العلم بالله وصفاته ، فقال :

(١) التمهيد (٢٦/١٧) .

(٢) الاستذكار (٣٤٥/٨) .

(٣) الدعاء المأثور وآدابه (٤٧-٤٨) .

(٤) الدعاء المأثور وآدابه (١٢٥) .

(٥) سورة غافر : ٦٠ .

« فالعلم بالله وصفاته أشرف من العلم بكل معلوم من جهة أن متعلقه أشرف المعلومات وأكملها ، ولأن ثماره أفضل الثمار ، فإن معرفة كل صفة من الصفات توجب حالاً عليه ، وينشأ من تلك الحال ملابسة أخلاق سيئة ، ومجانبة أخلاق دنيئة ، فمن عرف سعة الرحمة أثمرت معرفته سعة الرجاء ، ومن عرف شدة النعمة أثمرت معرفته شدة الخوف ، وأثمر خوفه الكف عن الإثم والفسق والعصيان ، مع البكاء والأحزان والورع ، وحسن الانقياد والإذعان »^(١) .

١٥ — وذكر ابن رشد راوية ابن القاسم عن مالك أن عمر بن عبدالعزيز كان رجلاً عيشه هذا القطاني ، وأنه أكل يوماً عدساً وشرب عليه ماءً ، ثم استلقى فضرب على بطنه فقال : بطين بطيء عن أمر الله ، يتمنى على الله منازل الأبرار !

ثم قال :

« وفي هذا بيان ما كان عليه عمر بن عبدالعزيز من الخوف لله ﷻ مخافة التقصير في أمره مع الرجاء فيما عنده من أن يحله محل الأبرار ، وهذا هو الواجب أن يكون الرجاء والخوف في قلب الرجل سيان ، فلا يأمن من عذابه ، ولا يقنط من رحمته »^(٢) .

١٦ — وعلى ذلك سار ابن عطية عند تفسيره لقول الله تعالى : ﴿ وادعوه خوفاً وطمعا ﴾^(٣) فقال :

« أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقب وتحزن وتأمل لله ﷻ حتى يكون الرجاء والخوف كالجنحين للطائر ، يحملانه في طريق استقامة ، وإن انفرد أحدهما هلك الإنسان »^(٤) .

(١) فتاوى ابن رشد (١٦٢٥/٣) .

(٢) البيان والتحصيل (٤٧٤/١٨-٤٧٥) .

(٣) سورة الأعراف : ٥٦ .

(٤) المحرر الوجيز (٥٣٢/٥-٥٣٣) .

١٧- وذكر ابن العربي حديث الشاب الذي دخل عليه النبي ﷺ وهو في الموت فقال له : « كيف تجددك ؟ » . قال أرجو الله وأخاف ذنوبي . قال رسول الله ﷺ : « لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذه الحال إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف »^(١) ، ثم قال :

« وهذا باب بديع ليس في الرجاء مثله »^(٢) .

١٨- ويبيّن أنّ الأصل اعتدال الخوف والرجاء في قلب المؤمن ، وما يحدث من تفاوت يكون بحسب حال العبد وأعماله عند طلب الفتوى ترغيباً وترهيباً ، فقال :

« استواء الرجاء والخوف في القلب ، فتلك الحالة محمودة وقد تأتي أحوال يغلب فيها الخوف وأحوال يغلب فيها الرجاء ، وقد بينّا ذلك في تفسير القرآن مثال منها : كان ابن عباس إذا جاءه من لم يقتل يقول : هل للقاتل من توبة ؟ فيقول له - تخويفاً له - : لا ! وإذا جاءه من قتل يقول له : نعم له توبة^(٣) ؛ ترجية له ، ووضع الرجاء موضع الخوف إهلاكاً ، وكذلك بعكسه . والدليل حديث من قتل تسعة وتسعين ، وجاء يسأل الراهب : هل من توبة ؟ فقال : لا . فقتله ، وجاء الراهب^(٤) الثاني ، فقال له : لك توبة . فتاب الله عليه »^(٥) .

١٩- وأما القاضي عياض فعند شرحه حديث أبي هريرة المتقدم^(٦) - وفيه قول الرجل الذي اشتدّ خوفه : « إذا أنا مت فأحرقوني - وأكثر علمي أنه قال : ثم اسحقوني ، وأذروني في الريح فإني لم أجتهد عند الله خيراً ، وإنّ الله إن يقدر عليّ أن

(١) سبق تخريجه ص ٢١٧ .

(٢) عارضة الأحوذى (٢٠٢/٤) .

(٣) انظر تفسير القرطبي (٣٣٣/٥) .

(٤) والذي جاءت به الرواية : أنّ الآخر عالم وليس راهباً كالأول ، كما في الرواية : « فذلّ على عالم » .

والحديث أخرجه مسلم في كتاب التوبة ، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢١١٨/٤) برقم

(٢٧٦٦) .

(٥) عارضة الأحوذى (٢٠٣/٤-٢٠٤) .

(٦) انظر ص ٢٢١ .

يعذبني . قال : فأخذ منهم ميثاقاً ، ففعلوا ذلك به وربّي ! فقال الله : ما حملك على ما فعلت ؟ فقال : مخافتك . قال : فما تلافاه غيرها « - قال :
« وفيه فضيلة الخوف والخشية ، وأنها من مقامات الإيمان وأركان الإسلام ، وهي التي نفعت آخرأ هذا المسرف وغفر له بسببها »^(١) .

٢٠ — ونبّه على ترتيب الإمام مسلم بإيراده حديث أبي هريرة : « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها ... »^(٢) بعد حديث الرجل المتقدم وقول الزهري - بعد ذكره حديث الرجاء بعد حديث في الخوف - : « ذلك لئلا يتكل رجل ولا يئأس رجل » ، ليربط بين الرجاء والخوف ، فقال :

« لما ذكر الحديث الأول وفيه من رحمة الله لهذا الذي أسرف ، وجهل صفة ربّه ، خشي على سامعيه الاتكال والاعتماد على الرجاء ، وتعطيل الأعمال ، فجاء في الحديث الآخر [المخوف بعذاب الهرة لأجل هذه ربطتها]^(٣) ، فظاهر الأمر أنه من صفات الذنوب ... ليمزج الرجاء بالخوف ليعتدل حال المطيع »^(٤) .

٢١ — وأشار إلى أنّ على الواعظ تغليب جانب الخوف لتوسع الخلق في جانب الرجاء ، فقال :

« فعبادة الخلق لله بين الرجاء والخوف ، وهكذا يجب للواعظ والمذكر مزج أمره ومعاناة ذكره ، ويكون الغالب التخويف ؛ لأنّ النفوس إلى الرجاء والدعة أميل ، ومن العمل والتكاليف أثقل »^(٥) .

(١) إكمال المعلم (٢٥٧/٨) .

(٢) خرجه البخاري في كتاب الأنبياء ، باب حديث الغار (٥١٥/٦) برقم (٣٤٨٢) ، ومسلم في كتاب السلام ، باب تحريم قتل الهرة (١٧٦٠/٤) برقم (٢٢٤٢-٢٢٤٣) .

(٣) أشار المحقق أن في نسخة أخرى : [ليخوف به بعذاب هذه لأجل هرة ربطتها] .

(٤) إكمال المعلم (٢٥٩/٨) .

(٥) إكمال المعلم (٢٥٩/٨) .

ومرادّه أن الأصل هو استواء الخوف والرجاء في القلب ، ولكن إهمال الناس للواجبات والطاعات يستدعي تخويفهم وترهيبهم حتى ينزجروا ويقبلوا على طاعة الله ﷻ .

٢٢— ويبيّن أبو عبد الله القرطبي الحال التي ينبغي أن يكون عليها العبد ، فقال :
« ينبغي أن يكون خائفاً من ذنبه ، راجياً عفو ربه ... »^(١) .

٢٣— ولكن من غير إفراط ولا تفريط ، كما ذكر عند قول الله تعالى : ﴿ نبيّ عبادي أنا الغفور الرحيم وأنّ عذابي هو العذاب الأليم ﴾^(٢) حديث : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنّته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد »^(٣) .

وهكذا ينبغي للإنسان أن يذكر نفسه وغيره ، فيخوف ويرجّي ... فالقنوط إياس ، والرجاء إهمال ، وخير الأمور أوساطها »^(٤) .

٢٤— ونقل قول ابن عطية السابق في تمثيل الخوف والرجاء للإنسان كالجنّاحين للطائر .

٢٥— ثم أورد قول الله ﷻ : ﴿ نبيّ عبادي أنا الغفور الرحيم وأنّ عذابي هو العذاب الأليم ﴾^(٥) ، ثم قال :

« فرجّي وخوّف فیدعو الإنسان خوفاً من عقابه ، وطمعاً في ثوابه »^(٦) .

(١) التذكار في أفضل الأذكار (٨٤) . مكتبة دار البيان ، ط. الثالثة ١٤٠٧هـ .

(٢) سورة الحجر : الآيتان ٤٩-٥٠ .

(٣) خرجه مسلم في كتاب التوبة ، باب سعة رحمة الله تعالى ، وأنها سبقت غضبه (٢١٠٩/٤) برقم (٢٧٥٥) .

(٤) تفسير القرطبي (٣٤/١٠) .

(٥) سورة الحجر : ٤٩-٥٠ .

(٦) تفسير القرطبي (٢٢٧/٧) .

٢٦— وبين في موضع آخر اقتران الخوف والرجاء فقال - عند قوله تعالى : ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾^(١) - :

« أي : يفرعون إلينا فيدعوننا في حال الرخاء والشدة ، وقيل : المعنى يدعون وقت تعبدهم ، وهم بحال رغبة ورجاء ورهبة وخوف ؛ لأن الرغبة والرهبة متلازمان »^(٢) .

٢٧— وأما أبو العباس القرطبي فقد ذكر أنّ الخوف من الله تعالى دليل على كمال المعرفة به سبحانه ، وهو أساس التقوى ، قال :

« المتقي شرعاً هو الذي يخاف الله تعالى ، ويجعل بينه وبين عذابه وقاية من طاعته ، وحاجزاً عن مخالفته ، فإن أصل التقوى الخوف ، والخوف إنما ينشأ عن المعرفة بجلال الله وعظمته وعظيم سلطانه وعقابه »^(٣) .

٢٨— وبين أنّ الرجاء لا بد أن يصحبه العمل ، وإلا فهو عجز وأماني ، قال :
« استصحبوا الأعمال الصالحة ، والأعمال الحسنة التي يرتجي العامل لها قبولها ، ويحقق ظنه برحمة ربه عند فعلها ، فإن الله قريب من المحسنين ، وعقابه مخوف على العصاة والمذنبين ، وقد قلنا إنّ حسن الظنّ بغير عمل غرة ، كما قال ﷺ : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله »^(٤) »^(٥) .

(١) سورة الأنبياء : ٩٠ .

(٢) تفسير القرطبي (٣٣٦/١١) .

(٣) المفهم (٥٣٧/٦) .

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده (١٢٤/٤) ، والترمذي في كتاب صفة القيامة والرقاق والورع (٢٤٥٩) ،

وابن ماجه (٤٢٦٠) ، وابن المبارك في الزهد (١٧١) ، والحاكم (٥٧/١) . قال الترمذي : هذا

حديث حسن . وصححه الحاكم ، وتعقبه الذهبي في التلخيص بقوله : لا والله ! أبو بكر واه . أي أبو

بكر بن أبي مریم ، وباقي رجال الإسناد ثقات . وذكره الألباني في ضعيف سنن الترمذي (٢٤٥٩) .

(٥) المفهم (١٤٣/٧) .

٢٩— وذكر الحال التي يكون عليها المؤمنون ، فقال - عند قوله تعالى : ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾^(١) - :

« هكذا حال العارف بالله تعالى بين الرجاء والخوف ، لا بد منها للمؤمن ، ولذا قال بعض السلف : لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا » .

٣٠— وذكر القرافي أقسام الخوف من حيث الحلّ والحزمة في معنى يظهر منه خوف الله ﷻ ورجاؤه ، فقال :

« الرغبة والرغبة لغير الله تعالى إن أريد بها خوف الظلمة أو السباع أو الغلاء أو الأمراض إن سلط الله تعالى بعض ذلك ، فهذا لا ينهى عنه ، وقد يؤمر به كما أمرنا أن لا نقدم على الوباء وأن نفرّ من المجدوم فرارنا من الأسد . وإن أريد بها أنّنا نخاف الأسباب والخلق من حيث هم هم ، بحيث نعصي الله تعالى لأجلهم ، فهذا حرام ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾^(٢) »^(٣) .

٣١— وقال في موضع آخر :

« اعلم أنه جاءت المدحة بأن يكون العبد لا يخشى إلا الله ، وجاء النهي عن خشية الناس ؛ فقال تعالى : ﴿ فلا تخشوهم واخشون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وتخشى الناس والله أحقّ أن تخشاه ﴾ . يقال : المراد بهذا الخوف المنهي عنه أن يؤثر على خوف الله تعالى حتى يترك به واجب أو يفعل به حرام »^(٤) .

٣٢— وذكر ابن أبي جمرة أنّ على المؤمن عدم اليأس من رحمة الله ، فقال - عند

(١) سورة الإسراء : ٥٧ .

(٢) سورة العنكبوت : ١٠ .

(٣) الذخيرة (٢٥٣/١٣) .

(٤) ترتيب الفروق (٤٥٧/٢) .

حديث أبي هريرة الطويل في الرؤية^(١) - :

« فيه دليل على أن من كان من أهل الإيمان - وإن كان في أي حالة - كان لا يقطع إياسه من رحمة أرحم الراحمين ، فلعنه ممن سبق له من الخير سابق ، وقد قال جل جلاله : ﴿ إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾^(٢) »^(٣) .

٣٣- ثم بين الحال التي يكون عليها المؤمن عند دعائه الله ﷻ ، وهي أن يكون راجياً ، فقال - عند شرح الحديث السابق (حديث أبي هريرة الطويل المتضمن ذكر الرؤية والشفاعة وآخر من يدخل الجنة من أهل النار ... إلخ) - :

« وفيه دليل على قوة الرجاء في إجابة الدعاء وإن لم يكن الداعي أهلاً للإجابة يؤخذ ذلك من أن هذا السائل قد صحّ أنه من أهل النار ، ومن هو من أهل النار فهو من المبعودين مقطوع به ، ثم يتفضل ﷻ وينيله رحمته ، فكيف من هو في حال الاحتمال ؛ لأن الناس كلهم في هذه الدار محتملين للسعادة وغيرها ، فهو أقوى رجاءً في رحمة أرحم الراحمين »^(٤) .

٣٤- وذكر أيضاً أن الله ﷻ تفضل على عباده المؤمنين بالرحمة والمغفرة بعد علمه سبحانه شدة خوفهم ووجلهم منه ﷻ ، ليجمع لهم بين الخوف والرجاء ، فقال - عند حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على

(١) الحديث أخرجه البخاري عن أبي هريرة أن الناس قالوا : يا رسول الله ! هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « هل تضارّون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب » . قالوا : لا يا رسول الله . قال : « فهل تضارّون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ » . قالوا : لا يا رسول الله . قال : « فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك ... » الحديث بطوله . انظر : صحيح البخاري كتاب الرقاق ، باب رؤية الله ﷻ (٤٤٤/١١) برقم (٦٥٣٣) .

(٢) سورة يوسف : ٨٧ .

(٣) هجعة النفوس (٣٠/٢) .

(٤) هجعة النفوس (٣٤/٢) .

أنفه فقال به هكذا» قال أبو شهاب بيده فوق أنفه^(١) - :

«... المؤمن إذا رأى من نفسه ما يخالف الإيمان خاف على نفسه أشدّ الأشياء ، وهو النفاق الذي الهلاك معه مقطوع به إن مات عليه وخاف من قول الله ﷻ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون كُبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾^(٢) ، فحزنوا من أجل كبر هذا المقت ؛ لأنّ ما كبره الله سبحانه فهو أمر عظيم لا يحمله أهل الإيمان ، ويصعقون منه ، ولذلك لما علم مولانا سبحانه خوفهم من ذلك طمعهم ورجاهم بقوله تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾^(٣)»^(٤) .

٣٥- ويبيّن أن اجتماع الخوف والرجاء لا بد أن يصحبهما عمل ، وإلا فلا ينفع ، فقال :

«... أن يكون الخوف والرجاء لما هناك مع الأعمال المأمور بها أو مع عدمها ، فإن كان مع عدمها فلا يسمى ذلك رجاء بل يسميه أهل العلم غروراً ، وذلك مظنة الهلاك ... وكفى في ذلك قوله تعالى : ﴿ إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾^(٥)»^(٦) .

٣٦- ويبيّن ابن جزى درجات الخوف والرجاء ، ومقامات الناس حيال ذلك ، فقال :

«اعلم أنّ الخوف على ثلاث درجات :

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات ، باب التوبة (١٠٢/١١) برقم (٦٣٠٨) .

(٢) سورة الصف : ٢ .

(٣) سورة الزمر : ٥٣ .

(٤) بهجة النفوس (٢٠١/٤-٢٠٢) .

(٥) سورة البقرة : ٢١٨ .

(٦) بهجة النفوس (٢٨٦/٤) .

الأولى : أن يكون ضعيفاً يخطر على القلب ولا يؤثر في الباطن ولا في الظاهر ؛ فوجود هذا كالعدم .

والثانية : أن يكون قوياً فيوقظ العبد من الغفلة ، ويحمله على الاستقامة .

والثالثة : أن يشتدّ حتى يبلغ إلى القنوط واليأس ؛ وهذا لا يجوز ، وخير الأمور أوسطها .

والناس في الخوف على ثلاث مقامات : فخوف العامة من الذنوب^(١) ، وخوف الخاصة من الخاتمة ، وخوف خاصة الخاصة من السابقة ؛ فإن الخاتمة مبنية عليها .

والرجاء على ثلاث درجات : الأولى : رجاء رحمة الله مع التسبب فيها بفعل طاعة وترك معصية ؛ فهذا هو الرجاء المحمود . والثانية : الرجاء مع التفريط والعصيان ؛ فهذا غرور . والثالثة : أن يقوى الرجاء حتى يبلغ الأمن ؛ فهذا حرام .

والناس في الرجاء على ثلاثة مقامات : مقام العامة رجاء ثواب الله . ومقام الخاصة رجاء رضوان الله . ومقام خاصة الخاصة : رجاء لقاء الله حباً فيه وشوقاً إليه^(٢) .

فما ذكره في هذا التقسيم يدل على منزلة الخوف والرجاء وأهميتها للمؤمن .

٣٧— وعند قول الله : ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾^(٣) قال :

« جمع الله الخوف والطمع ليكون العبد خائفاً راجياً كما قال تعالى : ﴿ يرجون

(١) خوف الذنوب لا تقصر على العامة فقط ، بل حتى الخاصة ؛ يدل على ذلك مقام الأنبياء عليهم السلام عند طلب الشفاعة منهم يوم القيامة ، فكل نبي يذكر ما وقع منه ، ويقول : نفسي نفسي ! ... الخ إلا نبينا محمد ﷺ فيشفع . وذكر القرطبي أن محمد بن المنكدر جزع عند موته جزعاً شديداً ، فقيل له : ما هذا الجزع ؟ قال : أخاف آية من كتاب الله : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ ، فأنا أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب . القرطبي (١٥/٢٦٥-٢٦٦) .

(٢) التسهيل (٢/٦٤) .

(٣) سورة الأعراف : ٥٦ .

رحمته ويخافون عذابه ﴿١﴾ ، فإن موجب الخوف معرفة سطوة الله وشدة عقابه ، وموجب الرجاء معرفة رحمة الله وعظيم ثوابه جلّ جلاله : ﴿ إنه لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ .

٣٧— ونقل محمد المختار كلام ابن حجر عند شرحه « باب الرجاء مع الخوف » على سبيل الإقرار ، ونصّه : « فلا يقطع النظر في الرجاء عن الخوف ، ولا في الخوف عن الرجاء ، لئلا يفضي في الأول إلى المكر ، وفي الثاني إلى القنوط ، وكلّ منهما مذموم . والمقصود من الرجاء أنّ من وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله تعالى ، ويرجو أن يمحو ذنبه ، وإذا وقعت منه طاعة يرجو قبولها ، وأما إذا انهمك في المعصية راجياً عدم المؤاخظة بما بغير ندم ولا إقلاع فإنه مغرور ، وما أحسن قول أبي عثمان : من علامة السعادة أن يطيع ويخاف ألا يقبل ، ومن علامة الشقاء أن يعصي ويرجو أن ينجو » ﴿٢﴾ .

٣٩— ونقل أيضاً قول القسطلاني مقراً له في تشبيه الخوف والرجاء بجناحي الطائر ، فقال :

« وقد روينا عن أبي علي الروذباري أنه قال : الخوف والرجاء كجناحي الطائر ، إذا استويا استوى الطير وتمّ طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهب صار الطائر في حدّ الموت ﴿٣﴾ اهـ . فمتى استقام في أحواله استقام في سلوكه في طاعة ربه ، باعتدال رجائه وخوفه ، ومتى قصر في طاعة ربه ضعف رجاءه ودنا منه الاختلال ، ومتى قلّ خوفه وحذرته من مفسدات الأعمال تعرّض للهلاك ، ومتى عدم الرجاء والخوف تمكّن منه عدوّه وهواه ، وبعد من حزب ربّه

(١) سورة الإسراء : ٥٧ .

(٢) نور الحقّ الصبيح (٦٤٩/٩) .

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٢/٢) برقم (١٠٢٧) .

الذي حفظه وتولاه ، وبه يظهر وجه الشبه بينهما وبين جناحي الطائر . وقال بعضهم : المؤمن متردد بين الخوف والرجاء لخفاء السابقة ، وذلك لأنه تارة ينظر إلى عيوب نفسه فيخاف ، وتارة ينظر إلى كرم الله فيرجوه ^(١) .

٤٠ — ويين ابن عاشور أن خوف العباد ورجاءهم به تحقق العبادة ، فقال - عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمت الله قريبٌ من المحسنين ﴾ ^(٢) - :

« وقد شمل الخوف والطمع جميع ما تتعلق به أغراض المسلمين نحو ربهم في عاجلهم وآجلهم ، ليدعوا الله بأن ييسر لهم أسباب حصول ما يطمعون ، وأن يجنبهم أسباب حصول ما يخافون ، وهذا مقتضى توجه همتهم إلى اجتناب المنهيات لأجل خوفهم من العقاب ، وإلى امتثال المأمورات لأجل الطمع في الثواب » ^(٣) .

٤١ — ولذا جعل الخوف والرجاء وصفاً ثابتاً للمؤمن لا يتغير في السير إلى الله ﷻ ، فقال - عند قوله تعالى : ﴿ أمّن هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ ^(٤) - :

« والرجاء والخوف من مقامات السالكين ، أي أوصافهم الثابتة التي لا تتحوّل ، وللخوف مزيته من زجر النفس عما لا يرضي الله ، وللرجاء مزيته من حثّها على ما يرضي الله ، وكلاهما أنيس السالكين » ^(٥) .

٤٢ — وأوضح الشيخ محمد الأمين عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وإن ربك لذو

(١) نور الحق الصبيح (٩/٦٥٠) . وانظر فتح الباري (١١/٣٠١) .

(٢) سورة الأعراف : ٥٦ .

(٣) التحرير والتنوير (٨/١٧٦) .

(٤) سورة الزمر : ٩ .

(٥) التحرير والتنوير (٢٣/٣٤٧) .

مغفرة للناس على ظلمهم وإنّ ربك لشديد العقاب ﴿١﴾ فقال :

« بين جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة أنّه ذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وأنّه شديد العقاب ، فجمع بين الوعد والوعيد ، ليعظم رجاء الناس في فضله ، ويشدّ خوفهم من عقابه وعذابه الشديد ؛ لأنّ مطامع العقلاء محصورة في جلب النفع ودفع الضرّ ، فاجتماع الخوف والطمع أدعى للطاعة ، وقد بينّ هذا المعنى في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ فإن كذبوك فقل ربّكم ذو رحمة واسعة ولا يردّ بأسه عن القوم المجرمين ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ إنّ ربك سريع العقاب وإنّه لغفورٌ رحيم ﴾ (٣) ، وقوله جلّ وعلا : ﴿ نبئ عبادي أنّي أنا الغفور الرحيم وأنّ عذابي هو العذاب الأليم ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطّول ... ﴾ الآية (٥) ، إلى غير ذلك من الآيات » (٦) .

٤٣— وذكر ارتباط الخوف والرجاء ، فقال :

« فاعلم أنّهما متلازمان ؛ فمن كان يرجو ما عند الله من الخير فهو يخاف ما لديه من الشرّ ، كالعكس » (٧) .

٤٤— ثم أفصح عن حال المؤمن مع هذين المقامين ، فقال :

« وقد أمرنا الله أن نكون في دعائه خائفين من عذابه وعقابه ونكاله ، وطامعين في فضله ورحمته ورأفته وجوده ، وما عنده من الخير ؛ لأنّ مطامع العقلاء محصورة في أمرين : جلب النفع ودفع الضرّ . وإذا كان من يعبد الله أو يدعو الله يستشعر الخوف

(١) سورة الرعد : ٦ .

(٢) سورة الأنعام : ١٤٧ .

(٣) سورة الأنعام : ١٦٥ .

(٤) سورة الحجر : ٤٩-٥٠ .

(٥) سورة غافر : ٣ .

(٦) أضواء البيان (٣/٧٩-٨٠) .

(٧) أضواء البيان (٤/٢٠٠) .

من الله ، والطمع في ثوابه وما عنده من الخير ؛ كان الخوف والطمع جناحين يطير
بهما إلى الاستقامة ... وينبغي للمسلم إذا دعا الله أو عبد الله أن يكون جامعاً بين
الخوف من الله والطمع فيما عند الله جلّ وعلا ، فلا يترك الرجاء لئلا يكون من
القانطين : ﴿ إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾^(١) ، ولا يترك الخوف
فيأمن مكر الله ؛ لأنه لا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون ، فيكون خائفاً
من الله ، طامعاً راجياً من فضل الله^(٢) .

٤٥- ثم إنه نبّه على مسألة مهمّة في الفرق بين الخوف المذموم والخوف
الطبيعي الذي جبل عليه الإنسان ، فقال - عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ولم يخش إلا
الله ﴾^(٣) - :

« في هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن الكريم سؤال معروف ، وهو أن يقال :
لا يوجد أحد إلا وهو يخشى من غير الله ويخاف من غير الله ؛ لأنّ كلّ المخاوف
والمحاذير جُبلت طبائع البشر على الخوف والخشية منها ، والذي لم يخف شيئاً من
المخاوف والمحاذير هذا أمر صعب ، والعلماء يجيبون عن هذا بجوابين :

بعضهم يقول : الخشية التي هي شرك بالله ، والتي يحذّر الله منها هي خشية
الأصنام ، والخوف من المعبودات من دون الله^(٤) . وهذا النوع دلّت عليه آيات
كثيرة ؛ لأن عبدة الأصنام يخوفون من يسبّ الأصنام بأنّ الأصنام ستفعل له

(١) سورة يوسف : ٨٧ .

(٢) جهود محمّد الأمين في تقرير عقيدة السلف (١/١٧٥) د. عبدالعزيز الطويان .

(٣) سورة التوبة : ١٨ .

(٤) فإذا كان هذا الخوف خوف تألّه وتعبّد ، وتقربّ بذلك إلى من يخافه بامتنال أمره وترك معصيته ؛
كان تعلّقه بالله من أعظم واجبات الإيمان ، وتعلّقه بغير الله من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ، لأنّه
أشرك في هذه العبادة - التي هي من أعظم واجبات القلب - غير الله مع الله ، بل قد يزداد خوفه من
غير الله على خوفه من الله .

وتفعل^(١) ، كما قالوا لني الله هود : ﴿ إن نقول إلاّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ... ﴾ الآية^(٢) ، وكذلك لما خوّفوا منها نبيّ الله إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وقالوا له : ستفعل بك أصنامنا وتفعل ، قال لهم : ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأيّ الفريقين أحقّ بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾^(٣) ، وخوّف بها نبي الله صلوات الله وسلامه عليه ، كما نصّ عليه في سورة الزمر في قوله : ﴿ ويخوّفونك بالذين من دونه ﴾^(٤) ، ثم ردّ عليهم قال : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ ؟ في قراءة أخرى : ﴿ كافي عباده ﴾ ، وهذا كثير في القرآن . وهذه الخشية التي خاف صاحبها من عاقبة الأصنام كفر بالله وشرك به .

وقال بعض العلماء : هي الخشية الدنيوية من الناس إذا كانت تحمل الإنسان على أن يعصي الله ، كالذي يخشى الكفار ، ويجبن عن الجهاد في سبيل الله ، كما تقدّم في قوله : ﴿ أتخشونهم فالله أحقّ أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾^(٥) .

أما ما يعرض للإنسان من الخوف من الأشياء والمحاذير بجبلته فهذا أمر لا مخالفة فيه ؛ لأن الله لا يكلّف نفساً إلّاّ وسعها كما هو معلوم^(٦) .^(٧)

(١) وهو الذي يفعله عبّاد القبور ونحوها ؛ يخافونها ويخوّفون بها الموحّدين .

(٢) سورة هود : ٥٤-٥٦ .

(٣) سورة الأنعام : ٨١ .

(٤) سورة الزمر : ٣٦ .

(٥) سورة التوبة : ١٣ .

(٦) ومن أنواع الخوف : خوف وعيد الله تعالى الذي توعّد به العصاة ، وهذا الخوف من أعلى مراتب الإيمان ، وهو الذي قال الله فيه : ﴿ ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ . وإنما يكون محموداً إذا لم يقع في القنوط واليأس من روح الله . قال القرطبي : « ﴿ ذلك لمن خاف مقامي ﴾ أي : قيامي عليه ومراقبتي له ، قال تعالى : ﴿ أمّن هو قائم على كلّ نفس بما كسبت ﴾ » . التفسير (٣٤٨/٩) .

(٧) جهود الشيخ محمّد الأمين في تقرير عقيدة السلف (١٧٧/١-١٧٨) .

فذكر الشيخ أقسام الخوف المذموم وبين أن منه المؤدّي إلى الشرك ، ومنه الخوف المفضي إلى المعصية ، ومقابل ما تقدم الخوف الجبلي الذي لا إثم فيه ولا حرج .

٤٦— وذكر محمد المكي أن الدعاء لا بدّ فيه من الخوف والرجاء ، فعند قول الله تعالى : ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾^(١) قال :

« يبيّن كتاب الله للمؤمنين كيف ينبغي أن يجمعوا في الدعاء بين الخوف والرجاء »^(٢) .

٤٧— وبين أن ذلك هو حال أنبياء الله ورسله كما في قوله تعالى عن آل زكريا : ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾^(٣) :

« ويمكن أن يكون المراد به أنهم في حال دعائهم يجمعون بين الرغبة والرغبة ، وبين الخوف والرجاء ، إذ لا مانع من ذلك عند العارفين السالكين لهذه المسالك ، وإذا كان كتاب الله يثني على الأنبياء والرسل السابقين ، ويصف أحوالهم وأخلاقهم للمؤمنين اللاحقين فإنما يضرب أحسن قدوة يقتدون بها هي سيرة السلف : ﴿ أولئك الذي هدى الله فبهداهم اقتده ﴾^(٤) »^(٥) .

٤٨— وعند قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربّهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾^(٦) قال :

« ثم مضى كتاب الله يبيّن أن أهل المقامات العلية الذين تعقد عليهم الآمال ، وتناط بهم الآمال عند عامة الناس هم أنفسهم واقفون بباب الله ، يتسابقون فيما

(١) سورة الأعراف : ٥٦ .

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٢/٢٢٤) .

(٣) سورة الأنبياء : ٩٠ .

(٤) سورة الأنعام : ٩٠ .

(٥) التيسير (٤/١٤٦-١٤٧) .

(٦) الإسراء : ٥٧ .

بينهم إلى طاعة الله ، ويلاحق كلّ منهم الآخر في ابتغاء رضاه ليكون أقرب إلى مولاه ، وقلوبهم جميعاً معلقة بين جناحي الخوف والرجاء في حالتي السراء والضراء»^(١) .

فوصف من علت منزلتهم وارتفعت درجاتهم بتعلق قلوبهم خوفاً ورجاءاً على حدّ سواء بالله ﷻ .

وبعد هذا البيان من أئمة المالكية في الجمع بين الخوف والرجاء نبهوا على أمر مهمّ في هذا الباب، وهو أنّ العبد في حال صحته يجمع بين الخوف والرجاء على حدّ سواء ، بيد أنّ بعضهم يرى تغليب الخوف في حال الصحة ، ليكون حافزاً على العمل ، وأما إذا كان في حال المرض وقرب الأجل فرأوا أنه يغلب جانب الرجاء حتى يحسن الظنّ بالله ﷻ ، ليحبّ لقاء الله فيحب لقاءه .

٤٩— ومن ذلك ما نقله ابن عطية من قول كثير من العلماء من أنه : « ينبغي أن يغلب الخوف الرجاء طول الحياة ، فإذا جاء الموت غلب الرجاء ، وقد رأى كثير من العلماء أن يكون الخوف أغلب على المرء بكثير ، وهذا كلّ احتياط ، ومنه تمّني الحسن البصري أن يكون الرجل الذي هو آخر من يدخل الجنة ، وتمنّى سالم مولى أبي حذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف^(٢) ؛ لأنّ مذهبه أنهم مذنبون »^(٣) .

٥٠— وبنحو ذلك قال القرطبي أبو عبدالله ، واستدلّ بحديث النبي ﷺ : « لا

(١) التيسير (٣/٣٩٨) .

(٢) ذكر الحافظ ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « الأعراف تل بين الجنة والنار حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار » . ثم قال : اختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم ؟ وكلها قرينة ترجع إلى معنى واحد ، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله . ثم ساق الآثار المرفوعة في ذلك ، وعقب بقوله : والله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة وقصارها أن تكون موقوفة ، وفيه دلالة على ما ذكره . تفسير ابن كثير (٣/١٤٣٢) . ط . دار ابن حزم ، الأولى ١٤١٩هـ .

(٣) المحرر الوجيز (٥/٥٣٣) .

يموتنّ أحدكم إلّا وهو يحسن الظنّ بالله»^(١)»^(٢) .

٥١— وأكّد هذا المعنى في موضع آخر ، فقال :

« ويكون الخوف في صحته أغلب عليه ، إذ لا يعلم بما يختم له ، ويكون الرجاء عند حضور أجله أقوى في نفسه لحسن الظنّ بالله تعالى »^(٣) .

٥٢— ويبيّن القاضي عياض عند هذا الحديث المراد بالأمر بحسن الظنّ بالله عند الموت ، فقال : « تحذير من القنوط المهلك ، وحض على الرجاء عند الخاتمة لئلا يغلب عليه الخوف حينئذ فيخشى عليه اليأس والقنوط فيهلك .

وعبادة الله إنما هي من أصلين : الخوف والرجاء ، فيستحبّ غلبة الخوف ما دام الإنسان في خيرية العمل ، فإذا دنا الأجل وذهب المهل ، وانقطع العمل استحبّ حينئذ غلبة الرجاء ليلقى الله تعالى على حالة هي أحبّ الأحوال إليه جل اسمه ، إذ هو الرحمن الرحيم ، ويحبّ الرجاء ، وأثنى على نبيّه ﷺ بذلك .

ويؤيّد ما قلناه قوله في الحديث - بعد هذا - : « يبعث كل عبد على ما مات عليه »^(٤) ، فهذا جامع لهذا وغيره ، وأنّ العبد يبعث على الحالة التي مات عليها »^(٥) .

وبين أنّ مسلماً أراد من ذلك أن يكون الحديث بعده مفسراً له .

٥٣— وذكر القرطبي أبو العباس : « أنّ الخوف أولى بالمسيء ، لكن بحيث لا يقنط من رحمة الله ، والرجاء أولى بالمحسن ، لكن بحيث لا يفتر فيكسل عن الاجتهاد في عبادة الله تعالى »^(٦) .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب في الأمر بحسن الظنّ بالله تعالى عند الموت (٢٢٠٥/٤) برقم (٢٨٧٧) .

(٢) تفسير القرطبي (٢٢٧/٧) .

(٣) التذكار في أفضل الأذكار للقرطبي (٨٤) .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الجنة ، باب الأمر بحسن الظنّ بالله تعالى عند الموت (٢٢٠٦/٤) برقم (٢٨٧٨) .

(٥) إكمال المعلم (٤٠٩/٨) .

(٦) المفهم (٣٥٨/٧) .

٥٤ - وفي موضع آخر قال :

« وهذا في حال الصحة والقوة على العمل ، وأما في حال حضور الموت فليس ذلك الوقت وقتاً يقدر فيه على استئناف غير الفكر في سعة رحمة الله تعالى وعظيم فضله ، وأنه لا يتعاضمه ذنب يغفره ، وأنه الكريم الحليم ، الغفور الشكور ، والمنعم الرحيم . ويذكر بآيات الرخص وأحاديثها ، لعل ذلك يقع بقلبه فيحب الله تعالى ؛ فيختم عليه بذلك فيلقى الله تعالى وهو محبّ لله تعالى ، فيحشر في زمرة المحبين بعد أن كان في زمرة الخطّائين ، ويشهد له قوله : « يبعث كل عبد على ما مات عليه » .^(١) »

٥٥ - وذكر ابن جزّي « أنّه يستحبّ أن يكون العبد طول عمره يغلب عليه الخوف ليقوده إلى فعل الطاعات وترك السيّئات ، وأن يغلب عليه الرجاء عند حضور الموت ، لقوله ﷺ : « لا يموتنّ أحدكم إلّا وهو يحسن الظنّ بالله تعالى » .^(٢) »

٥٦ - وبنحو ذلك ذلك قال محمّد الأمين :

« العلماء يقولون : ينبغي للإنسان - وهو في أيام صحته - أن يغلب الخوف دائماً على الرجاء ، وأن يكون خوفه أغلب من رجائه ، فإذا حضره الموت غلب الرجاء في ذلك ليطغى على الخوف ، فلا ينبغي للمؤمن أن يموت إلّا وهو يحسن الظنّ بالله جل وعلا بأن ربه رؤوف رحيم ، كما جاء بذلك الحديث عن النبي ﷺ^(٣) . وهذه النقول عن أئمة المالكية يتبيّن أنّ الخوف والرجاء مقامان جليّان ، لا بد من تحقيقهما والجمع بينهما في حال الصحة ، وأما في حال المرض وقرب الأجل فيغلب جانب الرجاء إحساناً للظنّ بالله ﷻ .

(١) المفهم (١٤٣/٧) .

(٢) التسهيل (٦٣/٢) .

(٣) جهود محمّد الأمين (١٧٥/١-١٧٦) .

المسألة الثالثة : التوكل

التوكل على الله تعالى فرض من فرائض الرحمن وشرط من شروط الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^(١) ، فعلق الإيمان بالتوكل . وقال تعالى : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾^(٤) .

وقد اعتنى أئمة المالكية بهذا المقام الجليل - مقام التوكل على الله ﷻ - ، ويمكن بيان تناولهم للتوكل وما يتعلق به في الفقرتين الآتيتين :

أولاً : بيان حقيقة التوكل .

ثانياً : صلة الأسباب بالتوكل .

(١) سورة المائدة : ٢٣ .

(٢) سورة هود : ١٢٣ .

(٣) سورة المزمل : ٩ .

(٤) سورة الطلاق : ٣ .

أولاً : بيان حقيقة التوكّل

ذكر المالكية أنّ التوكّل على الله ﷻ له معانٍ متعدّدة ؛ فتارةً يفسّرونه بالثقة بالله ، وتارةً بالتفويض ، وتارةً بالتسليم والاعتماد على الله ؛ ومقام التوكّل يجمع كل هذه المعاني .

١— ومن ذلك ما ذكره القرطبي بقوله :

« سئل مالك عن البلد يقع فيه الموت ، فهل يكره الخروج إليه ؟ فقال : لا أرى بأساً خرج أو أقام . قيل : فهذا يشبه ما جاء في الحديث عن الطاعون ؟ قال : نعم . »^(١)

وهذا من مالك - والله أعلم - لإثبات التوكّل على الله ، وتعلّق القلب به سبحانه ، وأنّ الخروج إلى الموضع الذي فيه الموت لن يغيّر من قدر الله شيئاً^(٢) .

ولكن جاء الحديث عن النبي ﷺ فيما إذا وقع الوباء أن لا يخرج من هو في مكان الوباء ولا يقدم من كان خارجاً عليه .

ولذا عقّب القرطبي على قول مالك السالف بقوله : « فيه نظر » .

ثم ذكر ما حصل من عمر رضي الله عنه^(٣) ، فقال : « وهذا يدلّ على أنه عزم على

(١) المفهم (٦١٨/٥) .

(٢) والحديث الوارد في الطاعون يمنع القدوم على بلد وقع بها الطاعون ، كما يمنع الخروج منها لمن كان مقيماً بها ، وهذا يؤكّد أن الإمام مالك رحمه الله إنما أراد ما ذكرته من تعلّق القلب بالله تعالى ، فلو خرج فراراً من الطاعون لن يغيّر من قدر الله شيئاً إن قدر عليه الموت ، وكذا بقاؤه . ويأتي كلام القرطبي في إيضاح هذا المعنى .

(٣) خرج الإمام مالك في موطنه بسنده عن عبدالله بن عامر بن ربيعة ، أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام ، فلما جاء سرغ بلغه أن الوباء قد وقع بالشام ، فأخبره عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال : « إذا سمعتم به بأرض قوم فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » . فرجع عمر بن الخطاب من سرغ . انظر الموطأ (٦٨٣/٢) .

الرجوع لرأي أولئك المشيخة لما ظهر أنه أرجح من رأي غيرهم ممن خالفهم ، ووجه أرجحية هذا الرأي أنه جمع فيه بين الحزم والأخذ بالحذر ، وبين التوكل والإيمان بالقدر » .

٢— يؤكد هذا المعنى عن مالك رحمه الله أن القرطبي نقله قولاً عن بعض السلف ، ثم قال :

« واعتمد أصحاب هذا القول على أن الآجال محدودة ، والأرزاق مقدرة ، فلا يتقدم شيء على وقته ، ولا يتأخر شيء عن أجله ، فالواجب صحة الاعتماد على الله والتسليم لأمر الله ، فإن الله تعالى لا رادّ لأمره ، ولا معقب لحكمه ، فالقدوم على الوباء والفرار سيان بالنسبة إلى سابق الأقدار^(١) »^(٢) .

٣— ونقل ابن بطلال قول الطبري على سبيل الإقرار في بيان حدّ التوكل ، فقال :

« الثقة بالله تعالى ، والاعتماد في الأمور عليه ، وتفويض كل ذلك إليه »^(٣) .

٤— ويبيّن ابن عبد البر حقيقة التوكل عند حديث النبي ﷺ في النهي عن الكي بقوله :

« يحتمل أن يكون النبي ﷺ نهى عن الكي في أمر ما ، أو في علة ما ، أو نهى عنه نهى أدب وإرشاد إلى التوكل على الله ، والثقة به ، فلا شاف سواه ، ولا شيء إلا ما شاء »^(٤) .

(١) ومرادهم رحمهم الله واضح في الحضّ على صدق وصحة الاعتماد على الله تعالى ، وليس ذلك من باب ترك الأسباب . وذلك لأن هذه الأقدار مغيبة عن الإنسان ، فكان عليه الأخذ بالأسباب كما أمر النبي ﷺ بعدم القدوم على الطاعون أو الفرار منه إذا ما وقع ، والله أعلم .

(٢) المفهم (٦١٣/٥) .

(٣) شرح صحيح البخاري (٤٠٧/٩-٤٠٨) .

(٤) الاستذكار (٤٣/٢٧) .

٥- وعَلَّ ذلك في موضع آخر بقوله :

« لأنَّ من ترك ذلك توكلًا على الله ، وعلمًا بأنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأنَّ أيام الصحة لا سقم فيها ؛ كان أفضل منزلة وأعلى درجة ، وأكمل يقينًا وتوكلًا »^(١) .

وبهذا يظهر حقيقة التوكل ، إذ تركه للكَيِّ اعتماداً على الله وثقةً به تعالى وأنَّ السقم والبرء بيده تعالى تحقيق لمقام التوكل على الله .

٦- ولذا قال :

« فمن ترك الكَيِّ ثقةً بالله ، وتوكلًا عليه كان أفضل ؛ لأنَّ هذه منزلة يقين صحيح ، وتلك منزلة رخصة وإباحة »^(٢) .

٧- وفسَّر ابن عطية قول الله ﷻ : ﴿ وعلى رَهم يتوكلون ﴾^(٣) بقوله :

« عبارة جامعة لمصالح الدنيا والآخرة إذا اعتبرت وعمل بحسبها في أن يمثل الإنسان ما أمر به ، ويبلغ في ذلك أقصى جهده دون عجز ، وينظر بعد ما تكفل له به من نصر أو رزق أو غيره »^(٤) .

ولا يتحقق شيء من ذلك إلا لمن وثق بالله تعالى ، واعتمد عليه وحده .

٨- وبين منزلة التوكل من الإيمان ، فقال :

« والتوكل على الله تعالى من فروض الإيمان وفصوله ، ولكنه مقترن بالجد في الطاعة والتشمير والحزامة بغاية الجد ، وليس الإلقاء باليد وما أشبهه بتوكل ، وإنما

(١) فتح البَرِّ (٦/٢٦١) .

(٢) فتح البر (٦/٢٦٠) .

(٣) سورة الأنفال : ٢ .

(٤) المحرر الوجيز (٦/٢١٧) .

هو كما قال ﷺ : « قِيدْهَا وَتَوَكَّلْ » ^(١) « ^(٢) .

٩— ونقل قول ابن مسعود في تفسيره لقول الله ﷻ : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ^(٣) : « هذه أكثر الآيات حضًّا على التفويض » ^(٤) .

١٠— وعند قول الله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ ^(٥) قال ابن العربي : « التوكل : هو إظهار العجز والاعتماد على الغير » .

١١— ثم بيّن أساسه ومنزلته من الإيمان ، فقال :

« أصل هذا علم العبد بأن المخلوقات كلها من الله ، لا يقدر أحد على الإيجاد سواه ، فإن كان له مراد - وعلم أنه بيد الذي لا يكون إلا ما أراد - جعل له أصل التوكل ، وهذا فرض عين ، وبه يصح الإيمان الذي هو شرط التوكل . قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ » .

١٢— ورتب على تحقق التوكل سكون القلب ، وزوال الانزعاج والاضطراب ، وهما من الأحوال التي تلحق وتعقب التوكل ^(٦) .

ومرادُه أنَّ القلب لا يسكن ولا يطمئن إلا بتفويض الأمور كلها لله وحده ، الذي بيده تصريف كل شيء .

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ، باب التوكل والتسليم (٧٩/٢) برقم (١٢٠٩) ، والحاكم في المستدرک (٦٢٣/٣) من طريق حاتم بن إسماعيل به . قال الهيثمي في المجمع (٢٩١/١٠) : رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما عمرو بن عبدالله بن أمية الضمري ، ولم أعرفه ، وبقيّة رجاله ثقات . وقال الذهبي : سنده جيد .

(٢) المحرر الوجيز (٤٠٠/٣) .

(٣) سورة الطلاق : ٣ .

(٤) المحرر الوجيز (٤٩٥/١٤) .

(٥) سورة الفرقان : ٥٨ .

(٦) انظر أحكام القرآن (٤٤٨/٣-٤٤٩) .

١٣ — ونقل القاضي عياض على سبيل الإقرار ما اختاره الطبري من قول عامة الفقهاء في بيان حدّ التوكّل :

« حدّه : الثقة بالله ، والإيقان بأنّ قضاءه ماضٍ »^(١) .

١٤ — وقال بنحو قول القاضي عياض القرطبيّ أبو عبد الله ، ثم قال : « وهو الصحيح »^(٢) .

١٥ — وعند قول الله تعالى : ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾^(٣) قال - معرّفاً التوكّل - :
« إنه اعتماد القلب على الله تعالى في كلّ الأمور »^(٤) .

١٦ — ونقل القرطبي أبو العباس قول عامة الفقهاء السابق في بيانه لمعنى التوكّل^(٥) .

١٧ — وفي موضع آخر قال :

« التوكّل على الله هو الاعتماد عليه والتفويض إليه فيما يجوز الإقدام عليه ، أو فيما يخاف وقوعه ، أو يرتجى حصوله ، وقد يفضي التوكّل بصاحبه إلى ألاّ يخاف شيئاً إلاّ الله ، ولا يرجو سواه ، إذ لا فاعل^(٦) في الحقيقة إلاّ هو »^(٧) .
فالخوف والرجاء إنما ينشآن عن التوكّل على الله ﷻ .

(١) إكمال المعلم (١/٦٠٣-٦٠٤) .

(٢) انظر تفسير القرطبي (٤/٢٥٣) .

(٣) سورة الفرقان : ٥٨ .

(٤) تفسير القرطبي (١٣/٦٢) .

(٥) انظر المفهم (١/٤٦٧) .

(٦) الأسلم أن نقول : لا مقدّر إلاّ هو ﷻ . قال ﷺ : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة » . خرجه مسلم في كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٤/٢٠٤٤) رقم (٢٦٥٣) .
(٧) المفهم (٤/٤٣) .

١٨— ويّين القراني حقيقة التوكّل ، فقال :

« التوكّل هو اعتماد القلب على الله تعالى فيما يجلبه من خير أو يدفعه من ضرر »^(١) .

١٩— ونحو ذلك قال ابن جزى :

« التوكّل هو الاعتماد على الله في تحصيل المنافع ، أو حفظها بعد حصولها ، وفي دفع المضرات ورفعها بعد وقوعها » .

٢٠— ثم ذكر أنه من أعلى المقامات ، وذلك لأنّ الله يحبّ المتوكّلين ، وللضمان^(٢) في قوله : ﴿ ومن يتوكّل على الله فهو حسبه ﴾ .

٢١— وأشار إلى أنه شرط في الإيمان مستدلاً بقوله تعالى : ﴿ وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين ﴾^(٣) .

٢٢— وذكر ابن عاشور أنّ التوكّل هو « الاعتماد وإسلام الأمور إلى المتوكّل عليه ، وهو الوكيل ، أي المتولّي مهمات غيره » .

٢٣— ووصف حال أهل الإيمان الكمّل ، فقال - عند قوله تعالى : ﴿ وتوكّل على الحي الذي لا يموت ... ﴾ - :

« إشارة إلى أنّ المرء الكامل لا يثق إلّا بالله ؛ لأنّ التوكّل على الأحياء المعرضين للموت وإن كان قد يفيد أحياناً لكنه لا يدوم »^(٤) .

ومرادّه أنّ الاعتماد لا يكون إلّا على الله وحده ، وهو حقيقة التوكّل .

(١) الذخيرة (٢٤٧/١٣) . ويّين مراتب الناس حيال التوكّل على الله ﷻ .

(٢) ومراده بالضمان الوارد في الآية : حفظ الله وكفايته للمتوكّل عليه ، كما قال تعالى : ﴿ ومن يتوكّل على الله فهو حسبه ﴾ أي : كافيه . والله أعلم .

(٣) التسهيل (٢١٨/١) .

(٤) التحرير والتنوير (٥٩/١٩) .

٢٤- وعرف محمد الأمين التوكل بقوله :

« التوكل على الله : الثقة به ، وإسناد الأمور وتفويضها إليه ، مع تعاظم الأسباب ؛ لأن الله أمر بها ، ولا بد مع تعاظمها من الثقة بأنه لا يقع إلا ما أراد الله تعالى »^(١).

٢٥- ويبين أن التوكل لا يكون إلا على من يستحق العباداة ، وهو الله جلّ وعلا ، فقال - عند تفسير سورة الفاتحة - :

« وإتيانه بقوله : ﴿ إياك نستعين ﴾ بعد قوله : ﴿ إياك نعبد ﴾ فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل إلا على من يستحق العباداة ؛ لأن غيره ليس بيده الأمر ، وهذا المعنى المشار إليه هنا جاء مبيناً واضحاً في آيات آخر ، كقوله تعالى : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت ﴾^(٣) »^(٤).

(١) معارج الصعود (٣٠٧) .

(٢) سورة هود : ١٢٣ .

(٣) سورة التوبة : ١٢٩ .

(٤) أضواء البيان (١٠٤/١) . وذكر الشيخ ثمرات التوكل ، فقال - عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ... ﴾ - : « دليل واضح على أن التوكل الصادق على الله ، وتفويض الأمور إليه : سبب للحفظ والوقاية من كل سوء ... وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون التوكل على الله سبباً للحفظ والوقاية من السوء جاء مبيناً في آيات آخر ، كقوله تعالى : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ ، وقوله : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ » .
أضواء البيان (٨٩/٧) .

ثانياً : صلة الأسباب بالتوكل

يقرن العلماء في حديثهم عن التوكل الحديث عن تعاطي الأسباب ، إذ إنَّ تعاطيها لا يقدح في التوكل على الله ﷻ كما يظنه غالب الصوفية الذين أعرضوا عن الأسباب بالكلية^(١) .

وقابلهم آخرون^(٢) يرون الالتفات إلى الأسباب بالكلية ، واعتماد القلب والجوارح عليها من غير نظر إلى مسببها .

وكل قول منهما تضمن الإفراط أو التفريط .

ولذا قال طائفة من العلماء : الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد^(٣) ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في

(١) ومما يدل على انحرافهم في مفهوم التوكل ما جاء عنهم من تعريفات للتوكل أسوق إليك شيئاً منها : قال سهل التستري وهو يتحدث عن مقام التوكل عند الصوفية : « أول مقام التوكل أن يكون العبد بين يدي الله ﷻ كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء لا يكون له حركة ولا تدبير » . الرسالة القشيرية (٤٦٦/١) . ط. دار الكتب الحديثة - مصر ، تحقيق عبدالحليم محمود .
ومراده أن المتوكل على الله ينبغي له أن يقصد ولا يتحرك في هذه الحياة لتأمين لوازم الحياة ، وإلا لا يوصف بأنه متوكل على الله .

وقال ذو النون المصري : « التوكل : ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة » .
وقال أيضاً : « التوكل خلع الأرباب وقطع الأسباب » . وهو صريح في ترك الأسباب . انظر الرسالة القشيرية (٤٦٨/١ - ٤٧٠) .

(٢) وهو قول الماديين والعقلانيين قديماً وحديثاً .

(٣) الالتفات إلى الأسباب ضربان : أحدهما شرك والآخر عبودية وتوحيد ، فالشرك : أن يعتمد عليها ويطمئن إليها ويعتقد أنها نافعة بذاتها ، فهو معرض عن المسبب لها . وأما إن التفت إليها التفات امتثال وقيام بها وأداء لحق العبودية فيها وإنزالها منازلها ، فهذا الالتفات عبودية وتوحيد ، إذ لم يشغله عن الالتفات إلى المسبب . وحقيقة التوكل القيام بالأسباب والاعتماد بالقلب على المسبب واعتقاد أنها بيده ، فإن شاء منعها اقتضاءها ، وإن شاء جعلها مقتضية .

الشرع^(١) .

وقد بين أئمة المالكية الصواب في تعاطي الأسباب ، وأن القلب يعتمد على الله وحده حال تعاطيها من خلال أقوالهم الآتية :

٢٦— قال ابن بطلال راداً على الصوفية إعراضهم عن الأسباب - عند شرحه لحديث هجرته عليه الصلاة والسلام وهو يعدد الفوائد - :

« وفيه اتخاذ الفضلاء والصالحين الزاد في أسفارهم ، وردّ قول من أنكر ذلك من الصوفية ، وزعم أن من صحّ توكله ينزل عليه الطعام من السماء إذا احتاج إليه ! ولا أحد أفضل من رسول الله ﷺ ولا من صاحبه وصديقه ، وهما كانا أولى بهذه المنزلة ، ولو كانت كما زعموا ما احتاجا إلى سفرة فيها طعام »^(٢) .

٢٧— ونقل قول الطبري محتجاً به على أهمية الأخذ بالأسباب ، ونصّه :

« ومن اتباع سنته سعي فيما لا بد له من مطعم ومشرب وملبس ، كما قال تعالى : ﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ﴾ ، ومن سنته أن يحترز من عدوّه كما فعل النبي ﷺ يوم أحد من مظاهرتة بين درعين ، وتغفره بمغفر يتقي به سلاح المشركين ، وإقاعاده الرماة على فم الشعب ليدفعوا من أراد إتيانه ، وكصنيعه الخندق حول المدينة حصناً للمسلمين وأموالهم ، مع كونه من التوكل والثقة بربه بمحل لم يبلغه أحد ، ثم كان من أصحابه ما لا يجهله أحد ؛ من تحولهم عن منازلهم مرة إلى الحبشة ، ومرة إلى مدينته ﷺ ، خوفاً على أنفسهم من مشركي مكة وهرباً بدينهم أن يفتنوه عن بتعذيبهم إياهم »^(٣) .

(١) انظر : إحياء علوم الدين للغزالي (٢٤٣/٤) كتاب التوحيد والتوكل ، وهو الكتاب الخامس من ربح المنجيات .

(٢) شرح صحيح البخاري (٩٣/٩-٩٤) .

(٣) شرح البخاري (٤٠٦/٩) .

٢٨ — وأيد^(١) » مقالة الحسن البصري بقوله قد أحسن حين ذكر له قصة عامر ابن عبدالله^(٢) ، وأنه نزل مع أصحابه في طريق الشام على ماء ، فحال الأسد بينهم وبين الماء ، فجاء عامر إلى الماء وأخذ منه حاجته ، فقليل له : قد خاطرت بنفسك ! قال : لأن تختلف الأسنة في جوفي خير لي من أن يعلم الله أني أخاف شيئاً سواه . فقال الحسن : قد خاف من كان خيراً من عامر : موسى عليه السلام حين قيل له : ﴿ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ * فخرج منها خائفاً يترقب ... ^(٣) ، وقوله : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ ^(٤) .

قالوا : فالمخبر عن نفسه بخلاف ما طبع الله عليه نفوس بني آدم كاذب ، وقد طبعهم الله على الهرب مما يضرهم ، وقد أمر الله عباده بالإنفاق من طيبات ما كسبوا ، وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ ، فأحلّ للمضطر ما كان حرم عليه عند عدمه للغذاء الذي أمره باكتسابه والاعتداء به ، ولم يأمره بانتظار طعام ينزل عليه من السماء ، ولو ترك السعي في طلب ما يتغذى به حتى هلك كان لنفسه قاتلاً ، وقد كان رسول الله ﷺ يتلوّى من الجوع ما يجد ما يأكله ، ولم ينزل عليه طعام من السماء ، وهو أفضل البشر ، وكان يدخر لنفسه قوت سنة حين فتح الله عليه الفتوح ^(٥))) ^(٦) .

وقد أطل في ردّه على الصوفية الأغمار ، وما أتى القوم إلا بسبب قلة بضاعتهم

(١) لا يزال النقل عن الطبري .

(٢) هو عامر بن عبدالله ، وهو الذي يقال له : ابن عبدالقيس ، يكنى أبا عمرو ، وقيل : أبا عبدالله ، من بني تميم . قال عنه مالك بن دينار : هذا راهب هذه الأمة . كان من سادات التابعين وعبادهم . مات سنة ٥٥ هـ . انظر : صفة الصفوة (٣/١٤١) ، وتهذيب التهذيب (٥/٧٧) ، والحلية (٢/٨٧) .

(٣) سورة القصص : ١٨ .

(٤) سورة القصص : ٢١ .

(٥) خروجه البخاري في كتاب النفقات ، باب حبس الرجل قوت سنة على أهله (٩/٥٠١) برقم (٥٣٥٧) .

(٦) شرح صحيح البخاري (٩/٤٠٧-٤٠٨) .

في العلم ، وتفشّي الجهل في صفوفهم^(١) .

٢٩ — ثم ختم نقله لمقالة الطبري النفيسة مؤكداً وملخصاً لما سبق في وجوب الأخذ بالأسباب وتعاطيها . فبعد أن ذكر حدّ التوكّل بأنه الاعتماد على الله ، قال : « بعد استفراغ الوسع في السعي فيما بالعبد له حاجة إليه من أمر دينه ودنياه على ما أمر به من السعي فيه لا فيما قاله الزاعمون أن حده : الاستسلام للسباع ، وترك الاحتراز من الأعداء ، ورفض السعي للمكاسب والمعاش ، والإعراض عن علاج العلل !! لأنّ ذلك جهل وخلاف لحكم الله في عبادته وخلاف حكم رسوله في أمته ، وفعل الأئمة الراشدين »^(٢) .

٣٠ — وأشار ابن عطية إلى ارتباط التوكّل بتعاطي الأسباب ، فقال :

« الذي أقول : إنّ التوكّل الذي أمرنا به هو مقترن بتسبب جميل على مقتضى الشرع ، وهو الذي في قوله ﷺ : « قَيِّدْهَا وَتَوَكَّلْ » ، فقد جعله متوكّلاً مع التقيد ، والنبي ﷺ رأس المتوكّلين ، وقد تسبب عمره كله ، وكذلك السلف كله » .

٣١ — ثم ذكر ما وجه الله به جماعة المسلمين ، فقال :

« وللمسلمين جميعاً قال الله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ ﴾^(٣) ، ولهم قال : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا ﴾^(٤) ، وقول النبي ﷺ - في مدح السبعين ألفاً من أمته - : « وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » ليس فيه أنهم يتركون التسبب جملةً واحدةً ، ولا حفظ عن عكاشة أنه ترك التسبب ، بل كان يغزو ويأخذ

(١) قال ابن الجوزي : « قلة العلم أوجبت هذا التخليط ، ولو عرفوا ماهية التوكّل لعلموا أنه ليس بينه وبين الأسباب تضاد » . تلبّيس إبليس (٢٨٦) . ط . دار الكتب العلمية .

(٢) شرح البخاري (٤٠٨/٩) .

(٣) سورة البقرة : ١٩٨ .

(٤) سورة المائدة : ٢٣ .

سهامه ، وأعني بذلك ترك التسبب في الغذاء ، وأما ترك التسبب في الطبّ فسهل ، والكثير من الناس جبل عليه دون نية وحسبة ، فكيف بمن يحتسب ؟ »^(١) .

٣٢— وذكر القاضي عياض أن « كل سبب مقطوع به غير قادح في التوكّل ، كالأكل للغذاء ، والشرب للري لا يقدح في التوكّل ، وكذلك المظنون كالطبّ للبرء ، ولبس الدرع للتحصّن من العدو ... »^(٢) .

٣٣— وبعد ذكره حدّ التوكّل قال :

« ... واتباع سنة نبيه فيما لا بد منه من مطعم ومشرب ، والتحرز من العدو ، كما فعل ﷺ وفعله الأنبياء »^(٣) .

٣٤— ثم نقل قول الطبري السابق ، وعقب عليه بقوله :

« ... بل فعل الأسباب سنة الله وحكمته ، والثقة أنه لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضرراً سبب ولا أحد ، والكل من الله وحده »^(٤) .

ومراده أنه لا يعتمد على السبب لذاته ؛ لأنه لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضرراً ، وإنما يعتمد على الله تعالى وحده مسبب الأسباب .

٣٥— وذكر القرطبي مقالة الصوفية في التوكّل بأنه ترك الأسباب والركون إلى مسبب الأسباب ، فإذا شغله السبب عن المسبب زال عنه اسم التوكّل ، ثم قال :

« قال سهل : من قال إنّ التوكّل يكون بترك السبب فقد طعن في سنة رسول الله ﷺ ، لأن الله ﷻ يقول : ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ﴾^(٥) ، فالغنيمة

(١) المحرر الوجيز (٢٠٣/٧) .

(٢) إكمال المعلم (٦٠٢/١) .

(٣) إكمال المعلم (٦٠٤/١) .

(٤) إكمال المعلم (٦٠٤/١) .

(٥) سورة الأنفال : ٦٩ .

اكتساب . وقال تعالى : ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلَّ بنان ﴾^(١) ،
فهذا عمل . وقال النبي ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ الْمُخْتَرَفَ »^(٢) .

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يفرضون على السرية » .

٣٦— وعند قول الله ﷻ : ﴿ قَالَ لَفْتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾^(٣) قال :

« وهو ردّ على الصوفية الجهلة الأغمار الذين يقتحمون المهامّة والقفار زعماء أنّ ذلك هو التوكّل على الله الواحد القهار^(٤) هذا موسى نبي الله وكليمه من أهل الأرض قد اتخذ الزاد ، مع معرفته بربه وتوكله على ربّ العباد^(٥) » .

٣٧— ثم بيّن أنّ القلب لا يطمئنّ ولا يلتفت إلى الأسباب ، بل إلى مسبب الأسباب ، وذلك « لأنّ الأسباب وسائط أمر بها عباده من غير اعتماد عليها^(٦) » .

ثم ذكر أقسام المتوكّلين ، فقال :

« على حالين :

الأول : حال التمكن في التوكل ، فلا يلتفت إلى شيء من تلك الأسباب بقلبه ، ولا يتعاطاه إلّا بحكم الأمر .

(١) سورة الأنفال : ١٢ .

(٢) قال في فيض القدير : أخرجه البيهقي والطبراني والحكيم الترمذي (٣٦٨/٢) برقم (١٨٧٣) .
وقال في كشف الخفاء : في سنده أبو الربيع متروك . وفي معناه ما أخرجه سعيد بن منصور عن ابن مسعود ؓ : « إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً لا في عمل الدنيا ولا الآخرة » . رواه أحمد وابن المبارك والبيهقي وابن أبي شيبة . انظر كشف الخفاء (٢٩١/١) .

(٣) سورة الكهف : ٦٢ .

(٤) قال القرطبي : « قال رجل لأحمد بن حنبل : أريد أن أخرج من مكة على التوكل بغير زاد . فقال له أحمد : اخرج في غير القافلة . فقال : لا إلّا معهم . قال : فعلى جرب الناس توكلت ! » .

التفسير (٤١١/٢) .

(٥) التفسير (١٣/١١) .

(٦) التفسير (٦٢/١٣) .

الثاني : حال غير المتمكن ، وهو الذي يقع له الالتفات إلى تلك الأسباب أحياناً ، غير أنه يدفعها عن نفسه بالطرق العلمية ، والبراهين القطعية ، والأذواق الحالية ، فلا يزال كذلك إلى أن يرقيه الله بجوده إلى مقام المتمكنين ، ويلحقه بدرجات العارفين»^(١) .

٣٨— وهذا التقسيم للمتوكلين نص عليه شيخه أبو العباس القرطبي^(٢) .

٣٩— وبين أن تعاطي الأسباب لا ينافي التوكل ؛ فعند إirاده قصة إبراهيم وسارة مع الجبار ، وقول إبراهيم لها : « فإن سألك فأخبريه أنك أختي ، فإنك أختي في الإسلام»^(٣) ، قال :

« وفيه ما يدل على أن العمل بالأسباب المعتادة التي يرجى بها دفع مضرة أو جلب منفعة لا يقدح في التوكل ، خلافاً لما ذهب إليه جهال المتوكلين»^(٤) .

٤٠— وفي موضع آخر قال :

« فمن أهمل شيئاً من الأسباب المعتادة ، زاعماً أنه متوكل فقد غلط ؛ فإن التوكل لا يناقض التحرز ، بل حقيقته لا تتم إلا لمن جمع بين الاجتهاد في العمل على سنة الله ، وبين التفويض إلى الله تعالى ، كما فعل رسول الله ﷺ»^(٥) .

٤١— وذكر القرافي في تعاطي الأسباب كلاماً بديعاً بعد تعريفه للتوكل وهل من شرطه ترك الأسباب ، قال :

« قال المحققون : لا يشترط ذلك ، بل الأحسن ملابسة الأسباب ؛ للمنقول والمعقول :

(١) تفسير القرطبي (٤/١٩٠) .

(٢) انظر المفهم (١/٤٦٨) . وجُهل المتوكل : هم المتصوفة ومن نحا نحوهم ممن اعتبر التواكل توكلًا .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل ، باب في فضائل إبراهيم الخليل ﷺ (٤/١٨٤٠) برقم (٢٣٧١) .

(٤) المفهم (٦/١٨٦) .

(٥) المفهم (٦/٥٨) .

أما المنقول : فقوله تعالى : ﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾^(١) ، وأمر تعالى بملازمة أسباب الاحتياط والحزم في غير موضع من كتابه العزيز ، ورسوله ﷺ سيد المتوكّلين ، وكان يطوف على القبائل ويقول : « من يعصمني حتى أبلغ رسالات ربّي »^(٢) ، وكان له جماعة يجرسونه من العدو حتى نزل قوله تعالى : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾^(٣) ، ودخل مكة مظاهراً بين درعين في كتيبه الخضراء من الحديد^(٤) ، وكان في آخر عمره وأكمل أحواله يدخر قوت عياله سنة .

وأما المعقول : فهو أن الملك العظيم إذا كانت له عوائد في أيام لا يحسن إلّا فيها ، أو أبواب لا يخرج إلّا منها ، أو أمكنة لا يوقع إلّا فيها ؛ فالأدب معه ألا يطلب منه فعل إلّا حيث عوّده ، وأن لا يخالف عوائده ، بل يجري عليها ، والله سبحانه ملك الملوك وأعظم العظماء ، بل أعظم من ذلك ، رتب ملكه على عوائد أرادها وأسباب قدرها ، وربط بها آثار قدرته ، ولو شاء لم يربطها . فجعل الري بالشرب ، والشبع بالأكل ، والاحتراق بالنار ، والحياة بالتنفس في الهواء ، فمن رام من الله تعالى تحصيل هذه الآثار بدون أسبابها فقد أساء الأدب ، بل يلتمس فضل الله

(١) سورة الأنفال : ٦٠ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣٢٢/٣) ، وابن حبان (١٧٢/١٢) برقم (٦٢٧٤) بلفظ : " من يؤويني " . وذكره الهيثمي في المجمع (٤٦/٦) وقال : رواه أحمد والبخاري ، ورجال أحمد رجال الصحيح .

(٣) سورة الأنفال : ٦٧ .

(٤) ومظاهرته عليه الصلاة والسلام بين الدرعين كان يوم أحد ، كما أخرجه الإمام أحمد (٤٤٩/٣) ، والبيهقي في الشعب (٨٧/٢) ، والبغوي في شرح السنة (٢٦٥٨) (٢٦٥٩) .

وأما دخوله مكة فقد لبس على رأسه المغفر ، كما في البخاري (١٥/٨) برقم (٤٢٨٦) ، ومسلم (١٣٥٧) .

قال السندي : قوله " ظاهر بين درعين " أي : أوقع الظهار بينهما بأن جعل أحدهما ظاهراً للآخرى ، أو الظهار بمعنى المعاونة ، والمراد أنه لبسهما ، وفيه أن التوكّل لا يقتضي ترك مراعاة الأسباب .

تعالى في عوائده»^(١) .

٤٢ — ثم بين أن الخلائق ينقسمون حيال هذه الأسباب أقساماً ثلاثة فقال :

« قسم عاملوا الله تعالى باعتماد قلوبهم على قدرته مع إهمال الأسباب والعوائد ، فلجوا في البحار في زمن الهول ، وسلكوا القفار العظيمة المهلكة بغير زاد ... فهؤلاء فاقم الأدب ، وهم جماعة من العباد .

وقسم لاحظوا الأسباب وأعرضوا عن التوكل ، وهم عامة الخلق ، وهم شرّ الأقسام ، وربما وصلوا بذلك للكفر .

وقسم اعتمدت قلوبهم على قدرة الله تعالى ، وطلبوا فضله في عوائده ، ملاحظين في تلك الأسباب مسببها وميسرها ، فجمعوا بين التوكل والأدب ، وهؤلاء هم النبيون والصدّيقون وخاصة عباد الله ، العلماء بالله والعارفون بمعاملته . جعلنا الله منهم بمّنه وكرمه»^(٢) .

٤٣ — وقسم ابن جزى الأسباب من حيث الفعل والترك إلى ثلاثة أقسام :

« أحدها : سبب معلوم قطعاً ، قد أجراه الله تعالى ؛ فهذا لا يجوز تركه ، كالأكل لدفع الجوع ، واللباس لدفع البرد . والثاني : سبب مظنون ، كالتجارة وطلب المعاش ، وشبه ذلك ؛ فهذا لا يقدم^(٣) فعله في التوكل ، لأن التوكل من أعمال القلب ، لا من أعمال البدن ، ويجوز تركه لمن قوي عليه . الثالث : سبب موهوم بعيد ؛ فهذا يقدم^(٤) فعله في التوكل»^(٥) .

(١) الذخيرة (٢٤٨/١٣) .

(٢) الذخيرة (٢٤٨/١٣-٢٤٩) ، وترتيب الفروق (٣٧٨/٢) .

(٣) كذا في النص ، والصواب : « لا يقدم » .

(٤) والصواب : « يقدم » كما سبق .

(٥) التسهيل (٢١٨/١) .

٤٤ — وألح الشاطبي إلى أهمية تعاطي الأسباب بقوله :

« الصحابة قد كانوا حازوا رتبة التوكل ، ورؤية إنعام النعم من المنعم لا من السبب ، ومع ذلك فلم يتركوا الدخول في الأسباب العادية التي ندبوا إليها ، ولم يتركهم النبي ﷺ مع هذه الحالة التي تسقط حكم الأسباب وتقضي بانخراط العوائد ، فدل على أنها العزائم التي جاء الشرع بها ؛ لأن حال انخراط العوائد ليس بمقام يقام فيه ، وإنما محله الرخصة ، كما تقدم ذكره ، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام : « قيدها وتوكل » ؟ »^(١) .

٤٥ — ونقل محمد المختار قول الجمهور في تعاطي الأسباب والتقسيم الذي ذكره القرطبي فيما مضى عن حال الناس مع تعاطي الأسباب على سبيل الإقرار^(٢) .

٤٦ — وذكر ابن عاشور عند قول الله ﷻ : ﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾^(٣) :

« وبعد أن أمر القوم باتخاذ الأسباب والوسائل أمرهم بالتوكل على الله والاعتماد على وعده ونصره وخبر رسوله ... »^(٤) .

٤٧ — وذكر محمد الأمين الأدلة على أن تعاطي الأسباب لا يقدر في التوكل ، فقال : « ومن الأدلة على ذلك قول الله تعالى لمريم : ﴿ وهزي إليك الجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ﴾^(٥) مع أنه تعالى لو أراد لأسقطه لها بدون هزّ منها ، ومن أوضح الأدلة على ذلك قول يعقوب - الذي وصفه الله بالعلم في قوله : ﴿ وإنه ل ذو

(١) الموافقات (٥٠٧/٢) ، والحديث مضى تخريجه ص ٢٤٦ .

(٢) انظر نور الحق الصبيح (٧٢٨/٩) .

(٣) سورة المائدة : ٢٣ .

(٤) التحرير والتنوير (١٦٥/٤) .

(٥) سورة مريم : ٢٥ .

علم لما علّمناه ﴿١﴾ - : ﴿ وقال يا بَنِيَّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ ، محافظةً عليهم من العين ، ثم قال : ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلاّ لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ ﴿٢﴾ ، فقد أخذ بالأسباب والحيلة ، وصرح بأن الاعتماد على الله تعالى وحده ، فهو متوكل وأخذ الأسباب .

٤٨- — ومما يدل على أنّ السبب لا ينفع إلاّ بإرادة الله تعالى : ما قصّه الله في سورة الأنبياء وغيرها عن إبراهيم عليه السلام ، فالنار طبيعتها المستمرة الإحراق ، ولكن عندما لم يرد الله لها أن تؤثّر في إبراهيم أحرقت الحطب ، وكانت عليه برداً وسلاماً في آن واحد ، كما قال تعالى : ﴿ قالوا حرّقه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ ﴿٣﴾ .

فالمؤثّر في الحقيقة هو ربّ العالمين ، ولو شاء أن تتخلّف مقتضيات الأسباب لتخلّفت ، كما أنه لو شاء أن يجعل ما لم تجر العادة بأن يكون من الأسباب سبباً لجعله كذلك ﴿٤﴾ .

ومن خلال ما تقدّم من أقوال المالكية تعلم حقيقة التوكل عندهم ، وأنه من أعلى المقامات ، وأنّ المتعاطي للأسباب لا يقدر فعله في اعتماده على الله وَعَلَيْكُمْ ما دامت الأسباب أسباباً مشروعةً ، محذّرين في الوقت نفسه من الاعتماد على الأسباب وحدها دون مسبّها ، أو نبذ تلك الأسباب بالكلية ، فذاك عجز وضلال ينافي التوكل ، الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه ، ولا بدّ مع هذا من مباشرة الأسباب .

(١) سورة يوسف : ٦٨ .

(٢) سورة يوسف : ٦٧ .

(٣) سورة الأنبياء : ٦٨-٦٩ .

(٤) معارج الصعود (٢١٤ و ١١٣ و ٣٠٧) .

المسألة الرابعة : الصبر

للصبر منزلة عظيمة من الإيمان ، فقد ذكره الله تعالى في كتابه الكريم في تسعين موضعاً ، وقال عليه الصلاة والسلام : « فما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر » . رواه الشيخان^(١) .

وقال علي رضي الله عنه : « ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا قطع الرأس بان الجسد » ، ثم رفع صوته فقال : « ألا لا إيمان لمن لا صبر له »^(٢) .

وكلام أئمة المالكية عن هذا المقام - الصبر - في أمرين :

أولاً : معنى الصبر اصطلاحاً .

ثانياً : أنواع الصبر .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة ، باب الاستغفار عن المسألة (٣/٣٣٥) برقم (١٤٦٩) ، ومسلم في

كتاب الزكاة ، باب فضل التعفف والصبر (٢/٧٢٩) برقم (١٠٥٣) .

(٢) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة برقم (١٥٦٩) ، وأبو نعيم في الحلية (١/٧٦) . وأورده ابن

الجوزي في صفة الصفوة (١/١٤٦) .

أولاً : معنى الصبر اصطلاحاً

الصبر في اللغة : الحبس ، كما قال الجوهري^(١) : « الصبر حبس النفس عن الجزع ، وقد صبر فلان عند المصيبة يصبر صبراً ، وصبرته أنا حبسته ، قال الله تعالى : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ... ﴾^(٢) .

وقد أوضح علماء المالكية أن المعنى الشرعي للصبر هو نفس المعنى اللغوي ولكنه الحبس فيما يحمد شرعاً :

١— من ذلك ما أخرجه الإمام مالك بسنده عن أبي سعيد الخدري أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفذ ما عنده ، ثم قال : « ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطي أحد عطاءً هو خير وأوسع من الصبر »^(٣) .

فرواية الإمام مالك لهذا الحديث وما ترجم له بقوله : « باب التعفف عن المسألة » يبين المعنى الشرعي للصبر ، وهو حبس النفس عن المسألة رجاء ما عند الله ﷻ .

٢— يوضح هذا المعنى ما ذكره ابن عبد البر عند هذا الحديث :

« وفيه الحظ على التعفف والاستغناء بالله عن عباده والتصبر ، وأن ذلك أفضل ما أعطيه الإنسان ، وفي هذا كله فهي عن السؤال وأمر بالقناعة والصبر ... »^(٤) .

(١) الصحاح (٧٠٦/٢) مادة صبر . ط. دار العلم للملايين - الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ ، وانظر معجم

مقاييس اللغة لابن فارس (٣٢٩/٣) ط. دار الجليل .

(٢) سورة الكهف : ٢٨ .

(٣) الموطأ (٧٦٢/٢) باب التعفف عن المسألة .

(٤) التمهيد (١٣٢/١٠) .

٣- وبين أنّ الصوم يسمى صبراً في لسان العرب ، ثم نقل قول أبي بكر الأنباري في أنّ « الصوم يسمى صبراً ، لأنه حبس النفس عن المطاعم والمشارب والمناكح والشهوات »^(١) .

فبين فيما نقله أن الصبر هو حبس النفس عن الشهوات ، من مطعم وغيره .

٤- وقال ابن بطال :

« الصبر في لسان العرب : حبس النفس عن المطلوب حتى يدرك ، ومنه نهيته ﷺ عن صبر البهائم ، يعني أنه نهي عن حبسها على التمثيل بها ، ورميها كما ترمى الأغراض »^(٢) .

٥- وفسر فيما نقله كلام علي عليه السلام السابق : « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد » ، فقال :

« وصدق علي ؛ وذلك أنّ الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح ، فمن لم يصبر على العمل بشرائعه لم يستحق اسم الإيمان بالإطلاق ، والصبر على العمل بالشرائع نظير الرأس من جسد الإنسان الذي لا تمام له إلاّ به ، وهذا في معنى حديث أنس وجابر أن الصبر نصف الإيمان ، وعامة المواضع^(٣) التي ذكر الله فيها الصبر وحث عليه عباده إنما هي مواضع الشدائد ، ومواطن المكاره التي يعظم على النفوس ثقلها ، ويشتد عندها جزعها ، وكل ذلك محن وبلاء ، ألا ترى قوله ﷺ للأَنْصار : « لن تعطوا عطاءً خيراً وأوسع من الصبر » . »^(٤) .

(١) التمهيد (١٣٢/١٠) .

(٢) شرح البخاري (٢٨٥/٩) .

(٣) إن قصد بقوله « عامة المواضع » أكثرها فهذا له حال ، وإن قصد كلها فليس بصحيح ، قال تعالى :

﴿ واصطبر لعبادته ﴾ ، فهذا صبر على الطاعة بنص الآية .

(٤) شرح البخاري (٢٨٥/٩) .

٦— وبين الطرطوشي معنى الصبر ، فقال :

« الصبر حبس النفس على الأوامر والمكاره »^(١) .

٧— وحيث إن حبس النفس عما تنزع إليه من أعظم مكروهاها فقد عرف ابن العربي الصبر بأنه « حبس النفس عما تكرهه من تسريح الخواطر وإرسال اللسان وانبساط الجوارح على ما يخالف حال الصبر »^(٢) .

ولما كان الحبس الذي تكرهه النفس منعها من الجزع والتسخط ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن الفعل المخالف للشرع :

٨— فقد نقل محمد المختار قول ابن حجر مقرأ له في بيان معنى الصبر ، فقال :

« وأحسن ما فسر به الصبر : أنه حبس النفس عن المكروه ، وعقد اللسان عن الشكوى ، والمكابدة في تحمله وانتظار الفرج »^(٣) .

٩— ونظراً لأن النفس تنفر من كل أمر يخالف هواها ، فقد نبه ابن عاشور إلى أن الصبر « هو عبارة عن احتمال النفس أمراً لا يلائمها ، إما لأن مآله ملائم ، أو لأن عليه جزاءً عظيماً ، فأشبه ما مآله ملائم ، أو لعدم القدرة على الانتقال عنه إلى غيره مع تجنب الجزع والضجر ، فالصبر احتمال وثبات على ما لا يلائم »^(٤) .

١٠— وذكر المازري أن الصبر « هو منع النفس من التشفي والانتقام ، أو منعها من غير ذلك »^(٥) .

(١) سراج الملوك (٨٤) .

(٢) أحكام القرآن (٧٧-٧٦/٤) .

(٣) نور الحق (٦٥٢/٩) . وانظر فتح الباري (٣٠٣/١١) .

(٤) التحرير والتنوير (٤٧٨/١) .

(٥) إكمال المعلم (٣٣٦/٨) .

١١— وقال التتائي :

« الصبر هو حبس النفس وربط القلب بخاتم الامتناع مما حل بها »^(١) .

١٢— وعرف محمد الأمين الصبر بأنه « حبس النفس »^(٢) .

ومرادهم قصر النفس على كل أمر يكون فيه نجاحها وسلامتها ، وإن كان في ظاهره مخالفاً للشهوات والرغبات ، إلا أن مآله يكون مآلاً حسناً .

١٣— ولذا قال القرطبي :

« الصبر الحبس ... وهو باب جهاد النفس وقمعها عن شهواتها ، ومنعها من تطاولها ، وهو من أخلاق الأنبياء والصالحين »^(٣) .

وبهذه النقول عن أئمة المالكية ما يكفي إن شاء الله تعالى لبيان المعنى الاصطلاحي للصبر عندهم .

(١) تنوير المقالة (٥٦٩/٢) .

(٢) معارج الصعود (٥٦) .

(٣) تفسير القرطبي (٣٧٢-٣٧١/١) .

ثانيًا : أنواع الصَّبر

ذكر المالكية أنَّ للصبر أنواعًا يَبْنُوها بعد حديثهم عن المعنى الاصطلاحي للصبر ، وبذلك يكتمل ما ذكروه عن هذا الخلق العظيم - الصبر - ، وهو : الصبر على طاعة الله تعالى ، والصبر عن معصيته ، والصبر على أقدار الله المؤلمة .

١٤ — ويحسن البداة هنا بما ذكره ابن العربي ، حيث قسم الصبر إلى أنواع ثلاثة ، فقال :

« الأول : الصبر على الطاعة .. الثاني : الصبر على^(١) المعاصي ... الثالث : الصبر على الأذى ، قال الله سبحانه : ﴿ ولنصبرنَّ على ما آذيتونا ﴾^(٢) ، وذلك هو الصبر على البلاء^(٣) .

١٥ — وذكر القرطبي نحو قول ابن العربي هذا عند قوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾^(٤)^(٥) .

١٦ — وقال ابن بطال :

« أرفع الصابرين منزلة عند الله من صبر عن محارم الله ، وصبر على العمل بطاعة الله ، من فعل ذلك فهو من خالص عباد الله وصفوته^(٦) .

١٧ — ثم ذكر الأقسام الثلاثة للصبر مجتمعة فيما رواه عن علي بن أبي طالب عليه السلام أن النبي ﷺ قال : « الصبر ثلاثة : فصبر على المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر

(١) كذا في النص ، والصواب : « عن المعاصي » .

(٢) سورة إبراهيم : ١٢ .

(٣) عارضة الأحوذى (١٧٩/٨) .

(٤) سورة البقرة : ٤٥ .

(٥) تفسير القرطبي (١٧٤/٢) .

(٦) شرح صحيح البخاري (٢٨٤/٩) .

على المعصية^(١)^(٢) .

١٨ — ونحو من قول ابن بطلال ما ذكره الطرطوشي عند قول الله تعالى : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾^(٣) بقوله :

« أخبر الله تعالى أنه أثابهم جنته بصبرهم ، يعني صبرتم على طاعة الله ، وصبرتم عن معصية الله ... فمن أمارات حسن التوفيق ، وعلامات السعادة الصبر في الملمات ، والرفق عند النوازل »^(٤) .

فانتظم في قوله ذلك أنواع الصبر : صبر على طاعة الله ، وصبر عن معصية الله ، وصبر على الأقدار المؤلمة .

١٩ — وفي موضع آخر قال :

« الصبر على أربعة أقسام ، فأول أقسامه وأولها : الصبر على امتثال أمر الله ، والانتفاء عما نهى الله عنه ، والثاني : الصبر على ما فات إدراكه من مسرة أو تقضت أوقاته من مصيبة ، والثالث : الصبر فيما ينتظر وروده من رغبة ترجوها أو يخشى حدوثه من رهبة يخافها ، والرابع : الصبر على ما نزل من مكروه أو حل من أمر مخوف ، وجميع أقسامه محمودة بكل لسان وفي كل ملة ، وعند كل أمة مؤمنة أو كافرة »^(٥) .

فما ذكره أخيراً لا يتنافى مع كلامه السابق ، إذ إن الصبر على الامتثال والانتفاء

(١) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب عن علي عليه السلام برقم (٣٨٤٦) . وأورده المناوي في فيض القدير (٥١٣٧) ، والسيوطي في الدر المنثور (٦٦/١) ورمز له بالضعف . وقال ابن الجوزي : والحديث موضوع .

(٢) شرح صحيح البخاري (٢٨٤/٩) .

(٣) سورة الرعد : ٢٤ .

(٤) سراج الملوك (٨٤) .

(٥) سراج الملوك (٨٥) .

عما نهي عنه هو الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية ، وما تبقى كله يدخل ضمن الصبر على الأقدار المؤلمة .

٢٠— وأوضح ابن جزى أنّ للصبر أربعة أقسام ، فقال :

« صبر على البلاء ، وهو منع النفس من التسخيط والهلع والجزع ، وصبر على النعم ، وهو تقييدها بالشكر ، وعدم الطغيان ، وعدم التكبر بها ، وصبر على الطاعة بالمحافظة والدوام عليها ، وصبر عن المعاصي بكف النفس عنها »^(١) .

وهذه الأقسام للصبر لا تخرج عما تقدم ، إذ إن الصبر على النعم يؤول في الحقيقة إلى الصبر على الأقدار ؛ لأن الابتلاء قد يكون بالسراء والضراء ، كما قال تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾^(٢) .

٢١— ونقل محمد المختار قول ابن حجر مقرأً له في تقسيم الصبر ، فقال :

« ... ثم الصبر على ثلاثة أقسام : صبر عن المعصية فلا يفعلها ، وصبر على الطاعة فلا يتركها ، وصبر على البلية فلا يشكو ربه فيها ... والمرء لا بد له من كل واحدة من هذه الثلاث »^(٣) .

٢٢— وهذا التقسيم الثلاثي للصبر ذكره محمد المكي ، فقال :

« صفة الصبر تقتضي الصبر عن المعاصي والخصال الذميمة ، وذلك بالابتعاد عنها وعدم تناولها ، والصبر على الطاعات والخصال الحميدة ، وذلك بالتمسك بها وعدم إهمالها ، والصبر عند مفاجآت الأقدار ، وذلك بعدم السخط من أجلها وعدم

(١) التسهيل (١/١١٥) .

(٢) سورة الأنبياء : ٣٥ .

وفي هذا المعنى قول أبي تمام :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويتلي الله أدنى القوم بالنعم

انظر خزانة الأدب وغاية الأرب لتقي الدين أبي بكر الحموي (٢/٣٧٧) ، ط. دار الكتب العلمية -

بيروت ، ط. الأولى ١٩٨٧ م .

(٣) نور الحق (٩/٦٥٤) .

الاعتراض على الله فيها»^(١) .

٢٣— وقد أشار الإمام مالك إلى نوع من أنواع الصبر ، وهو الصبر على أقدار الله المؤلمة ، وذلك فيما رواه بسنده من حديث النهي عن المسألة الذي جاء في آخره :

« وما أعطي أحد عطاءً هو خير وأوسع من الصبر »^(٢) .

٢٤— ومن ذلك قول ابن أبي زيد القيرواني :

« وحسن التعزي والتصبر أجمل »^(٣) .

ومراد الصبر على الأقدار المؤلمة عند حلول الموت وترك البكاء .

٢٥— ومثل ذلك - أي الصبر على الأقدار المؤلمة - ما ذكره القرطبي عند حديث أبي هريرة : « ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء »^(٤) بقوله :

« وفائدة هذا الحديث احتساب المصائب والصبر عليها ، وانتظار الثواب عليها ، والخوف من عدم المصائب وبسط الدنيا »^(٥) .

٢٦— وعند حديث الساحر والغلام في تفسير سورة البروج^(٦) وما لقيه الغلام من الصلب والقتل قال :

« وهذا الحديث كله إنما ذكره النبي ﷺ لأصحابه ليصبروا على ما يلقون من الأذى والآلام والمشقات التي كانوا عليها ، ليتأسوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلبه

(١) التيسير (١٣٠/٥) .

(٢) سبق تخريجه ٢٦١ .

(٣) الرسالة (٦٨) .

(٤) خرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب مثل المؤمن كالزراع ومثل الكافر كشجر الأرز (٢١٦٣/٤) رقم (٢٨٠٩) .

(٥) المفهم (١٢٧/٧) .

(٦) خرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق ، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام (٢٣٠٠/٤) برقم (٣٠٠٥) .

في الحق وتمسكه به ^(١) .

فهذا الصبر الجليل الذي ذكره هنا هو الصبر على أقدار الله المؤلمة ، ولا ريب أن المؤمنين إذا كان مأمورًا بالصبر على تلك الأقدار المؤلمة فمن باب أولى أن يؤمر بالصبر على امتثال أمر الله واجتناب نهيه ، فالدين أمر ونهي كما لا يخفى .

٢٧— وقد جعل محمد الأمين ذلك سببًا للفوز بالجنة عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا لئهم هم الفائزون﴾ ^(٢) ، فقال :

« أي بسبب صبرهم في دار الدنيا على أذى الكفار الذين اتخذوهم سخرى ، وعلى غير ذلك من امتثال أمر الله واجتناب نهيه ^(٣) .

فجمع أنواع الصبر الثلاثة لنيل الفوز ، وهو المطلوب الأعظم في الآخرة .

وختامًا يتبين من كلام المالكية عن الصبر أن الصبر المحمود عندهم هو حبس النفس على طاعة الله ﷻ ، والانكفاف عن معصيته والصبر على قضائه وحكمه ، فمن حقق ذلك المقام فهو الصابر حقيقة ، وله حظ من قوله تعالى : ﴿وبشر الصابرين﴾ ^(٤) ، وقوله تعالى : ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ ^(٥) ، وقوله تعالى : ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحيةً وسلامًا﴾ ^(٦) .

(١) المفهم (٤٢٦/٧) .

(٢) سورة المؤمنون : ١١١ .

(٣) أضواء البيان (٨٢٩/٥) .

(٤) سورة البقرة : ١٥٥ .

(٥) سورة الزمر : ١٠ .

(٦) سورة الفرقان : ٧٥ .

المسألة الخامسة : التوبة

أفاض المالكية في كلامهم عن التوبة ، وتنوعت مسالكهم في إثبات حقيقة التوبة ، فمنهم من يذكر الشروط على أنها التوبة إذا اكتملت وتحققت ، وبعضهم يعبر عنها بالأركان .

وعلى كل حال فهذا لا يؤثر ؛ إذ العبرة بتحقيق رجوع العبد إلى ربه ، واستقامته على طاعته ولا يضر بعد ذلك تعدد المسميات .

وسوف أبين كلام المالكية في التوبة من خلال الآتي :

أولاً : بيان معنى التوبة .

ثانياً : بيان شروط التوبة .

أولاً : بيان معنى التوبة

التوبة في اللغة : الرجوع .

قال ابن فارس : « التاء والواو والباء كلمة واحدة تدل على الرجوع ، يقال : تاب من ذنبه ، أي رجع عنه »^(١) .

وحقيقة التوبة في الشرع : الرجوع إلى الله ﷻ مما يكرهه ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً^(٢) ، وهي عبادة لا يجوز أن تصرف إلا لله ﷻ ، وقد بين المالكية هذا المعنى :

١— ومن ذلك ما ذكره ابن القاسم عن مالك : أنه سئل عن الرجل المحدود في القذف الذي يعرف بالصلاح والحالة الحسنة قبل القذف ، كيف يعرف من توبته حتى تقبل شهادته ، قال :

« إذا زاد خيراً على حالته التي كان عليها ، والناس يزدون في الخير ، وقد كان عمر بن عبدالعزيز عندنا بالمدينة رجلاً صالحاً ، ثم ولي الخلافة فزاد على حالته التي كان عليها وزهد في الدنيا ، فبهذا يعتبر وإن كان داعراً حين ضرب في الحد في القذف فعرفت توبته ، فهذا تقبل شهادته ، فأرى إن أقام على الشهود البينة أنهم قد جلدوا في القذف ، فإن القاضي ينظر إلى حالهم اليوم وإلى حالتهم قبل اليوم ، فإن عرف منهم تزييداً في الخير أو توبة عن حالة كانت لا ترضى قبل شهاداتهم »^(٣) .

فجعل الإمام مالك توبة ورجوع المحدود في القذف من تلك المعصية وغيرها من الآثام ، والإقبال على الخير والزيادة منه شرطاً لقبول شهادته .

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة (١/٣٥٧) .

(٢) انظر قريباً من هذا المعنى عند الطرطوشي في الدعاء المأثور (٢٢٧) .

(٣) المدونة (٦/٢٨٤-٢٨٥) .

٢— وأخذ ابن القاسم بقول مالك في ذلك ، فقال :

« لا تقبل شهادته حتى يحدث توبة وخيراً مثل ما وصفت لك من قول مالك »^(١) .

٣— وبين مالك أن المحارب المنفي لا يخلى سبيله حتى يصدق في توبته ورجوعه عن فعلته ، فحين سئل : كم يسجن حيث ينفي ؟ قال :

« يسجن حتى تعرف له توبة »^(٢) .

٤— وقال ابن وهب في بيان معنى الأواب بأنه « العبد يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب » .

٥— وبين ابن رشد معنى قول ابن وهب أنه الذي « كلما وقع في ذنب تاب منه ورجع إلى طاعة ربه ... » ، ثم أورد أثر ابن عباس في معنى الأواب : « أنه الذي حفظ ذنوبه ثم رجع عنها »^(٣) .

فبين معنى الأواب : أنه رجوع العبد عن الذنوب ، وهو معنى التوبة .

٦— ولذا فسر قول الله تعالى : ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾^(٤) بأنه : « الرجاء إلى طاعة الله ، تواب إليه مما يكرهه منه »^(٥) .

٧— وبين القاضي عياض أن « التوبة من الذنب هي الندم عليه ، وأصله الرجوع يقال : تاب وتاب وآب وأناب ، بمعنى رجع ، استعمل منه في الرجوع عن

(١) انظر : المدونة (٢٤٨/٦) .

(٢) المدونة (٢٩٩/٦) .

(٣) البيان والتحصيل (٥١٣/١٨-٥١٤) .

(٤) سورة ص : ٤٤ .

(٥) المصدر نفسه (٥١٤/١٨) .

الذنب»^(١) .

٨— ومثله ما ذكره القرطبي في بيان معنى التوبة بقوله :

« أصل التوبة الرجوع ، يقال : تاب وتاب وآب وأتاب : رجع ، وتاب العبد : رجع إلى طاعة ربه ، وعبد ثواب : كثير الرجوع إلى الطاعة »^(٢) .

٩— وأشار ابن أبي زيد لمعنى التوبة حين بين ما هو ضد للتوبة - وهو الإصرار - ، فقال عن التوبة إنها « فريضة من كل ذنب من غير إصرار ، والإصرار المقام على الذنب واعتقاد العود عليه »^(٣) .

١٠— وبعد أن بيّن الطرطوشي معنى التوبة لغة قال : « فالتوبة في الشرع : الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود في الشرع »^(٤) .

١١— وقال ابن عبد البر :

« التوبة أن يترك ذلك العمل القبيح بالنية والفعل »^(٥) .

ومراذه الرجوع عن ذلك العمل إلى طاعة الله ﷻ .

١٢— وعرف المازري التوبة من الذنب ، فقال :

« هي الندم عليه رعايةً لحق الله تعالى »^(٦) .

والذي يندم على فعل شيء لا يعود إليه في الغالب ، بل يرجع إلى الله تعالى

(١) إكمال المعلم (٢٤٠/٨) .

(٢) تفسير القرطبي (٣٢٤/١) .

(٣) الرسالة (١٩٤) .

(٤) الدعاء المأثور وآدابه (٢٧٧-٢٧٨) .

(٥) التمهيد (١٢/١٥) .

(٦) المعلم (١٨٨/٣) .

نادمًا ، وهو ما أشار إليه بقوله : « رعاية لحق الله تعالى » .

١٣ — وأوضح ابن عطية أن التوبة من العبد : « الرجوع عن المعصية »^(١) .

وفي موضع آخر قال :

« تاب معناه : رجع ، فتوبة العبد رجوعه عن المعصية إلى الطاعة »^(٢) .

١٤ — ولما كانت المعصية شرًّا والطاعة خيرًا قال في معنى « التوبة في عرف الشرع : الرجوع من شر إلى خير »^(٣) .

١٥ — وعند قوله تعالى : ﴿ وأنبئوا إلى ربكم وأسلموا له .. ﴾^(٤) قال :

« معناه : أي ارجعوا وميلوا بنفوسكم ، والإنابة : الرجوع بالنفس إلى الشيء »^(٥) .

١٦ — ونظيره قول ابن العربي في التوبة إنها « رجوع العبد عن حالة المعصية إلى حالة الطاعة »^(٦) .

١٧ — وبين أبو العباس القرطبي معنى التواب أنه الذي يقع منه الذنب ثم يعود إلى التوبة^(٧) .

فص على أن التوبة الرجوع عن الإثم .

١٨ — وقال ابن باديس : « التوبة : الرجوع إلى الله ، أي الرجوع من معصية

(١) المحرر الوجيز (١/٢٦٢) .

(٢) المصدر السابق (١٤/٥٢٤) .

(٣) المصدر نفسه (٣/٥٣٢) .

(٤) سورة الزمر : ٥٤ .

(٥) المحرر الوجيز (١٢/٥٥٣) .

(٦) أحكام القرآن (١/٢٣٧) .

(٧) المفهم (٧/٨٥) .

الله إلى طاعته»^(١) .

١٩— وأوضح ابن عاشور « أن أصل معنى " تاب " : رجع ، ونظيره بالمثلثة ، وقال : إنها رجوع من التائب إلى الطاعة ونبذ للعصيان»^(٢) .

٢٠— وعرف الشيخ محمد الأمين التوبة بقوله :

« هي الرجوع عن الذنب ، والإنابة إلى الله بالاستغفار منه»^(٣) .

وبذلك يتبين أن المعنى الشرعي للتوبة هو الرجوع إلى الله تعالى ، كما قرره أئمة المالكية .

(١) تفسير ابن باديس (٢٢٤) .

(٢) التحرير والتنوير (٤٣٨/١) .

(٣) أضواء البيان (٢٠٣/٦) .

ثانيًا : بيان شروط التوبة

يُبين المالكية أنّ حقيقة التوبة لا تتم إلاّ بتوفر شروطها والإتيان بها ، وإلا لم تصحّ التوبة ، ويمكن تقسيم هذه الشروط إلى قسمين :

الأول : الشروط المتعلقة بالذنب .

الثاني : اشتراط أجل للتوبة .

أولاً : الشروط المتعلقة بالذنب :

يرى المالكية تقسيم الذنب إلى قسمين : ذنب فيما بين العبد وبين ربه ، وذنب فيما بينه وبين الناس ، وعلى هذا فمنهم من يجعل الشروط للتوبة ثلاثة ، ومنهم من يزيد على ذلك شرطاً ، وعلى كل حال من ذكر ثلاثة شروط فيعني بها المتعلق بحق الله تعالى ، ومن زاد على الثلاثة فبسبب ما تضمنته من حق الآدمي ، والتوبة الصادقة لا بد أن تشمل على سائر الحقوق وردّها إلى أهلها والتحلل منها .

٢١— وأترك الكلام لهم في بيان تلك الشروط ، وهي كما بين الدسوقي^(١) أن منها ما هو متعلق بالماضي ، ومنها ما هو متعلق بالحال ، ومنها ما هو متعلق بالمستقبل ، فجعل المتعلق باعتبار الحال : الإقلاع ، وباعتبار الماضي : الندم ، وباعتبار المستقبل : العزم على أن لا يعود . فأنت على جميع الأزمنة ، لكل منها حظ من التوبة ، ويعبر عنها بالأركان أو الشروط^(٢) .

وهذه الشروط بالنسبة للتائب منها ما هو متعلق بقلبه ، ومنها ما هو متعلق بجوارحه :

٢٢— كما قال ابن باديس من خلال تعريفه للتوبة :

« ... وذلك بالندم على ما فات ، والعزم على عدم العود إليه ، وهذا من عمل القلب ، وبالإقلاع عما هو متلبس به ، وهذا من عمل الجوارح »^(٣) .

ولم يذكر ما يتعلق بالندم من جهة متعلقه ، وهو متعلق بالقلب كما لا يخفى . فأما عن شرط الإقلاع فإنه مربوط بحالة محددة لا يتصور حصوله إلا إذا وجدت ، وهي حالة التلبس بالذنب ، كما أوضح ذلك الطرطوشي وهو يعدد

(١) هو محمد بن عرفة الدسوقي ، شمس الدين الأزهري ، له من التصانيف : حاشية على الدردير . مات سنة ١٢٣٠هـ . انظر شجرة النور (١/٣٦٣) .

(٢) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (١/٤٠٧) . ط. دار إحياء الكتب العربية .

(٣) تفسير ابن باديس (٢٢٤) .

شروط التوبة بقوله :

٢٣ — « أولاً : الإقلاع عما هو متضمن^(١) به والخروج عنه . ثانياً : الندم على ما فعل من المخالفات . ثالثاً : العزم على أن لا يعود لمثلها . فإن اختلّ منها ركن لم تصح توبته »^(٢) .

٢٤ — وكذا ما ذكره محمد الأمين مبينا شروط التوبة بقوله :

« الإقلاع عن الذنب إن كان متلبساً به . الثاني : الندم على ما وقع منه من المعصية . والثالث : النية أن لا يعود إلى الذنب أبداً »^(٣) .

وهذه الشروط الثلاثة إنما تجب مجتمعة ، في حال تمكن التائب من الفعل والقدرة عليه ، أما إذا لم يتمكن فلا يتصور عزمه على الفعل ، لعدم تمكنه منه . وكذا شرط الإقلاع لا يتصور إلا في حال التلبس بالذنب كما في القولين السابقين .

٢٥ — وقد نبه ابن عطية على أن توبة العاجز تصح منه ، إذ لا يمكن عوده إلى الذنب مع عجزه عن مقارفته . فبعد أن ذكر شرطين للتوبة قال :

« هذا من الممكن ، وأما غير الممكن كالمجبوب^(٤) في الزنا ، فالندم وحده يكفي »^(٥) .

٢٦ — وزاد هذا المعنى إيضاحاً ، فقال :

« وإن كان ذلك الفعل لا يمكنه ، مثل أن يتوب من الزنا فيجب بأثر ذلك ونحو

(١) قال ابن الأثير : « التضمن : هو التلطيخ بالطيب وغيره » . النهاية (٩٩/٣) .

(٢) الدعاء المأثور وآدابه (٢٧٨) .

(٣) أضواء البيان (٢٠٣/٦) .

(٤) جبه جباً وجباً : قطعه ، ومنه الحديث : « الإسلام يجب ما قبله » ، أي : يحو ويقطع ما كان قبله من الكفر والذنوب . ويقال : جبّ الخصى : استأصلها . انظر المعجم الوسيط (١٠٤) .

والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩٩/٤) ، والحاكم (٢٩٧/٣ ، ٢٩٨ ، ٤٥٤) ، والبيهقي في

السنن (١٢٣/٩) . قال الأرئوط : إسناده حسن في المتابعات والشواهد . حاشية المسند (١٩٩/٤) .

(٥) المحرر الوجيز (٥٢٥/١٤) .

ذلك ، فهذا لا يحتاج إلى شرط العزم على الترك»^(١) .

٢٧— ونظيره ما ذكره القرافي بقوله :

« وقد يكون الندم وحده توبة في حق العاجز عن العزم والإقلاع ، كمن كان يعصي بالنظر إلى المحرمات فعمي ، أو بالزنا فحُبَّ ؛ لقوله ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم »^(٢) ، فيجب الندم وحده ، وعليه حمل قوله ﷺ : « الندم توبة »^(٣) ، أو يحمل على أن معظمها الندم كما قال ﷺ : « الحج عرفة »^(٤) »^(٥) .

٢٨— وقد رجح القاضي عياض ما نقله عن بعض العلماء في بيان شروط التوبة بقوله :

« ذهب بعض مشايخنا إلى أن التوبة الإقلاع عن الذنب ، والندم على ما سلف ، والعزم على ألا يعاوده »^(٦) .

٢٩— ثم قال :

« وهذه الشروط في صحة التوبة - من الندم على الذنب السالف والإقلاع عنه في الحال والمستقبل - ، وهذا إذا لم يتعلق بالذنب تباعة ، فأما إن تعلق به مع ارتكابه حق لله تعالى أو لآدمي فلا بد من شرطين : أحدهما متفق عليه في حق الآدمي ، وهو

(١) الذخيرة (٣٥٦/١٣) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٢٥١/١٣) رقم (٧٢٨٨) .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٦١/٩) ، وأحمد (٣٥٦٨) ، وابن ماجه (٤٢٥٢) ، والبغوي في شرح السنة (١٣٠٧) ، والبيهقي في السنن (١٥٤/١٠) . قال الأرئوط : وهذا طريق موصول يصح به . انظر كلامه في حاشية الإحسان (٣٧٨/٢) .

(٤) الحديث عند ابن خزيمة (٢٥٧/٤) رقم (٢٨٢٢) في باب ذكر الدليل على أن الحاج إذا لم يدرك عرفة قبل طلوع الفجر يوم النحر فهو فائت الحج غير مدركه ، والحاكم (٦٣٥/١) رقم (١٧٠٣) . قال الأعظمي : إسناده صحيح . انظر تعليقه على ابن خزيمة (٢٥٧/٤) .

(٥) الذخيرة (٣٥٦/١٣) .

(٦) إكمال المعلم (٢٤١/٨) .

رد مظلمته إليه والخروج له عنها ، أو يحلله منها بطيب نفسه . الثاني : المختلف فيه ، وهو ما كان من حق الآدمي فيما لا يصح الإقلاع دونه ، كضربه أو قتله ، أو إفساد ما يلزمه غرمه ، وكذلك في حق الله فيما ضيعه من فرائضه ، فإن الإقلاع عن ذلك توبة صحيحة مستقلة بنفسها»^(١) .

فزاد بذلك على الشروط الثلاثة المتعلقة بحق الله ما كان حقا لآدمي تجب مراعاته ، وبهذه تصح التوبة .

٣٠— ونقل ابن بطلال قول ابن المبارك مقرأً له في بيان شروط التوبة حيث ذكر من ذلك « الندم على ما مضى ، والعزم على أن لا يعود ، ورد المظالم وتأديتها»^(٢) .

٣١— وفي موضع آخر صرح بشروط التوبة ، فقال - وهو يتكلم عن الكبائر - :

« فأهل السنة مجمعون على أنه لا بد فيها من التوبة والندم والإقلاع واعتقاد أن لا عودة فيها»^(٣) .

فانتظم في قوله هذا شروط التوبة الثلاثة .

٣٢— وجعل ابن عبد البر تحقق شروط التوبة هو معنى التوبة ، وذلك « بأن يترك العمل القبيح بالنية والفعل ، ويعتقد أن لا يعود إليه أبدًا ، ويندم على ما كان منه ، فهذه التوبة النصوص المقبولة إن شاء الله ... »^(٤) .

٣٣— وأوضح القرطبي أبو عبد الله أن الله ﷻ لا يقبل التوبة إلا « إذا كانت بشروطها المصححة لها ، وهي أربعة : الندم بالقلب ، وترك المعصية في الحال ،

(١) إكمال المعلم (٢٤٢/٨) .

(٢) شرح صحيح البخاري (٨٠/١٠) .

(٣) المصدر نفسه (١٥٥/٢) .

(٤) التمهيد (١٢/١٥) ، وانظر (٧٨/٥) .

والعزم على أن لا يعود لمثلها ، وأن يكون ذلك حياءً من الله لا من غيره»^(١) .

٣٤— وبعد أن نقل أبو العباس القرطبي كلام العلماء في بيان معنى التوبة فمن « قائل يقول : إنها الندم ، وآخر يقول : إنها العزم على ألا يعود ، وآخر يقول : الإقلاع عن الذنب ، ومنهم من يجمع بين الأمور الثلاثة . قال : وهو أكملها »^(٢) .
فجعلوا تحقق شروط التوبة هي حقيقة التوبة ، وذلك لأن الشرط إذا تحقق تحقق المشروط .

٣٥— وفي موضع آخر أكد هذه الشروط فقال :

« فحق النائب أن يجعل ذنبه نصب عينيه وينوح دائماً عليه حتى يتحقق أنه قد غفر له ذنبه ، ولا يتحقق أمثالنا ذلك إلا بقاء الله تعالى ، فواجب عليه ملازمة الخوف من الله تعالى والرجوع إليه بالندم على ما فعل ، وبالعزم على ألا يعود إليه ، والإقلاع عنه »^(٣) .

٣٦— وأفاض القرافي في الكلام على التوبة مبيناً حكمها ، ومتى تلزم العبد ، وما يترتب عليها ، فقال :

« التوبة واجبة بالإجماع على الفور ، وهي تمحو ما تقدمها من آثام الذنوب المتعلقة بالله تعالى ، لا تسقط حقوق العباد ولا حق الله تعالى الذي ليس بذنب ، كقضاء الصلوات^(٤) ونحوها ، فإن ترتب العبادات والحقوق في الذمم هو تكليف تشريف لا إثم وعقوبة ... » .

٣٧— ثم بين شروط التوبة ، فقال :

« الندم على المعصية ، والعزم على عدم العود ، والإقلاع في الوقت الحاضر عما

(١) تفسير القرطبي (٩١/٥) .

(٢) المفهم (٦٩/٧) .

(٣) المفهم (٢٨/٧) .

(٤) وهذا عند من يرى وجوب قضاء الصلاة على من تركها قهواً .

تاب عنه ^(١) .

٣٨— وذكر ابن أبي جمرة نحوه من قول القراني في بيان الشروط ، فقال :

« الندم ، والإقلاع ، ورد المظالم ، والعزم على أن لا يعود » ^(٢) .

٣٩— وبين أن هذه الشروط متضمنة لما نص عليه النبي ﷺ في قصة الإفك ^(٣) .

٤٠— وقال ابن جزري :

« التوبة واجبة على كل مكلف بدليل الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، وفرائضها

ثلاثة : الندم على الذنب من حيث عصي به ذو الجلال ، لا من حيث أضر بيدن أو

مال ^(٤) ، والإقلاع عن الذنب في أول أوقات الإمكان من غير تأخير ولا توان ،

والعزم ألا يعود إليها أبداً ، ومهما قضى عليه بالعود أحدث عزماً مجدداً » ^(٥) .

فحصره شروط التوبة في ثلاثة إنما هو في التفريط في حقوق الله تعالى .

٤١— وسلك التتائي مسلك ابن جزري في ذكر ثلاثة شروط للتوبة ^(٦) ، ثم فصل

القول في اشتراط رد المظالم إلى أهلها موضحاً أنه قول الجمهور ^(٧) .

٤١— وأوضح الشاذلي أن للتوبة شروطاً ثلاثة :

« الأول : الندم على ما مضى من المعصية لرعاية حق الله تعالى ، فمن ترك

(١) الذخيرة (٣٥٥/١٣) .

(٢) بهجة النفوس (٦٦/٣) .

(٣) أخذه من قوله عليه الصلاة والسلام لعائشة : « إن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه » .

(٤) المقصود بالبدن والمال هنا بدن ومال المذنب نفسه ، أما لو أخذ بيدن أو مال غيره فلا بد أن يندم على ذلك ، وهذا لا يتم الندم لله إلا به ، لأن الله حرم ذلك عليه ، فيندم على اقتحامه أمر الله وتجاوز حده في هذا التعدي .

(٥) التسهيل (١٤١/٣) .

(٦) تنوير المقالة (٢٥٩/١-٢٦٠) .

(٧) انظر : تنوير المقالة (٢٦٠/١) .

المعصية من غير ندم لا يكون تائباً شرعاً ، وكذلك من ندم عليها لكونها أضرت به في بدنه .

الثاني : العزم على ألا يعود في المستقبل .

الثالث : الإقلاع في الحال ، فيرد المظالم إن أمكن وإلا فيرجع إلى الله تعالى بالتضرع والتصدق ليرضي عنه خصمه ...»^(١) .

٤٣ — وبسط العدوي الكلام في حاشيته على قول الشاذلي السابق عن شروط التوبة^(٢) .

٤٤ — ونقل محمد المختار قول ابن حجر مقرأ له في بيان معنى التوبة ، فقال : « التوبة في الشرع : ترك الذنب لقبحه ، والندم على فعله ، والعزم على عدم العود إليه ، ورد المظلمة إن كانت ، أو طلب البراءة من صاحبها »^(٣) .

٤٥ — وأورد محمد المكي قول العلماء في بيان التوبة النصوح بقوله : « هي أن يقلع المؤمن عن الذنب في الحاضر ، ويندم على ما سلف منه في الماضي ، ويعزم على ألا يفعل الذنب في المستقبل »^(٤) .

وعلى هذا فشروط التوبة المتعلقة بالذنب التي ذكرها المالكية هي هذه الثلاثة ، ومن ذكر زيادة على ذلك فقلوه عائد إلى تلك الشروط الثلاثة ، ومن اقتصر على بعضها فقد يشير بما تضمنته إلى ما يدل عليها مجتمعة .

٤٦ — ولذا فقد ذكر الإمام مالك أن المحارب « إذا تاب فأخذه بعض من قطع عليه الطريق في المسجد أو في طريقه أو بيته أو السوق ، فدفعه وأقام عليه البينة ، فإن عرف بالتوبة سقط عنه حد الحراة ، وبقي عليه حقوق الناس في الدماء والجراح ،

(١) انظر : حاشية العدوي (٩٩/١) . ط. دار الفكر .

(٢) انظر : حاشية العدوي ، الموضع السابق .

(٣) نور الحق (٥٢٨/٩) . وانظر فتح الباري (١٣٠/١١) .

(٤) التيسير (٢٦٧/٦) .

ويتبع بالأموال في ماله وذمته»^(١) .

٤٧— ونظيره ما ذكره ابن نصر من قوله في توبة المحارب :

« إن حقوق الناس قبله^(٢) لا تسقط ، لأن التوبة لا تأثير لها في حقوق الآدميين ، ألا ترى أن من غصب شيئاً وأتلفه ثم تاب فإن بدله واجب عليه ؟ كذلك القتل والجراح وغيره ، ولأن التوبة من هذه الأشياء إذا انفردت عن الحراة لا تسقط حقوق الناس المتعلقة بها ، فكذلك إذا انضمت إليها»^(٣) .

فذكرهم لما يرتبط بالتوبة من حقوق الناس وتأكيدهم عليه يدل على ما كان مرتبطاً بالتوبة من حق الله تعالى من باب أولى ، وهو ما أشار إليه الإمام مالك بقوله : « فإن عرف بالتوبة »^(٤) ، إذ التائب حقاً ما توافرت فيه شروط التوبة الثلاثة المذكورة .

٤٨— وذكر ابن أبي زيد شروط التوبة على أنها التوبة ، فقال :

« التوبة فريضة من كل ذنب من غير إصرار ، والإصرار المقام على الذنب واعتقاد العود إليه ، ومن التوبة رد المظالم والنية على ألا يعود »^(٥) .

فما ذكره من اشتراط الإقلاع ، وهو ما أشار إليه من عدم الإصرار على الذنب ، وكذا الندم على ألا يعود لا يعني عدم اشتراط الندم ، إذ لا يتصور أن يقلع عن الذنب ويعزم على أن لا يعود وهو غير نادم على فعله واقترافه .

٤٩— وبين ابن رشد أن الرجل « إذا تاب من الذنب فإن ندم عليه ونوى أن لا

(١) النوادر والزيادات (٤٨٥/١٤) .

(٢) وذلك لأن توبة المحارب قبل القدرة عليه تسقط عنه الحد ، أما حقوق الناس فلا تسقط .

(٣) المعونة (٣٠٠/٢) .

(٤) سبق ص ٢٧٣ .

(٥) الرسالة (١٩٤) .

يعود إليه بنية صحيحة ، ثم لم يعد^(١) إليه كان قد تاب توبة نصوحًا^(٢) .
٥٠ — وأقرّ بذلك المازري^(٣) .

وما ذكروه من هذين الشرطين - الندم والعزم على عدم العود - ليس
معناه إغفال شرط الإقلاع ، وذلك لأن الندم والعزم الصادقين لا يتحققان إلا بعد
الإقلاع .

٥١ — وذكر ابن عطية أن « التوبة الندم على فارط المعصية ، والعزم على ترك
مثلها في المستقبل »^(٤) .

٥٢ — وقال أبو عمرو الداني :

« إن فرضًا على جميع العصاة التوبة إلى الله ﷻ ... من الندم على ما كان
منهم ، ورد الظلمات إلى العباد ، وضمان قيمة ما أتلّفوه ، والعزم على أدائه »^(٥) .
ولا ريب أن النادم حقيقة من يقلع عن ذنبه ، ويعزم على أن لا يعود إليه ، وإلا
فلا يجدي ندمه .

(١) وهذا غير صحيح ، فلو عزم وأقلع في الحال وندم ولكنه بعد مدة رجع للذنب لم يقدر ذلك في
توبته لو حقق شروطها فيما بعد ، وقد رد ابن حجر على من اشترط هذا الشرط . انظر الفتح
(١٢١/٢٣) .

(٢) البيان والتحصيل (٤٦٨/١٨) .

(٣) انظر المعلم (١٨٨/٣) .

(٤) المحرر الوجيز (٥٢٥/١٤) .

(٥) الرسالة الوافية (٩٢) .

ثانيًا : اشتراط أجل للتوبة

بين الله تعالى أنّ للتوبة أجلًا تنتهي إليه ، كما قال تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار ... ﴾ الآية^(١) .

وقال تعالى : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا ﴾^(٢) .

وبهذا يعلم أنّ أجل التوبة ينتهي بحضور الموت ، أو بطلوع الشمس من مغربها ، وقد بين أئمة المالكية هذا المعنى :

٥٣ — ومن ذلك ما ذكره أبو عمرو الداني عند قوله تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات ... ﴾ بقوله :

« الآية دليل على أنها عليه واجبة قبل المعاينة وحضور الملائكة ... - ثم ذكر حديث أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال : « إن الله سبحانه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »^(٣) - » .

٥٤ — وعند ذكره لأشراط الساعة قال : « ومنه طلوع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت أغلق باب التوبة ... » ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسًا إيمانها ... ﴾ ، وقوله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا

(١) سورة النساء : ١٨ .

(٢) سورة الأنعام : ١٥٨ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤٢٥/٣) ، والحاكم (٢٥٧/٤) . قال الأرنؤوط : إسناده ضعيف لضعف عبدالرحمن البيلماني وبقيّة رجاله ثقات . وبنحو هذه الرواية خرج الإمام أحمد عن عبدالله بن عمر برقم (٦١٦٠) بإسناد حسن .

ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً»^(١)»^(٢) .

فذكر أن للتوبة أجلين : أجلاً خاصاً ، وهو ما أوضحه من وجوب التوبة قبل المعاينة وحضور الموت ، وأما الأجل العام فهو ما ذكره من طلوع الشمس من مغربها حيث لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً .

٥٥— وأورد ابن عطية حديث : « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر

ويغلب على عقله » ، ثم قال :

« لأن الرجاء فيه باق ، ويصح منه الندم والعزم على ترك الفعل في المستأنف ، فإذا غلب تعذرت التوبة لعدم الندم والعزم على الترك »^(٣) .

٥٦— وقال أيضاً :

« ... ومن لم يتب حتى حضره الموت فليس في حكم التائبين »^(٤) .

ثم ذكر الأجل العام عند قوله تعالى : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ﴾ فقال :

« الآية التي ترفع التوبة معها ، وقد بينت الأحاديث أنها طلوع الشمس من

مغربها »^(٥) .

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها ﴾ (٢٩٧/٨) برقم (٤٦٣٦) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٣٧/١) برقم (١٥٧) .

(٢) الرسالة الوافية (٩٢-٩٣) و(١٣٧-١٣٨) .

(٣) المحرر الوجيز (٥٣٦/٣) .

(٤) نفس المصدر (٥٣٨/٣) .

(٥) قال ابن عطية : « روي في الحديث أن الشمس تجري كل يوم حتى تسجد تحت العرش تستأذن فيؤذن لها في الطلوع من المشرق ، وحتى إذا أراد الله سد باب التوبة أمرها بالطلوع من مغربها » . وهو يرويه بالمعنى ، والحديث أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب صفة الشمس والقمر بحسبان (٢٩٧/٦) رقم (٣١٩٩) ، ونصه : « .. فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها ، فيقال لها : ارجعي من حيث جئت ، فتطلع من مغربها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ » .

٥٧— ونسبه قولاً للجمهور فقال :

« وقال جمهور أهل التأويل : الآية التي لا تنفع التوبة من الشرك أو من المعاصي بعدها هي طلوع الشمس من المغرب »^(١) .

٥٨— وعند قول الله ﷻ : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ﴾ ذكر القرطبي أنه طلوع الشمس من مغربها ، ثم قال :

« قال العلماء : وإنما لا ينفع نفساً إيمانها عند طلوعها من مغربها لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس ، وتفتت كل قوة من قوى البدن ، فيصير الناس كلهم لإيقاظهم بدنو القيامة في حال من حضره الموت في انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم ، وبطلانها من أبدانهم ، فمن تاب في مثل هذه الحال لم تقبل توبته كما لا تقبل توبة من حضره الموت »^(٢) .

٥٩— فذكر أن التوبة لا تنفع من حضره الموت ، كحال فرعون حين صار في غمرة الماء والغرق ، فلم ينفعه ما أظهره من الإيمان ، لأنها حال زوال التكليف^(٣) .

٦٠— وقال القاضي عياض عند رواية : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه »^(٤) :

« هذا حد للتوبة جعله الله تعالى ، ولها باب يسدّ عند هذه الآية ، كما جاء في الحديث ، وقد جاء في التفسير أنه معنى قوله : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع

(١) المحرر الوجيز (٤٠٩/٥) .

(٢) تفسير القرطبي (١٤٥/٧-١٤٦) .

(٣) انظر تفسير القرطبي (٩٣/٥) .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب استحباب الاستغفار (٢٠٧٦/٤) برقم (٢٧٠٣) .

نفساً إيمانها ... ﴿^(١)﴾ ^(٢) .

٦١— وبين أن التوبة لا تقبل بعد المعاينة ، لقصة أبي طالب حين حضرته الوفاة ، أي قرب حاله وظهرت دلائل موته ، وذلك كله قبل المعاينة ولو كان من بعد المعاينة والحضور الحقيقي لما نفعه ، لقوله تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ... ﴾ الآية ، ويدل على أنه لم يكن يعاين ما جرى من محاورة النبي ﷺ وكفار قريش معه ، ومجاوبتهم بما جاوب ^(٣) .

٦٢— وعند قول الله تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ... ﴾ قال ابن جزري :
« الآية في الذين يصرون على الذنوب إلى حين لا تقبل التوبة ، وهو معاينة الموت » ^(٤) .

٦٣— وذكر عند قوله تعالى : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ أنها « أشراط الساعة » ^(٥) ، كطلوع الشمس من مغربها ، فحينئذ لا يقبل إيمان الكافر ولا توبة عاص .. لأن باب التوبة

(١) سورة الأنعام : ١٥٨ .

(٢) إكمال المعلم (١٩٨/٩) .

(٣) انظر : إكمال المعلم (٢٥١/١) .

(٤) التسهيل (٢٤٠/١) .

(٥) وقد فسر النبي ﷺ قوله تعالى : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ... ﴾ بأنها طلوع الشمس من مغربها كما في الصحيحين - وقد سبق - ، وعليه فليس كل الأشراف بل هي محددة بطلوع الشمس من مغربها . وقد أورد ابن كثير أثر عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقول : « الآية التي تختتم بها الأعمال طلوع الشمس من مغربها ، ألم تر أن الله يقول : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك .. ﴾ يعني طلوع الشمس من مغربها » . انظر تفسير ابن كثير (١٣٤/٣) .

يغلق حينئذ»^(١) .

٦٤ — وبين التثائي في كلامه عن توبة القاتل أن « محل القبول ما لم تحضر أسباب الموت عند الغرغرة وطلوع الشمس من مغربها »^(٢) .

ولا ريب أن هذين الشرطين يعلمان في التوبة من القتل وغيره .

٦٥ — وأوضح ابن عاشور أن التوبة لا تقبل عند اقتراب الأجل ، فقال عند آية سورة النساء : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات ... ﴾ :

« تنبيه على نفي القبول عن نوع من التوبة ، وهي التي تكون عند اليأس من الحياة ؛ لأن المقصد من العزم ترتب آثاره عليه وصلاح الحال في هذه الدار بالاستقامة الشرعية ، فإذا وقع اليأس من الحياة ذهبت فائدة التوبة »^(٣) .

٦٦ — وعند آية سورة الأنعام : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ... ﴾ ذكر أن تفسير هذه الآية جاء في السنة بطلوع الشمس من مغربها ، ثم أورد الحديث ...

٦٧ — وبين أنه لا تعارض بين هذه الآية وآية سورة النساء : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات ... ﴾ موضحاً الأجل الخاص والأجل العام للتوبة بقوله :

« لأن محمل تلك الآية على تعيين وقت فوات التوبة بالنسبة للأحوال الخاصة بآحاد الناس ، وذلك ما فسرته حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » ، ومحمل الآية التي نتكلم فيها تعيين وقت فوات التوبة بالنسبة إلى الناس كافة ، وهي حالة يأس الناس كلهم من البقاء »^(٤) .

(١) التسهيل (٤٩/٢) .

(٢) تنوير المقالة (٢٦٢/١) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٨٠/٤-٢٨١) .

(٤) التحرير والتنوير (١٩٠/٨-١٩١) .

٦٨— ونقل ابن بطال قول المهلب مقرأً له في أنه « إنما تنفع كلمة التوحيد لمن قالها قبل المعاينة للملائكة التي تقبض الأرواح ، فحينئذ تنفعه شهادة التوحيد ، وهو الذي يدل عليه كتاب الله . قال تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت ... ﴾ يعني حضور ملك الموت ، وهي المعاينة لقبض روحه ، ولا يراهم أحد إلا عند الانتقال من الدنيا إلى دار الآخرة »^(١) .

٦٩— وقال ابن عبد البر :

« ... وأما التوبة من الخمر وغيرها من كبائر الذنوب فمبسوطة للمؤمن ما لم تحضره الوفاة ويعاين الموت ويغرغر ، فإذا بلغ هذه الحال فلا توبة له وإن تاب حينئذ ، فتوبته مردودة عليه ، قال الله ﷻ : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ... ﴾ ، يعني المسلمين . ثم قال : ﴿ ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ يعني جماعة الكافرين »^(٢) .

٧٠— ثم قال : « وهذه الآية تفسر قوله ﷻ : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ يريد : قبل حضور الموت على ما وصفنا ، وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء ؛ لأن الله تعالى قد نص عليه في كتابه للمذنبين من المسلمين وللکفار أيضاً » .

٧١— وأكد هذا المعنى - بعد إيراد حديث : « من أحب لقاء الله ... » وغيره من الآثار - بقوله :

« فهذه آثار كلها قد بان فيها أن ذلك عند حضور الموت ومعاينة ما هناك ، وذلك حين لا تقبل توبة التائب إن لم يتب قبل ذلك »^(٣) .

(١) شرح صحيح البخاري (٣/٣٤٤) .

(٢) التمهيد (١١/١٥) .

(٣) التمهيد (٣٣/١٨) .

وبهذا يعلم أنّ المالكية جعلوا معنى التوبة الشرعي هو رجوع العبد إلى ربه تعالى ،
بترك ما كان حصل منه من الآثام ، وأن توبته تلك لها شروط حتى تقبل ، منها ما
يتعلق بالذنب نفسه ؛ من الندم عليه ، والإقلاع عنه ، والعزم على تركه . فإن كان
الذنب متعلقاً بحق آدمي فلا بد من رده أو التحلل منه ، وهذا كله إنما يكون في
الوقت الذي حده الله لقبول توبة عباده ما لم يغرغر وتحضره الوفاة ، أو تطلع الشمس
من مغربها ، فلا تقبل التوبة حينئذ ، والله أعلم .

تقرير توحيد العبادة من خلال أقوال المالكية

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في العقيدة

إعداد الطالب

عبد الله بن فهد بن عبد الرحمن العرفج

إشراف

أ.د. محمد بن حسان كسبه

الجزء الثاني

١٤٢٣هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القري
كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

المقدمة

المقدمة

المقدمة

المقدمة

بعد :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين

بناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه - والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٤٤٥ هـ - بشيئها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم : فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المناقش الخارجي

المناقش الداخلي


المشرف

الاسم : د. صالح بن عبد الله بن محمد

الاسم : د. محمد بن عبد الله بن محمد

الاسم : د. أحمد بن عبد الله بن محمد

التوقيع : 

التوقيع : 

التوقيع : 

بعد :

رئيس قسم المقدمة

الاسم : د. عبد العزيز بن محمد بن عبد الله

التوقيع : 

يوقع هذا النموذج أمام الصفة المذكورة أعلاه أطروحة في ...

المبحث الثاني

الأعمال الظاهرة

وفيه المسائل الآتية :

المسألة الأولى : الذِّكْر

المسألة الثانية : الدُّعاء

المسألة الثالثة : الذَّبْح

المسألة الرابعة : النَّذْر

المسألة الخامسة : الطَّواف

المسألة الأولى : الذِّكْر

الذِّكْر عبادة من أجل القربات وأفضل العبادات ، وقد أمر الله تعالى به عباده ، فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾^(١) ، وقال تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾^(٢) .

ويستخدم لفظ " الذكر " بإطلاقين : ذكر بالمعنى الخاص ، وذكر بالمعنى العام . فالذكر بالمعنى الخاص هو ذكر القلب ، وذكر اللسان وهو أشهر أنواع استخداماته .

أما الذكر بمعناه العام فهو ما كان من ذكر القلب واللسان والجوارح ، وهو بهذا يشمل جميع الطاعات والقربات ، ووجه إدخاله ضمن العبادة الظاهرة أن الغالب إطلاقه على ذكر اللسان ، مع أنه يشمل سائر العبادات . وقد عني أئمة المالكية بالذكر وبينوا أقسامه .

١— وفي هذا يقول الطرطوشي - مبيناً أقسام الذكر بالمعنى الخاص - :

« الذكر على ضربين : ذكر اللسان ، وذكر القلب ، فذكر اللسان يصل به إلى ذكر القلب ، والتأثير لذكر القلب ، فإذا كان العبد ذاكراً بلسانه وقلبه فهو الكامل في وصفه »^(٣) .

٢— وأوضح ابن العربي « أن الذكر يكون بالقلب ويكون باللسان ، فذكر القلب أن لا يحضر فيه إلا الله ، وذكر اللسان أن لا يتحرك إلا بذكره وهو المهتر »^(٤)

(١) سورة الأحزاب : ٤١-٤٢ .

(٢) سورة البقرة : ١٥٢ .

(٣) الدعاء المأثور وآدابه (٢٨٧) .

(٤) ولعلها المهتر بالمهملة ، كما ذكر القاضي عياض في شرحه حديث « سبق المفردون » بقوله : « جاء

تفسيره في حديث آخر قال : « هم الذين اهتروا في ذكر الله » ، أي : أولعوا . وقيل : استهروا .

انظر إكمال المعلم (١٧٤/٨) .

الذي جاء في الحديث : « سبق المفردون »^(١) «^(٢) .

٣— وعند رواية الحديث القدسي ، وفيه : « وأنا معه حين يذكرني »^(٣) قال القاضي عياض :

« الذكر بالقلب لأنه إذا شاهده بذكر قلبه ذكره بلسانه »^(٤) .

٤— ولهذا قرر القرطبي أبو العباس أن أصل الذكر : « التنبه بالقلب للمذكور والتمعن له ، وسمي الذكر باللسان ذكراً لأنه دلالة على الذكر القلبي ، غير أنه لما كثر إطلاق الذكر على القول اللساني صار هو السابق للفهم »^(٥) .

٥— وبه قال تلميذه القرطبي أبو عبدالله^(٦) ، فقال :

« المراد بالذكر ذكر القلب الذي يجب استدامته في عموم الحالات » .

فما ذكره هنا هو المعنى الخاص للذكر - ذكر القلب وذكر اللسان - .

٦— وأما الذكر بمعناه الشامل فهذا ذكره الطرطوشي قسماً ثالثاً للذكر ، أقرب ما يكون إلى كف الجوارح عن المحرم عبر عنه بالتوبة ، فقال : « فرض وهو ذكر الله سبحانه عندما حرم ، وهو الصفاء الزلال الذي لا تثبت عليه قدم ، كما روي في حديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار أن أحدهم قال : « فلما قعدت بين رجلها

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٠٦٢/٤) برقم (٢٦٧٦) .

(٢) عارضة الأحوذى (٢٩٧/١٢) .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٠٦١/٤) برقم (٢٦٧٥) .

(٤) إكمال المعلم (١٧٢/٨) .

(٥) المفهم (٦/٧) .

(٦) انظر : تفسير القرطبي (١٧١/٢-١٧٢) .

ذكرتك أي رب فقامت عنها ولم آخذ المئة دينار»^(١) ، ومنه قوله سبحانه : ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ...﴾^(٢) ، والذكر هاهنا التوبة»^(٣) .

٧— وأشار ابن أبي زيد القيرواني إلى أقسام الذكر بإيراده قول عمر رضي الله عنه عند كلامه عن الذكر ، ونصه :

«أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهي»^(٤) .

والمعنى المراد بالذكر بمعناه الشامل كما سبق ، ويدخل ضمن ذلك ذكر القلب والجوارح ، إذ إن استغراق الجوارح للطاعات واجتناب المنهيات إنما يكون بوجود دافع قلبي لذلك ، كما قرره القرطبي سابقاً أن أصل الذكر التنبيه بالقلب للمذكور واليقظ له .

٨— وسلك ابن بطل مسلك ابن أبي زيد بإيراده قول عمر رضي الله عنه ، ثم قال :

«وكلاهما فيه الأجر ، إلا أن ذكر الله تعالى عند أوامره ونواهيه إذا فعل الذاك ما أمر به وانتهى عما نهي عنه أفضل من ذكر باللسان مع مخالفة أمره ونهي ، والفضل كله والشرف والأجر في اجتماعهما من الإنسان ، وهو أن لا ينسى ذكر الله عند أمره ونهي فينتهي ، ولا ينساه من ذكره بلسانه»^(٥) .

٩— وفي موضع آخر نص على الذكر بالقلب فيما نقله عن الطبري مقرأ له ،

(١) أخرجه البخاري في كتاب البيوع ، باب إذا اشترى شيئاً بغير إذنه فرضي (٤/٤٠٨) برقم (٢٢١٥) ، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة (٤/٢٠٩٩) برقم (٢٧٤٣) .

(٢) سورة آل عمران : ١٣٥ .

(٣) الدعاء المأثور (٢٨٧) .

(٤) انظر الرسالة (٢٠٣) .

(٥) شرح البخاري (١٠/١٣٧) .

فقال : « ومن جسيم ما يرجى به للعبد الوصول إلى رضى ربه ذكره إياه بقلبه ، فإن ذلك من شريف أعماله عنده »^(١) .

فتحصل من قوله أقسام الذكر من ذكر اللسان وذكر القلب وذكر الجوارح كما تقدم .

١٠ — ولذا قال الباجي : « الذكر على ضربين : أحدهما : ذكر باللسان . والثاني : ذكر عند الأوامر بامتثالها والنواهي باجتنابها » .

ثم بين أن معنى قول معاذ رضي الله عنه : « ما عمل ابن آدم عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله » بأن « المراد ههنا بذكر الله ﴿ والذاكرين الله كثيراً ﴾ بالقلب عند الأوامر والنواهي ، والذكر باللسان من التسبيح والتهليل »^(٢) .

١١ — وبين ابن عطية أن أولي البصائر هم أهل الذكر الذي تواطأ عليه القلب واللسان ، فعند قوله تعالى : ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾ قال : « هذا وصف ظاهره استعمال التحميد والتهليل والتكبير ونحوه من ذكر الله ، وأن يحصر القلب واللسان ، وذلك من أعظم وجوه العبادات »^(٣) .

١٢ — وقد نبه بعض المالكية إلى هذا المعنى العام للذكر الشامل للطاعات ، أي فعل الجوارح ، ومن ذلك ما ذكره ابن عطية عند قوله تعالى : ﴿ لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾^(٤) بقوله : « ذكر الله هنا عام في التوحيد والصلاة والدعاء ، وغير ذلك من فرض ومندوب »^(٥) .

(١) المصدر نفسه (١٣٨/١٠) .

(٢) المنتقى (٣٥٥/١) .

(٣) المحرر الوجيز (٤٥٩/٣) .

(٤) سورة المنافقون : ٩ .

(٥) المصدر نفسه (٤٦٧/١٤) .

١٣ — وعند قوله تعالى : ﴿ الذين يذكرون الله ﴾^(١) قال - فيما نقله عن جماعة من المفسرين - :

« إنما هو عبارة عن الصلاة ، أي : لا يضيعونها ، ففي حال العذر يصلونها قعوداً وعلى جنوبهم »^(٢) .

وقد تقدم أن ذكر الجوارح إنما يكون بالاستغراق في الطاعات وخلوها من المنهيات .

١٤ — وبين ابن العربي في معرض رده على الصوفية المعنى العام للذكر ، فبعد إيراده قول الحسن البصري : « أدركت قومًا لو رأيتموهم لقلت مجانين ولو رأوكم لقالوا : فساقًا »^(٣) قال :

« غلطت ههنا الصوفية فقالوا : إنَّ المراد به الذكر الدائم باللسان في غير فتور ، حتى إذا رأوا الرجل قالوا : هذا مجنون ! وليس كذلك ؛ إنما المراد به الذي ليس له عمل إلاَّ الله تعالى ، إن صلى وصام فله تعالى ، وإن جلس فقال : أجم نفسي للطاعة فهذه طاعة ، وإن وطئ وطئ ليعصم نفسه وأهله ، فهذه طاعة ، وإن تطيب يقول : أتطيب اقتداءً برسول الله ﷺ ومنفعة للجلوس ، وترفيحاً للملائكة ، فلا يكون له عمل حتى في النوم إلاَّ وهو لله تعالى ، فهذا هو الذاكر الشاكر »^(٤) .

وهذا يبين سعة معنى الذكر عنده ، وهو الذكر بمعناه الشامل .

١٥ — وبين ابن أبي جمرة أن الذكر يكون باللسان وبالقلب ، وعند الطاعات ، كما في قول عمر رضي الله عنه : « أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيهِ » .

١٦ — ورأى أن « ذكر الله ﷻ عند الأمر والنهي أفضل من ذكره باللسان ،

(١) سورة آل عمران : ١٩١ .

(٢) المحرر الوجيز (٣/٤٦٠) .

(٣) الأثر في حلية الأولياء (٢/١٣٤) . ط. دار الكتب العلمية - بيروت ، لبنان .

(٤) القبس (٢/٤٠٩-٤١٠) .

وأكمل من ذلك كله ذكره بالقلب ، كما في قول النبي ﷺ : « ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد ، ألا وهي القلب »^(١) .^(٢)

فقدم هنا ذكر القلب مع أن المعروف عند أهل العلم أن أفضل أنواع الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان معاً ، وأضاف بعضهم الذكر بمعناه الشامل وفضلوه على كل أنواع الذكر ؛ لأنه مستغرق للقلب واللسان والجوارح كلها .

والذي يظهر من تقديمه هنا ذكر القلب أنه يريد الذكر الشامل المستغرق ، أي أنه يدمج بين هذا النوع من الذكر وذكر القلب .

١٧ — يؤكد هذا المعنى أن الأبي حين بين أن الذكر الكامل ما كان بالقلب واللسان ، وأورد قول عمر رضي الله عنه السابق قال :

« لا ينافي أن أكمل الذكر الجمع بينهما » . ثم جعل ذكر القلب « نوعين ؛ أصلهما الفكرة في عظمة الله تعالى وجلاله^(٣) وجبروته وآياته في سمائه وأرضه ، ويليه ذكره بالقلب عند الأمر والنهي ، فيمثل ما أمر به وينتهي عما نهى عنه »^(٤) .

١٨ — وبعد أن أوضح النفراوي أن الذكر الكامل على ضربين : ذكر اللسان ، وذكر القلب ، قال :

« فذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة فكر القلب والتأثير بذكر القلب ، فإذا كان ذاكرًا بلسانه وقلبه فهو الكمال في وصفه في حال سلوكه »^(٥) .

فأدخل ذكر الله عند الأمر والنهي ضمن ذكر القلب ، وهذا يؤكد المعنى الذي

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه (١٢٦/١) برقم (٥٢) ، ومسلم في كتاب المساقاة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٢١٩/٣) برقم (١٥٩٩) .

(٢) مهجة النفوس (٢٣٢/١) .

(٣) والتفكر هنا إنما يكون في آلاء الله وعظيم صنعه تعالى ، لا التفكير في كيفية صفاته أو ذاته .

(٤) الثمر الداني (٧٠٠) . ط. دار المعرفة - بيروت .

(٥) الفواكه الدواني (٤٢٨/٢) .

قلته من دمج بعضهم بين الذكر الشامل المستغرق ، ويدخل فيه ذكر الله عند الأمر والنهي وذكر القلب .

١٩ — وبين الزرقاني - فيما نقله عن ابن حجر مقرأً له عند حديث : « ألا أخبركم بخير أعمالكم ، وأرفعها في درجاتكم ، وأزكاها عند مليكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ » . قالوا : بلى . قال : « ذكر الله تعالى » - « أن المراد بالذكر هنا الذكر الكامل ، وهو ما اجتمع فيه ذكر اللسان والقلب ، بالشكر واستحضار عظمة الرب ، وهذا لا يعدله شيء »^(١) .

٢٠ — وقال ابن جزى :

« الذكر ثلاثة أنواع : ذكر بالقلب ، وذكر باللسان ، وبهما معاً »^(٢) .

٢١ — وأورد الشاذلي قول الباجي السابق على سبيل الإقرار^(٣) .

٢٢ — ونقل محمد المختار قول ابن حجر مقرأً له في أن الذكر يقع تارة باللسان ، فإن انضاف إلى النطق بالذكر الذكر بالقلب فهو الأكمل ، فإن انضاف إلى ذلك استحضار معنى الذكر وما اشتمل عليه من التعظيم لله تعالى ، ونفي النقص عنه ازداد كمالاً ، فإن وقع في ذلك عمل صالح - من صلاة أو جهاد أو غيرها - ازداد كمالاً ، فإن صح التوجه وأخلص لله تعالى في ذلك فهذا أبلغ الكمال^(٤) .
ومراده الذكر بمعناه الشامل : ذكر اللسان والقلب والجوارح .

(١) شرح الزرقاني (٢٩/٢) .

والحديث أخرجه أحمد في مسنده (١٩٥/٥) ، وابن ماجه برقم (٣٧٩٠) ، والترمذي (٣٣٧٧) ، والبيهقي في السنن (٥١٩) ، والبغوي في شرح السنة (١٢٤٤) . قال الألباني : حديث صحيح . انظر صحيح سنن الترمذي (٣٨٦/٣) . وقال الأرئوط : إسناده صحيح . المسند (١٩٥/٥) .

(٢) التسهيل (١١٢/١) .

(٣) انظر حاشية العدوي (٦٢٥/٢) .

(٤) نور الحق (٦٠٠/٩) . وانظر الفتح (٢٠٩/١١) .

٢٣— وقريب من ذلك ما أشار إليه ابن باديس من أنواع الذكر اللساني ، ويكون بالتسبيح والتحميد والتهليل ، والقلبي يكون بالتدبر والتفكر ، والعملية ويشمر التوبة والإنابة والرجاء ... وذلك عند حديثه عن اشتمال القرآن لأقسام الذكر^(١) .
والذي يظهر أن فيه التفريق بين ذكر القلب والذكر الشامل ، فيكون هذا اتجاهًا آخر في المذهب ، خلاف من يدمج بينهما كما سبق .

٢٤— وألمح ابن عاشور إلى تنوع الذكر عند قوله تعالى : ﴿ الذين يذكرون الله ﴾ بقوله : « إما من الذكر اللساني ، وإما من الذكر القلبي »^(٢) .

٢٥— وأوضح محمد المكي أن الذكر لا يقتصر على ذكر الله باللسان ، بل يقتضي ذكره وحضوره في الذهن والقلب والخاطر باستمرار^(٣) .

٢٦— وأكد هذا المعنى عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرًا كثيرًا ﴾^(٤) بقوله :

« وجه كتاب الله الخطاب إلى كافة المؤمنين ، داعيًا إياهم إلى الإكثار من ذكر الله وتسبيحه بقدر المستطاع باللسان والجنان »^(٥) .

ومن خلال ما تقدم من أقوالهم يتضح أن الذكر على أنواع : ذكر الله تعالى باللسان ، وذكره بالقلب ، والأكمل ذكر الله تعالى بهما معًا ، وأفضل وأكمل من ذلك من يضيف معنى آخر ، وهو الذكر الشامل ، حيث يشمل أنواع الذكر كلها ، من لسان وقلب وجوارح ، فيكون العبد مستديمًا لذكر ربه تبارك وتعالى ، وعلى هذا فالذكر يأتي بمعنى العبادة لأنه شامل لسائر الطاعات والعبادات التي تذكر بالله تعالى .

(١) انظر تفسير ابن باديس (٣٢) .

(٢) التحرير والتنوير (٤/١٩٦) ، وانظر (٢/٥٠) .

(٣) انظر التيسير (٥/١٣١) .

(٤) سورة الأحزاب : ٤١ .

(٥) التيسير (٥/١٣٧) .

المسألة الثانية : الدعاء

الدعاء في أصله : هو النداء والصياح^(١) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقاً ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ يوم يدع الداع إلى شيء نكر ﴾^(٣) .

ودعاء العبادة هو نداء ، ولكنه متضمن للتضرّع والخضوع والذلة ، فمن عبد شيئاً فإنه يدعوه على الوصف المذكور ؛ لأنه يعتقد أنه قادر على أن يلبي له طلبه ، فالموحّد يدعو ربه مخلصاً ، ويلجّ على ربه في قبول دعوته ، ويقطع الأمل إلاّ منه تعالى وحده .

١— وقد صرّح ابن العربي بأن الدعاء يشتمل على التوحيد ودلالته ، فقال :

« أذن الله في دعائه وعلم الدعاء في كتابه لخليقته ، وعلم النبي ﷺ الدعاء لأُمته ، واجتمعت فيه ثلاثة أشياء : العلم بالتوحيد ، والعلم باللغة ، والنصيحة لأُمته »^(٤) .

وعلى هذا فإن الدعاء خالص حق الله تعالى ، كما قال ﷺ : (« الدعاء هو العبادة ») ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾^(٥) (٦) .

وقد بيّن المالكية هذا المعنى بوضوح ، وسأورد أقوالهم من خلال الفقرتين الآتيتين :

أولاً : بيان حقيقة الدعاء . ثانياً : النص على كون الدعاء عبادة .

(١) انظر الصحاح للجوهري (٢٣٣٧/٦) ، ولسان العرب لابن منظور (٣٥٩/٤) ط. الثانية ، ط. دار إحياء التراث العربي ١٤١٧هـ - بيروت .

(٢) سورة القمر : ٦ .

(٣) سورة الكهف : ٥٢ .

(٤) سورة غافر : ٦٠ .

(٥) القبس (٤٢١/٢) .

(٦) خرجه أبو داود (١٤٧٩) ، والترمذي (٣٣٦٩) ، وابن ماجه (٣٨٢٧) ، وإسناده صحيح . وصححه ابن حبان (٢٣٩٦) والحاكم (٤٩٠/١) ، ووافقه الذهبي .

أولاً : بيان حقيقة الدعاء

لما كان الدعاء عبادة من العبادات ، فإن المالكية أبرزوا هذا المعنى عند كلامهم عن الدعاء ، وبيان حقيقته وما اشتمل عليه من المعاني الجليلة الموضحة للصلة القوية بين الدعاء وبين العبادة .

٢— وفي هذا يقول ابن العربي :

« حقيقة الدعاء مناداة الله تعالى لما يريد من جلب منفعة أو دفع مضرة من المضار والبلاء بالدعاء ، فهو سبب لذلك واستجلاب لرحمة المولى »^(١) .

٣— وفي موضع آخر يقول :

« الدعاء طلب وتضرّع »^(٢) .

فالدعاء هو التضرّع إلى الله تعالى واللجوء إليه وندأؤه لجلب النفع ودفع الضرر .

٤— وأبان ابن بطال أنّ في تكرار العبد دعاءه ربه لأجل أنه « إظهار لموضع الفقر والحاجة إلى الله والتذلل له والخضوع »^(٣) .

وهذا يشعر بمسيس الحاجة إلى الله ، والطلب منه بتذلل ورغبة ورهبة .

٥— ونبه على أنه « يجب أن يكون غرض العبد من الدعاء هو الدعاء لله والسؤال منه والافتقار إليه أبداً ، ولا يفارق سمة العبودية وعلامة الرق ، والانقياد للأمر والنهي ، والاستسلام لربه تعالى بالذلة والخشوع »^(٤) .

(١) عارضة الأحوذى (٢٦٦/١٢) .

(٢) القبس (٤١٢/٢) ، وأحكام القرآن (٣٥٠/٢) .

(٣) شرح البخاري (١٢٥/١٠) .

(٤) المرجع نفسه (١٠١/١٠) .

٦- ولما ذكر ابن عبد البر حديث : « الدعاء معّ العبادة »^(١) بيّن سببه فقال :

« لما فيه من الإخلاص والخضوع والضراعة والرجاء ، وذلك صريح الإيمان واليقين »^(٢) .

٧- وذكر الباجي أنه وإن حصل مع الدعاء معرفة أو مضرة فالمطلوب الزيادة من الدعاء رغبة في الإخلاص والتضرع والبكاء^(٣) .

٨- ونوه الطرطوشي بمقام الدعاء ، ويّين أنه يشتمل على التذلل وإظهار الفاقة^(٤) .

ولما كان الدعاء مظهرًا من مظاهر الاستكانة لرب العالمين ، إذ هو مقصد عظيم من مقاصد الشرع وإن لم يتحقق له مطلوبه ، فقد بيّن ابن أبي جمرة « أن الدعاء نفسه هو عين الخير ، وقضاء الحاجة في حكم التبع ؛ لأنه مناجاة للمولى الجليل ، وإظهار الفقر إليه ، وهي خلع العبودية ولم يخلع على عبد أجل منها »^(٥) .

١٠- وبعد أن ذكر القرافي أن الدعاء شرع ليكون سببًا لحصول المدعو به ، بين المعنى الجليل للدعاء فقال :

« وليذل به الإنسان ويظهر به عبوديته ويطيع به ربه »^(٦) .

وذلك لأنه كما وصفه أبو العباس القرطبي خلاصة العبودية ، وأن يعلم أنه لا

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧١) - وقال : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة - . وأورده المناوي في فيض القدير (٧٢١/٣) . وذكره الألباني في ضعيف سنن الترمذي (٣٦٩/٣) . وقال الأرئوط : هو حسن في الشواهد . انظر حاشية المسند (٢٦٧/٤) .

(٢) الاستذكار (٣٤٥/٨) .

(٣) وصية الباجي لولديه (٤٥-٤٦) .

(٤) انظر الدعاء المأثور وآدابه (٣٩) .

(٥) هجعة النفوس (٦٢/٢) .

(٦) ترتيب الفروق (٣٨٩/٢) .

قادر على حاجته إلا الله ، وأن الله عَزَّوَجَلَّ قد يؤخّر إجابة الدعاء لأنه سبحانه يحب استماع دعائه ودوام تضرّعه^(١) .

١٢— ولذا بيّن عند قصة سحر النبي ﷺ - وفيه : « ثم دعا ، ثم دعا »^(٢) - أنه « إظهار للعجز والافتقار ، وعلمًا منه بأن الله هو الكاشف للكرب والأضرار ، وقيامًا بعبادة الدعاء عند الاضطراب »^(٣) .

فهذا القول يبيّن أن الاضطراب مفتاح الدعاء .

١٣— وإلى المعنى السابق والاستدلال عليه يشير محمّد المكي^(٤) ، مبينًا ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ... ﴾^(٥) .

١٤— وقد ذكر ابن جزى أن من الدعاء « الطلب والرغبة ... لأنّ الدعاء يظهر فيه افتقار العبد وتضرّعه إلى الله »^(٦) .

١٥— ونبه محمّد المختار فيما نقله عن القشيري إلى مزية الدعاء على السكوت والرضى ... لما فيه من إظهار الخضوع والافتقار^(٧) .

(١) انظر المفهم (٦٢/٧-٦٣) .

(٢) خرجه مسلم في كتاب السلام ، باب السحر (١٧٢٠/٤) برقم (٢١٨٩) . وحديث : أن النبي ﷺ سحر عند البخاري عن عائشة رضي الله عنهما (٢٢١/١٠) كتاب الطب ، باب السحر ، ومسلم (٢١٨٩) .

قال القاضي عياض : « وقد جاءت روايات هذا الحديث مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه ، لا على عقله وقلبه واعتقاده ، وكل ما جاء من الروايات من أنه يخيل إليه فعل الشيء ولم يفعله ونحوه : محمول على التخييل بالبصر ، لا لخلل تطرق إلى العقل ، وليس في ذلك ما يدخل لبسًا على الرسالة ، ولا طعنًا لأهل الضلالة » . انظر إكمال المعلم (٨٨/٧) .

(٣) المفهم (٥٧١/٥) .

(٤) انظر التيسير (٢٢٤/٢) .

(٥) سورة الروم : ٣٣ .

(٦) التسهيل (١٤/٤) .

(٧) نور الحق (٥٢١/٥) .

١٦- وأشار الزرقاني إلى « اشتمال الدعاء على معرفة الربوبية وذل العبودية »^(١) .

١٧- وحيث كان الدعاء يحوي تلك المعاني الجليلة فلا غرو أن يأمر الله تعالى به كما أوضح ذلك ابن عطية عند قوله تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ... ﴾^(٢) بقوله :

« هذا أمر بالدعاء وتعبد به ، ثم قرن ^{عَلَيْكَ} بالأمر به صفات تحسن معه بينها عند قوله ﴿ تضرعاً ﴾ أي : بخشوع واستكانة »^(٣) .

١٨-١٩- وأقرّ قول ابن عطية هذا القرطبي^(٤) ومحمد المكي^(٥) عند تفسيرهما للآية .

٢٠- وذكر الملي حقيقة الدعاء فيما نقله عن الطيبي في قوله :

« إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله والاستكانة له ، وما شرعت العبادات إلاّ للخضوع للباري وإظهار الافتقار إليه »^(٦) .

وبهذا التفصيل لحقيقة الدعاء عندهم يتبين أنه من ضمن أنواع العبادة ، وذلك لاشتماله على التذلل والاستكانة والافتقار والخضوع التي هي من معاني العبادة ، وهو ما سنبينه في الفقرة الآتية - إن شاء الله تعالى - .

(١) شرح الزرقاني (٣٢/٢) .

(٢) سورة الأعراف : ٥٥ .

(٣) المحرر الوجيز (٥٢٩/٥-٥٣٠) .

(٤) انظر تفسير القرطبي (٢٢٣/٧) .

(٥) انظر التيسير (٣٩٩/٥) .

(٦) رسالة الشرك (١٨٥) .

ثانياً : النص على كون الدعاء عبادة

أوضح المالكية أنّ الدعاء عبادة من العبادات ، محتجين على ذلك بحديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنّ الدعاء هو العبادة - ثم قرأ : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ »^(١) .

٢١— ومن ذلك إدخال الإمام مالك رحمه الله الدعاء ضمن كلامه على العبادات ، فقد بوّب في موطئه : « باب ما جاء في الدعاء » و « باب العمل في الدعاء »^(٢) ، مما يدلّ على أنّ الدعاء عنده عبادة من العبادات .

٢٢— وذكر ابن بطال حديث « الدعاء هو العبادة » مستدلاً به على أنّ الدعاء عبادة^(٣) .

٢٣— وأكّد هذا المعنى فيما نقله عن الطبري عند حديث النعمان السابق قوله : « فسمى الدعاء عبادة »^(٤) .

وقد ذكر غير واحد من المالكية أنّ الدعاء الوارد في بعض النصوص القرآنية يراد به العبادة ، فمن ذلك ما أورده الطرطوشي عند قوله تعالى : ﴿ قل ما يعبدوكم ربي لولا دعاؤكم ﴾^(٥) ، حيث قال في بيانه :

« ما يصنع بكم ، وأي مقدار لكم لولا توحيدكم وعبادتكم لله تعالى »^(٦) .

٢٥— ومن خلال سرده النصوص المرغبة في الدعاء ذكر أنّ « الدعاء هو

(١) سبق تخريجه ص ٣٠٣ .

(٢) انظر موطأ مالك (١/١٨٦-١٨٩) .

(٣) انظر شرح البخاري (١٠/١٢٥) .

(٤) المرجع نفسه (١٠/٧٣) .

(٥) سورة الفرقان : ٧٧ .

(٦) الدعاء المأثور (٣٦) .

٢٦— وفسر ابن عطية قوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ بقوله : « اعبدوني » . واحتج على ذلك بقوله ﷺ : « الدعاء هو العبادة »^(٢) .

٢٧— وعند قوله تعالى : ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ﴾^(٣) قال :

« معنى ﴿ ادعوا ﴾ : اعبدوا »^(٤) .

ونقل قول الزجاج^(٥) في معنى قوله تعالى : ﴿ ادعوا ربكم ﴾ أي : اعبدوا ربكم^(٦) .

٢٨— وعند قوله تعالى : ﴿ أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ قال القرطبي :

« أقبل عبادة من عبدني ، فالدعاء بمعنى العبادة » . واستدل بحديث النعمان بن بشير المرفوع « الدعاء هو العبادة » ، قال ربكم ادعوني أستجب لكم ، فسمى الدعاء عبادة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أي : دعائي . فأمر بالدعاء وحض عليه وسماه عبادة^{(٧)(٨)} .

(١) المرجع السابق (٣٩) .

(٢) المحرر الوجيز (٥٩/١٣) .

(٣) سورة غافر : ١٤ .

(٤) المحرر الوجيز (١٧/١٣) .

(٥) هو إبراهيم بن السري بن سهل ، أبو إسحاق النحوي الزجاج ، كان من أهل الفضل والدين ، له كتاب معاني القرآن ، والاشتقاق ، وخلق الإنسان ، وغيرها . مات سنة ٣١١ هـ . انظر : تاريخ بغداد (٨٩/٦) ، وطبقات المفسرين (٧/١) .

(٦) المرجع نفسه (٥٣٠/٥) . انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣٤٤/٢) . ط . عالم الكتب . ط . الأولى ١٤٠٨ هـ . بيروت - لبنان .

(٧) تفسير القرطبي (٣٠٨-٣٠٩) .

(٨) وقد ذكر الطبري حديث النعمان بن بشير عند هذه الآية ، وقال : « فأخير ﷺ أن دعاء الله إنما هو عبادته ومسألته بالعمل له والطاعة » ، ثم قال : « وذكر عن الحسن نحوه » . انظر تفسير الطبري (١٦٧/٢) .

٢٩— وقال الزرقاني :

((الدعاء من أشرف الطاعات ...)) .

٣٠— ويَبَيِّن أنه يأتي بمعنى العبادة كثيراً في القرآن ، كقوله : ﴿ إن يدعون من دونه إلاّ إناثاً ﴾^(١)^(٢) .

ونقل وجهها في تفسير الآية : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي .. ﴾ أن المراد به الدعاء^(٣) .

٣١— وصدّر ابن العربي كلامه في باب الدعاء بحديث : ((الدعاء مخّ العبادة)) ، ثم قال : ((لا أحد أحبّ إليه السؤال من الله تعالى))^(٤) .
فهو بهذا الصنيع يشير إلى أن الدعاء عبادة من العبادات .

٣٢— وقد صرّح ابن رشد بهذا ، فقال :

((الدعاء عبادة من العبادات ، يؤجر فيها الأجر العظيم ، أجيب دعوته فيما دعي به أم لم تجب))^(٥) .

٣٣— وذكر القاضي عياض أن استغفار النبي ﷺ هو من الدعاء : ((إظهار للعبودية والافتقار ، وملازمة الخضوع شكراً لما أولاه به))^(٦) .

٣٤— وعند حديث : ((يستجاب لأحدكم ما لم يعجل))^(٧) قال :

(١) سورة النساء : ١١٧ .

(٢) شرح الزرقاني (٣٢/٢) .

(٣) المرجع نفسه .

(٤) القبس (٤١١/٢) .

(٥) نقله عنه الثعالبي في تفسيره (١٣٩/١) .

(٦) إكمال المعلم (١٩٧/٨) .

(٧) خرجه البخاري في كتاب الدعوات ، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل (١٤٠/١١) برقم (٦٣٤٠) ،

ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل

(٢٠٩٥/٤) برقم (٢٧٣٥) .

» بل يجب أن يكون أبداً في دعائه باسم إظهار الحاجة والطاعة له وسمية العبودية»^(١) .

ومراداه أن لا يترك المسلم الدعاء حتى يصدق عليه وصف العبودية لله تعالى .

ولما كان الداعي لله ﷻ إنما يدعو ويسأل من يرجو منه كشف ضرره وإجابة دعوته على حال من الذل والفاقة والافتقار ؛ كان ولا بد أن يتصف بذلك الداعي حال دعائه ، إذ به تحقق المعاني العظيمة بتلك العبادة .

٣٥— وهو ما أشار إليه أبو العباس القرطبي عند حديث : « اللهم اغفر لي إن شئت »^(٢) بقوله :

« ... وكأنّ هذا القول يتضمّن أن هذا المطلوب إن حصل وإلا استغنى عنه ، ومن كان هذا حاله لم يتحقق من حاله الافتقار والاضطرار الذي هو روح عبادة الدعاء ... »^{(٣)(٤)} .

فأطلق على الدعاء عبادة ، والافتقار والاضطرار من لوازمها .

٣٦— وفي موضع آخر قال :

(١) إكمال المعلم (٢٣٢/٨) .

(٢) خرجه البخاري في كتاب الدعوات ، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له (١٣٩/١) برقم (٦٣٣٩) ،

ومسلم في كتاب الذكر والدعاء ، باب العزم بالدعاء (٢٠٦٣/٤) برقم (٢٦٧٩) .

(٣) المفهم (٢٩/٧) .

(٤) اعتنى المالكية بذكر آداب الدعاء ، ما بين مقلّ ومكثر . انظر هذه الآداب عند ابن بطال في شرح

صحيح البخاري (٩٧/١٠ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٣٠) ، وابن عبد البر في

الاستذكار (١١٤/٨-١٤٥) . والطرطوشي حيث أفرد لها باباً كاملاً في كتابه الدعاء المأثور وآدابه

(٤٤) ، وابن العربي في القبس (٤١٢/٢) ، والقاضي عياض في إكمال المعلم (١٧٨/٨-٢٣١) ،

والقرطبي في التفسير (٣١٠/٢) ، القرطبي أبو العباس في المفهم (٢٩/٧ ، ٦٢ ، ٦٣) ، والزرقاني في

شرحه موطأ مالك (٣٤-٣٥) ، ومحمد المختار في نور الحق (٥٤٨/٩ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ، ٥٥٣ ،

٥٥٨) .

« ... وقيامًا بعبادة الدعاء عند الاضطراب »^(١) .

٣٧— ويّين ابن أبي جمرة فيما نقله مقرأً له « أن الدعاء نفسه هو عين الخير وقضاء الحاجة في حكم التبع ؛ لأنه مناجاة للولي الجليل ، وإظهار الفقر إليه ، وهو خلع العبودية ، ولم يخلع على عبد أجل منها »^(٢) .

وكما فسروا الدعاء بالعبادة ، فإن بعضهم فسر العبادة بالدعاء ، كما ذكر ابن عاشور « أن الدعاء يطلق بمعنى النداء المستلزم للاعتراف بالماندى ويطلق على الطلب » .

٣٨— ويّين أنه قد جاء من كلام النبي ﷺ ما يلائم المعنيين ، كما في حديث النعمان بن بشير : « الدعاء هو العبادة » ، ثم قرأ : ﴿ وقال ربكم ادعوني .. ﴾ . فإن قوله : « الدعاء هو العبادة » يقتضي اتحاد الحقيقتين ، فإذا كان الدعاء هو العبادة كانت العبادة هي الدعاء^(٣) لا محالة^(٤) »^(٥) .

٣٩— وحيث كان الدعاء ينقسم إلى دعاء عبادة ودعاء مسألة فقد بيّن محمد الأمين تلازم هذين النوعين ، وذلك لأن من دعا الله فقد تحققت منه العبودية .

وبهذا فسر الدعاء في الآية : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾^(٦) فيما نقله عن بعض العلماء : « اعبدوني أتييكم عن عبادتكم ، أو اسألوني أعطكم » بأنه لا منافاة بين

(١) المفهم (٥/٥٧١) .

(٢) بهجة النفوس (٢/٦٢) .

(٣) سبق في كلام ابن عطية هذا المعنى من تفسير الدعاء بالعبادة . انظر ص ٣٠٩

(٤) وضع هذا المعنى بقوله : « فالدعاء يطلق على سؤال العبد من الله حاجته ، وهو ظاهر في معناه في اللغة ، ويطلق على عبادة الله على طريق الكناية ؛ لأن العبادة لا تخلو من دعاء المعبود بثناء تعظيمه والتضرع إليه » . انظر التحرير (٢٤/١٨٢) .

(٥) التحرير والتنوير (٢٤/١٨٢) .

(٦) سورة غافر : ٦٠ .

القولين ؛ لأن دعاء الله من أنواع عبادته»^(١) .

٤٠ — ووصف الميلي الدعاء بأنه من خواص العبادة ، ثم قال :

« فكون الدعاء عبادة دلّ عليه الكتاب والسنة وكلام الأئمة »^(٢) .

وختامًا يتبين من كلام أئمة المالكية أنّ الدعاء عبادة من العبادات العظيمة ، حتى إن الدعاء يطلق على العبادة ، وتطلق العبادة على الدعاء ، لشدة ما بينهما من الاتصال .

وبذلك يعلم أنّ من صرف شيئاً من الدعاء لغير الله فقد أتى أمرًا خطيرًا ، لكونه صرف نوعاً من العبادة لغير الله تعالى ﴿ قل الله أعبد مخلصاً له ديني ... ﴾ .

(١) أضواء البيان (٩٦/٧) و(١٨٣/١) .

(٢) رسالة الشرك ومظاهره (١٨٨) .

المسألة الثالثة : الذَّبْح

ذكر الله ﷻ الذَّبْح في كتابه الكريم مقروناً بأعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين ، وهي الصلاة ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَنَسَكْتُ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(١) ، وقال تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾^(٢) . فكما أنه لا يصلي إلا لله تعالى وحده ، فكذلك لا يذبح إلا لله وحده .

وقد بين أئمة المالكية هذا الحكم العظيم بياناً شافياً من خلال الآتي :

أولاً : منزلة الذَّبْح من العبادة .

ثانياً : الذكر المشروع عند الذَّبْح .

(١) سورة الأنعام : ١٦٢ .

(٢) سورة الكوثر : ٢ .

أولاً : منزلة الذبح من العبادة

جاء عن مالك ما يبيّن المنزلة العظيمة لشعيرة النسك من العبادة .

١— فقد بين أنه لا بد أن يحتاط في الضحايا ، معللاً ذلك بقوله :

((لأنه يتقرّب إلى الله بذلك ...))^(١) .

٢— وحين سئل : هل يضحي أو يعق بشيء من الوحش ؟ قال :

((لا ؛ ليس يتقرّب إلى الله بشيء من الوحش ، ولا الطير ، ولا يتقرّب إلى الله

في هذا إلاّ بالأنعام))^(٢) .

٣— وذكر الصفة التي ينبغي أن يكون عليها من أراد الذبح من التواضع

والخضوع والذلة لله تعالى ، وهي من المعاني العظيمة للعبادة ، فقال :

((إني لأستحبّ للمرء أن يتواضع لله ويخضع له ، ويذل نفسه ، كان رسول الله

ﷺ ينحر بدنه ، وإنّ ناساً يأمرّون من يذبح لهم)) - يريد بذلك أهل الطول ،

ويعيب ذلك عليهم^(٣) .

ومراده أن استشعار تلك المعاني العظيمة لعبادة الذبح - من التواضع والذلة

والخضوع - تكون على أكمل حال إذا باشرها العبد بنفسه ، ولذا باشرها عليه

الصلاة والسلام بنفسه .

٤— وعلى هذا قال مالك في حقّ من لم يذبح بنفسه :

((إن وجد سعة فأحبّ إليّ أن يعيد ويذبحها بنفسه صاغراً ، فهو من التواضع لله

سبحانه ، وسمى فعل النبي ﷺ))^(٤) .

(١) البيان والتحصيل (٣/٣٣٨) .

(٢) المرجع نفسه (٣/٣٥٣) .

(٣) المرجع نفسه (٣/٤٣٦) .

(٤) النوادر والزيادات (٤/٣٢٠) .

٥— ولهذا اختار ابن نصر أن يلي الرجل ذبح أضحيته بيده ؛ لأن رسول الله ﷺ كان يفعله ، ولأنها من عبادة الأبدان ، فاستحب أن يليها بنفسه كسائر عبادات الأبدان^(١) .

٦— وبين القاضي عياض أنه يستحب للمؤمن تولي الذبح معللاً ذلك بأنه « نسك وفدية ودم مهراق لله »^(٢) .

٧— ونقل محمد المختار قول القسطلاني مقراً له في أن « الذبح عبادة ، والمطلوب في العبادة أن يباشرها بنفسه »^(٣) .

فتأكيدهم هنا على أن يلي المسلم ذبح قربانه ، لما له من المنزلة الرفيعة من العبادة ، إذ هو دليل أكيد على خضوع العبد وإقباله واستكانته لربه تعالى .

٨— وقد أوضح القرافي المعنى الجليل من القرابين ، إذ هي امتثال وطاعة لله تعالى ، كما في قصة إبراهيم عليه السلام ، للتأسي به ، فقال :

« فالمطلوب إحياء قصة الخليل عليه السلام ، بقوله تعالى : ﴿ وفديناه بذبح عظيم * وتركنا عليه في الآخرين ﴾^(٤) ، قيل : معناه : وجعلناه سنة للآخرين .. ولأن الله وصفه بالعظيم ، ولم يحصل هذا الوصف لغيره من جهة المعنى أن المفدى لم تكن نفاسته بعظم جسمه ، بل لعظم معناه »^(٥) .

٩— ونبه على أن تلك العبادة لا بد فيها من الإخلاص ، فقال :

« ولا يقصد بها المباهاة والمفاخرة ، فلا يقبل الله تعالى إلا الخالص له ، فإنه أغنى الشركاء عن الشرك ، وفي الصحيح : سئل عليه الصلاة والسلام : أي الرقاب

(١) المعونة (١/٤٣٩) .

(٢) إكمال المعلم (٦/٤١٣) .

(٣) نور الحق (٨/٤٩٩) . وانظر إرشاد الساري (٨/٣٠٥) .

(٤) سورة الصافات : ١٠٧-١٠٨ .

(٥) الذخيرة (٤/١٤٣) .

أفضل ؟ فقال : " أغلاها ثمنًا ، وأنفسها عند أهلها " (١) . (٢) .

١٠ — ولهذا فقد بين عدم جواز بيع شيء منها ، ليتحقق فيها الإخلاص كسائر العبادات ، وذلك « لأنها صارت قربة لله تعالى ، والقربات لا تقبل المعاوضة ... ولئلا يجتمع له العوض الذي هو الثمن والمعوض الذي هو منفعة القربة من الثواب ، ولذلك منع بيع سائر العبادات » (٣) .

١١ — وسلك التتائي مسلك القرافي في عدم جواز بيع شيء منها ، فقال :

« لأن هذه الأمور قربة ، والقرب لا تقبل المعاوضة » (٤) .

وذلك لأن العبادة مصدر رقي الإنسان ، وبها يسمو عن جميع المقاصد والعلائق الدنيوية .

١٢ — ولذا فقد فسّر ابن عطية قول الله تعالى : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له .. ﴾ (٥) بقوله :

« أمر الله ﷻ أن يعلن بأن مقصده في صلاته وطاعته من ذبيحة وغيرها ، وتصرفه مدة حياته ، وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته إنما هو لله ﷻ ، وإرادة وجهه وطلب رضاه ، وفي إعلان النبي ﷺ بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسّي به ، حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله ﷻ » (٦) .

١٣ — وعند قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام : ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ (٧)

(١) أخرجه البخاري في كتاب العتق ، باب أي الرقاب أفضل (١٤٨/٥) برقم (٢٥١٨) .

(٢) الذخيرة (١٤٦/٤) .

(٣) المرجع نفسه (١٥٧/٤) .

(٤) تنوير المقالة (٥٨٨/٣) .

(٥) سورة الأنعام : ١٦٢-١٦٣ .

(٦) المحرر الوجيز (٤١٦/٥) .

(٧) سورة الصافات : ١٠٥ .

قال :

« إشارة إلى ما عمل إبراهيم ، كأنه يقول : إنا بهذا النوع من الإخلاص والطاعة
نجزى المحسنين »^(١) .

١٤ — وقال ابن عاشور :

« معنى النسك : العبادة ، ويطلق على الذبيحة المقصود فيها التعبد .. وأغلب
إطلاقه على الذبيحة المتقرب بها إلى المعبود »^(٢) .

١٥ — وأوضح أن الله ﷻ لم « يجعل لكل أمة إلا منسكاً واحداً للقربان إليه
تعالى ، الذي رزق الناس الأنعام التي يتقربون إليه منها ، فلا يحق أن يجعل لغير الله
منسك ، لأن ما لا يخلق الأنعام المقرب بها ولا يرزقها الناس لا يستحق أن يجعل له
منسك لقربانها .. »^(٣) .

١٦ — وبين القرطبي أن الله تعالى « أمر عند الذبح بذكره ، وأن يكون الذبح
له ؛ لأنه رازق ذلك »^(٤) .

١٧ — وذكر الملي أن الذبح الديني يسمى نسكاً ، وكانت العرب تنسك في
جاهليتها النسائك حول أصنامها وأنصابها تقرباً إليها^(٥) .

١٨ — وعلى هذا جعل عlish من شروط حل الذبيحة « أن لا يذبحه لمعبود غير
الله تعالى »^(٦) .

فهو الذي شرف الآدمي ويسر له هذه الأنعام ، وشرع له ذبحها .

(١) المرجع نفسه (٣٨٧/١٢) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٢٥/٢٠) .

(٣) المرجع نفسه (٢٥٩/١٧) .

(٤) تفسير القرطبي (٥٨/١٢) .

(٥) رسالة الشرك (٢٤٧) .

(٦) منح الجليل (٤١٢/٢) .

١٩ — كما بينه ابن العربي : « تارة في التقرب إليه ، كالهدايا والضحايا ، وتارة في التلذذ به ، كذبجه للأكل »^(١) .

٢٠ — وذكر أنّ « العبادة إنما هي في الذبح أو النحر خاصة .. »^(٢) .

٢١ — وعليه فقد أبطل الله تعالى ما نخره المشركون لأصنامهم ، كما يومئ إليه قوله تعالى : ﴿ فصلّ لربك وانحر ﴾ ، ذكر ذلك ابن عاشور في قوله :

« فلا يمنعك نحرهم للأصنام أن تنحر أنت ناوياً بما تنحره أنه لله تعالى »^(٣) .

وقد لحظ بعض المالكية ورود تلك العبادة العظيمة - الذبح - مقرونة بالصلاة ، كما في قوله تعالى : ﴿ فصلّ لربك وانحر ﴾ ، لمعنى عظيم نقله ابن جزى وجهاً في تفسيرها ، فقال :

٢٢ — « إنّ الكفار يصلون مكاءً وتصدية ، وينحرون للأصنام ، فقال الله لنبيه ﷺ : صل لربك وحده وانحر له ، أي : لوجهه لا لغيره ، فهو على هذا أمر بالتوحيد والإخلاص »^(٤) .

٢٣ — ونقل محمد الأمين عند قوله تعالى : ﴿ قل إنّ صلاتي ونسكي ... ﴾ الآية^(٥) قول بعض العلماء مقرأً له أنّ « المراد بالنسك هنا النحر ؛ لأنّ الكفار كانوا يتقربون لأصنامهم بعبادة من أعظم العبادات هي النحر ، فأمر الله تعالى أن يقول : إنّ صلاته ونحره كلاهما خالص لله تعالى ، ويدل لهذا قوله تعالى : ﴿ فصلّ لربك وانحر ﴾ »^(٦) .

(١) القبس (١٢/٦١٣-٦٢٩) .

(٢) نفس المرجع .

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/٥٧٥) .

(٤) التسهيل (٤/٤٣٦-٤٣٧) .

(٥) سورة الأنعام : ١٦٢ .

(٦) أضواء البيان (٢/٢٨٤) .

٢٤— وعلى هذا سار محمد المكي في تفسير الآية : ﴿ فصلّ لربك وانحر ﴾ ، فقال :

« أي : أخلص صلاتك لربك ، وبذلك تخالف المشركين الذي يعبدون غير الله ، وأخلص نحر لربك ، وبذلك تخالف المشركين الذين لا يذكرون على ذبائحهم اسم الله على غرار قوله تعالى : ﴿ قل إنّ صلاتي ونسكي ﴾ .. » .

٢٥— ثم نقل قول ابن كثير أن المراد بالنحر ذبح المناسك ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلي العيد ثم ينحر نسكه ، ويقول : " من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك ، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له " (١) . (٢)

٢٦— وأوضح الملي أن الذبح لله وحده كما قال تعالى : ﴿ قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له .. ﴾ ، وكما في قوله تعالى : ﴿ فصلّ لربك وانحر ﴾ مبيناً أن الله تعالى عطف النسك على الصلاة ، وأن المراد بالنحر نحر النسك ينادي بأن الذبح لغير الله كالصلاة لغير الله (٣) .

ونظراً لأهمية تلك العبادة وعظم منزلتها فإن مالكا وأصحابه لم يروا أن يتولى ذبحها غير المسلم .

٢٧— فقد ذكر ابن القاسم أن مالكا روى عن رجل من بني عبد الأشهل له فضل أنه قال : « كان الناس يبتغون لذبائحهم أهل الفضل » .

٢٨— وزاد ابن حبيب : « وأهل الإصابة والمعرفة » (٤) .

٢٩— ومن عناية الإمام مالك رحمه الله بأمر الذبح بيانه لحكم قيام النصراني

(١) أخرجه البخاري في كتاب العيدين ، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد (٤٧١/٢) برقم (٩٨٣) ،

ومسلم باختلاف يسير في اللفظ في كتاب الأضاحي ، باب وقتها (١٥٥٣/٣) برقم (١٩٦١) .

(٢) التيسير (٤٧٤/٦) .

(٣) انظر رسالة الشرك (٢٤٩) .

(٤) النواذر والزيادات (٣٦٥/٤) .

بذبح أضحية المسلم بقوله :

« إن ذبح النصراني أضحية المسلم أعاد أضحيته » .

٣٠— وقال ابن القاسم :

« واليهودي مثله »^(١) .

٣١— ونصّ ابن حبيب على أن لا يتولى ذبحها غير المسلم^(٢) .

٣٢— ونحو من قول ابن حبيب هذا قول ابن الجلاب^(٣) .

٣٣— وقال ابن عبد البر :

« ولا يذبح الضحية ولا النسك كله إلاّ مسلم ، فإن ذبحها غير مسلم لم تجز ، وقيل : يجزئ مع الكراهة ، وهو قول أشهب . والأول تحصيل المذهب وبه أقول »^(٤) .

٣٤— وبعد أن نقل القاضي عياض قول الإمام مالك السابق في حكم ذبح غير المسلم لأضحية المسلم بينّ علة الحكم ، فقال :

« إذ هي قرينة لا تصح على يد كافر » .

ثم قال :

« وكره ذلك جماعة من السلف وعامة أصحاب الفتوى وأئمة الأمصار »^(٥) .

٣٥— وأورد القرافي قول اللخمي باستحباب مباشرة الأضحية اقتداءً بالنبي ﷺ وإلا وكل من له دين^(٦) ، فقد كان الناس يتخيرون لضحاياهم أهل الدين ؛ لأنهم

(١) المدونة (٦٧/٢) .

(٢) النوادر والزيادات (٣١٩/٤) .

(٣) انظر التفريع (٣٩٢/١) .

(٤) الكافي (٤٢٤/١) .

(٥) إكمال المعلم (٤١٣/٦) .

(٦) ومراده هنا أهل الصلاح من المسلمين لا أي أحد له دين .

أولى بالتقرب ، فإن وكل تارك الصلاة استحَبَّ له الإعادة^(١) ؛ للخلاف في حلّ ذكاته ، أو كتابيًا ... لا يجزئه ؛ لأنه ليس من أهل القربة^(٢) ، ولقوله عليه الصلاة والسلام : " لن أستعين بمشرك " ^{(٣)(٤)} .

٣٦— وذكر الخطاب أن المجوسي والكتابي لا يليان أمر ذبيحة المسلم ، ونقل قول مالك السابق في ذلك ، ثم قال :

« فإن عزّ اليهودي أو النصراني - بأن تزيّا بزي المسلمين الذين يذبحون - ضمن ذلك وعاقبه السلطان »^(٥) .

٣٧— وقال الأبي :

« وإن وكل كافراً كتابيًا أو غيره لم تجزه ولو كان ملكاً له »^(٦) .

٣٨— وصرّح العدوي^(٧) بأن ما ذكاه المجوسي أو غيره من أهل الكتاب لا يؤكل ولو كان ملكاً له^(٨) .

وبهذا يتبيّن عناية المالكية بتلك العبادة العظيمة ، إذ جعلوها من الشعائر التي يقوم بها أهل الإسلام تقرّباً إلى الله ﷻ ، وتنزيهاً لتلك العبادة من دنس ورجس الكافر والمشرک .

(١) وهذا ينبغي على الخلاف في تارك الصلاة : هل يكفر أمر لا ؟

(٢) ونقل وجهاً آخر يجاوز ذلك عن أشهب مع الكراهة ، معللاً ذلك بأن القربة لا تفتقر إلى نية التقرب من الذابح ، بل من المالك . الذخيرة (١٥٥/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر (١٤٤٩/٣) برقم (١٨١٧) .

(٤) الذخيرة (١٥٥/٤) .

(٥) مواهب الجليل (٣٨٣/٤) .

(٦) الثمر الداني (٣٩٤) .

(٧) هو أبو الحسن علي بن أحمد الصعيدي العدوي ، صاحب التصانيف : حاشية على ابن تركي ، وعلى الزرقاني على العزبة . مات سنة ١١٨٩ هـ . انظر شجرة النور (٣٤٢/١) .

(٨) انظر حاشية كفاية الطالب (٤٤٦/١) .

الذكر المشروع عند الذبح :

تقدم أن المؤمن إنما يتقرب إلى الله ﷻ بهذه القرابين التي خلقها الله ﷻ ، وعليه فإنه لا بد من أن تذبح مخلوقاته التي أحل ذبحها على اسمه العظيم دون سواه .

وقد بين أئمة المالكية أنه لا يذكر إلا اسم الله وحده تعالى عند التقرب إليه بهذه النسائك ، ومن ذلك :

٣٩ — سؤال سحنون لابن القاسم :

« كيف التسمية عند مالك على الذبيحة ؟ قال : بسم الله والله أكبر »^(١) .

٤٠ — وحين سئل مالك رحمه الله : هل يسمي الله تعالى إذا توضأ^(٢) ؟ قال :
أريد أن يذبح^(٣) .

فاستفهامه هنا رحمه الله يبين أن ذكر اسم الله تعالى على الذبيحة هو المتعين .

٤١ — وقال ابن القاسم :

« إذا ذكر عليها اسم غير الله لم تؤكل ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾^(٤) »^(٥) .

(١) المدونة (٦٦/٢) .

(٢) مسألة التسمية عند الوضوء وردت فيها أحاديث عن النبي ﷺ . قال المنذري : « وفي الباب أحاديث كثيرة لا يسلم شيء منها عن مقال ، وقد ذهب الحسن وإسحاق بن راهويه وأهل الظاهر إلى وجوب التسمية في الوضوء ، حتى إنه إذا تعمد تركها أعاد الوضوء ، وهو رواية عن الإمام أحمد ، ولا شك أن الأحاديث التي وردت فيها وإن كان لا يسلم شيء منها عن مقال فإنها تتعاضد بكثرة طرقها ، وتكسب قوة ، والله أعلم » . قال الألباني رحمه الله معلقاً على قول المنذري السابق : « وهو الحق » . انظر صحيح الترغيب والترهيب (٢٠١/١) .

(٣) تفسير القرطبي (٧٦/٧) .

(٤) سورة الأنعام : ١٢١ .

(٥) منح الجليل (٥٧٠/١) ، وتبيين المسالك للأحسائي (٣٤٤/٢) .

٤٢— وذكر ابن عاشور « أن غير ما ذكر اسم الله عليه لا يأكله المسلمون »^(١).
٤٣— وذلك « لأن الذبح إنما هو لله تعالى وحده ، فلا يذكر هناك إلا اسم الله تعالى وحده ، كما أمر حيث يقول : ﴿ ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾^(٢) » ، كما قاله ابن رشد^(٣) .

٤٤— وبعد أن أورد ابن بطال النصوص الآمرة بالتسمية عند الذبح قال :
« إن الله تعالى إنما أراد نسخ أمر الجاهلية التي كانت تذكر اسم طواغيتها على صيدها وذبائحها »^(٤) .

٤٥— ومراده أن يذكر اسم الله تعالى وحده عند الذبح ، تعظيمًا له ﷻ ، ومخالفة للمشركين الذين وصف ابن عبد البر حالهم بقوله :

« فالذابح منهم كان إذا ذبح للآلهة سماها ورفع صوته بذكرها »^(٥) .

٤٦— وعلى هذا بين أن ما ذبحه المسلم ولم يعرف هل سمي الله عليه أم لا أنه لا بأس بأكله ، وهو محمول على أنه قد سمي ، والمؤمن لا يظن به إلا الخير ، وذبيحته وصيده أبدًا محمول على السلامة حتى يصح فيه غير ذلك ، من تعمد ترك التسمية ونحوه »^(٦) .

٤٧— ولذا رأى مالك أن من ترك التسمية عمدًا لا تحل ذبيحته .

٤٨— كما نقله ابن عبد البر ، وقال :

« هو رأي الجمهور ، وحجة من ذهب إلى ذلك. أن تارك التسمية عمدًا^(٧) تلاعب بإخراج النفس على غير شريعتها ، وقد أجمعوا أن من شرائط الذبيحة

(١) التحرير والتنوير (٣٢/٨) .

(٢) سورة الحج : ٢٨ .

(٣) البيان التحصيل (٢٨١/٣) .

(٤) شرح البخاري (٣٨١/٥) .

(٥) التمهيد (١٦٨/١٣) .

(٦) التمهيد (٢٩٩/٢٢) .

(٧) ويأتي الكلام على ترك التسمية عندهم عمدًا أو نسيانًا .

والصيد التسمية ، فمن استباح ذلك على غير شريطته عامداً دخل في الفسق الذي قال الله : ﴿ وإنه لفسق ﴾^(١) .^(٢)

٤٩ — وفسّر ابن عطية قول الله تعالى : ﴿ ويذكروا اسم الله ﴾^(٣) بقوله :

« معناه : أمرناهم عند ذبائحهم بذكر الله ، وأن يكون الذبح له ؛ لأنه رازق ذلك ، ثم رجع اللفظ من الخبر عن الأمم إلى إخبار الحاضرين بما معناه : فالإله واحد لجميعكم ، فكذلك الأمر في الذبيحة إنما ينبغي أن تخلص له »^(٤) .

٥٠ — ورد ابن العربي مقالة الجويني من « أن ذكر الله تعالى إنما شرع في القرب والذبح ليس بقربة » فقال :

« وهذا يعارض القرآن والسنة . قال ﷺ : " ما أهر الدم وذكر اسم الله عليه فكل " »^(٥) .^(٦)

فبيّن أن الذبح قربة لله تعالى يفتقر إلى ذكر اسم الله تعالى عليه .

٥١ — وأوضح القرطبي أن الذكر المشروع عند الذبح هو « الذكر لله بالقلب والذي كانت العرب تفعله تسمية الأصنام والنصب باللسان ، فنسخ الله ذلك بذكره في الألسنة ، واشتهر ذلك في الشريعة »^(٧) .

٥٢ — وعند قول الله تعالى : ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾^(٨) قال :

« أي انحروها على اسم الله »^(٩) .

(١) سورة الأنعام : ١٢١ .

(٢) التمهيد (٣٠١/٢٢) .

(٣) سورة الحج : ٢٨ .

(٤) المحرر الوجيز (٢٧٨/١٠) .

(٥) خرجه البخاري في كتاب الشركة ، باب من عدل عشرة من الغنم بجزور في القسم (١٣٩/٥) برقم

(٢٥٠٧) ، ومسلم في كتاب الأضاحي ، باب جواز بكل ما أهر الدم (١٥٥٨/٣) برقم (١٩٦٨) .

(٦) نقله القرطبي في تفسيره (٧٦/٧) .

(٧) المرجع نفسه (٧٦/٧) .

(٨) سورة الحج : ٣٦ .

٥٣— وذكر الأحسائي وجوب التسمية عند الذبح مستدلاً بقوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ﴾^(١) .

٥٤— وبين أن من أراد الذبح إذا قال :

« بسم الله فقط ، أو الله أكبر فقط ، أو لا إله إلا الله ، ونحو ذلك أجزأه »^(٢) .

٥٥— ولما ذكر ابن عاشور ما كان عليه العرب بجهرهم عند الذبح أو النحر باسم المقصود بتلك الذكاة يبين أن قوله تعالى : ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾ « تدل على شدة اتصال فعل الذكر بذات الذبيحة ، بمعنى أن يذكر اسم الله عليها عند مباشرة الذبح لا قبله أو بعده .. »^(٣) .

٥٦— ونبه على أهمية الذكر عند الذبح بأن بين أن ختم الآية بقوله : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ : « تحريض على التزام ذلك وعدم التساهل فيه ، حتى جعل من علامات كون فاعله مؤمناً ، وذلك حيث كان شعار أهل الشرك ذكر اسم غير الله على معظم الذبائح »^(٤) .

٥٧— وجعل محمد المكي المراد من ذكر الله الوارد في قوله تعالى : ﴿ ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ﴾ هو نفس النحر أو الذبح ، معللاً ذلك بأن المسلم « لا ينفك عن ذكر اسم الله كلما نحر أو ذبح ، ولأن الغاية الأولى والأخيرة مما يتقرب به المؤمن إلى الله هو ذكر اسم الله ونيل تقواه »^(٥) .

ومراده أن التسمية غير واجبة ، فالمسلم وإن ذبح ولم يذكر اسم الله فإنه ذاكر لله في سائر أحواله ، كما يشير إليه هنا^(٦) .

(١) تفسير القرطبي (٦١/١٢) .

(٢) سورة الأنعام : ١٢١ .

(٣) تبين المسالك (٣٤٢/٢) .

(٤) التحرير والتنوير (٣٢/٨) .

(٥) نفس المرجع .

(٦) التيسير (١٧٣/٤) .

(٧) اختلف العلماء في حكم متروك التسمية على أقوال :

وعلى هذا فائمة المالكية بينوا أن الذبح عبادة يتقرب بها إلى الله ﷻ لا يجوز صرفها لغيره تعالى يدل على ذلك تشديدهم في أهمية ذكر اسم الله تعالى وحده عند إرادة الذبح ، وأن لا يتولى الذبح غير المسلم إذ هي قرينة لا تصح على يد كافر^(١) .

= القول الأول : إن تركها سهواً جاز أكلها ، وإن تركها عمداً لم تؤكل . وهو قول الجمهور ، ومنهم : إسحاق ، ورواية عن أحمد بن حنبل ، وقاله في الكتاب مالك وابن القاسم ، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه ، والثوري . وقاله سعيد بن جبير وعطاء ، واختاره البخاري ، وقال : هذا أحسن ؛ لأنه لا يسمى فاسقاً إذا كان ناسياً .

القول الثاني : إن تركها عمداً أو ناسياً يأكلها . وهو قول الشافعي ، والحسن . وروي ذلك عن ابن عباس ، وأبي هريرة ، وعطاء ، والنخعي ، وحكاه الزهراوي رواية عن مالك ، ورجحه ابن عاشور .

القول الثالث : إن تركها عمداً أو ساهياً حرم أكلها . قاله ابن سيرين ، وعبدالله بن عباس ، وعبدالله بن عمر ، ونافع ، والشعبي ، وهو رواية عن أحمد .

القول الرابع : إن تركها عمداً كره أكلها . قاله من المالكية القاضي أبو الحسن ، والشيخ أبو بكر .
القول الخامس : قال أشهب : تؤكل ذبيحة تارك التسمية عمداً إلا أن يكون مستخفاً . وقال نحوه الطبري .

قال القرطبي : قال الله تعالى : ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾ ، وقال : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ . فبين الحالين وأوضح الحكمين ، فقوله : ﴿ لا تأكلوا ﴾ فهي على التحريم لا يجوز حمله على الكراهة ؛ لتناوله في بعض مقتضياته الحرام المحض ، ولا يجوز أن يتبعض أي يراد به التحريم والكراهة معاً ، وهذا من نفيس الأصول .

وأما الناسي فلا خطاب يتوجه إليه ، إذ يستحيل خطابه ، فالشرط ليس بواجب عليه .
وأما من رأى جواز أكل متروك التسمية عمداً أو نسياً فلأجل أن المؤمن لا ينفك عن ذكر الله تعالى ، إذ قلبه مملوء من أسماء الله تعالى وتوحيده ، فلا يفتقر إلى ذكر باللسان ، كما أشار إليه القرطبي ومحمد المكي . انظر : المحرر الوجيز (٣٣٤/٥) ، وتفسير القرطبي (٧٦/٧) ، والتحرير والتنوير (٤٠/٨) .

(١) يستثنى من ذلك ذبائح أهل الكتاب إذا ذكروا اسم الله تعالى عليها ، كما قال تعالى : ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ . وقد ذكر ابن كثير الحكمة في إباحة ذبائح أهل الكتاب ، فقال : « لأنهم يذكرون اسم الله على ذبائحهم وقرابينهم ، وهو متعبدون بذلك ، ولهذا لم ييح ذبائح من عداهم من أهل الشرك ومن شابههم ؛ لأنهم لم يذكروا اسم الله على ذبائحهم ، بل ولا يتوقفون فيما يأكلونه من اللحم على ذكاة ، بل يأكلون الميتة » . انظر تفسير ابن كثير (١١١٣/٣) .

المسألة الرابعة : النذر

النذر : ما يوجه المرء على نفسه من صدقة أو عبادة أو نحوهما^(١) .

ولما كان النذر منه ما يحمد ومنه ما يذم ، فإن الكلام هنا عن نذر العبادة الذي أثنى الله تعالى على الموفين به ، كما قال ﷺ : ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾^{(٢)(٣)} .

وسيكون بيانه من خلال أقوال المالكية مقصوراً على الآتي :

أولاً : معنى نذر العبادة .

ثانياً : حكم التقرب بهذا النذر .

(١) انظر المعجم الوسيط (٩١٢/٢) .

(٢) سورة الإنسان : ٧ .

(٣) قال ﷺ : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه » . أخرجه البخاري في

كتاب الإيمان والنذور ، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية (٥٨٥/١١) رقم (٦٧٠٠) .

قال مالك : « معنى قول رسول الله ﷺ : " من نذر أن يعصي الله فلا يعصه » : أن ينذر الرجل أن يمشي إلى الشام ، أو إلى مصر ، أو إلى الربرة ، أو ما أشبه ذلك مما ليس لله فيه طاعة ، إن كلم فلاناً أو ما أشبه ذلك فليس عليه في شيء من ذلك شيء إن هو كلمه أو حنث بما حلف عليه ؛ لأنه ليس لله في هذه الأشياء طاعة ، وإنما يوفي لله بما له فيه طاعة » . الموطأ (٤٧٦/٢) .

أولاً : معنى نذر العبادة

١— أوضح الإمام مالك معنى هذا النذر عندما روى بسنده : أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قائماً في الشمس ، فقال : ما بال هذا ؟ فقالوا : نذر أن لا يتكلم ، ولا يستظل من الشمس ، ولا يجلس ، ويصوم . فقال رسول الله ﷺ : « مروه فليتكلم ، وليستظل ، وليجلس ، وليتم صيامه »^(١) .

ثم قال : ولم أسمع رسول الله ﷺ أمره بكفارة ، وقد أمره رسول الله ﷺ أن يتم ما كان لله طاعة ويترك ما كان لله معصية^(٢) .

٢— وبيّن معناه أيضاً عند سؤاله عن رجل يحلف بنذور مسماة شيئاً إلى بيت الله ، فقال :

« ما أعلمه يجزئه من ذلك إلاّ الوفاء بما جعل على نفسه ، فليمش ما قدر عليه من الزمان ، وليتقرب إلى الله تعالى ما استطاع من الخير »^(٣) .

٣— وعند جوابه فيمن نذر نذراً ليس لله فيه طاعة ، قال :

« وإنما يوفى لله بما له في طاعة »^(٤) .

فتبيّن أن معنى النذر عند الإمام مالك رحمه الله هو ما أوجبه المرء على نفسه من الطّاعة .

وقد جاءت تعريفات المالكية حول هذا المعنى :

٤— ومن ذلك ما ذكره ابن بطال من أن النذر هو ما أوجبه المرء على نفسه ولزمها إياه لله تعالى ، « فكل من ألزم نفسه شيئاً لله فقد تعيّن عليه فرض الأداء فيه ،

(١) سبق تخريجه ص ١٩١ .

(٢) الموطأ (٣٧٩/١) .

(٣) الموطأ (٣٧٩/١) ، والمدونة (٧٧/٢) .

(٤) نفس المصدرين السابقين .

وقد ذمّ الله من أوجب على نفسه شيئاً ولم يف به . قال تعالى : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ... ﴾ ، وإن كانت تلك الطاعة قبل النذر غير لازمة ^(١) .

٥— وقریب من قول ابن بطال ما ذكره القرطبي حيث يقول :

« النذر حقيقة العبارة عنه أن تقول : هو ما أوجبه المكلف على نفسه من العبادات مما لو لم يوجبه لم يلزمه » ^(٢) .

٦— وقال أبو العباس القرطبي :

« النذور جمع نذر ، كفلس وفلوس ، وهو عبارة عن التزام فعل الطاعات بصيغ مخصوصة ، كقوله : لله عليّ صوم ، أو صلاة ، أو صدقة » ^(٣) .

٧— وعرفه ابن العربي بقوله :

« النذر هو التزام في الذمة بالقول لما لا يلزم من القرب بإجماع من الأمة ، ويلزم بالنية عند علمائنا خاصة ^(٤) دون غيرهم من العلماء » ^(٥) .

٨-١٦— وقد قال بنحو هذه التعريفات خليل ^(٦) ، والخطاب ^(٧) ، والصاوي ^(٨)

(١) انظر شرح صحيح البخاري (١٥٦/٦) .

(٢) تفسير القرطبي (٣٣٣/٣) .

(٣) المفهم (٦٠٤/٤) .

(٤) يعني علماء المالكية في اعتبار النيات ، وما انعقد عليه القلب موضعاً ذلك بقوله : « والعمدة الالتزام إنما يكون بالقصد في القلب والقول في النفس فيما يخص به المرء ولا يتعداه إلى غيره يلزمه ذلك فيه ، وإنما يحتاج إلى القول أو الكتاب فيما يتعلق بسواه ويدور بينه وبين غيره . وهذا أصل لا تزغزعه الاعتراضات ؛ لأنه أوضح الدلالات ، وعليه عوّل مالك حين قال فيمن التزم الطلاق بقلبه : إنه يلزمه ، كما يكون مؤمناً بقلبه وكافراً بقلبه ، ومن عداه من أصحابه لم يرووا عنه خلاف هذا » . انظر القبس (٦٥٨/٢) .

(٥) القبس (٦٥٨/٢) .

(٦) مختصر خليل (٨٨) . ط. الحلبي ١٣٤١هـ .

(٧) مواهب الجليل (٤٨٩/٤) .

(٨) بلغة السالك لأقرب المسالك (١٦٣/٢) . ط. دار الكتب العلمية . ط. الأولى ١٤١٥هـ . بيروت لبنان .

وعليش^{(١)(٢)} ، والنفراوي^(٣) ، والداه الشنقيطي^(٤) ، والجعلي^(٥) ، والشنقيطي^(٦) ،
والأحسائي^{(٧)(٨)} .

وعلى هذا فالنذر عندهم يختصّ بالقرب والطاعات من المندوبات والمستحبات ،
أما المحرم والواجب فهما باقيان على أصلهما لا يتغيران بالنذر ، وأما المباح فلا يتعلق
بنذره حكم أصلاً ؛ لأنّ المقصود من النذر القربة وليس في فعل المباح قربة^(٩) .

واستدلوا على ذلك بقوله ﷺ : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن
يعصي الله فلا يعصه »^(١٠) . وحديث أبي إسرائيل لما رآه رسول الله ﷺ حافياً قائماً
في الشمس ، فقال : « مروه فليستظلّ ولينتعل »^(١١) .

(١) هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن محمد عليش ، الطرابلسي ، شيخ المالكية وفقيهها ، له من التصانيف :
شرح مختصر خليل ، وحاشية عليه ، وحاشية على أقرب المسالك . مات سنة ١٢٩٩ هـ .
انظر شجرة النور (٣٨٥/١) .

(٢) منح الجليل (٩٧/٣) .

(٣) الفواكه الدواني (٢/٢) .

(٤) الفتح الرباني (٢١/٢) .

(٥) سراج السالك شرح أسهل المسالك لعثمان بن حسين الجعلي (٢١/٢) . ط. الحلبي - مصر .

(٦) شرح خليل بن إسحاق المسمى نصيحة المرباط للشنقيطي (٢٧٧/١) .

(٧) هو عبدالعزيز بن حمد بن عبداللطيف بن مبارك التميمي ، من تصانيفه : تدريب السالك إلى أقرب
المسالك على مذهب الإمام مالك . مات سنة ١٣٦٠ هـ . انظر ترجمته في مقدمة كتاب تبين
المسالك (٣٩/١) .

(٨) تبين المسالك (٤٠١/٢) .

(٩) انظر كلامهم في تقسيم النذر في : المدونة (١١٢/٢) ، والذخيرة للقرافي (٧٢/٤) ، والكافي لابن
عبدالبر (٤٥٤/١) ، وابن نصر في المعونة (٤٢٧/١-٤٢٩) ، والمتقى للباجي (٢٩٩/٣-١٤١) .

(١٠) رواه البخاري في كتاب الإيمان والنذور ، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية (٥٨٥/١١) برقم
(٦٧٠٠) .

(١١) أخرجه البخاري في الإيمان والنذور ، باب النذر فيما لا يملك (٥٨٦/١١) برقم (٦٧٠٤) .

ثانيًا : حكم التقرب بهذا النذر

يرى المالكية أنّ ابتداء عقد النذر وإلزام النفس به مكروه ، أما إذا وقع فإنه يلزم الوفاء به ، لقوله تعالى - مثنياً على الموفين نذورهم - ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾^(١) .

١٧— وقد احتجوا بالأحاديث التي تنهى عن النذر ، كما قال ابن رشد :

« كره جماعة من أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم النذر ، لما روي أنّ رسول الله ﷺ : نهى عن النذر . وقال : " إنه لا يغني شيئاً ولكن يستخرج به من البخيل " ، ولما روي عنه أيضاً من رواية أبي هريرة أنه قال : " لا تنذروا ، فإن النذر لا يغني من القدر شيئاً ، وإنما يستخرج به من البخيل " »^(٢) .

١٨— وقد نقل القرطبي عن مالك كراهة النذر مطلقاً^(٣) . وهو الصواب إن شاء الله تعالى^(٤) ، إذ هو المتفق مع ما كان عليه الإمام مالك من الحرص على السنة واتباع آثار الصحابة ، سيما أن الأحاديث الصحيحة ثابتة في كراهية النذر .

١٩— يؤكد هذا أنّ ابن العربي حكى إجماع الأئمة على كراهية النذر ، فقال - في كلامه عن النذر - :

« أما اجتماع الأمة فلا خلاف بينهم في وجوب الوفاء به ، كما لا خلاف

(١) سورة الإنسان : ٧ .

(٢) البيان والتحصيل (١٣٦/٣) . والحديث أخرجه مسلم في كتاب النذر ، باب الأمر بقضاء النذر (١٢٦١/٣) برقم (١٦٤٠) .

(٣) المفهم (٦٠٨/٤) .

(٤) خلافاً لابن رشد ؛ فقد ذكر عن مالك القول باستحباب النذر ، وهو بعيد ؛ للإجماع الذي حكاه ابن العربي ، وقد خرج الإمام مالك حديث أبي إسرائيل ، ثم قال : « فأمره أن يتم ما كان طاعة ، ويترك ما كان لله معصية ، فقوله " يتم " يشعر بكراهيته لفعل الطاعة المنذورة ابتداءً ، والله أعلم » . انظر الموطأ (٤٧٦/٢) . وانظر البيان والتحصيل لابن رشد (١٣٧/٣) .

بينهم في كراهة التزامه ، لما ثبت في الحديث الصحيح أنه ﷺ قال : " إِنَّ النذر لا يردّ من القدر شيئاً ، وإنما يستخرج به من البخيل " ^(١) .

٢٠ — ونقل المازري عن بعض علماء المالكية قولهم :

« إن الغرض بهذا الحديث التحفظ على النذر ، والحفظ على الوفاء به » ^(٢) .

وبهذا يتبين أنهم يرون كراهة التزام النذر ابتداءً ، فإذا ما انعقد وجب الوفاء به ، وبعضهم يرى أن الكراهة تتعلق بنذر المجازاة ، أما النذر المطلق فلا كراهة فيه .

٢١ — ومن ذلك ما ذكره الباجي عند حديث عبدالله بن عمر : نهى النبي ﷺ عن النذر ، وقال : " إنه لا يردّ شيئاً ، ولكنه يستخرج من البخيل " حيث ذكر أن « معنى ذلك : أن تنذر لمعنى من أمر الدنيا ، مثل أن يقول : إن شفى الله مريضاً أو قدم غائباً أو أنجاني من أمر كذا ، فإني أصوم يومين أو أصلي صلاة ، أو أتصدق بكذا .. فهذا المكروه المنهي عنه ، وإنما يستحب أن يكون فعله ذلك لله تبارك وتعالى رجاء ثوابه ، وأن يكون نذره على ذلك الوجه دون تعلق نذره بشيء من أمر الدنيا وغرضها » ^(٣) .

٢٢ — ويبيّن ابن بطال أن النذر لا يغيّر من القدر شيئاً من جلب نفع أو دفع ضرر ، فقال :

« ونهى ﷺ عن النذر - وهو من أعمال الخير - أبلغ زاجر عن توهم العبد أنه يدفع عن نفسه خيراً أو يجلب إليها نفعاً ، أو يختار لها ما يشاء ، ومن اعتقد ذلك فقد جعل نفسه مشاركاً لله في خلقه ، ومجوّزاً ما لم يقدره ، تعالى الله عما يقولون » ^(٤) .

(١) القبس (٢/٦٦٠) .

(٢) إكمال المعلم (٥/٣٨٧) .

(٣) المنتقى (٣/٢٢٨) .

(٤) شرح صحيح البخاري (١٠/٣٠٨) .

٢٣- وقال المازري - عند كلامه على حديث ابن عمر السابق - :

« يحتمل عندي أن يكون وجه النهي أن الناذر يأتي القرية مستقلاً^(١) لها لما صارت عليه ضربة لازم ، وكل محبوس الاختيار كأنه لا ييسط للفعل ولا ييسط إليه نشاط مطلق الاختيار ، ويحتمل أيضاً أن يكون الناذر لما لم ينذر ما بذل من القرية ، إلا بشرط أن يفعل له ما يختار ، وصار ذلك كالمعاوضة التي تقدح زينة التقرب ، ويذهب الأجر الثابت للقرية المجردة ، وفي الحديث : " من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو له " ^(٢) . » ^(٣) .

٢٤- وذكر الاحتمال الأول القاضي عياض أيضاً في توجيه كراهة النذر^(٤) .

٢٥- وقريب من قول المازري هذا قول القرطبي أبو العباس ، حيث يقول :

« هذا النذر محله أن يقول مثلاً : إن شفى الله مريضى فعليّ صدقة كذا ، ووجه الكراهة أنه لما وقف فعل القرية المذكورة على حصول الفرض المذكور ظهر أنه لم يتمحض له فيه التقرب إلى الله مما صدر منه ، بل سلك مسلك المعاوضة . يوضحه أنه لو لم يشف الله مريضه لم يتصدق بما علقه على شفائه ، وهذه هي حالة البخيل ؛ فإنه لا يخرج من ماله شيئاً إلاّ بعوض دخل يزيد على ما أخرج غالباً^(٥) . »

٢٦- ثم قال :

« ينضاف إلى هذا اعتقاد جاهل يظن أن النذر يوجب حصول ذلك الغرض ، أو

(١) كذا في النص ، والصواب : " مستقلاً " ، وهو الذي ينتظم معه السياق .

(٢) الحديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه » . كتاب الزهد والرقائق ، باب من أشرك في عمله غير الله (٢٢٨٩/٤) برقم (٢٩٨٥) .

(٣) المعلم (٢٣٦/٢) .

(٤) انظر إكمال المعلم (٣٨٧/٥) .

(٥) المفهم (٦٠٧/٤) .

أن الله تعالى يفعل منه الغرض لأجل ذلك النذر ، وإليهما الإشارة بقوله ﷻ : " فَإِنَّ النَّذْرَ لَا يَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا " . وهاتان جهالتان : فالأولى : تقارب الكفر . والثانية خطأ صراح . فإذا تقرّر هذا فهل هذا النهي محمول على التحريم أو على الكراهة ؟ المعروف من مذاهب العلماء الكراهة ... والذي يظهر لي حملة على التحريم في حقّ من يخاف عليه ذلك الاعتقاد الفاسد ، فيكون إقدامه على ذلك محرّمًا ، والكراهة في حقّ من لم يعتقد ذلك . والله أعلم»^(١) .

فبيّن بهذا الكلام أنّ الناذر نذرًا معلقًا كأنه لا يحصل على مطلوبه ومقصوده من الشفاء وغيره إلّا إذا أعطى مقابلًا له ! وهذا سوء ظنّ بالله ﷻ ، وهذا فيمن اعتقد هذا الاعتقاد .

٢٧— وبعد أن نقل الرواية عن مالك بكراهية النذر مطلقًا قال :

« يمكن حملة على الأنواع التي بينا كراهتها ، ويمكن حملة على جميع أنواعه ؛ لكن من حيث أنه أوجب على نفسه ما يخاف عليه التفريط فيه فيتعرّض للوم الشرع وعقوبته»^(٢) .

٢٨— وأقرّ الخطاب قول القرطبي السابق في كراهة نذر المجازاة^(٣) .

٢٩-٣١— وقد قال بكراهة نذر المجازاة عlish^(٤)، والجعللي^(٥) ، والشنقيطي^(٦) .

٣٢— ونقل محمّد المختار إنكار ابن حجر على من زعم أنّ النذر غير مكروه مقرّأ له ، فقال :

(١) المفهم (٦٠٧/٤) .

(٢) المفهم (٦٠٨/٤) .

(٣) انظر مواهب الجليل (٤٩٤/٤) .

(٤) منح الجليل (٩٩/٣) .

(٥) سراج السالك (٢٢/٢) .

(٦) نصيحة المرباط (٢٧٨/٢) .

« قد ثبت النهي بخصوصه ، فيكون مكروهاً ، وإني لأتعجب ممن انطلق لسانه بأنه ليس بمكروه مع ثبوت النهي الصريح عنه ، فأقل درجاته أن يكون مكروهاً كراهة تنزيه ^(١) .

٣٣ — وأورد أيضاً رأي ابن حجر بتخصيص النهي بنذر المعاوضة واللجاج ، جمعاً بين آية سورة الإنسان التي تضمنت الثناء والحديث الذي تضمن النهي ، فيخص كل منهما بصورة من صور النذر ^(٢) .

وعلى كل حال فالعبد لا يأتي هذه النذور إلا وهو على يقين تام بقدره الله ﷻ ، والذي دفعه لذلك طلب مرضاة الله ﷻ على وجه الذلة والخضوع له تعالى ، وسؤاله التيسير على عبادة ، وعلى هذا فالمعاني التي دفعت العبد لأن ينذر هي الثقة بالله من جهة قدرته تعالى فيقبل على النذر خاضعاً متذللاً لمولاه . ولا ريب أن تلك المعاني الجليلة من العبادة .

يؤيد ذلك أن المالكية وغيرهم يمنعون أن يصرف النذر لأحد غير الله ﷻ ^(٣) .

وأما الوفاء به فقد أثنى الله ﷻ على الموفين بنذورهم ، فقال : ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾ ^(٤) .

وقد بين أئمة المالكية هذه المسألة وأن الناذر يلزمه الوفاء .

٣٤ — حتى إن ابن العربي حكى إجماع الأمة على وجوب الوفاء به ^(٥) .

٣٥ — وقال القرطبي :

« لا إشكال في أن النذر من جملة العقود أو العهود المأمور بالوفاء بها ، وأن

(١) نور الحق (١٠/١١١) . وانظر فتح الباري (١١/٥٧٨) .

(٢) نور الحق (١٠/١١٣) . وانظر فتح الباري (١١/٥٨٠) .

(٣) ويأتي كلامهم إن شاء الله تعالى في الباب الثالث .

(٤) سورة الإنسان : ٧ .

(٥) انظر القبس (٢/٦٦٠) .

الوفاء بذلك من أعظم القرب المثني عليها ، وكفى بذلك مدحاً وتعزيراً قوله تعالى : ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾ .

٣٦— وتقدم عن مالك فيمن نذر نذراً ليس فيه طاعة قوله :

« إنما يوفى الله بما له في طاعة »^(١) .

وهذا يبين أن الوفاء عند مالك رحمه الله فيما كان قرابة وطاعة دون تفصيل في النذر أكان معلقاً أو منجزاً .

٣٧— وقال القاضي عياض :

« ويلزم النذر عند مالك مطلقاً » .

ومراداه يلزم الوفاء به ؛ لأنه ذكر ذلك بعد إيراد لقوله تعالى : ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾^(٢) ، وقوله ﷺ : « وينذرون ولا يوفون »^{(٣)(٤)} .

٣٨— وذكر ابن بطال اتفاق العلماء على أن الوفاء بالنذر إذا كان طاعة واجب لازم لمن قدر عليه ، لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾^(٥) ، وقوله : ﴿ يوفون بالنذر ﴾ . فمدحهم بذلك ... وذم من لم يف بالنذر ، وقرن النبي ﷺ ذم من لم يف بالنذر بخيانة الأمانة .

٣٩— ويبين أن الوفاء بالنذر مما يدفع به شر ذلك اليوم ، كما في قوله تعالى : ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾^(٦) .

(١) الموطأ (٣٧٩/١) ، والمدونة (٧٧/٢) .

(٢) سورة الحج : ٢٩ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان والنذور ، باب إثم من لا يفي بالنذر (٥٨٠/١١) برقم (٦٦٩٥) ،

ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم (١٩٦٤/٤) برقم (٢٥٣٥) .

(٤) انظر إكمال المعلم (٣٩٢/٥) .

(٥) سورة المائدة : ١ .

(٦) سورة الإنسان : ٧ .

٤٠-٤١ — وهؤلاء ذكروا وجوب الوفاء بنذر الطاعة في الجملة ، وكذلك الباجي^(١) والقاضي عياض^(٢) .

٤٢ — وأشار المازري إلى أن النذر الذي يجب الوفاء به هو المعلق بشرط ، أما النذر غير المشروط فلا يسمى نذرًا ، والوفاء به مستحب^(٣) .

٤٣ — وجزم أبو العباس القرطبي بأنّ النذر المعلق يلزم « الوفاء به قطعًا من غير خلاف ، لقوله ﷺ : " من نذر أن يطيع الله فليطعه " ، ولم يفرّق بين النذر المعلق ولا غيره »^(٤) .

٤٤-٥٠ — وبنحو قول القرطبي بلزوم الوفاء بالنذر المعلق قال خليل^(٥) ، والصاوي^(٦) ، وعليش^(٨) ، والنفراوي^(٩) ، والشنقيطي^(١٠) ، والخطاب^(١١) ، الأحسائي^(١٢) . وسبب كلامهم هنا عن النذر المعلق لأنّ منهم من يرى تحريمه أو كراهيته ابتداءً ، فإذا ما وقع فيلزم الوفاء به ، وذلك لحملهم النهي الوارد عليه ، والله أعلم^(١٣) .

(١) المتقى (٢٢٨/٣) .

(٢) إكمال المعلم (٣٨٤/٥) .

(٣) المعلم (٢٣٩/٢) .

(٤) المفهم (٦٠٧/٤) .

(٥) هو خليل بن إسحاق ، ضياء الدين ، أبو المودة ، الحافظ ، له من التصانيف : مختصر في المذهب مشهور أقبل عليه الطلبة من كل الجهات واعتنوا بشرحه وحفظه . مات سنة ٧٧٦هـ . انظر شجرة النور (٢٢٣/١) .

(٦) مختصر خليل (٨٨) .

(٧) بلغة السالك (١٦٥/٢) .

(٨) منح الجليل (١٠٢-١٠١/٣) .

(٩) الفواكه الدواني (١٢/٢) .

(١٠) نصيحة المرباط (٢٧٨/٢) .

(١١) مواهب الجليل (٤٩٤/٤) .

(١٢) تبين المسالك (٤٠٩/٢) .

(١٣) ذكر ذلك القرطبي أبو العباس في المفهم (٦٠٧/٤) . وأورد الطبري عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ يوفون بالنذر ﴾ . قال : « كانوا ينذرون طاعة الله من الصلاة والصيام والزكاة والحج والعمرة ، وما افترض عليهم ، ويوفون بذلك فسماهم الله أبرارًا » . الطبري (٣٥٩/١٢) .

قال ابن حجر : « وهذا صريح في أن الثناء وقع في غير نذر المجازاة » . الفتح (٥٧٩/١١) .

المسألة الخامسة : الطواف

الطواف في اللغة : الدوران حول الشيء^(١) ، وهو كذلك في الاصطلاح الشرعي إلا أنه قد خصّ بكونه عبادة يتقرّب بها لله تعالى في مكان معيّن لا يتحقق التعبد بالطواف في غيره . وكذلك بصلته وارتباطه الوثيق بالعبادة .

وقد أبان المالكية هذه المسألة من خلال الفقرتين الآتيتين :

أولاً : مكان الطواف .

ثانياً : صلة الطواف بالعبادة .

(١) المعجم الوسيط (٣٠٢/١ و ٥٧٠/٢) .

أولاً : مكان الطواف

يُبين المالكية أنَّ الطواف مختصّ ببيت الله الحرام ، ولا يجوز في غيره من سائر البقاع .

١— ومن ذلك ما أورده الإمام مالك عند أثر عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " لا يصدر أحد من الحاج حتى يطوف بالبيت ، فإنّ آخر النسك الطواف بالبيت " ^(١) . حيث يقول :

« إنّ ذلك فيما نرى - والله أعلم - لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾ . وقال : ﴿ ثمّ محلها إلى البيت العتيق ﴾ ، فمحل الشعائر كلها وانقضاؤها إلى البيت العتيق » ^(٢) .

فجعل الإمام مالك الشعائر كلها - ومنها الطواف - مختصة بالبيت العتيق .

٢— قال الباجي :

« وظاهر اللفظة إنّما يقتضي أنّ الشعائر تنتهي إلى البيت العتيق ، وإما أن يكون الطواف به آخر الشعائر ، وإما أن يكون الطواف به نهايتها وتمامها » ^(٣) .

٣— وذكر نحو ذلك ابن العربي ^(٤) .

٤— ولما كان الطواف عبادة تختصّ بمكان معيّن تفوت بفوته ، فقد بيّن ابن

(١) خرجه مالك في الموطأ ، باب وداع البيت (٢٩٨/١) ، والبيهقي في الحج (١٦٢/٥) ، والشافعي في المسند (١٣١) ، وأبو يعلى (٤٧٦٢) ، ورجاله ثقات إلى عمر رضي الله عنه ، وهو موقوف عليه ، غير أن ابن إسحاق قد عنعن ، وهو موصوف بالتدليس . ويشهد له أثر ابن عباس في الصحيح : « أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت ، إلّا أنه خفف عن الحائض » . وصححه ابن خزيمة برقم (٣٠٠١) ، وكذا ابن حبان (٣٩٠٧) .

(٢) الموطأ (٢٩٨/١) .

(٣) المنتقى (٢٩٤/٢) .

(٤) أحكام القرآن (٢٨٨/٣) .

القاسم أن الطواف بالبيت أفضل من صلاة النافلة لمن كان من أهل البلاد البعيدة^(١) .

٥-٧ — وقال بنحو ذلك ابن بطال^(٢) ، والقرافي^(٣) ، والمهدي الفاسي^(٤) .

وما ذاك إلا لأن الطواف عبادة لا يمكن تحقيقها إلا حول الكعبة فقط .

٨ — ولهذا حين ذكر ابن نصر أن الطواف كالصلاة ، مورداً الأدلة في ذلك قصر

فعله على الكعبة ، فقال :

« .. لأنها عبادة مختصة بالبيت ، فلم تجز إلا بطهارة كالصلاة »^(٥) .

٩ — ونقل الباجي قول مالك فيمن استلم الركن ابتداءً من غير طواف بأنه لا

بأس به ، معللاً ذلك بأنه « عبادة متعلقة بالبيت »^(٦) .

والاستلام من أعمال الطواف ، فظهر اختصاصهما بالبيت الحرام .

١٠ — وعند بيانه لاستحباب الإتيان بركعتي الطواف في المسجد قال :

« لاتصاله بالطواف ، ولكونهما من توابع الطواف المختصة بالمسجد »^(٧) .

١١ — ولما عرّف ابن عاشور الطواف بأنه المشي حول الكعبة بين أنه عبادة قديمة

من زمن إبراهيم عليه السلام قررها الإسلام^(٨) .

١٢ — وحين بين ابن جزى ما يصح به الطواف ذكر منها : « أن يطوف بداخل

(١) انظر المدونة (٤٠٧/١) .

(٢) شرح صحيح البخاري (٣٠٨/٤) .

(٣) الذخيرة (٢٤٨/٣) .

(٤) النوازل (٣٠٤/٢) .

(٥) المعونة (٣٧٠/١) .

(٦) المنتقى (٢٨٦/٢) .

(٧) نفس المرجع (٢٩١/٢) .

(٨) التحرير والتنوير (٢٤١/١٧) .

١٣-١٩ — وقد نص على ذلك القرافي^(٢) ، و خليل^(٣) ، والزرقاني^(٤) ،
والجعلي^(٥) ، والشنقيطي^(٦) ، وميارة^(٧) ، والخرشي^(٨) .

ومرادهم أن الطواف عبادة تختص ببقعة معينة ، فلا يجوز إيقاعها إلا في المسجد
الحرام وحول الكعبة فقط .

وإن التأمل لتأكيدهم على هذا المعنى ليلمس أن له ارتباطاً عقدياً أكثر من كونه
بيانا لحكم فقهي .

وكما اعتنى المالكية بتحديد مكان الطواف ، فقد اعتنوا أيضاً بذكر ما يجب على
الطائف بالكعبة من تحقق « خروج جملة جسده عن البيت » ، فيكون طوافه من وراء
الحجر والشاذروان^(٩) .

(١) القوانين الفقهية (١٢٦) .

(٢) الذخيرة (٢٤١/٣) .

(٣) المختصر (٦٦) .

(٤) شرح الزرقاني (٢٦٣/٢) .

(٥) سراج السالك (٢٩/١) .

(٦) نصيحة المرابط (١١٢/٢) .

(٧) الدر الثمين (٣٧٠) .

(٨) الخرشي على مختصر خليل (٣١٥/٢) .

(٩) الشاذروان : بالشين المعجمة وبفتح الذال وإسكان الراء : هو القدر الذي ترك من عرض الأساس
خارجاً عن عرض الجدار مرتفعاً عن وجه الأرض قدر ثلثي ذراع . قال الأزرقى : طول الشاذروان في
السماء ستة عشر إصبعاً وعرضه ذراع . قال : والذراع : أربعة وعشرون إصبعاً . قال أصحابنا
وغيرهم : هذا الشاذروان جزء من الكعبة ، نقضته قریش من أصل البناء حين بنوها ، وهو ظاهر في
جوانب البيت ، لكن لا يظهر عند الحجر الأسود ، وقد أحدث في هذه الأزمان عنده شاذروان .

وقال الفاسي : الأحجار التي تلي جدار الكعبة الشامي ليست شاذروانا ، لكون موضعها من البيت بلا
ريب . تحرير التنبيه للنووي (١٧٣) ، والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاسي (٥٥/١) .

ط. الرسالة ، الثانية - بيروت ١٤٠٦هـ .

ولذا فقد رأى مالك أنّ من طاف من خلال الحجر لا يعتدّ بطوافه ولا يجزئه ؛
لأنه لا يصدق عليه أنه طاف بالبيت .

٢٠— قال ابن القاسم : رأيت من طاف بعض طوافه في الحجر فلم يذكر حتى
رجع إلى بلده ؟ قال مالك :

« ليس ذلك بطواف ، فليرجع .. وهو مثل من لم يطف »^(١) .

٢١— وقال ابن نصر :

« .. ومن طاف في الحجر أعاد الطواف ولم يجزه »^(٢) .

٢٢-٣١— وقد نصّ على ذلك القرافي^(٣)، وخليل^(٤)، والخطاب^(٥)، وميارة^(٦)،
والخرشي^(٧)، والزرقاني^(٨)، والتتائي^(٩)، والجعلي^(١٠)، والصاوي^(١١)، الأحسائي^(١٢) .

فذكرهم ما يتوقف عليه صحة الطواف بهذا التفصيل لمن يطوف بالكعبة بين أن
تلك العبادة مختصة بالبيت الحرام دون سائر البقاع ، إذ مجرد الإخلال بالطواف
يطله ، فكيف بمن يتركه إلى بقعة أخرى ؟!

(١) المدونة (٤٠٦/٢) .

(٢) عيون المجالس (٨١١/٢) .

(٣) الذخيرة (٢٤٠/٣) .

(٤) المختصر (٦٦) .

(٥) مواهب الجليل (٩٩/٤) .

(٦) الدر الثمين (٣٧٠) .

(٧) الخرشي (٣١٥/٢) .

(٨) شرح الزرقاني على مختصر خليل (٢٦٣/٢) .

(٩) تنوير المقالة (٤٣٧/٣) .

(١٠) سراج السالك (٢٠٩/١) .

(١١) بلغة السالك (٢٩/٢) .

(١٢) تبين المسالك (٢٣٩/٢) .

وعلى هذا فالمالكية يرون أنّ الطواف مختصّ ببيت الله الحرام الذي شرع الله الطواف به ، ليحصل بذلك تعظيم ما عظمه الله ﷻ ، كما قال تعالى : ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾^(١) ، ويظهر على العبد أثر تلك العبادة من الخضوع والاستكانة والتذلل لرب هذا البيت ﷺ .

(١) سورة الحج : ٣٢ .

ثانيًا : صلة الطواف بالعبادة

٣٢— لما كان حديث المالكية عن الطواف حديثاً عن عبادة جليلة تتحقق فيها معان عظيمة من التذلل والخشوع والتعظيم لله ﷻ فقد بين القرافي أنّ العبد يؤدي هذه العبادة وهو في « غاية الوقار والمبالغة مع الله تعالى ؛ لأنه في عبادته وعند بيته »^(١) .

٣٣— وعليه فالذي « ينبغي أن يفتح الطواف بتوحيد الله ، كما يفتح الصلاة بالتكبير ، ويخشع لربه ، ويعقل ببيت من يطوف ، ولمعروف من يتعرض ، ويسأل غفران ذنوبه ، والتجاوز عن سيئاته ، ويشغل نفسه بذلك وخواطره ، ويترك أمور الدنيا .. » ، كما أوضح ابن بطال^(٢) .

٣٤— ونبه القاضي عياض إلى أنّ تقبيل الحجر - وهو من أعمال الطواف - ليس عبادة له ، بل لله تعالى بامثال أمره فيه ، وشرع مع ذلك التكبير للناس إظهاراً أنّ ذلك الفعل تذلاًّ له لا لغيره ، وسرّ ذلك محض العبودية^(٣) .

فجعل الطواف شاملاً لتلك المعاني العظيمة التي متى قام بها العبد فقد تجرّد من كل العلائق سوى الله تعالى .

٣٥— وقد ذكر القرافي أنّ الحكمة في كون الطائف يجعل البيت عن يساره ، ويتدئ بالحجر الأسود لأنه موضع اليمين ، ولأنه يقابل يسار الإنسان ، وباب البيت

(١) الذخيرة (٣/٢٤٤) .

(٢) شرح صحيح البخاري (٤/٣٠١) . وأورد أيضاً فعل ابن عمر ؓ حين خطب إليه عروة بن الزبير ابنته في الطواف فلم يردّ عليه كلاماً ، فلما جاء إلى المدينة لقيه عروة فقال له ابن عمر : « أدركتني في الطواف ، ونحن نترأى الله بين أعيننا ، فذاك الذي منعي أن أردّ عليك » . ثم زوجه . ثم قال ابن بطال : « والذي سأل عروة باباً من أبواب المباح ، فأبى ابن عمر أن يجيبه تعظيماً لله تعالى ، إذ هو طائف ببيته الحرام » .

(٣) انظر إكمال المعلم (٣/٣٤٥) .

وجهه ، فلو جعل الحجر على يمينه لأعرض عن باب البيت الذي هو وجهه ، ولو جعله على يساره أقبل على الباب ، ولا يليق بالأدب الإعراض عن وجوه الأماثل وتعظيم بيت الله تعالى تعظيم له^(١) .

٣٦— ونقل قول القرافي هذا الخطاب مقرراً له^(٢) .

٣٧— وذكر ابن عاشور أنّ البيت جعل معلماً للتوحيد وإعلانه ، فلا يقربه مشرك ، إذ هو أول بيت وضع للناس لعبادة الله وحده ، فيأوي إليه من يدين بالتوحيد ويطوف به من يقصد تعظيم الله تعالى^(٣) .

وبهذا يكون الطواف من أعظم العبادات ، إذ إنّ توحيد الله تعالى هو أصل كل عبادة .

٣٨— ونظيره ما ذكر محمد المكي بقوله :

« إنّ أول بيت أقيم على وجه الأرض باسم الله ولعبادته وحده عبادة خالصة من كل شرك ، ظاهرة من كل دنس : هو مقام إبراهيم الذي أمر الله باتخاذ مصلًى ، فهو بيت الله الحرام ، وهو البيت العتيق ، وهو البيت المقدس قبل بيت المقدس »^(٤) .

فإذا كان الطواف يحمل تلك المعاني العظيمة والمقاصد الجليلة فقد شبهه أئمة المالكية بالصلاة التي هي عماد الدين ، من حيث مراعاة العبد لطوافه ما يراعيه في الصلاة^{(٥)(٦)} .

(١) انظر الذخيرة (٢٤٠/٣) .

(٢) انظر مواهب الجليل (٩٧/٤) .

(٣) انظر التحرير والتنوير (٧٠٨/١) .

(٤) التيسير (٨٢/١) .

(٥) معلوم أنّ الذي يشترط للطواف بعض شروط الصلاة لا كلها ، كما نبه على ذلك ابن جزى وغيره في بيانهم لشروط الطواف .

(٦) كاشتراط الطهارة ، نص عليه في المدونة للمالك (٢٠٤/١) ، وابن رشد في البيان والتحصيل (٧/٤) =

٣٩— وقد نقل القرافي قول بعض العلماء في المفاضلة بين أركان الحج مقررًا له ، ونصه : « أفضل أركان الحج الطواف ؛ لأنه مشتمل على الصلوات ، وهو نفسه مشبه بالصلاة ، والصلاة أفضل من الحج ، فيكون أفضل الأركان »^(١) .

٤٠— وفي موضع آخر نص على أن الطواف عبادة « متعلقة بالبيت ، فأشبهت الصلاة »^(٢) .

٤١— وقال الخرشي :

« الطواف عند مالك كالصلاة ، إلا أنه يباح فيه الكلام »^(٣) .

٤٢— ونقل محمد المختار قول القسطلاني مقررًا له ، ونصه :

« فليتأدّب بآداب الصلاة خاضعًا حاضر القلب ، ملازم الأدب في ظاهره وباطنه ، مستشعرًا بقلبه عظمة من يطوف ببيته »^(٤) .

٤٣— وبين الباجي أن الطواف عند المالكية عبادة محضة كالصلاة ، والعبادة حق الله وحده ، ولا يجوز صرفها لغيره ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾^{(٥)(٦)} .

= وابن نصر في المعونة (١/٣٧٠) ، وابن بطلال في شرح البخاري (٤/٣٢٠) ، والقرطبي في المفهم (٣/٣٠٥) ، والقاضي عياض في الإعلام بحدود وقواعد الإسلام (١٣٦) واشترط أيضًا ستر العورة والموالة كالصلاة . ومثله القرافي في الذخيرة (٣/٢٣٨) ، وابن جزري في قوانين الأحكام الشرعية (١٢٦) ، والخرشي في شرحه مختصر خليل (٢/٣١٤-٣١٤) ، وميارة في الدر الثمين (٣٦٩) ، والكشناوي في أسهل المدارك (١/٤٦٣) .

(١) الذخيرة (٣/١٧٥) .

(٢) الذخيرة (٣/٢٣٨) .

(٣) الخرشي على مختصر خليل (٢/٣١٤) .

(٤) نور الحق (٣/٢٣٨) . وانظر إرشاد الساري (٣/١٧٤) .

(٥) سورة الجن : ١٨ .

(٦) المنتقى (٢/٢٩٠) .

وكما أنّ المصلي يتوجّه في صلاته باستقبال البيت العتيق ، كذلك لا يتطوف إلّا به ، وذلك برهان على ارتباط الطواف بالعبادة ، وماله من المنزلة الرفيعة من بين العبادات .

المبحث الثالث

شروط صحة العبادة

تقدّم الكلام على بيان معنى التوحيد ، وأنه أفراد الله بالعبادة ، وأنه أحد الأصول العظيمة التي قام عليها الدين ، وأما الأصل الثاني : فهو أن لا يعبد الله تعالى إلا بما شرع ، كما قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾^(١) .

ولهذا كان عمر رضي الله عنه يقول : « اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل فيه لأحد شيئاً »^(٢) .

وقال الفضيل بن عياض^(٣) - في قوله تعالى : ﴿ ليلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ - قال : « أخلصه وأصوبه » . قيل : يا أبا علي ! ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : « إنَّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنّة »^(٤) .

فيستفاد مما ذكره الفضيل أن هناك شرطين لصحة العبادة ، وقد بين أئمة المالكية هذين الشرطين ، وهما : الإخلاص والمتابعة ، وزاد بعضهم شرطاً ثالثاً ، وهو الإيمان ، علماً بأن هذا الشرط لا يخفى على من اقتصر على الشرطين فقط ، إذ إنَّ

(١) سورة الكهف : ١١٠ .

(٢) طبقات المحدثين بأصبهان (٢٦٢/٤) رقم (١٠١٨) . ط. الرسالة . الطبعة الأولى ١٤١٢هـ . بيروت.

(٣) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر ، أبو علي التميمي اليربوعي الخراساني ، كان ثقة نبيلاً ، فاضلاً عابداً ورعاً ، كثير الحديث ، له أقوال مأثورة ومواعظ بليغة . مات سنة ١٨٧هـ . انظر : السير (٤٢١/٨) ، حلية الأولياء (٨٤/٨) ، التذكرة (٢٤٥/١) .

(٤) تفسير البغوي (١٧٦/٨) ، جامع العلوم والحكم (٧٢/١) .

غير المؤمن لا يقبل منه عمل أصلاً وإن جاء بشرطي العمل المقبول ، كما قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾^(١) ، ولهذا لم يذكر أكثرهم هذا الشرط .

وقد نبّه بعضهم عن طريق الإشارة إلى شرط المتابعة ، وذلك بذكر وصف للعمل يغني عن التنصيص على هذا الشرط ، فإذا اقترن هذا الوصف مع شرط الإخلاص انتظم شرطاً صحة العبادة .

وفيما يلي أعرض بياهم وتفصيلهم لهذين الشرطين :

١— ويحسن هنا البدء بكلام محمد الأمين رحمه الله ، لأهميته وتضمنه شروط العبادة ، حيث يقول :

« دلّ القرآن العظيم على أنّ العمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة أمور :

أولاً : موافقته لما جاء به النبي ﷺ ؛ لأن الله يقول : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ... ﴾ .

ثانياً : أن يكون خالصاً لله تعالى ؛ لأنّ الله جل وعلا يقول : ﴿ وما أمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين ... ﴾ ، ﴿ قل الله أعبد مخلصاً له ديني ﴾ .

ثالثاً : أن يكون مبنياً على أساس العقيدة الصحيحة ؛ لأنّ الله يقول : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ﴾ . ففقد ذلك بالإيمان ، ومفهوم مخالفته أنه لو كان غير مؤمن لما قبل منه ذلك العمل الصالح »^(٢) .

٢— وذكر القاضي عياض أنّ حديث : « إنما الأعمال بالنيات ... »^(٣) :

(١) سورة النحل : ٩٧ .

(٢) أضواء البيان (٣/٣٥٢-٣٥٣) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٩/١) برقم

(١) ، ومسلم في كتاب الإمارة ، باب قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنية » (٣/١٥١٥) برقم (١٩٠٧) .

« يرجع إلى معنيين ؛ أحدهما : تجريد العمل من الشرك بالله بخالص التوحيد .
والآخر : تجريده بخالص السنة »^(١) .

٣— وأبان ابن أبي زيد جملة من مسائل العقيدة التي أجمع عليها الأئمة ، ومنهم مالك ، كما نص على ذلك^(٢) فقال :

« والإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .. ولا قول إلا بعمل ، ولا قول وعمل إلا بنية ، ولا قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة »^(٣) .

وعلى هذا فالعمل لا بد له من نية ، أي قصد وجه الله تعالى به ، ولا ينفع إلا أن يكون موافقاً للسنة ، وبهذين الشرطين يتم قبول العمل .

٤— وقال أبو عمرو الداني : « والأعمال كلها بالنية ؛ لقوله ﷺ : " إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى " . فمن فعل شيئاً مما أمر به أو نهي عنه^(٤) غير مختار لفعله ولا مريد له ، ولا قاصد ، فأدى به الفرض لم يجزه ، وكان حكمه كحكم من لم يفعل شيئاً ... »^(٥) .

فبين أهمية حسن القصد في كل عمل ، وأن يكون على وفق الشرع ، وهو ما أشار إليه بقوله : « فمن فعل شيئاً مما أمر به أو نهي عنه .. » ، فانتظم شرطاً صحة العمل في ذلك .

(١) إكمال المعلم (٦/٣٣٢) .

(٢) ذكر ابن أبي زيد بعد إيراد هذه المسائل قوله : « وكله من قول مالك ، فمنه منصوص من قوله ، ومنه معلوم من مذهبه » . الجامع (١٤٩) .

(٣) الجامع (١٤٢) .

(٤) لعله يريد من كف عما نهي عنه ، لأن فعل المنهي عنه لا شك في تحريمه ، والإخلاص لا يطلب من أحد في فعل المحرم .

(٥) الرسالة الوافية (١٣٩) .

٥- ويّين الشاطبي^(١) أنّ « العمل إذا روعيت فيه المقاصد الأصلية^(٢) للشرع فهو أقرب إلى إخلاص العمل وصورته عبادة ، وأبعد عن مشاركة الحظوظ التي تغبّر في وجه محض العبودية »^(٣) .

٦- ثم بين أنّ « العامل بالمقاصد الأصلية عامل في هذه الأمور في نفسه امتثالاً لأمر ربه ، واقتداءً بنبيه عليه الصلاة والسلام ، فكيف لا تكون تصارييف من هذه سبيله عبادات كلها »^(٤) .

فنص على أنّ امتثال الأمر يكون بالاقتداء بالنبي ﷺ ، إذ بهذين الشرطين يصدق على العمل كونه عبادة .

٧- وأكد هذا المعنى فيما نقله عن أبي حمد الثقفي ، ونصه : « لا يقبل الله من الأعمال إلّا ما كان صواباً ، ومن صوابها إلّا ما كان خالصاً ، ومن خالصها إلّا ما وافق السنة »^(٥) .

٨- ونقل قول سفيان أيضاً : « لا يستقيم قول إلّا بعمل ، ولا قول وعمل إلّا بنية ، ولا قول ولا عمل ولا نية إلّا بموافقة السنة »^(٦) .

٩- وحين ذكر ما يتعلق به الصوفية في أقوالهم من أكل الحلال واتباع السنة والإخلاص قال : « وهذا هو الحق »^(٧) .

١٠- وأورد الطرطوشي قول ابن عباس في المساجد : « لتزخرفنها كما

(١) هو إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي ، أبو إسحاق الشهير بالشاطبي ، الحافظ ، كان أصولياً مفسراً فقيهاً محدثاً لغوياً نظاراً ثبناً ورعاً صالحاً ، له من التصانيف : كتاب الموافقات في أصول الفقه ، وكتاب الاعتصام . مات سنة ٧٩٠هـ . انظر نيل الابتهاج (١/٤٨) .

(٢) ومراده بالمقاصد الأصلية كما بينها بقوله : « الواجبات عينية أو كفائية » .

(٣) الموافقات (٢/٤٩٣) .

(٤) الموافقات (٢/٥٠٠) .

(٥) الاعتصام (١/٩٣) . ط . دار المعرفة :

(٦) الاعتصام (١/٨٤) .

(٧) ثم بين مخالفتهم لهذا الأصل العظيم بارتكابهم أشياء لم تأت في كتاب ولا سنة ، وعمل بأمثالها السلف الصالح . وذلك في بيان بدعهم .. الخ . الاعتصام (١/٢١٢) .

زحرفت اليهود والنصارى»^(١) ثم قال :

« والمعنى في ذلك : أن اليهود والنصارى إنما زحرفوا المساجد عندما حرفوا وبدلوا ، فتركوا العمل بما في كتبهم ، فأنتم تصيرون إلى مثل حالهم إذا طلبتم الدنيا بالدين ، فتركتم الإخلاص في العمل ، فصار أمركم إلى المراءاة في المساجد والمباهاة بتشبيدها وتزيينها»^(٢) .

فذكره لانحراف اليهود والنصارى إشارة إلى أنهم خالفوا منطوق نصوص الكتاب عندهم ، فابتدعوا ما هو مخالف له ، من عدم الإخلاص والمتابعة ، وهذان شرطاً قبول العمل .

١٠ — وعلى هذا نقل القاضي عياض قول سهل التستري مقراً له ، ونصه :

« أصول مذهبنا ثلاثة : الاقتداء بالنبي ﷺ في الأخلاق والأفعال ، والأكل من الحلال ، وإخلاص النية في جميع الأعمال»^(٣) .

١١ — وعند قول عمر حين قبل الحجر : « لقد علمت أنك حجر لا تنفع ولا تضر ، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » قال القاضي عياض :
« فيه الاقتداء وترك الاعتراض على السنن بالعقول ، وأن تقبيله الحجر ليس عبادة له ، بل لله تعالى بامثال أمره فيه»^(٤) .

فتضمن قوله الاقتداء بالسنة ، وقصد الله تعالى بهذا العمل ، وهما شرطاً صحة العمل .

١٢ — وذكر القرطبي أبو عبد الله عند قول الله ﷻ : ﴿ إليه يصعد الكلم والطيب

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة ، باب بنيان المسجد (٥٣٩/١) برقم (٤٤٥) .

(٢) الحوادث والبدع (٢٢٠) .

(٣) الشفا (٥٥٨/٢) .

(٤) إكمال المعلم (٣٤٥/٤) .

والعمل الصالح يرفعه ﴿ فيما رآه حديثاً بقوله : « وفي الحديث : " لا يقبل الله قولاً إلا بعمل ، ولا يقبل قولاً وعملاً إلا بنية ، ولا يقبل قولاً وعملاً ونية إلا بإصابة السنة " (١) . (٢) 》 .

فنص فيما أورده على شرطي صحة العمل : إخلاص النية ، وأن يكون على وفق السنة .

وبعد كلامهم عن شرطي العبادة بينوا في مواضع أخرى الإشارة إلى شرط المتابعة ، وذلك من خلال حديثهم عن شرط الإخلاص بوصف العمل الذي مصدره الشرع بأنه عمل صالح ، أو قربة ، أو عبادة ، وما في معناها . وفي ذلك غنية عن نسبة العمل إلى الشرع ، إذ لا يصح إطلاق هذه الألفاظ إلا على ما كان مصدره الشرع .

فانتظم في كلامهم هذا شرطاً صحة العبادة : الإخلاص والمتابعة .

١٣ — ومن أقوالهم المتضمنة لهذا الشرط أن مالكاً سئل عن رجل يذهب إلى الغزو ومعه فضل مال ليصيب به من فضل الغنيمة ، أي ليشتري من الناس ما صح لهم من الغنيمة ، فأجاب : لا بأس به ، ونزع بآية التجارة في الحج : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ (٣) ، وأن ذلك غير ما نع ولا قادح في صحة العبادة إذا كان قصده بالعبادة وجه الله ، ولا يعد هذا تشريكاً في العبادة ، لأن الله هو الذي أباح ذلك ورفع الحرج عن فاعله مع أنه قال : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة برقم (١٨) عن الحسن البصري ، وأبو نعيم في الحلية (٣٢/٧) عن سفيان . وذكر ابن رجب أنه مروي بإسناد ضعيف عن ابن مسعود رضي الله عنه في جامع العلوم والحكم (٧٠/١) ، وابن حجر في التلخيص الجبير (٢٠٤) عن الحسن وسعيد بن جبير ، ثم قال : وهذا الأثران موقوفان .

(٢) تفسير القرطبي (٣٣٠/١٤) .

(٣) سورة البقرة : ١٩٨ .

فليعمل عملاً صالحاً»^(١) ، فدلّ على أنّ هذا التشريك ليس بداخل بلفظه ولا بمعناه تحت آية الكهف»^(٢) .

فنص مالك رحمه الله على الإخلاص في العمل ، ووصفه بكونه عبادة وعملاً صالحاً ، ولا يصدق هذا الوصف إلاّ على ما كان وفق الشرع .

١٤ — ونحو من ذلك ما أورده القاضي عياض قال :

« كان مالك يطيل الركوع والسجود في ورده ، وإذا وقف في الصلاة فكأنه خشبة يابسة لا يتحرك منه شيء ، فلما فرغ قيل له : لو خففت من هذا قليلاً ؟ فقال : ما ينبغي لأحد يعمل لله عملاً إلاّ حسنه ، والله تعالى يقول : ﴿ ليلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾»^(٣)»^(٤) .

فذكر شرطي قبول العمل ، من كونه لله تعالى وأن يكون حسناً ، ولا يوصف بالحسن إلاّ ما وافق الشرع .

١٥ — وقال ابن بطال : « سئل مالك عن الرجل يقول بين الصفيين : من يبارز ؟ قال : ذلك إلى نيته ، إن كان يريد به وجه الله فأرجو أن لا يكون به بأس ، وقد كان يفعل ذلك من مضى » .

ومراده بما كان من العمل في زمن النبي ﷺ والصحابة من بعده والتابعين ، فهو

(١) سورة الكهف : ١١٠ .

(٢) التحرير والتنوير (٣١٩/٢٣) .

(٣) سورة الملك : ٢ .

(٤) الإمام مالك مفسراً (٣٩٥) ، ترتيب المدارك (٥١/٢) .

١٦— وقال ابن أبي زيد : « وفرض على كل مؤمن ومؤمنة أن يريد بكل قول أو عمل من البر وجه الله الكريم ، ومن أراد بذلك غير الله لم يقبل عمله »^(٣) .

فصرح هنا بشرط الإخلاص وألح إلى شرط المتابعة بقوله : « من البر » ، إذ لا يكون العمل أو القول برّاً إلا إذا كان عملاً صالحاً موافقاً للشرع .

(١) يرى الإمام مالك رحمه الله أن عمل أهل المدينة حجة إذا كانوا من الصحابة والتابعين فيما طريقه النقل والتوقيف ، مستدلاً بقوله ﷺ : « إن المدينة لتتفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد » ، والخطأ خبث ، فوجب نفيه ، وأيضاً فإن أخلافهم ينقلون عن أسلافهم ، أبناءهم عن آبائهم الخير عن دائرة الظن والتخمين إلى دائرة التعيين . انظر إحكام الفصول (٤٨٩/١) . وانظر الجواهر الثمينة في بيان أدلة عالم المدينة للمشاط (٢١٣) ط. دار الغرب . ط. الأولى ١٤٠٦هـ ، ومقدمة في أصول الفقه لابن القصار (٢٢٦) ط. دار المعلمة - الرياض ، ط. الأولى ١٤٢٠هـ .

قال الباجي : « وإنما عول مالك رحمه الله ومحققو أصحابه على الاحتجاج بذلك فيما طريقه النقل ، ... وإنما خصت المدينة بهذه الحجة دون سائر البلاد لوجود ذلك فيها دون غيرها من البلاد ، لأنها كانت موضع النبوة ، ومستقر الصحابة والخلافة بعده عليه الصلاة والسلام ، ولو تهاً مثل ذلك في سائر البلاد لكان حكمها كذلك أيضاً » اهـ . كتاب الإشارة في معرفة الأصول والوجازة في معنى الدليل (٢٨١) . ط. دار البشائر - بيروت . ط. الأولى ١٤١٦هـ .

وخلاصة القول : أن العمل المنقول عن أهل المدينة إما أن يكون مبناه على التوقيف والنقل ، وإما على الاجتهاد والاستدلال . أما الأول : فلم يختلف فيه . قال القرطبي أبو العباس : « ينبغي ألا يختلف فيه ؛ لأنه من باب نقل المتواتر » . وقال القاضي عياض : « ولا خلاف في صحة هذا الطريق وكونه حجة عند العقلاء » . وأما الثاني فردّه جمهور العلماء ، ورأى بعض المالكية أنه ليس بحجة ، ولكن يرجح على اجتهاد غيرهم . انظر إحكام الفصول للباجي (٤٨٨/١) . ط. دار الغرب . ط. الثانية ١٤١٥هـ .

وانظر : مذكرة محمد الأمين الشنقيطي في أصول الفقه (١٥٣-١٥٤) ط. السلفية ، وتقريب الوصول إلى علم الأصول لأبي القاسم بن جزى الغرناطي (٣٣٧ وما بعدها) ، تحقيق د. محمد المختار بن الشيخ محمد الأمين . ط. مكتبة ابن تيمية ، ط. الأولى ١٤١٤هـ .

(٢) شرح صحيح البخاري (١٨٥/٥-١٨٦) .

(٣) الرسالة (١٩٤) .

١٧— ونقل ابن بطال قول المهلب مقرأ له في أن « العمل لا يكون إلا مقصوداً لله معني متقدماً ، وذلك المعنى هو علم ما وعد الله عليه من الثواب وإخلاص العمل لله تعالى ، فحينئذ يكون العمل مرجو النفع ، إذ تقدمه العلم ، ومتى خلا العمل من النية ورجاء الثواب عليه وإخلاص العمل لله تعالى فليس بعمل ، إنما هو كفعل المجنون الذي رفع عنه القلم ، وقد بين ذلك ﷺ بقوله : " الأعمال بالنيات " (١) .

فذكر العمل المرجو نفعه ، وهو ما كان مخلصاً ، وأشار إلى المتابعة ، إذ إنه لا يرجى الثواب إلا بعمل الصواب على وفق الكتاب والسنة .

١٨— وأبان ابن عبد البر « أن الله تعالى يحب من عباده الإخلاص في عبادته في التوحيد وسائر الأعمال التي يعبد بها ، وفي الإخلاص طرح الرياء كله ؛ لأن الرياء شرك أو ضرب من الشرك » (٢) .

١٩— ونقل « إجماع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل ، ولا عمل إلا بنية ، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، والطاعات كلها عندهم إيمان ... » (٣) .

٢٠— وعند حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرج من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلماته ... » قال : « وفيه دليل على أن الأعمال لا يزكو منها إلا ما صحبته النية والإخلاص لله ﷻ والإيمان به » (٤) .

فركز الكلام هنا على الإخلاص في سائر الأعمال المقربة لله ، واجتناب الشرك ، ولم يذكر المتابعة اكتفاءً بوصف العمل بكونه عبادة ، ولا يكون عبادة إلا إذا كان

(١) شرح البخاري (١٥١/١) .

(٢) فتح المالك (٤٧٧/١٠) .

(٣) التمهيد (٢٣٨/٩-٢٤٣) .

(٤) فتح البر (٣٥/١١) .

على وفق الشرع .

٢١— ونظيره ما ذكره ابن العربي بقوله :

« فكل ما أمر الله به فإنما ينبغي أن يقصد به الطاعة له ، وإلا فليس يكون امتثالاً ، ولا يحصل الاحتذاء على مثال الأمر إلا بأن يخلص له القصد ، كما أخبر عن الأعمال وشرط على العمال . قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين * ألا لله الدين الخالص ﴾^(١) ، على الاختصاص . وقال في عموم المؤمنين : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾^(٢) »^(٣) .

فنص على الإخلاص في العبادة ، ولا تكون عبادة إلا ما كان على وفق الشرع ، وكذلك يقال في لفظ " الطاعة " ، فإن العمل لا يوصف بأنه طاعة إلا إذا كان على وفق الشرع .

٢٢— وقال ابن رشد - عند قوله ﷺ : " إنما الأعمال بالنيات " ^(٤) - :

« معناه : إنما العبادات التي ينتفع بها عند الله ما أخلصت النية فيه لله »^(٥) .
وهذا كسابقه .

٢٣— ومثله قول ابن عطية حيث ذكر عند قول الله تعالى : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾^(٦) : « أن معنى الآية الأمر بتحقيق النية لله في كل عمل ، والدين هنا يعم المعتقدات وأعمال الجوارح »^(٧) .

(١) سورة الزمر : ٢-٣ .

(٢) سورة البينة : ٥ .

(٣) عارضة الأحوذى (١٥١/٧) .

(٤) تقدم تخريجه ص ١١٣ .

(٥) البيان والتحصيل (٢١٥/١٧) .

(٦) سورة الزمر : ٣ .

(٧) المحرر الوجيز (٥١٨/٤) .

٢٤— ونحو من قولي ابن رشد وابن عطية قول القرطبي أبي العباس فيما ذكره عند حديث ابن مسعود رضي الله عنه في التشهد عند قوله : « التحيات لله » بقوله :

« في هذا الموضع تنبيه على الإخلاص في العبادات ، أي : ذلك كله من الصلوات والأعمال لا تفعل إلا لله تعالى »^(١) .

٢٥— وفي موضع آخر قال :

« الإخلاص شرط في جميع العبادات ، لقوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ ، والإخلاص مصدر من : أخلصت العسل وغيره ، إذا صفيته وأفردته من شوائب كدره ، أي : خلصته منها . فالمخلص في عباداته هو الذي يخلصها من شوائب الشرك والرياء ، وذلك لا يتأتى له إلا بأن يكون الباعث على عملها قصد التقرب إلى الله تعالى ، وابتغاء ما عنده . فأما إن كان الباعث عليها غير ذلك من أغراض الدنيا فلا يكون عبادة ، بل يكون معصية موبقة لصاحبها ، فإما كفر وهو الشرك الأكبر ، وإما رياء وهو الشرك الأصغر »^(٢) .

٢٦— ونقل الخطاب قول القرطبي هذا مقراً له^(٣) .

٢٧— وعرف الأبي الإخلاص بقوله : « أن تقصد إفراد المعبود بالعبادة »^(٤) .

٢٨— وذكر ابن عاشور عند قوله تعالى : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾^(٥) أن « حاصل ما تضمنه هو الإخلاص لله في العبادة »^(٦) .

(١) المفهم (٢/٣٤-٣٥) .

(٢) المفهم (٣/٧٤٢) .

(٣) حيث قال قبل أن ينقل كلامه عن الإخلاص : « وحرره غاية التحرير الإمام القرطبي » . مواهب الجليل (٣/٥٠٣) .

(٤) الثمر الداني (١/٥٨) .

(٥) سورة الأنعام : ١٦٢ .

(٦) التحرير والتنوير (٨/٢٠٠) .

ففي تلك الأقوال وصف الأعمال بأنها عبادات ، ولا يوصف عمل بهذا الوصف إلا ما كان من جهة الشرع كما تقدم ، وبهذا يتم شرطاً صحة العمل من إخلاصها لله تعالى ومتابعة الشرع فيها .

٢٩— وأوضح القرافي في كلامه عن العمل أن الضابط له « أن يعمل المأمور به والمتقرب به إلى الله تعالى وهو يقصد به وجه الله »^(١) .

٣٠— وعند قول الله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾^(٢) قال محمد المختار :

« أي : مصفين له العبادة من الرياء والشرك ... وذلك أي ما أمروا به من عبادة الله وإخلاص الدين له والميل عن الباطل إلى الحق .. »^(٣) .

٣١— وفسر ابن عاشور قول الله تعالى : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾^(٤) بقوله :

« ومما يتفرع على معنى الآية إخلاص المؤمن الموحد في عبادة ربه ، أي أن يعبد الله لأجله ، أي طلباً لرضاه وامثالاً لأمره »^(٥) .

ولا ريب أن وصف العمل بأنه مأمور به يراد به عند أهل العلم العمل المأمور به في الشرع ، فإذا ضم إلى هذا الوصف الإخلاص انتظم ذلك شرطي صحة العبادة .

٣٢— وذكر النفراوي أن « الإخلاص فرض عين على كل مكلف ، وهو قصد وجه الله تعالى وحده بالعبادة قولية أو فعلية ، ظاهرة أو خفية »^(٦) .

٣٣— وأوضح الوزاني أن المقصود من العبادات « تعظيم الله تعالى والخضوع

(١) الفروق (٤٣/٣) .

(٢) سورة البينة : ٥ .

(٣) نور الحق (١٢١/١) .

(٤) سورة الزمر : ٣ .

(٥) التحرير والتنوير (٣١٨/٢٣) .

(٦) الفواكه الدواني (٣٩٥/٢) .

له ، وذلك إنما يحصل إذا فعلت من أجله ^(١) .

والحاصل أن العمل مهما بلغ من إخلاص صاحبه وحسن قصده ، إلا أنه عند فقد إذن الشرع له فلا قيمة له ، كما قال تعالى : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ ^(٢) ، فلا بد إذا من اجتماع الشرطين كما تقدم ، لسلامة العمل وقبوله .

هذا ؛ ولم يكتف أئمة المالكية بالإشارة إلى شرط المتابعة في المواضع المتقدمة ، بل إنهم أفصحوا عن هذا الشرط وبينوا أن صحة العبادة متوقفة على تحققه .

٣٤ — فقد نقل الشاطبي قول أحمد بن أبي الحواري ^(٣) مقرأ له : « من عمل عملاً بلا اتباع سنة فباطل عمله » ^(٤) .

فما نقله هنا نص في أن العمل لا بد أن يكون على وفق السنة ، وإلا فلا اعتبار للعمل .

٣٥ — وهو ما أكدته في موضع آخر بقوله : « وقد ثبت بالنقل الصحيح الصريح بأنه لا يقربه إلى الله إلا العمل بما شرع ، وعلى الوجه الذي شرع » ^(٥) .

وما سوى ذلك من العمل فلا يكون قرينة وطاعة لله ﷻ ، ولذا قال :

٣٦ — « والعامل بغير السنة تديُّنا هو المبتدع بعينه » ^(٦) .

(١) النوازل (٣٣٧/٢) .

(٢) سورة الشورى : ٢١ .

(٣) هو أبو الحسن شيخ أهل الشام ، الثعلبي الغطفاني الدمشقي ، الزاهد . قال يحيى بن معين : أظن أهل الشام يسقيهم الله به الغيث . وقال محمد بن خالد : ما بقي على وجه الأرض مثله . مات سنة ٢٤٦هـ . انظر : السير (٨٥/١٢) ، الحلية (٥/١٠) .

(٤) الاعتصام (٩٥/١) .

(٥) الاعتصام (١١٧/١) .

(٦) الاعتصام (٤٤/١) .

٣٧— وعلى هذا أبطل القرطبي أبو العباس ما لا يدلّ عليه دليل من الكتاب أو السنة ، وإنما العبرة بالعبادة المشروعة فقط ، فقال عند حديث : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ »^(١) :

« أي : من اخترع في الشرع ما لا يشهد له أصل من أصوله فهو مفسوخ ، لا يعمل به ولا يلتفت إليه »^(٢) .

٣٨— وبين أن العبادة ما كان عن طريق الأنبياء ، فقال :

« سنة الله تعالى في العبادة أنه لا تتلقى إلّا من جهة الأنبياء »^(٣) .

٣٩— ونظيره ما نقله محمّد المختار عن ابن حجر مقرأً له عند نفس الحديث السابق : « من أحدث في أمرنا ... » يقول :

« هذا الحديث معدود من أصول الإسلام ، وقاعدة من قواعده ، فإنّ معناه : من اخترع في الدين ما لا يشهد له أصل من أصوله فلا يلتفت إليه »^(٤) .

والمخترع هو الذي يحدث عبادة ليست في الكتاب ولا في السنة .

٤٠— وقد ذكر القاضي عياض أنّ العمل إذا لم يكن على وفق السنة فلا عبرة به ، فعند شرحه الحديث السابق : « من أحدث في أمرنا هذا ... » قال :

« أي غير موافق لسنة ، وصاحبه غير مأجور فيه ، ومردود عليه »^(٥) .

٤١— وعلى هذا فقد جعل الاقتداء بالنبي ﷺ هو العمل الصالح الذي يقبله الله

(١) خرجه البخاري في كتاب الصلح ، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٣٠١/٥) برقم

(٢٦٩٧) ، ومسلم في كتاب الأفضية ، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٣٤٣/٣)

برقم (١٧١٨) .

(٢) المفهم (١٧١/٥) .

(٣) المفهم (٥٧٤/٣) .

(٤) نور الحق (٩/٥) . وانظر كلام ابن حجر في الفتح (٣٠٢/٥) .

(٥) إكمال المعلم (٥٧٦/٥) .

ﷺ ، فقد نقل ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ بأنه الاقتداء بالنبي ﷺ^(١) .

ومراده من هذا النقل أن العمل الذي يخلو من الاقتداء بالنبي ﷺ فإنه غير صالح ، وغير مقبول عند الله ﷻ .

٤٢— ونحوه قول الأبى عند شرحه لحديث : « من أحدث في أمرنا ... »^(٢) .

٤٣-٤٦— وهذا الذي جعل الباجي يذكر عن أئمة المالكية وجوب الاتباع للنبي ﷺ في كل « ما فيه قرينة وعبادة ... نقله عن ابن القصار^(٣) ، وأبي بكر الأهرري^(٤) ، وابن خويز منداد^(٥) وغيره . ورواه أبو الفرج عن مالك^(٦) .

٤٧— وأكد هذا المعنى بأن الأمر باتباع النبي ﷺ يشمل القول والفعل ، فقال : « ورد الأمر بوجوب اتباعه على الإطلاق ، فيجب أن تتبعه في كل شيء إلا ما خصه الدليل »^(٧) .

٤٨— وبنحو قول الباجي ما ذكره ابن عبد البر عند إيراد حديث : « خذوا

(١) الشفا (٥٥٩/٢) .

(٢) شرح صحيح مسلم (٢٤٨/٦-٢٤٩) .

(٣) هو علي بن أحمد البغدادي ، القاضي أبو الحسن ، المعروف بابن القصار ، تفقه بالأهرري ، وله كتاب في مسائل الخلاف ، كان أصولياً نظاراً . مات سنة ٣٩٨هـ .

انظر : الدياج (٢٩٦) ، شجرة النور (٩٢/١) .

(٤) هو أبو بكر محمد بن عبدالله الأهرري ، له من التصانيف : شرح المختصر الكبير والصغير لابن عبدالحكم ، وكتاب الأصول ، وكتاب إجماع أهل المدينة . مات سنة ٣٧٥هـ . انظر : شجرة النور (٩١/١) ، ترتيب المدارك (١٨٣/٦) .

(٥) هو محمد بن أحمد بن عبدالله ، أبو عبدالله ، تفقه على الأهرري ، له كتب كثيرة في الخلاف ، وكتاب في أصول الفقه ، وكتاب في أحكام القرآن . وكان يجانب الكلام وينافر أهله ويعدهم من أهل الأهواء . مات سنة ٣٩٠هـ . انظر : الدياج (٣٦٣) ، شجرة النور (١٠٣/١) .

(٦) انظر إحكام الفصول في أحكام الأصول (٣١٥/١) . ط. دار الغرب ، ط. الأولى ١٤٠٧هـ .

(٧) إحكام الفصول (٣١٥/١-٣١٨) .

عني مناسككم»^(١) بقوله :

« وقد أمر الله ﷻ بطاعته واتباعه أمراً مطلقاً مجملاً لم يقيد بشيء »^(٢) .

٤٩ — وعند أمر الله ﷻ باتباع النبي ﷺ بقوله : ﴿ واتبعوه ﴾ قال ابن عطية :

« لفظ عام يدخل تحته جميع إلزامات الشريعة »^(٣) .

٥٠ — ونقل ابن بطلال الإجماع على أنه لا يجوز الصلح المنعقد على غير السنة ، وأنه منتقض^(٤) . فإذا كانت المعاملات لا تصح إلا أن تكون على وفق السنة فلا ريب أن العبادات من باب أولى وأحرى .

٥١ — والذي يبين ذلك ما ذكره الطرطوشي عند إirاده أثر ابن عمر رضي الله عنهما أنه (حضر جنازة فقال : لتسرعنّ بها وإلا رجعت !)^(٥) ، فقال :

« انظروا - رحمكم الله - لما ترك الإسراع - وهو السنة - همّ ابن عمر بالانصراف ولم ير أن قيراطين من الأجر تغنيان بترك سنة من سنن النبي ﷺ »^(٦) ^(٧) .

(١) خرجه الإمام مسلم بلفظ : « لتأخذوا مناسككم » في كتاب الحج ، باب استحباب رمي جمره العقبة يوم النحر راكباً وبيان قوله ﷺ : « لتأخذوا مناسككم » (٩٤٣/٢) برقم (١٢٩٧) .

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١١٩٠/٢) .

(٣) المحرر (١٠٨/٦) .

(٤) شرح صحيح البخاري (٨٦/٨) .

(٥) الأثر بهذه الصيغة لم أقف عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وإنما خرجه الطبري بصيغة الرفع عن أبي هريرة ؓ قال : كنا مع النبي ﷺ في جنازة ، فقال : « لتسرعنّ بها أو لأرجعنّ » . وفي إسناده عبدالرحمن بن واقد ، قال الحافظ : صدوق بخطي وأتمه ابن عدي في الكامل بسرقة الحديث . انظر مسند الشاميين للحافظ أبي القاسم الطبراني (٢٥٣/٢) . وحديث الإسراع بالجنازة عند البخاري من رواية أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ مرفوعاً : « أسرعوا بالجنازة ، فإن تكّ صالحه فخير تقدّمونها إليه ، وإن يك سوى ذلك فشرّ تضعونه عن رقابكم » . كتاب الجنائز ، باب السرعة بالجنازة (١٨٢/٣) رقم (١٣١٥) .

(٦) وذلك لما خرجه مسلم عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال : « من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيرط ، ومن شهدا حتى تدفن فله قيراطان » . قيل : وما القيراطان ؟ قال : « مثل الجبلين العظيمين » .

(٧) (٦٥٢/٢) برقم (٩٤٥) .

(٧) الحوادث والبدع (٢٨٧) .

ومرادده رحمه الله أن العمل وإن كان في تأديته حصول الأجر الكبير ، إلا أنه لا بد من أن يكون على وفق سنة النبي ﷺ ، من هنا فقد أكدوا على لزوم السنة .

٥٢— وفي هذا يقول مالك : قال عمر بن عبدالعزيز : « سنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنناً ، الأخذ بها تصديق لكتاب الله ، واستكمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله ، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ، ولا النظر فيما خالفها ، من اقتدى بها فهو مهتد ، ومن استنصر بها منصور ، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولأه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً » . قال مالك : « أعجبنى عزم عمر في ذلك » .

قال القاضي عياض : « كان مالك إذا حدث بهذا ارتجّ سروراً »^(١) .

فما أقرّه الإمام مالك هنا يبين أهمية اتباع السنة في العمل ، إذ لا تحقق الطاعة ويحصل الاهتداء إلا بها ، وترك ما سواها ، فمن خالف في ذلك فهو متوعد ومردود عليه عمله والعياذ بالله .

٥٣— ولذلك حذّر الإمام مالك من زاد في عمله على هدي النبي ﷺ من الوقوع في الفتنة ، مما يدل على أنه لا بد للعمل من أن يكون على وفق السنة . فقد أتاه رجل فقال : يا أبا عبد الله ! من أين أحرم ؟ قال : من ذي الحليفة ، من حيث أحرم رسول الله ﷺ . فقال : إني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر . قال : لا تفعل فإني أخشى عليك الفتنة ! فقال : وأي فتنة هذه ؟ إنما هي أميال أزيدها . قال : وأي فتنة أعظم من ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ﷺ ؟ إني سمعت الله يقول : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾^(٢) .

(١) الجامع (١٤٩) . وذكره الذهبي في السير (٩٨/٨) ، ونسبه إلى مالك بقوله : « من قول مالك في السنة .. » ، القاضي عياض في ترتيب المدارك (٤١/٢) .

(٢) الاعتصام (١٣٢/١) .

٥٤— قال مالك : « السنة سفينة نوح ، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق »^(١) .

فلا ريب أن العمل يدخل ضمن ما قاله مالك رحمه الله ، فلا نجاة إلا بأن يكون على وفق السنة .

٥٥— وذكر ابن عبد البر ضمن « باب الحض على لزوم السنة والاقتصار عليها » أثر عمر بن عبدالعزيز السابق ، مما يبين أهمية اتباع السنة في كل قرينة وطاعة^(٢) .

٥٦— وذكر ابن أبي زيد تحت عنوان « فضل الاتباع والخير فيه » قوله : « واللجأ إلى كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ، واتباع سبيل المؤمنين وخير القرون ، من خير أمة أخرجت للناس نجاة ، ففي المفرع إلى ذلك العصمة ، وفي اتباع السلف الصالح النجاة ، وهم القدوة ... » . فإذا لم تكن الأعمال على وفق الكتاب والسنة ونهج السلف الصالح فهي مصدر هلاك وشقاء ، إذ إن الخلق إنما تعبدوا بما في هذين المصدرين : الكتاب والسنة ، فبهما يتحقق الحفظ من مخالفة المأمورات .

فتدخل سائر الأعمال والقرب ضمن الأمر باتباعه فيها ، وإلا لم تكن أعمالاً مشروعة .

وبهذا الذي سبق يعلم عناية المالكية بشرطي صحة العبادة ، كما جاءت في الكتاب والسنة ، من وجوب إيقاع العبادة على وفق ما شرعه الله ، وأن يتغى بتلك العبادة وجه الله تعالى دون سواه ، فإذا لم يتوافر الشرطان في أي عمل حكم ببطلانه ورده .

وقد كان بياهم لهذين الشرطين على وجه التفصيل أحياناً وبالإشارة إلى شرط المتابعة في حين آخر ، ولهذا عقب بشرط المتابعة على وجه البسط ليعلم عناية المالكية بأن إخلاص العمل لا يكفي وحده ، بل لا بد من أن يكون على وفق ما شرعه الله .

(١) ذم الكلام للهروي (١٧٤) ، والعقيدة السلفية للمغراوي (٣٠) .

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١١٧٦/٢) . ط. دار ابن الجوزي ، ط. الثانية ١٤١٨ هـ — السعودية .

الباب الثالث

الشرك

وفيه : تمهيد ، وفصلان

□ تمهيد

□ الفصل الأول : التعريف بالشرك وبيان سببه

□ الفصل الثاني : أنواع الشرك

لما كان الشرك بالله تعالى من أعظم الذنوب التي عصي الله بها ، فقد جاءت النصوص الشرعية محذرة منه . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾^(١) . وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾^(٢) . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلِتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٣) .

فالمشرك حلال الدم والمال ، ولا يقبل الله منه العمل ، ولا تنفعه الشفاعة ، ولا يستجاب له في الآخرة دعوة ، ولا تقال له فيها عشرة .

« والمتأمل في سيرته ﷺ بعد البعثة ليجدها سلسلة متصلة الحلقات من الجهاد الدائب لإعلاء كلمة التوحيد ، وتقويض دعائم الشرك ، ومحاربة الوثنية في كل صورها ومظاهرها ، فقد قضى ثلاثة عشر عاماً في مكة من سني بعثته لا شغل له إلا إقرار العقائد الصحيحة ، والدعوة إلى التوحيد ، حتى طهر جزيرة العرب من عبادة الأوثان ، وجرى أصحابه ﷺ على هذه الطريقة في كل موطن نسجت منه عناكب الشرك ، فأبادوا الأصنام وما يشبه الأصنام ... وتفقهوا في الدين ، فأخذوا في إبعاد الناس عن عقيدة الشرك بطريق الجزم ، وسدوا الذرائع^(٤) التي قد تفضي

(١) سورة النساء ١١٦ .

(٢) سورة المائدة : ٧٢ .

(٣) سورة الزمر : ٦٥ .

(٤) ومن الأمثلة على ذلك ما فعله عمر ﷺ بقطع الشجرة التي وقعت تحتها بيعة الرضوان ، وأيضاً ما جاء في قصة عبدالله بن مسعود مع زوجته حيث تقول : جاء ذات يوم فرأى في عنقي خيطاً ، قال : ما هذا الخيط ؟ قالت : قلت : خيط رقي لي فيه . قالت : فأخذه فقطعه ثم قال : إن آل عبدالله لأغنياء عن الشرك ! . وكذلك حذيفة ﷺ دخل على مريض فرأى في عضده سيراً فقطعه وانتزعه ثم قال : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ . أخرجه الإمام أحمد (٣٨١/١) ، والحاكم (٢١٧/٤) وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في الصحيحة (٥١٤/١) .

إليه ..))^(١) .

وهذا فيما يتعلق بالشرك على سبيل العموم ، أما ما يتعلق بخصوص هذا البحث المرتبط بالمالكية فإن الإمام مالكا رحمه الله قد روى بسنده عن أميمة بنت رقية رضي الله عنها أنها قالت : أتيت رسول الله ﷺ في نسوة بايعنه على الإسلام فقلت : يا رسول الله ! نبايعك ألا نشرك بالله شيئا ...^(٢) .

فروايته لهذا الحديث الذي فيه البيعة من النساء على التوحيد وعدم الإشراك بالله تعالى تظهر عناية الإمام مالك بالتوحيد وحمايته من كل ما يناقضه ، كالشرك بالله الذي هو أعظم الذنوب^(٣) .

وعلى هذا كان تطبيقه العملي على وفق هذه القاعدة ، فمن ذلك ما جاء في المدونة^(٤) : قلت : هل كان مالك يكره أن يستعين المسلمون بالمشركون في حروبهم ؟ قال : « سمعت مالكا يقول : بلغني أن رسول الله ﷺ قال : " لن أستعين بمشرك " »^(٥) .

فإيراد مالك رحمه الله لهذا النص يبين أنه لا يجوز الاستعانة بالمشركون في القتال ، وذلك لشناعة جرمهم ، وخشية الاختلاط بهم ، مما يهون الشرك عند المسلمين . بل إنه حض على عمل كل ما فيه توهين للشرك وأهله^(٦) .

(١) انظر مصرع الشرك والخرافة . لخالد محمد علي الحاج ، تحقيق عبدالله الأنصاري ، ط . إدارة الشؤون الدينية بقطر ١٣٩٨ هـ .

(٢) الحديث سبق تخريجه ص ٢٠ .

(٣) ذكر الإمام مالك أن جميع الذنوب يغفرها الله عدا الشرك ، فعند قول الله تعالى : ﴿ يغفر الذنوب جميعا ﴾ قال : « إنه ما دون الشرك » . الإمام مالك مفسرا (٣٤٢) .

(٤) المدونة (٤٠/٢) .

(٥) سبق تخريجه ص ٣٢٢ .

(٦) ومن ذلك أنه لم ير بأسا أن تحرق قراهم وحصونهم بالنيران ، وتغرق بالماء وتخرّب . قال سحنون : « وأصل ما جاء عن أبي بكر رضي الله عنه في النهي عن قطع الشجر وإحراق العامر أن ذلك لم يكن من أبي =

ورأى أن سائر ما يعملهُ المرتد مردود عليه إذا رجع إلى الإسلام ، ويلزمه أن يقضي الحج^(١) .

وقرر ما جاءت به النصوص من نجاسة المشرك^(٢) النجاسة المعنوية ، ومن قطع كل العلائق مع المشركين ، فلا يحل أن ينكح المسلم المشركة والعكس^(٣) .

وحيث كانت عناية الإمام مالك بهذا الأمر - الذي هو الشرك - بالغة هذا القدر فقد حرص هو وأصحابه من بعده على إيضاح حقيقة الشرك ، وبيان أنواعه ؛ لما فيه من الخطر العظيم الذي يقضي على التوحيد ويفسد العبادة .

وسوف يكون عرض كلام المالكية في بيان هذا الجانب على سبيل الإيجاز ، وذلك من خلال ما يأتي في الفصلين الآتيين :

الفصل الأول : التعريف بالشرك وبيان سببه .

الفصل الثاني : أنواع الشرك .

= بكر ﷺ نظرًا للشرك وأهله والحيطة لهم والذب عنهم ، ولكنه أراد النظر للإسلام وأهله والتوهمين للشرك » . المدونة (٨/٢) .

(١) حيث ذكر أن المرتد إذا حج قبل رده فإن عليه أن يحج مرة أخرى . قال : لأن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ ، فحجه من عمله ، وعليه حجة أخرى ، فهذا يخبرك أن كل ما فعل من الفرائض قبل ارتداده لم ينفعه ، فكذلك ما ضيع قبل ارتداده ، ولا يكون عليه شيء وهو ساقط عنه . المدونة (٣١٧/٢) .

(٢) كما في قوله تعالى : ﴿ إنما المشركون نجس ﴾ .

(٣) قال مسعر : قلت لمالك بن أنس : خطب إلي رجل من القدرية أفأزوجه ؟ فقال : لا . قال الله ﷻ : ﴿ ولعبد مؤمن خير من مشرك ﴾ . الإمام مالك مفسرًا (١٠٧) .

وقال : إن الله حرم نكاح المشركات منها والكتايبات من الجملة ، ثم جاءت آية المائدة فخصصت الكتايبات من هذا العموم . نفس المرجع .

قال مالك : " وإذا أسلم الرجل قبل امرأته وقعت الفرقة بينهما إذا عرض عليها الإسلام فلم تسلم ؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه : ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ . الموطأ (٤٢٩/٢) .

□ الفصل الأول

التعريف بالشُّرك وبيان سببه

المبحث الأول : بيان حقيقة الشرك

المبحث الثاني : بيان سبب الشرك

المبحث الأول

بيان حقيقة الشرك

تقدم في الكلام على معنى التوحيد والإقرار بربوبية الله ﷻ ما يدل على أن الإيمان الذي ينفع صاحبه لا يتحقق إلا بترك الشرك مطلقاً ، وعدم صرف شيء من العبادة لغير الله تعالى ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « من قال : لا إلا الله ، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله »^(١) .

فلا بد لمن نطق بهذه الكلمة موقناً بها من نبذ ما يعبد من دون الله ﷻ ، كما قال تعالى : ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ... ﴾^(٢) .

وعلى هذا ؛ فحقيقة الشرك هو اتخاذ شريك لله تعالى في العبادة ، وهو ما أفصح عنه علماء المالكية في بيانهم حقيقة الشرك تصريحاً أو تلميحاً ، وسأذكر في هذا المبحث أقوالهم على سبيل الإيجاز والاختصار .

١— ومن ذلك تعريف القرطبي للشرك بأنه « اتخاذ الإنسان إلهاً غير خالقه المنعم عليه » .

٢— وأكد في موضع آخر أن المراد شرك العبادة فقال :

« أصل الشرك المحرم : اعتقاد شريك لله تعالى في إلهيته ، وهو الشرك الأعظم ، وهو شرك الجاهلية »^(٣) .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله (٥٣/١) برقم (٢٣) .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٦ .

(٣) المفهم (٦/٦١٥) .

وأهل الجاهلية كانوا يقرون بربوبية الله ﷻ ، كما قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾^(١) ، كما تقدم بيانه ، وعليه فإن إشراكهم المذكور هنا هو الشرك في العبادة .

٣— ونظيره ما ذكره الملي في بيان حقيقة الشرك بقوله :

« الشرك في الشرع : الشرك العظيم ، وهو إثبات شريك لله تعالى »^(٢) .

٤— قال ابن القاسم : « سمعت مالكا قال : بلغني أن رجلاً من المسلمين في بعض مغازي رسول الله ﷺ حمل على رجل من المشركين ، فلما علاه بالسيف قال المشرك : لا إله إلا الله ، فقال الرجل : إنما تتعوذ بها من القتل ! فقتله ، فأتى إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال له رسول الله ﷺ : « كيف لك بلا إله إلا الله ؟ ! » . فقال : يا رسول الله ! إنما كان يتعوذ بها من القتل ! فما زال يعيدها على النبي ﷺ والنبي ﷺ يعيد : « فكيف لك بلا إله إلا الله ؟ ! » . فقال الرجل : وددت أني أسلمت في ذلك اليوم ، وأنه بطل ما كان من عملي قبل ذلك ، وأني استأنفتُ من ذلك اليوم »^(٣) .

فقرر مالك رحمه الله نفع كلمة التوحيد للمشرك إذا نطق بها ، إذ بها يحقن دمه ؛ لأنه ترك ما يعبد من دون الله من الشركاء الذين كان يعتقد استحقاقهم للعبادة مع الله ، وهذا هو حقيقة الشرك .

٥— وأوضح ابن بطال أن « الرياء ينقسم إلى قسمين : فإن كان الرياء في عقد الإيمان فهو كفر ونفاق ، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار ، وإن كان الرياء لمن سلم له عقد الإيمان من الشرك ولحقه شيء من الرياء في بعض أعماله فليس ذلك

(١) سورة الزخرف : ٨٧ .

(٢) رسالة الشرك ومظاهره للملي (٦٣) .

(٣) البيان والتحصيل (٢١٦/١٧) . وفي الباب عن أسامة بن زيد عند البخاري (٤٢٦٩) ، وعن المقداد بن الأسود عند البخاري (٤٠١٩) . وقد سبق تخريجه أيضاً ص ٣١ .

بمخرج من الإيمان ، إلا أنه مذموم فاعله ؛ لأنه أشرك في بعض أعماله حمد المخلوقين مع حمد ربه ، فحرم ثواب عمله ذلك»^(١) .

ومراد به بالشرك الذي ينقض عقد الإيمان اتخاذ شريك مع الله ﷻ في عبادته ، وهو حقيقة الشرك .

٦— كما يبين ذلك ما ذكره في موضع آخر من أن الشرك هو عدم الاعتراف بالعبودية والربوبية لله تعالى - وهما خالص حق الله - وجعلها لغيره ، حيث قال :

« وإنما سمي الله الشرك ظلمًا لأن الظلم عند العرب وضع الشيء في غير موضعه ؛ لأنه كان يجب عليه الاعتراف بالعبودية والإقرار بالربوبية لله تعالى »^(٢) .

٧— ونبه الباجي إلى أن كمال قدرة الله ﷻ ونفوذ أمره وحكم تشريعه تقتضي عدم اتخاذ شريك أو ند له تعالى ، إذ له الكمال المطلق ، بخلاف المخلوق ، فمن لم يقر بذلك فقد أشرك معه غيره ، حيث يقول :

« فمن عظمته تعالى وقدرته وعزته انفراده عن الأشرار والأنداد ، واستغناؤه عن الصاحبة والأولاد ، ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ... ﴾^(٣) .. تفرد بالخلق والإنشاء ، وكشف الضر والبلوى ، وبعث النبيين مبشرين ومنذرين ، فأخبروا عن ربنا بعظم قدرته ، وعلو كلمته ، وتمام مشيئته ، وبينوا شرائعه ، وأوضحوا براهينه وأمره ، وكل ذلك بالكلام المبين والمنهج القويم ، والأدلة التي تضطر من تأملها إلى الحق ، وتُنكّب من خالفها إلى الشرك »^(٤) .

فكلامه وإن كان في الربوبية فهو مستلزم للألوهية ؛ لأن الرسل جميعًا إنما جاؤوا بالدعوة إلى عبادة الله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول

(١) شرح صحيح البخاري (١/١١٣) .

(٢) شرح صحيح البخاري (٨/٥٧٠) .

(٣) سورة المؤمنون : ٩١ .

(٤) رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين (٦٧) .

إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿١﴾ . وبهذا تتبين حقيقة الشرك ، وهو اتخاذ شريك أو ند له تعالى في العبادة .

ولذا كان من أعظم الشرك تسوية الخالق بالمخلوق فيما اختص به الخالق من استحقاق العبادة .

٨— وذلك ما أوضحه ابن عطية من مقالة المشركين عند تفسيره لقول الله تعالى : ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نَسْوَيْكُمْ بَرَبَ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) : « قسماً بالله إن كنا لفي ضلال مبين في أن نعبدكم ونجعلكم سواء مع الله تعالى الذي هو رب العالمين وخالقهم ومالكهم ... » ^(٢) .

٩— وذكر القرطبي نفس المعنى عند تفسيره للآية ﴿ إِذْ نَسْوَيْكُمْ بَرَبَ الْعَالَمِينَ ﴾ بقوله : « أي في العبادة » ^(٣) .

١٠— وأفصح عن حقيقة الشرك ، وأنه عبادة غير الله تعالى - عند قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبَطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(٤) - فقال : « أي : لو عبدوا غيري لحبطت أعمالهم » ^(٥) .

١١— وعلى هذا بين محمد المختار « أن المشرك بالله ﷻ قد ظلم نفسه ظلماً عظيماً ، حيث سوى بين الرب والمربوب ، والمنعم بجميع النعم وما لا نعمة منه أصلاً » ^(٦) .

(١) سورة الأنبياء : ٢٥ .

(٢) سورة الشعراء : ٩٧-٩٨ .

(٣) المحرر الوجيز (١١/١٢٨) .

(٤) تفسير القرطبي (١٣/١١٦) .

(٥) سورة الأنعام : ٨٨ .

(٦) تفسير القرطبي (٧/٣٤) .

(٧) نور الحق (١٠/٣٤١) .

١٢— وأبان محمد الأمين أن تلك التسوية لا تكون من ذي عقل ، فقال :

« ومعلوم أن تسوية ما لا يضر ولا ينفع ولا يقدر على شيء مع من بيده الخير كله ، المتصرف بكل ما شاء ، لا تصدر إلاّ عن لا عقل له »^(١) .

١٣— وهو ما أراده القرافي حين بين توحيد الله تعالى بالعبادة ، فقال :

« فيجب على كل أحد أن لا يشرك معه تعالى غيره في ذلك »^(٢) .

١٤— وحكم على من فعل ذلك بالكفر حيث قال :

« ولا خلاف في تكفير من نفى الربوبية أو الوجدانية ، أو عبد مع الله غيره »^(٣) .

فمن عبد مع الله غيره جعله مستحقاً للعبادة دون الله تعالى ، وهو ما أبطله الله .

١٥— كما ذكر محمد المكي أن « المشرك بالله يزعم زوراً وبهتاناً أن الوثن يستحق العبادة ، ويشهد له بالقدرة على الضر والنفع وغيره من صفات الكمال ، التي هي من صفات الله وحده دون ما سواه »^(٤) .

١٦— وأوضح ابن أبي جمرة حقيقة الشرك فقال :

« ... لأن المؤمنين ينطبق عليهم اسم عباد وإن كان منهم المذنب ؛ لأنه قد عبد الله ، أي أنه قد أقرّ له سبحانه بالألوهية ولم يجعل له شريكاً ولا عبد شيئاً دونه »^(٥) .

١٧— وبين القرافي عند ذكره قاعدة في الرياء في العبادات والتشريك فيها أن

(١) أضواء البيان (٤٨٣/٢) .

(٢) الذخيرة (٧/٤) .

(٣) الذخيرة (٢٧/١٢) .

(٤) التيسير (١٧٢/٤) .

(٥) بحجة النفوس (٣٠/٢) .

« هذه القاعدة وسرها وضابطها أن يعمل العمل المأمور به والمتقرب به إلى الله وهو يقصد به وجه الله »^(١) .

ومرادُه أن ما لم يقصد به وجه الله فهو من الشرك .

١٨ — وعند قول الله تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾^(٢) قال محمد الأمين :

« المراد بشركهم : عبادتهم غيره معه »^(٣) .

١٩ — وأوضح معنى العدل في الآية : ﴿ والذين كفروا برهم يعدلون ﴾^(٤) فقال :

« معنى ﴿ يعدلون ﴾ : يجعلون له نظيراً في العبادة »^(٥) .

فجعل معنى الشرك اتخاذ معبود مع الله تعالى .

ولذا فقد جاء النهي عن الشرك في النصوص بعد الأمر بالعبادة ، إشارة إلى اختصاصها بالله وحده دون سواه .

٢٠ — وهو ما أشار إليه أيضاً ابن عاشور عند قول الله تعالى : ﴿ قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ﴾^(٦) حيث يقول :

« ولما كان المأمور به مجموع شيئين : عبادة الله ، وعدم الإشراك به في ذلك ؛ آل المعنى : إني ما أمرت إلا بتوحيد الله »^(٧) .

(١) الفروق (٤٣/٣) .

(٢) سورة يوسف : ١٠٦ .

(٣) أضواء البيان (٧٤/٣) .

(٤) سورة الأنعام : ١ .

(٥) أضواء البيان (١٨٠/٢) .

(٦) سورة الرعد : ٣٦ .

(٧) التحرير والتنوير (١٥٨/١٣) .

٢١- ثم ذكر أن التوحيد يبطل بالشرك في العبادة ، وهو حقيقة الشرك فقال :

« وإثبات الوجدانية له يبطل الشريك في الإلهية »^(١) .

٢٢- وأبان محمد المختار نفس المعنى عند حديث جبريل - وفيه قول النبي ﷺ :

« أن تعبد الله ولا تشرك به »^(٢) - بقوله :

« أي معه في العبادة شيئاً »^(٣) .

وبهذا البيان من أئمة المالكية لحقيقة الشرك يعلم أن غالب الشرك الذي جاءت النصوص الشرعية بالنهي عنه إنما هو شرك العبادة ، إذ إن غالب الأمم تقر بربوبية الله ﷻ^(٤) ، وإنما وقع الانحراف في العبادة ، بأن صرفت لغير الله ﷻ منذ أمد بعيد^(٥) .

(١) التحرير والتنوير (٣٢٧/٢٣) .

(٢) خرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان (١١٤/١) برقم (٥٠) .

(٣) نور الحق (١٣٦/١) .

(٤) وقد تقدم هذا المعنى في الباب الأول .

(٥) حين وقع الشرك في الأرض في قوم نوح ، كما قال تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ أي على التوحيد ، عشرة قرون بين آدم ونوح ، كما أثر عن ابن عباس رضي الله عنهما . قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ . انظر : تفسير الطبري (٢١٣/٢) ، وتفسير القرطبي (٣٠/٣) .

المبحث الثاني

بيان سبب الشرك

لما كان الشرك أمرًا حادثًا ، وأن الأصل هو التوحيد ، كما قال تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾^(١) ؛ كان لا بد له من أسباب توصل وتؤدي إليه ، كالصور وتعظيمها ، والبناء على القبور وتشبيدها . والإسلام جاء بسد منافذ الشرك ، وحسم أسبابه ، فقد حرم البناء على القبور ، ونهى عن تشبيدها ، واتخاذ الصور ؛ لأنها السبيل إلى الغلو في أصحابها ، ومن ثم عبادتها كما وقع في الأمم السالفة .

وهذا الذي قرره أئمة المالكية في بيان أسباب الشرك ، مستدلين على ذلك بما جاء في قصة قوم نوح^(٢) ، وما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا لرسول الله ﷺ كنيسة رأيتها بالحبشة فيها تصاوير ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدة ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة »^(٣) .

١- وفي هذا يقول القاضي عياض - عند حديث عائشة رضي الله عنها - :

« ... ولأن هذا كان الأصل في عبادة الأصنام فيما يذكر ، وكانوا قديمًا إذا

(١) سورة البقرة : ٢١٣ .

(٢) كما في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما : « أن ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسراً كانت أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام ، فلما هلكوا أوصى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى بحالهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبادت » . (٦٦٧/٨) برقم (٤٩٢٠) .

(٣) خرجه البخاري في كتاب الصلاة ، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد (٥٢٣/١) برقم (٤٢٧) ، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها (٣٧٥/١) برقم (٥٢٨) .

مات فيهم نبي أو رجل صالح صوروا صورته ، وبنوا عليه مسجداً ليأنسوا برؤية صورته ، ويتعظوا بمصيره ، ويعبدوا الله عنده ، فمضت على ذلك أزمان ، وجاء بعدهم خلف رأوا أفعالهم وعباداتهم عند تلك الصور ، ولم يفهموا أغراضهم ، وزين لهم الشيطان أعمالهم وألقى إليهم أنهم كانوا يعبدونها ؛ فعبدوها ^(١) .

٢— ونظيره ما ذكره القرطبي عند هذا الحديث ثم عقب بقوله : « فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك ، وشدد النكير والوعيد على فعل ذلك ، وسد الذرائع المؤدية إلى ذلك ، فقال : " اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، فلا تتخذوا القبور مساجد " ^(٢) ، وقال : " لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " ، وقال : " اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد " ^(٣) . ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر رسول الله ﷺ ، فأعلوا حيطان تربته ، وسدوا المداخل إليها ، وجعلوها محدة بقبره ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة ، إذ كان مستقبل المصلين ، فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة ، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين ، وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلث من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره ، ولهذا الذي ذكرناه كله قالت عائشة : " ولولا ذلك لأبرز قبره " ^(٤) ^(٥) .

(١) إكمال المعلم (٢/٤٥٠) .

(٢) خرجه مالك في الموطأ ، باب جامع الصلاة (١/١٥٦) ، وعبدالرزاق في المصنف (١٥٨٧) ، وابن عبد البر في التمهيد (٥/٤١) ، وقال : لا خلاف عن مالك في إرسال هذا الحديث ، وهو حديث صحيح عند من قال بمراسيل الثقات وعند من قال بالمسند ؛ لإسناد عمر بن محمد له ، وهو ممن تقبل زيادته .

(٣) خرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها في كتاب الجنائز ، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور (٣/٢٠٠) برقم (١٣٣٠) ، ومسلم في كتاب المساجد ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (١/٣٧٦) برقم (٥٢٩) .

(٤) وهذا قالته عائشة رضي الله عنها بعد روايتها لهذا الحديث عند البخاري ومسلم ، كما هو مخرج في الحاشية (٣) .

(٥) المفهم (٢/١٢٧-١٢٨) .

٣- وبين أن النهي عن الصلاة إلى القبور « لقطع الذريعة أن يعتقد الجاهل في الصلاة إليها - أو عليها - الصلاة لها ، فيؤدي إلى عبادة من فيها ، كما كان السبب في عبادة الأصنام »^(١) .

فجعل السبب الذي أدى إلى وقوع الشرك الغلو في أولئك الرجال الصالحين حتى عبدوهم من دون الله .

٤- وهو ما بينه ابن بطال بقوله :

« لأنهم كانوا يعبدون تلك القبور ، ولذلك نهي ﷺ أن يتخذ قبره مسجداً ، قطعاً للذريعة في ذلك ؛ لئلا يعبد الجاهل قبره »^(٢) .

٥- وقد كان السبب في حدوث تلك العبادة اتخاذ القبور مساجد ، وفعل التصاوير ، وذلك لأن الغلو في القبور والصور يوصل إلى اتخاذها آلهة ، كما بين ذلك ابن بطال فيما نقله عن المهلب بقوله :

« إنما نهي عن ذلك - والله أعلم - قطعاً للذريعة ، ولقرب عبادة الأصنام واتخاذ القبور والصور آلهة »^(٣) .

٦- وذكر الميلي أن مبدأ الشرك كان في قوم نوح ، فقال :

« أول ما عرفوا بالشرك قوم نوح عليه السلام ، وأول ما وقعوا فيه منهم القبوريون المنصرفون بقلوبهم إلى الموتى من صلحائهم ، فكان نوح أول رسول من الله لمقاومة الشرك ، وإقامة الحجة على المشركين بتذكيرهم بنعم الله ووجوب شكرها ، ودلالته على سوء مغبة الشرك ، ولزوم التبرئ منه ، ولكن القوم غلب عليهم هوى الشرك » .

(١) المفهم (٢/٦٢٨) .

(٢) شرح البخاري (٣/٣٢٧) .

(٣) شرح البخاري (٢/٨٢) .

ثم ذكر أنهم أخذوا يتواصون بذلك حتى « أخذ الخلف بوصية السلف ، فلم يستمعوا لنبيهم على قوة الحجة ، ولم يتأثروا بآدابه على طول مدته »^(١) .

فقرر أن الغلو في أولئك الموتى هو الذي أوصلهم إلى الشرك .

٧— وذكر ابن جزى السبب الذي أدى إلى وقوع الشرك في قوم نوح بإيراده نفس القصة السابقة^(٢) .

فما فعله قوم نوح من الشرك بالله تعالى هو من الأعمال القبيحة التي سرت إلى غيرهم من سائر الأمم .

٧— وهو ما أشار إليه محمد المكي عند قول الله تعالى : ﴿ وقالوا لا تدرن آلهتكم ... ﴾^(٣) بقوله :

« هذه الأصنام وغيرها قد استمرت تقاليد عبادتها إلى حين ظهور الإسلام » وأن تلك « السابقة الخبيثة والسنة السيئة التي سنّها قوم نوح قد انتقلت عدواها منهم إلى غيرهم من البشر ، ولا تزال عبادة الأصنام قائمة إلى اليوم »^(٤) .

وحيث إن البناء على القبور وتشيدها ، واتخاذ الصور سبيل لتعظيمها والغلو في أهلها كما تقدم ، فقد جاء عن الإمام مالك رحمه الله النهي عن كل سبب يؤدي إلى الشرك ، ومن ذلك :

٨— كراهية الإمام مالك تجصيص القبور والبناء عليها ، هذه الحجارة التي يبنى عليها^(٥) .

٩— قال مالك : « وناس يقولون : زرنا قبر النبي ﷺ ! » . قال ابن القاسم :

(١) رسالة الشرك (٦٨-٦٩) .

(٢) انظر التسهيل (٢٨٤/٤) .

(٣) سورة نوح : ٢٣ .

(٤) التيسير (٣١٢/٦) .

(٥) المدونة (١٨٩/١) .

فكان مالك يكره هذا ويعظمه أن يقال : إن النبي ﷺ يزار^(١) .

وهذا من الإمام مالك رحمه الله خشية الفتنة بعبادة القبر كما وقع في الأمم السالفة . يدل عليه ما أخرجه في موطنه من قول النبي ﷺ : « قاتل الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، لا يقين دينان بأرض العرب »^(٢) .

١٠ — ونقل الطرطوشي عن مالك قوله : « ولا يتخذ على القبور مساجد ، ويكره أن يبنى على القبور بالحجارة »^(٣) .

١١ — وعند حديث : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد » قال القرطبي : « وقد ذكر مالك في الموطأ ما يدل على ذلك من حديث ابن عمر فإنه قال فيه : أول^(٤) ما تكلم به رسول الله ﷺ : « قاتل الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، لا يقين دينان بجزيرة العرب »^(٥) .^(٦) »

١٢ — ونقل القرطبي مقالة الإمام مالك السابقة في كراهة البناء على القبور ، ثم قال معللاً تلك الكراهة : « لأنه تشبه بمن كان يعظم القبور ويعبدها » .

وهذا يبين أنه استقرّ لدى الإمام مالك رحمه الله خشية الفتنة العظيمة التي تقع من تشييد القبور والبناء عليها واتخاذها مساجد ، إذ هي ذريعة ووسيلة إلى الشرك بالله

(١) المدونة (٣٧٠/١) .

(٢) الموطأ (٨٩٢/٢) . وقد سبق تخريجه ، وهو في الصحيحين .

(٣) الحوادث والبدع (٣٠٤) .

(٤) لعله يريد أول ما يفيق من غم سكرات الموت التي عاناها النبي ﷺ ، فإن هذا الحديث قاله في سياق الموت .

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٢٧٥/٦) ، وعبد الرزاق في المصنف (٩٩٨٧) ، وأورده الهيثمي في المجمع (٣٢٥/٥) ، وقال : رجال أحمد رجال الصحيح ، غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع . وقال الأرئوط : حسن لغيره . المسند (٢٧٥/٦) .

وله شاهد عند مسلم (١٧٦٧) من حديث عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، حتى لا أدع إلا مسلماً » .

(٦) المفهم (٥٦٣/٤) .

تعالى .

١٣ — وعلى هذا سار المالكية^(١) . قال القرطبي - عند شرح حديث : « لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها »^(٢) - :

« أي لا تتخذوها قبلة تصلوا عليها أو إليها ، كما فعل اليهود والنصارى ، فيؤدي إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام ، فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك وسد الذرائع المؤدية إلى ذلك »^(٣) .

١٤ — ولهذا ذكر ابن رشد ما أورده الإمام مالك من أثر عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه حين أصلح ما تهدم من حائط بيت رسول الله ﷺ وستره القبر ، ثم قال :

« وإنما ستر القبر على الناس وبني عليه بيتاً صيانةً له ، مخافة أن ينقل ترابه ليستشفى به ، أو يتخذ مسجداً يصلى فيه ، فقد قال رسول الله ﷺ : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »^(٤) . »^(٥) .

١٥ — وبعد أن ذكر القاضي عياض تغليظ النبي ﷺ في النهي عن أن يتخذ قبره مسجداً قال :

« ولأن هذا كان أصل عبادة الأصنام »^(٦) .

(١) تفسير القرطبي (٣٨٠/١٠) .

(٢) خرجه مسلم في كتاب الجنائز ، باب النهي عن الجلوس على القبر والصلاة عليه (٦٦٨/٢) برقم (٩٧٢) .

(٣) انظر التمهيد (١٦٨/١) ، والمنتقى (١٩٥/٧) .

(٤) سبق تخريجه ص ٣٨٠ .

(٥) البيان والتحصيل (١٠١/١٧) .

(٦) إكمال المعلم (٤٥٠/٢) .

١٦ — قال ابن عبد البر :

« وكان رسول الله ﷺ يحذر أصحابه وسائر أمته من سوء صنيع الأمم قبله ، الذين صلوا إلى قبور أنبيائهم واتخذوها قبلة ومسجداً ، كما صنعت الوثنية بالأوثان التي كانوا يسجدون إليها ويعظمونها ، وذلك الشرك الأكبر ، فكان ﷺ يخبرهم بما في ذلك من سخط الله وغضبه وأنه مما لا يرضاه ، خشيةً عليهم أمثال طرقيهم »^(١) .

١٧ — وأكد هذا المعنى أيضاً بقوله :

« ليس فيه حكم أكبر من التحذير أن يصلى إلى قبره وأن يتخذ مسجداً ، وفي ذلك أمر بأن لا يعبد إلا الله وحده ، وإذا منع ذلك في قبره فسائر آثاره أخرى بذلك »^(٢) .

١٨ — ونظيره قول محمد المختار حيث ذكر أن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد لعنوا على ذلك ، وأن اتخذهم هذا مغالة لتعظيم أنبيائهم حتى عبدوهم^(٣) .

١٩ — ولما ذكر ابن الحاج حرمة الطواف بقبر النبي ﷺ والتمسح به وتقبيله والتبرك به قال :

« وما كان سبب عبادة الجاهلية للأصنام إلا من هذا الباب »^(٤) .

فجعلوا الغلو في قبور الأنبياء - باتخاذها مساجد - عبادة لها من دون الله تعالى ، وكما أن الغلو يقع بتشديد القبور واتخاذها مساجد فهو أيضاً يحصل باتخاذ الصور ، كما تقدم .

(١) التمهيد (٤٥/٥) .

(٢) الاستذكار (٥٠) .

(٣) نور الحق (٥٩٧/١) .

(٤) المدخل (١٩١/١) .

٢٠ — قال مالك :

« بلغني أن أول ما اتخذت الصور في موت نبي ، فصوروا ليأنسوا بصورته ، فما زال ذلك حتى صار إلى أن عبدت »^(١) .

فقرر الإمام مالك أن اتخاذ الصور سبب لوقوع الشرك واتخاذ الصور سببه الغلو في محبة من صوروه ، فلم يزل بهم صنيعهم إلى أن عبدوها .

٢١ — وهو ما أشار إليه القرطبي حين بين كراهة الصور بقوله :

« لأن ذلك مضاهاة لمن يعظم الصور ويعبدها كالنصارى ، وكما كانت الجاهلية تفعل »^(٢) .

ولهذا فإن القاضي عياضاً بين أن عدم دخول الملائكة في « البيت لأجل الصور التي ضاهى صانعها خلق الله ، ونصب أمثلتها للعبادة من دون الله »^(٣) .

٢٢ — وعلى هذا نقل محمد المختار عن ابن حجر قوله :

« إن تصوير الحيوان فعل أحدثه عباد الصور »^(٤) .

وهذا يدل عليه ما تقدم من أقوال .

وقد بين بعض المالكية أن شبهة المشركين قديماً وحديثاً في وقوع الشرك طلب الشفاعة من هؤلاء الشركاء ؛ لما لهم من المنزلة والجاه عند الله ، كما قال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما

(١) الجامع لابن أبي زيد القيرواني (٢٦١) .

(٢) المفهم (٤٢٦/٥) .

(٣) إكمال المعلم (٦٢٩/٦) .

(٤) نور الحق (٢٥٣/٩) . وانظر فتح الباري (٣٨٢/١٠) .

يشركون»^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى ﴾^(٢) .

٢٣— وبين ابن عطية السبب في ذلك ، فيقول :

« وكأن هذه الطوائف كلها كانت ترى نفوسها أقل من أن تتصل هي بالله ، فكانت ترى أن تتصل بمخلوقاته »^(٣) .

فأوضح أن تلك الوجهة الخاطئة منهم هي التي أوصلتهم إلى الشرك بالله تعالى .

٢٤— وعلى هذا ذكر ابن جزى أن تلك هي مقولة جميع المشركين ، فعند قوله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ قال : « يعني بذلك الكفار الذين عبدوا الملائكة ، والذين عبدوا الأصنام ، أو الذين عبدوا عيسى أو عزيزاً ، فإن جميعهم قالوا هذه المقالة »^(٤) .

٢٥— ولهذا ذكر الميلي أن المشركين « لم تزد عقيدتهم في أوليائهم وشركائهم عن تعليقهم الآمال عليهم في تحقيق مآربهم من الله ؛ لما لهم عنده في زعمهم من المنزلة والجاه ، كما ينظر الناس إلى من يتصلون به من حاشية أمير أو ملك في إسماعه مطالبهم »^(٥) .

أي أن هذا ما تعلقوا به لتبرير شركهم .

٢٦— ونقل القرطبي قول قتادة : « كانوا إذا قيل لهم : من ربكم ؟ ومن خالقكم ؟ ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء ؟ قالوا : الله . فيقال لهم : ما معنى عبادتكم الأصنام ؟ قالوا : ليقربونا إلى الله زلفى ، ويشفعوا لنا عنده » .

(١) سورة يونس : ١٨ .

(٢) سورة الزمر : ٣ .

(٣) المحرر الوجيز (١٢/٤٩٩) .

(٤) التسهيل (٣/٤١٤) .

(٥) رسالة الشرك (٨٣) .

٢٧— ولما كانت تلك الشبهة التي تعلقوا بها قد جاء الرد عليها في كتاب الله ﷻ فقد عقب القرطبي عليها بقول الكلبي : « جواب هذا الكلام في سورة الأحقاف ﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهةً بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ﴾ ^(١) » .

٢٨— وبين ابن عاشور بطلان تلك الوسيلة التي اتخذها المشركون للقرب من الله ﷻ ؛ لمنافاتها حقيقة العبادة ، فقال - أثناء كلامه على قوله تعالى : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولدًا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ ^(٢) - :

« الذين زعموا أنهم اتخذوا أولياء وعبدوهم حرصاً على القرب من الله يزعمونه عذراً لهم ، فقولهم من فساد الوضع وقلب حقيقة العبادة ، بأن جعلوا عبادة غير الله وسيلة إلى القرب من الله ، فنقضوا بهذه الوسيلة مقصدها ، وتطلبوا القربة بما أبعداها ، والوسيلة إذا أفضت إلى إبطال المقصد كان التوسل بها ضرباً من العبث » ^(٣) .

٢٩— وعند الآية نفسها أيضاً أكد هذا المعنى ، فقال :

« وإثبات القهار يبطل ما زعموه من أن أولياءهم تقرّبهم إلى الله زلفى وتشفع لهم » ^(٤) .

وبهذا الذي مضى يتبين أن السبب في حدوث الشرك هو الغلو في المخلوقات ، والذي من أبرز أسبابه الغلو في الصالحين ، والذي من آثاره البناء على القبور وتشبيدها ، واتخاذها مساجد ، وفعل التصاوير وتعظيمها ^(٥) ، وأن مبدأ ذلك كان في

(١) سورة الأحقاف : ٢٨ .

(٢) سورة الزمر : ٤ .

(٣) التحرير والتنوير (٣٢١/٢٣) .

(٤) التحرير والتنوير (٣٢٧/٢٣) .

(٥) وقد سبق ذكر الأحاديث التي تنهى عن البناء على القبور واتخاذها مساجد ، وكذا النهي عن التصوير .

قوم نوح عليه السلام ، ثم سرت تلك الطريقة السيئة في سائر الأمم التي وقع منها الشرك على اختلافه وتنوعه ، وأن طلب شفاعة هؤلاء المتخذين من دون الله أولياء وتقريبهم إلى الله هي الشبهة التي ردها أولئك على اختلاف الأزمنة لتبرير شركهم .

□ الفصل الثاني

أنواع الشُّرك

وفيه تمهيد ومبحثان

مَهَيِّدٌ

المبحث الأول : الشرك المنافي للتوحيد

المبحث الثاني : الشرك المنافي لكمال التوحيد

ذكر المالكية أن الشرك ينقسم إلى قسمين جامعين ، ينضوي تحت كل قسم مسائل عديدة .

وحكموا على القسم الأول بأنه الشرك الأكبر المخرج عن الإسلام ، والثاني هو الشرك الأصغر ، وهو الذي لا يخرج فاعله من الإسلام^(١) .

(١) ومن بياهم لهذين القسمين ذكر ابن بطال « أن الرياء ينقسم إلى قسمين ، فإن كان الرياء في عقد الإيمان فهو كفر ونفاق ، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار ، وإن كان الرياء لمن سلم من عقد الإيمان من الشرك ، ولحقه شيء من الرياء في بعض أعماله ، فليس ذلك بمخرج من الإيمان ، إلا أنه مذموم فاعله ؛ لأنه أشرك في بعض أعماله حمد المخلوقين مع حمد ربه ، فخرج ثواب عمله ذلك » . شرح صحيح البخاري (١١٣/١) .

فذكر القسم الأول الذي ينقل عن الملة ، وهو الأكبر ، إذا اعتقد مستحقاً للعبادة مع الله .
والثاني : من سلم له عقد الإيمان ، ولكن رأى في بعض أعماله حمد المخلوقين ، وهو الأصغر .
وقال القرطبي - مبيناً أقسام الشرك - : « أصل الشرك المحرم اعتقاد شريك لله تعالى في إلهيته ، وهو الشرك الأعظم ، وهو شرك الجاهلية ... ويليهِ في الرتبة اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل ... » . ثم قال : « ... ويلي هذا في الرتبة الإشراف في العبادة ، وهو الرياء » . انظر المفهم (٦١٥/٦) .

وفي موضع آخر قال : « المخلص في عباداته هو الذي يخلصها من شوائب الشرك والرياء ، وذلك لا يتأتى له إلا بأن يكون الباعث له على عملها قصد التقرب إلى الله تعالى وابتغاء ما عنده ، فأما إذا كان الباعث عليها غير ذلك من أعراض الدنيا فلا يكون عبادةً ، بل يكون مصيبة موبقة لصاحبها ، فإما كفر - وهو الشرك الأكبر - ، وإما رياء - وهو الشرك الأصغر - » . المفهم (٧٤٢/٣) .
ونقل قول القرطبي أبو العباس هذا القرطبي أبو عبد الله في بيانه أقسام الشرك . انظر تفسير القرطبي (١٨١/٥) .

وصرح بهذين القسمين أيضاً ابن جزى ، حيث يقول عند قوله تعالى : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ﴾ : « أي : لا أريد بأعمالي غير الله ، فيكون نفيًا للشرك الأصغر ، وهو الرياء ، ويحتمل أن يريد : لا أعبد غير الله ، فيكون نفيًا للشرك الأكبر » . التسهيل (٥٠/٢) .

وقال الميلي : « الشرك العظيم : هو إثبات شريك لله تعالى ... والشرك الأصغر : هو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور » . رسالة الشرك (٦٣) .

وقد جاء تحذيرهم من الشرك كبيره وصغيره ، إذ إنَّ من وقع في الشرك - وإن كان صغيراً - يخشى عليه أن يجره ذلك إلى الوقوع في الشرك الأكبر ، بحسب ما يصاحبه من الاعتقاد ، كما أن المعاصي بريد الكفر ، وسوف يكون الحديث على ذكر نماذج مهمة من أنواع الشرك الأصغر والأكبر ؛ لتفسيهما في الناس ، مما جعل أئمة المالكية يتكلمون عنهما بذكر حقيقتيهما ، ومحذرين من خطورتهما .

وسيكون ذلك كله في مبحثين :

الأول : الشرك المنافي للتوحيد .

الثاني : الشرك المنافي لكمال التوحيد .

- وأشار محمد الأمين إلى القسمين عند قوله تعالى : ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ ، فقال : « والتحقق أن قوله ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ أعم من الرياء وغيره ، أي : لا يعبد ربه رياءً وسمعةً ، ولا يصرف شيئاً من حقوق خالقة لأحد من خلقه » . أضواء البيان (١٩٩/٤) .

وفي موضع آخر بين الشرك الأعظم الذي يقع فيه من هم أسوأ حالاً من عبدة الأثان . انظر أضواء البيان (٦١٤/٣ ، ٦٢٣/٧ - ٦٢٤) .

المبحث الأول

الشُّرك المنافي للتوحيد

وفيه مسائل :

المسألة الأولى : شرك الدعاء .

المسألة الثانية : شرك الطاعة .

المسألة الثالثة : شرك السجود .

المسألة الرابعة : شرك الطواف .

المسألة الخامسة : شرك النذر .

المسألة السادسة : شرك السحر .

المسألة السابعة : شرك الرقى والتمايم .

المسألة الأولى : شرك الدعاء

تقدم في بيان أنواع العبادة الحديث عن الدعاء بوصفه عبادةً جليلاً ، والعبادة حق لله تعالى وحده ، وعلى هذا فإن من دعا غير الله تعالى فقد أتى أمراً خطيراً ينقض إيمانه وتوحيده^(١)، كما قال تعالى : ﴿ وَأَن الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾^(٢) .

وقد عني المالكية ببيان هذا النوع من الشرك ، وحذروا منه .

١— ومن ذلك ما أخرجه الإمام مالك في موطئه تحت " باب العمل في الدعاء " عن عبدالله بن دينار قال : « رآني عبدالله بن عمر وأنا أدعو وأشير بأصبعين ، أصبع من كل يد ، فنهاني »^(٣) .

٢— قال ابن عبدالبر :

« هذا مأخوذ من فعل النبي ﷺ ، إذ مرّ بسعد وهو يدعو في صلاته ويشير بأصبعيه جميعاً ، فنهاه عن ذلك وقال : « أَحَدٌ أَحَدٌ »^(٤) »^(٥) .

٣— وهو ما أوضحه الباجي عند شرحه لهذا الأثر بقوله :

« إنما نهاه أن يشير بأصبعين لأن الدعاء إنما يجب أن يكون إما باليدين وبسطهما

(١) وقد جاء في القرآن الكريم البيان والعناية بموضوع شرك العبادة ، وهو دعاء غير الله تعالى ، وذلك لأنه أعظم مسألة خالف فيها رسول الله ﷺ المشركين ، فإنهم كانوا يتعبدون بإشراك الصالحين في دعاء الله وعبادته ، يريدون بذلك شفاعتهم ووساطتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ . ولأنه أصل شرك العالم ، إذ إن طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم ، والتوجه إليهم هو الذي وقعت به الفتنة منذ زمن قديم وحصل به الشرك .

(٢) سورة الجن : ١٨ .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ، باب العمل في الدعاء (١/١٨٩) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٢/٤٢٠) ، وأبو داود (١٤٩٩) ، والنسائي (٣/٣٨) ، والحاكم (١/٥٣٦) وصححه . قال الأرناؤوط : حديث صحيح . المسند (٢/٢٤٠) .

(٥) الاستذكار (٨/١٦٧) .

على معنى التضرع والرغبة ، وإما بالإشارة بالواحدة على معنى التوحيد»^(١) .

٤— ونقله الزرقاني مقراً له^(٢) .

٥— وقد ذكر ابن العربي « أن معنى الإشارة بالإصبع في الصلاة والحكمة فيه أن يستعمل في التوحيد قلبه اعتقاداً ، ولسانه قوله ، ويده عملاً حتى يكون الاستيفاء على العموم»^(٣) .

٦— ومما يؤكد هذا المعنى عن مالك أن القرطبي بعد إيراد قول النبي ﷺ للمشركين عند تلييتهم بالتوحيد « قَدْ قَدْ »^(٤) قال : « أي : حسبكم التوحيد ينهاهم عن الشرك »^(٥) .

٧— ولذا فقد كره الإمام مالك أن يقول الرجل في دعائه : يا سيدي ، وقال : « أحبّ إليّ أن يدعو بما في القرآن ، ولما دعت به الأنبياء : يا رب » ، وكره الدعاء بيا حنّان^(٦) .

فإذا كان الإمام مالك يكره مثل هذا الدعاء إذا لم يكن مشروعاً عنده ، فكيف إذا بمن يدعو غير الله ﷻ !!؟

٨— وبين الإمام مالك - كغيره من الأئمة - ما يشرع عند زيارة قبر النبي ﷺ فقال : « لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ يدعو ، ولكن يسلم ويمضي »^(٧) .

قال : « وقال نافع : كان ابن عمر يسلم على القبر ، ورأيتُه مائة مرة أو أكثر

(١) المنتقى (١/٣٦٠) .

(٢) شرح الزرقاني (٢/٤٣) .

(٣) عارضة الأحوذى (١٢/٢٦٩-٢٧٠) .

(٤) خروجه مسلم في كتاب الحج ، باب التلبية وصفتها ووقتها (٢/٨٤٣) برقم (١١٨٥) .

(٥) المفهم (٣/٢٦٩) .

(٦) البيان والتحصيل (١/٤٥٦) .

(٧) الشفا (٢/٦٧١) .

يجيء إلى القبر فيقول : السلام على النبي ﷺ ، السلام على أبي بكر ، السلام على أبي ، ثم ينصرف»^(١) .

فجعل الإمام مالك الدعاء عند القبر لا مبرر له ، إذ هو خالص حق الله ، إلا إذا كان للميت بأن يدعو له ، كما جاء في الرواية الأخرى عنه^(٢) ، وما سوى ذلك فإنه قد يفضي إلى دعاء الرسول ﷺ وطلب الحوائج منه ، وطلب شفاعته عند قبره ؛ وهذا ما لم يفعله أحد من السلف .

٩— وعلى هذا ؛ فإنه مع تعظيم الإمام مالك رحمه الله للنبي ﷺ بعد موته ونهيه عن رفع الصوت عند قبره ، إلا أنه كره أن يقول الرجل : زرت قبر النبي ﷺ ، واستعظمه^(٣) .

١٠— ومن هنا فإن القاضي عياضاً اختار ما يوافق هذا المعنى في بيانه مقالة الإمام مالك ، فقال :

« والأولى عندي : أن منعه وكراهة مالك له لإضافته إلى قبر النبي ﷺ ، وأنه لو قال : زرت النبي ، لم يكرهه ؛ لقوله ﷺ : " اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد بعدي ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " ، فحمى إضافة هذا اللفظ إلى القبر ، والتشبه بفعل أولئك قطعاً للذريعة وحسماً للباب ، والله أعلم»^(٤) .

وذلك لأن لفظ " الزيارة " مجمل يدخل فيه الزيارة الشرعية التي يقصد بها السلام على أهل القبور والدعاء لهم ، والزيارة البدعية التي هي من جنس الشرك ، كزيارة

(١) أخرجه الإمام مالك في كتاب قصر الصلاة في السفر ، باب ما جاء في الصلاة على النبي ﷺ (١٥٢/١) ، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٤١/٣) في كتاب الجنائز . وأورده ابن بطة في الإبانة بإسناد صحيح . انظر اقتضاء الصراط المستقيم (٦٦٣/٢) .

(٢) انظر الشفا (٦٧٢/٢) .

(٣) المدونة (٣٧٠/١) .

(٤) الشفا (٦٦٩/٢) .

المشركين وأهل البدع ، ودعاء الموتى ، وطلب الحاجات منهم ، أو لاعتقاد أن الدعاء عند قبر أحدهم أفضل من الدعاء في المساجد ، ولهذا فقد عدل الإمام مالك إلى لفظ لا لبس فيه ، كلفظ السلام عليه^(١) .

(١) وبهذا يعلم بطلان قول من جوز على الإمام مالك دعاء الرسول ﷺ أو غيره بعد موته ، وغاية ما يستندون إليه في ذلك قصة الإمام مالك مع أبي جعفر المنصور ، كما رواها القاضي عياض بسنده عن محمد بن حميد الرازي أنه قال : ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكاً في مسجد رسول الله ﷺ ، فقال له مالك : يا أمير المؤمنين ! لا ترفع صوتك في هذا المسجد ، فإن الله أذب قومًا فقال : ﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ ، ومدح قومًا فقال : ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﴾ ، وذم قومًا فقال : ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات ﴾ ، وإن حرمة ميتًا كحرمة حيًا . فاستكان لها أبو جعفر ، فقال : يا أبا عبد الله ! أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله ﷺ ؟ فقال : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله . قال تعالى : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ . انظر الشفا (٢/٥٩٥-٥٩٦) ، وترتيب المدارك (١٠١/٢) .

وهذه الحكاية باطلة من وجوه :

أولاً : بطلان هذه الرواية سنداً :

١— لأن الراوي عن مالك هو محمد بن حميد الرازي ، لم يلق مالكاً ، فضلاً عن أنه لم يسمع منه ولم يعرف أنه من تلاميذه ، وعلى هذا فالحكاية فيها انقطاع . وذلك لأن مولده - كما قال الذهبي - في حدود الستين ومائة ، وتوفي مالك ١٧٩هـ ، ولم يخرج من بلده حين رحل في طلب العلم إلا وهو كبير مع أبيه . السير (١١/٥٠٣) .

٢— ضعف محمد بن حميد الرازي الذي روى عن مالك هذه الحكاية ، بل إن بعض العلماء كذبه ، وإذا كان كذلك فيعتبر هذا القول كذباً على مالك .

قال البخاري : في حديثه نظر . وقال النسائي : ليس بثقة . وقال صالح بن محمد : كل شيء يحدثنا ابن حميد كنا نتهمه فيه . وقال أبو زرعة : صح عندنا أنه يكذب . قال فضلك الرازي : عندي عن ابن حميد خمسون ألف حديث ولا أحدث عنه بحرف .

الجرح والتعديل (٧/٢٣٢) ، ميزان الاعتدال (٣/٥٣٠) ، تاريخ بغداد (٢/٢٦٢-٢٦٣) .

٣— إن في إسناد القاضي من لا تعرف حاله ، أي أنهم مجاهيل .

٤— انفراد محمد بن حميد الرازي بهذه الرواية عن بقية أصحاب مالك المعروفين بالأخذ عنه ، ومحمد بن حميد ضعيف عند أهل الحديث إذا أسند ، فكيف إذا أرسل حكاية لا تعرف إلا من جهته ؟ =

ولما كان دعاء غير الله ﷻ من الشرك الأكبر الذي لا يتصور وقوعه من مسلم ، فإن بعض المتقدمين من المالكية حذروا منه ، وبينوا خطورته في سياق الرد على المبتدعة بأنه يلزم من قولهم دعاء غير الله ﷻ ، وهو من أيّن الأدلة على تهافت أقوالهم المؤدية إلى الشرك .

وذلك ما أوضحه ابن عبد البر عند رده على الجهمية الذين زعموا أن كلام الله تعالى مخلوق ، حيث ذكر حديث : « من نزل منزلاً فليقل : أعوذ بكلمات الله

- وأصحاب مالك متفقون على أنه يمثل هذا النقل لا يثبت عن مالك قول في مسألة في الفقه ، بل إذا روى عنه الشاميون ضعفوا روايتهم ، وإنما يعتمدون على رواية المدنيين والمصريين ، فكيف بحكاية تناقض مذهبه المعروف عنه من وجوه كثيرة رواها واحد من الخراسانيين ، وهو ضعيف عند أهل الحديث .

ثانيًا : هذه الرواية تناقض مذهب الإمام مالك المشهور عنه وعن غيره من السلف في صفة السلام على رسول الله ﷺ : أن الداعي إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد أن يدعو لنفسه فإنه يستقبل القبلة ويدعو في مسجده ، ولا يستقبل القبر ويدعو لنفسه ، بل إنما يستقبل القبر عند السلام على النبي ﷺ والدعاء له . فمن تأمل ما جاء عن مالك يعرف أنه يمنع الوقوف عند القبر للدعاء مطلقًا . منهج الإمام مالك في إثبات العقيدة (٣٣٠) .

ثالثًا : أن الإمام مالكًا من أعلم الناس بهذه الأمور ، فإنه مقيم بالمدينة يرى ما يفعله التابعون وتابعوهم ويسمع ما ينقلونه على الصحابة وأكابر التابعين ، وهو ينهى عن الوقوف عند القبر للدعاء ، ويذكر أنه لم يفعله السلف ، فكيف يخالفه كما في هذه القصة ؟! انظر الشفا (٨٧/٢ - ٨٨) .

رابعًا : أن الإمام مالكًا كان من أبعد الناس عن البدع ، وقد كره قول الرجل : زرت قبر النبي واستعظمه ، وقد سبق ، فكيف يستدل هنا بالآية : ﴿ ولو أنهم إذا ظلموا أنفسهم ... ﴾ ؟ فهذا تناقض ظاهر ، بل إنه كره حتى زيارة قباء مع وروده ، خشية الزيادة على العبادة المشروعة ، فكيف يأمر بما لم يثبت بالسنة من الدعاء عند القبر ؟!

خامسًا : لو صحت هذه الحكاية فيحتمل أن يكون مالك غي عن رفع الصوت في مسجده ﷺ ، ويكون مالك أمرًا بما أمر الله به من توقيره وتعزيه ﷺ ؛ لكن وقع تحريف في ألفاظ الحكاية .

فعلى فرض صحتها ليس معنى التوسل الذي في الحكاية هو التوسل في الدنيا ، بل هو التوسل بشفاعته يوم القيامة ، ولكن من الناس من يحرف نقلها مع أن أصلها ضعيف .

التامات من شر ما خلق ، فإنه لن يضره شيء حتى يرحل»^(١) .

١١ — ثم قال ابن عبد البر :

« وفي الاستعاذة بكلمات الله أبين دليل على أن كلام الله فيه تبارك اسمه من صفاته ليس بمخلوق ؛ لأنه محال أن يستعاذ بمخلوق ، وعلى هذا جماعة أهل السنة والحمد لله»^(٢) .

١٢ — وقد بين القرطبي أبو العباس معنى الكلمات التامات في هذا الحديث

بقوله :

« هي الكاملات التي لا يلحقها نقص ولا عيب ، كما يلحق كلام البشر .
وقيل : معناه الكافية الشافية ، وقيل : الكلمات هنا هي القرآن ... وعلى هذا فحق
المتعوذ بالله تعالى وبأسمائه وصفاته أن يصدق الله في التجائه إليه ، ويتوكل في ذلك
عليه ، ويحضر ذلك في قلبه . فمتى فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه ومغفرة
ذنبه»^(٣) .

فقصر الاستعاذة هنا على كلمات الله تعالى دون غيره ، وذلك أن الاستعاذة نوع
من الدعاء الذي هو العبادة ، فمن صرفه لغير الله تعالى فقد أشرك .

١٣ — وعلى هذا فقد بين القرطبي أبو عبد الله - عند قول الله تعالى : ﴿ وأنه
كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾^(٤) - ما ورد من

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره (٢٠٨٠/٤) برقم (٢٧٠٨) .

(٢) فتح البر (٦١/٢) .

(٣) المفهم (٣٦/٧) .

(٤) سورة الجن : ٦ .

الآثار وأنها نزلت في تعوذ أهل الجاهلية بالجن^(١) ... ثم قال :

« ولا خفاء أن الاستعاذة بالجن دون الاستعاذة بالله كفر وشرك » .

فحكم على من استعاذ بغير الله بالشرك ؛ لأنه دعا غير الله ﷻ .

١٤ — ولهذا قال الملي :

« فإذا كان الدعاء عبادةً وجب أن يختص بالله ، وأن يحتز فيه من الوقوع في الشرك أو فيما هو ذريعة إليه »^(٢) .

١٥ — وإذا ما دعي غير الله ﷻ « فهو شرك صريح وكفر قبيح »^(٣) .

من هنا فقد أبطل الطرطوشي كل ما يدعى من دون الله من سائر المخلوقات ، إذ هي عاجزة على أن تنفع أو تضر ، ويقوم بها ما يقوم بغيرها من الذلة والحاجة والضعف ، فكيف تسأل ما لا تقدر عليه ؟ وهو حقيقة الشرك .

١٦ — فقد أورد قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ... ﴾^(٤) ، ثم قال :

« فجمع الله ﷻ بين الأصنام وبين آدم في اسم العبودية ، فدلّت الآية على أن من دخل تحت العبودية لا يضر ولا ينفع ، ولا يستأهل كل ذلك التعظيم ، بل هو خلق محتاج قد لحقه ذل التكوين ، مفتقر إلى ما يفتقر إليه من دعاه »^(٥) .

(١) ومن ذلك أورد قصة فيها أن ذئبًا عدا على غنم ، فحمل حملاً من الغنم ، فقال الراعي : يا عامر الوادي ! أنا جارك . فنادى مناد : يا سرحان ! أرسله . فأتى الحمل يشتد ، وأنزل الله على رسوله بمكة : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ . انظر تفسير القرطبي (٩/١٩) .

(٢) رسالة الشرك للملي (١٩٢) .

(٣) نفس المرجع (١٩٧) .

(٤) سورة الأعراف : ١٩٤ .

(٥) الدعاء المأثور (٣١-٣٢) .

١٧— ونظير قول الطرطوشي قول محمد الأمين ، حيث ذكر عند قوله تعالى : ﴿ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ... ﴾^(١) :

« ألقم الله تعالى المشركين في هذه الآيات حجراً بأن الشركاء الذين تعبدونهم من دونه لا قدرة لهم على فعل شيء ، وأنه وحده جل وعلا الذي يبدأ الخلق ثم يعيده بالإحياء مرة أخرى ، وأنه يهدي من يشاء ... »^(٢) .

وذكر عند قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ... ﴾^(٣) قوله :

« ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أن المعبودات من دونه لا تقدر أن تكشف ضرراً أراد الله به أحداً ، أو تمسك رحمةً أراد بها أحداً ، جاء موضحاً في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون ﴾^(٤) .

والمعنى : أن هؤلاء المدعويين من دون الله لا يقدرون على فعل شيء من جلب نفع أو دفع ضرر ، وإنما ذلك لله وحده ، فمن سألها أو طلبها من غيره تعالى فلن يتحقق له سؤاله مع ما في ذلك من الشرك الأكبر .

١٨— ولذا أوضح محمد المكي ما يندرج تحت وصف المشرك بقوله :

« كل من نسب الضر والنفع والعطاء والمنع إلى غير الله ، وكل من علق أمله ورجاءه على المخلوق لا على الخالق »^(٥) .

١٩— وأكد هذا المعنى عند قوله تعالى : ﴿ يا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة

(١) سورة يونس : ٣٤ .

(٢) أضواء البيان (٢/٤٨٢) .

(٣) سورة الأحقاف : ٤ .

(٤) سورة الشعراء : ٧٢-٧٣ .

(٥) التيسير (٣/٢١٢) .

وتدعونني إلى النار ... ﴿١﴾ بقوله :

« ... أن ما يدعونه ويعبدونه من دون الله لا يضر ولا ينفع ، وأن التعلق بغير الله محض ضلال وخبال » ﴿٢﴾ .

وعلى هذا فإن هذا الفعل القبيح - الذي هو الشرك بدعاء غير الله تعالى - لو وقع من أكرم الخلق فإنه متوعد ، فكيف بمن دونه ؟!

٢٠- وهو ما نبه عليه ابن عاشور عند قوله تعالى : ﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين ﴾ ﴿٣﴾ فقال :

« والمقصود من هذا الغرض تنبيه الناس على فظاعة هذا الفعل ، حتى لو فعله أشرف المخلوقين لكان من الظالمين ، على حد قوله تعالى : ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ ﴿٤﴾ » ﴿٥﴾ .

٢١- وعند هذه الآية نفسها ذكر ابن عطية أيضاً أن « هذا الأمر والمخاطبة للنبي ﷺ إذا كانت هكذا ، فأحرى أن يتحرز من ذلك غيره » ﴿٦﴾ .

٢٢- ونقل المليي ما ذكره القرافي عن مالك وجماعة من العلماء كراهة الانتصاب^(٧) للدعاء من أئمة المساجد وغيرهم ، وعلل الكراهة بتوقع فساد القلوب وحصول الكبر والخيلاء ، ومعلوم أنه إذا تحقق ذلك المتوقع كان الانتصاب محرماً ، وقد يفضي المنتصب أو غيره إلى الشرك باعتقاد أنه واسطة بين الخلق والحق في قضاء

(١) سورة غافر : ٤١ .

(٢) التيسير (٤٠٥/٥) .

(٣) سورة يونس : ١٠٦ .

(٤) سورة الزمر : ٦٥ .

(٥) التحرير والتنوير (٣٠٥/١١) .

(٦) المحرر (٢٢٩/٧) .

(٧) بين المليي معنى الانتصاب بقوله : « قد وجد في عصرنا من الطرقيين والمرابطين من ينتصب للدعاء ويصرح بكونه واسطة بين الله وخلقه في جلب المحبوب ودفع المكروه » . انظر رسالة الشرك (١٩١) .

الحاجات واستدرار الخيرات^(١) .

ومراده أن ما وقع منهم من اتخاذ وسائط بينهم وبين الله قد يفضي إلى دعائهم من دون الله أو مع الله ، وهو الشرك الأكبر .

ومما تقدم يعلم أن المالكية قد حذروا من هذا الشرك ، وذلك لقبحه وشناعته ، وما يحصل بسببه من الظلم العظيم والجرم الكبير ، من دعاء غير الله ﷻ ، ورفع في مقام لا يليق إلا بالله تعالى ، ومن ثم طلب النفع ودفع الضر منه ، وهو الشرك بعينه عياداً بالله .

(١) انظر : رسالة الشرك (١٩١) ، والفروق (٣٠٠/٤) . ط . عالم الكتب .

المسألة الثانية : شرك الطاعة

لا شك أن الغاية التي خلق الله لأجلها الخلق طاعته تعالى ، فإذا ما أقدم العبد على طاعة مخلوق في معصية الله تعالى فقد ولج في الشرك^(١) ، كما قال تعالى : ﴿ اتخذوا أحابارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾^(٢) .

وفي الحديث : أن النبي ﷺ تلا هذه الآية على عدي بن حاتم الطائي ، فقال : يا رسول الله ! لسنا نعبدهم . قال : « أليس يحلون لكم ما حرم الله فتحلون ، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ » . قال : بلى . قال النبي ﷺ : « فترك عبادتهم »^(٣) .

وقد فسّر النبي ﷺ فيه اتخاذ الأخبار والرهبان أرباباً من دون الله بأنه ليس معناه عبادتهم ، وإنما معناه طاعتهم في تغيير أحكام الله وتبديل شريعته ، وتلك عبادتهم من دون الله ، وهو من الشرك الأكبر ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإن لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾^(٤) .

وقد بين أئمة المالكية هذا المعنى ، ودارت عبارتهم حوله .

١— وفي ذلك يقول محمد الأمين - مصرحاً بهذا النوع من الشرك - عند قوله

(١) وهذا يبينه ما بعده كما في حديث عدي بن حاتم ﷺ .

(٢) سورة التوبة : ٣١ .

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥) ، وابن جرير (٣٥٤/٦) ، والبيهقي (١١٦/١٠) عن عدي بن حاتم . قال الترمذي : " حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالسلام بن حرب ، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث " . والحديث حسنه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي (٢٤٧/٣) .

(٤) سورة الأنعام : ١٢١ .

تعالى : ﴿ لا تعبد الشيطان ﴾^(١) :

« ومعنى عبادته للشيطان في قوله : ﴿ لا تعبد الشيطان ﴾ طاعته للشيطان في الكفر والمعاصي ، فذلك الشرك شرك طاعة ، كما قال تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾^(٢) »^(٣) .

٢— وفسر ابن عطية قوله تعالى : ﴿ بل كانوا يعبدون الجن .. ﴾^(٤) بقوله :

« عبادة البشر للجن هي فيما نعرفه نحن : طاعتهم إياهم وسماعهم من وسوستهم وإغوائهم ، فهذا نوع من العبادة »^(٥) .

٣— وعلى هذا بين معنى عبادة الشيطان في قوله تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾^(٦) فقال :

« وعبادة الشيطان : طاعته والانقياد لأعدائه »^(٧) .

ومرادهم أنهم أشركوا في طاعة الله تعالى غيره ، وبذلك عبدوهم .

٤— يبين هذا المعنى ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾^(٨) بقوله :

« ثم هي الله تعالى عن طاعتهم بلفظ يتضمن الوعيد ، وعرض أصعب مثال في

(١) سورة مريم : ٤٤ .

(٢) سورة يس : ٦٠ .

(٣) أضواء البيان (٢٨٦/٤) .

(٤) سورة سبأ : ٤١ .

(٥) المحرر الوجيز (١٩٨/١٢) .

(٦) سورة يس : ٦٠-٦١ .

(٧) المحرر الوجيز (٣١٥/١٢) .

(٨) سورة الأنعام : ١٢١ .

أن يشبه المؤمن بالمشرك»^(١) .

والمعنى أن المشركين أطاعوا الشياطين فيما يوحونه إليهم ويأمرؤهم به من الشرك بالله تعالى ، وهكذا إذا فعل فعلهم أهل الإيمان وتشبهوا بهم فإنهم يشركون بالله تعالى .

٥— ولذا قال ابن عاشور عند هذه الآية ﴿ وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ :

« ... وتأكد الخبر بأن لتحقيق التحاقهم بالمشركين إذا أطاعوا الشياطين ، وإن لم يدعوا لله شركاء»^(٢) .

٦— وعند قول الله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ قال ابن عطية :

« سماهم أرباباً وهم لا يعبدونهم ، ولكن حيث تلقوا الحلال والحرام من جهتهم وهو أمر لا يتلقى إلا من جهة الله ﷻ » . ثم ذكر قصة عدي بن حاتم ، ثم قال - مؤكداً خطورة هذا العمل - : « والغير يقول : إن اتخاذ هؤلاء الأرباب ضرب من الإشرak»^(٣) .

٧— وهو ما أشار إليه ابن العربي عند هذه الآية : ﴿ .. اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ... ﴾ وذلك بإيراده ما رواه الترمذي وغيره عن عدي ابن حاتم قال : أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب ، فقال : « ما هذا يا عدي ؟ اطرَحْ عنك هذا الوثن » . وسمعتَه يقرأ في سورة براءة : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ . قال : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه . ثم قال :

(١) المحرر الوجيز (٣٣٥/٥) .

(٢) التحرير والتنوير (٤٢/٥) .

(٣) المحرر الوجيز (٤٦٨/٦) .

« وفيه دليل على أن التحريم والتحليل لله وحده ، وهذا مثل قوله : ﴿ ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ﴾ ، بل يجعلون التحريم لغيره »^(١) .

٨— وأورد الشاطبي حديث عدي بن حاتم وقول حذيفة : « أما إنهم لم يصلوا لهم ، ولكنهم كانوا ما أحلوا لهم من حرام استحلوه ، وما حرموا عليهم من حلال حرموه ، فتلك ربوبيتهم »^(٢) ؛ مما يبين أن طاعة أولئك عبادة لهم وشرك بالله تعالى .

٩— وهذا المعنى ذكره القرطبي عند تفسيره للآية نفسها : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً .. ﴾ بقوله :

« قال أهل المعاني : جعلوا أحبارهم ورهبانهم كالأرباب حيث أطاعوهم في كل شيء »^(٣) .

١٠— وصرح بأن هذا الفعل شرك بالله ﷻ عند تفسيره قول الله : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ فقال : « دلت الآية على أن من استحل شيئاً مما حرم الله تعالى صار به مشركاً ، وقد حرم الله الميتة ، فإذا قبل تحليلها من غيره فقد أشرك »^(٤) .

١١— وعند قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي ذكره الله تعالى في محاورته لأبيه : ﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان ﴾ قال القرطبي :

« أي : لا تطعه فيما يأمر بك به من الكفر ، ومن أطاع شيئاً في معصية فقد عبده »^(٥) . وذلك لأنه جعل لله شريكاً في طاعته .

١٢— وبين ابن جزى معنى اتخاذ الأحرار والرهبان أرباباً من دون الله بقوله :

(١) أحكام القرآن (٢/٤٨٥) .

(٢) انظر الاعتصام (٢/٣٥٤) .

(٣) تفسير القرطبي (٨/١٢٠) .

(٤) تفسير القرطبي (٧/٧٧) .

(٥) تفسير القرطبي (١١/١١١) .

« أي أطاعوهم كما يطاع الرب ، وإن كانوا لم يعبدوهم »^(١) .

أي أنهم أطاعوهم في أمر التشريع الذي هو لله وحده ، وبهذا أشركوا بتلك الطاعة .

١٣ — وذكر ابن عاشور أن هذا ما فعله اليهود والنصارى ، حيث « كانوا يعتقدون أن أبحارهم ورهبانهم يحللون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله .. » . ثم أورد قصة عدي ومراجعته للنبي ﷺ بقوله : لسنا نعبدهم ، فقال : « أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحرمون ما أحل الله فتستحلونه ؟ » . فقلت : بلى . قال : « فتلك عبادتهم » . فحصل من مجموع أقوال اليهود والنصارى أنهم جعلوا لبعض أبحارهم ورهبانهم مرتبة الربوبية في اعتقادهم ، فكانت الشناعة لازمة للأمتين »^(٢) .

أي أن هؤلاء لما تركوا شرع الله ، واستبدلوا بذلك طاعة الأبحار والرهبان ، كانوا بتلك الطاعة عابدين لهم من دون الله .

١٤ — ولهذا بين محمد المكي أن « السلطة الإلهية العليا هي وحدها التي لها صلاحية الحكم بتحليل ما هو حلال ، وتحريم ما هو حرام ، وأن القول الأول والأخير في هذا الشأن مرجعه إلى الله لا إلى هوى الإنسان » ألا له الخلق والأمر »^(٣) .

١٥ — وعليه ؛ فقد نبه على أن الطاعة تكون لله وحده دون سواه ، فعند قوله : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾^(٤) قال :

(١) التسهيل (١٣٥/٢) .

(٢) التحرير والتنوير (١٧٠/٦) .

(٣) التيسير (٣٦٤/٤) .

(٤) سورة سبأ : ٤٠-٤١ .

« أي أنت ربنا الذي نتولاه وحده بالعبادة ، ونخلص له الطاعة ، لا نتولى غيرك ولا نعبد سواك »^(١) .

١٦ — ثم ذكر حال صنف من الناس يتسابقون « إلى الطاعة العمياء لمن يشركونهم بالله من السادة والكبراء ، وإن كان في رضاهم سخط الله ، وفي الاعتماد عليهم شرك بالله ... » . ثم أكد هذا المعنى بقوله : « وإلى هذا الموقف الذي يقفه ضعفاء الإيمان في وقفته الخاسرة ينظر قوله تعالى : ﴿ وجعل لله أندادًا ليضل عن سبيله ... ﴾^(٢) ، بينما المتحررون من ربة الشرك الظاهر والخفي ، ومن كل عبودية لغير الله جاءتهم البشرية من الحق ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأناثوا إلى الله لهم البشرية فبشر عباد ﴾^(٣) »^(٤) .

وبهذا الذي سبق يتبين أن المالكية يرون أن الطاعة تكون لله وحده ، ومن أطاع مخلوقًا في أمر التشريع فقد وقع في الشرك الأكبر ، وذلك لأن الطاعة فيه لا تكون إلا لله تعالى وحده .

(١) التيسير (٢٧٤/٥) .

(٢) سورة الزمر : ٨ .

(٣) سورة الزمر : ١٧ .

(٤) التيسير (٣٤٨/٥) .

المسألة الثالثة : شرك السُّجود

تقدم في الكلام على العبادة أنها حق الله تعالى وحده ، ومن ذلك السجود ، إذ هو من أعظم العبادات ، فلا يكون العبد في حال أقرب ما يكون إلى الله كما في السجود ، ولذا كان في التقرب إلى غير الله ﷻ بالسجود من الشرك ما ينتقض معه الإسلام ويزول به الإيمان .

١- ولا غرو ؛ « فإن السجود معارج القرب ومدارج رفعة الدرجات . قال الله تعالى : ﴿ واسجد واقترب ﴾ ^(١) ، وقال ﷺ في الحديث الآخر : « لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة » ^(٢) . ولأن السجود غايته التواضع لله والعبودية له ، وتمكين أعز عضو في الإنسان وأرفعه - وهو وجهه - من أدنى الأشياء وأخسها ، وهو التراب والأرض المدوسة بالأرجل والنعال » ^(٣) ؛ فلا يكون لغير الله ﷻ .

وحيث إن متقدمي المالكية كغيرهم من أهل العلم لم يكونوا يتصورون وقوع السجود لغير الله من مسلم ، فقد كان حديثهم عن السجود هو حديث عن سجود المشركين ^(٤) .

ومن هنا فقد اختار مالك أن لا يسجد أحد مطلقاً لله تعالى في وقت النهي ، حتى وإن كان سجود تلاوة ؛ خشية التشبه بالمشركين ، وذلك من باب الحرص أن لا يقع السجود لغير الله .

(١) سورة العلق : ١٩ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة ، باب فضل السجود (٣٥٣/١) برقم (٤٨٨) .

(٣) من كلام القاضي عياض يصف فضل السجود . إكمال المعلم (٤٠٣/٣) .

(٤) قال ابن عبد البر : « وقالوا : أراد بذكره ﷺ قرن الشيطان أمة تعبد الشمس وتسجد لها وتصلي في حين طلوعها وغروبها من دون الله » . التمهيد (١١/٤) .

٢- قال مالك :

« لا ينبغي لأحد يقرأ من سجود القرآن شيئاً بعد صلاة الصبح ولا بعد صلاة العصر ، وذلك أن رسول الله ﷺ نهي عن الصلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس ، وعن الصلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس ، والسجدة من الصلاة فلا ينبغي لأحد أن يقرأ سجدة في تينك الساعتين »^(١) .

٣- ونحو من قول مالك هذا قول الباقي ، حيث ذكر عند هذا الأثر قوله :

« وهذا يقتضي المنع من السجود في ذلك الوقت »^(٢) .

٤- وكذا ابن عبد البر حيث عقب على قول مالك بقوله :

« قول صحيح ، وحجة واضحة »^(٣) .

٥- وكذلك ابن أبي زيد اختار قول مالك ، فقال :

« ويسجدها من قرأها بعد الصبح ما لم يسفر ، وبعد العصر ما لم تصفر الشمس »^(٤) .

٦- ونقل القاضي عياض الإجماع على أن السجود لغير الله تعالى لا يقع من مسلم ، فقال :

« وكذلك نكفر بكل فعل أجمع المسلمون أنه لا يصدر [إلا]^(٥) من كافر ، وإن كان صاحبه مصرحاً بالإسلام مع فعله ذلك الفعل ، كالسجود للصنم ،

(١) الموطأ (١/١٨٢) .

(٢) المنتقى (١/٢٥٢) .

(٣) الاستذكار (٨/١٠٩) .

(٤) الرسالة (٦٠) .

(٥) ما بين المعكوفين غير موجود في النص ، وهي زيادة يقتضيها السياق .

وللشمس والقمر ، والصليب والنار»^(١) .

٧— ونقل هذا الإجماع أيضًا أبو بكر الباقلاني^(٢) .

فنقلهم لهذا الإجماع يبين الوجهة السائدة عندهم من أن السجود لغير الله تعالى لا يتصور وقوعه من مسلم يؤمن بالله .

٨— قال ابن عبد البر - في شرح حديث : « قاتل الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » - :

« في هذا الحديث تحريم السجود على قبور الأنبياء ، وفي معنى هذا أنه لا يحل السجود لغير الله ﷻ ... »^(٣) .

فنصّ على منع السجود لغير الله ﷻ .

٩— بل إنه صرّح رحمه الله بأن السجود لغير الله تعالى هو الشرك الأكبر ، فقال - في شرح حديث : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد »^(٤) - :

« ... وكان يحذر أصحابه وسائر أمته من سوء صنيع الأمم قبله ، الذين يصلون إلى قبور أنبيائهم واتخذوها قبلةً ومسجدًا ، كما صنعت الوثنية بالأوثان التي كانوا يسجدون لها ويعظمونها ، وذلك الشرك الأكبر .. »^(٥) .

١٠— وقد قرر القرافي أن « الكفر هو انتهاك خاص لحرمة الربوبية ؛ بالجهل بوجوده أو صفاته ، أو بفعلٍ كرمي المصحف في القاذورات والسجود للصنم »^(٦) .

(١) الشفا (١٠٧٢/٢) .

(٢) انظر الشفا (١٠٨٠/٢) .

(٣) التمهيد (٢٨٣/٦) .

(٤) سبق تخريجه ص ٣٨٠ .

(٥) التمهيد (٤٥/٥) .

(٦) الذخيرة (٢٨/١٢) .

١١ — وأبطل القرطبي أبو عبد الله ما يفعله بعض جهلة المتصوفة من السجود على أقدام مشايخهم ، مبيّناً سوء صنيعهم وقبح فعلهم ، فبعد إيراد حديث معاذ الذي رواه ابن ماجه في سننه عن أبي واقد قال : لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « ما هذا ؟ ! » . فقال : يا رسول الله ! قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم^(١) وأساقفتهم^(٢) ، فأردت أن أفعل ذلك بك . قال : « فلا تفعل ؛ فإني لو أمرت شيئاً أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ... »^(٣) — قال القرطبي :

« وهذا السجود المنهي عنه قد اتخذته جهال المتصوفة عادةً في سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم ، فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحال بزعمه يسجد للأقدام لجهله ، سواء أكان للقبلة أم غيرها ، جهالةً منه ضل سعيهم وخاب عملهم »^(٤) .

فحكم على عمل هؤلاء الذين سجدوا لغير الله تعالى بالخيبة والخسران وذلك بسبب ارتكاب الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾^(٥) .

١٢ — وجعل هذا السجود للصنم هو أحد المعاني المرادة بشهادة المشركين على

(١) قال ابن الأثير : البطارقة جمع بطريق ، وهو الخاذق بالحرب وأمورها بلغة الروم ، وهو ذو منصب وتقدّم عندهم . النهاية (١/١٣٥) .

(٢) الأسقف : هو القس ، وهو رئيس من رؤساء النصارى في الدين والعلم . وقس بن ساعدة الإيادي : أسقف نجران ، وكان أحد حكماء العرب . انظر : الصحاح للجوهري (٣/٩٦٣) .

(٣) أخرجه ابن ماجه برقم (١٨٥٣) ، والهيتمي في مجمع الزوائد (٤/٣٠٧-٣١١) . وفي الباب عن أبي هريرة ، وسراقة ، وعائشة ، وابن عباس ، وطلق بن علي ، وأم سلمة ، وابن عمر ، وأنس . وهو عند الترمذي (١١٥٩) ، وابن حبان (٤١٦٢) ، والبيهقي (٧/٢٩١) ، ومسنند أحمد (٣/١٥٩) . وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١/٥٩٣) . وقال الأرناؤوط : صحيح لغيره . المسند (٣/١٥٩) .

(٤) تفسير القرطبي (١/٢٩٣) .

(٥) سورة الزمر : ٦٥ .

أنفسهم بالكفر في قوله تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾^(١) ، فقال :

« قال ابن عباس : شهدا قهم على أنفسهم بالكفر سجودهم لأصنامهم »^(٢) .

١٣ — ونظيره أيضًا ما ذكره ابن عاشور عند نفس الآية بقوله :

« وشهدا قهم على أنفسهم بالكفر حاصلة في كثير من أقوالهم وأعمالهم ، بحيث لا يستطيعون إنكار ذلك ، مثل قولهم في التلبية : " لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك " . ومثل سجودهم للأصنام ، وطوافهم بها ، ووضعهم إياها في جوف الكعبة وحولها وعلى سطحها »^(٣) .

فعدد مظاهر الشرك الذي ارتكبه هؤلاء ، ومن ذلك السجود للأصنام . إذ السجود لا يكون إلا لله تعالى وحده دون سواه .

١٤ — وهو ما أوضحه عند آية الأعراف ﴿ ويسبحونه وله يسجدون ﴾^(٤)

بقوله :

« للدلالة على الاختصاص ؛ أي : لا يسجدون لغيره »^(٥) . إذ هو المستحق

للسجود وحده دون سائر المخلوقات ، إذ هي مربوبة مدبرة .

١٥ — وهو ما أشار إليه ابن عطية عند قوله تعالى : ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا

للنمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾^(٦) بقوله :

« لا تسجدوا لهذه المخلوقات وإن كانت تنفعكم ؛ لأن النفع بها إنما هو بتسخير

الله تعالى إياها ، فهو الذي ينبغي أن يسجد له »^(٧) .

(١) سورة التوبة : ١٧ .

(٢) تفسير القرطبي (٨/٨٩) .

(٣) التحرير والتنوير (١٠/١٤٠) .

(٤) سورة الأعراف : ٢٠٦ .

(٥) التحرير والتنوير (٩/٢٤٤) .

(٦) سورة فصلت : ٣٧ .

(٧) المحرر الوجيز (١٣/١١٧) .

١٦ — ومن هنا بين ابن رشد أنه من لم يسجد لله وحده فقد تنكب الصراط ، كحال المشركين الكفرة ، فقال :

« فإن استكبر الكفار عن السجود لله ، فالذين عنده لا يستكبرون عن ذلك »^(١).

١٧ — وذكر محمد الأمين هذا المعنى الذي ذكره ابن رشد عند قوله تعالى : ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ * فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ : « أي : فإن تكبر الكفار عن توحيد الله والسجود له وحده وإخلاص العبادة له ، فالذين عند ربك - وهم الملائكة - يسبحون له بالليل ، أي : يعبدونه وينزهونه دائماً ليلاً ونهاراً ، وهم لا يسأمون ... »^(٢).

١٨ — ونبه ابن العربي على أن السجود الذي وقع لـ يوسف سجود تحية لا سجود عبادة ، مبيناً أن ذلك قد نسخ في شرعنا ، فلم يبق إلا السجود لله تعالى ، فقال - فيما نقله عن العلماء عند قوله تعالى : ﴿ ورفع أبويه على العرش وخروا له سُجَّدًا .. ﴾^(٣) - :

« كان هذا سجود تحية لا سجود عبادة ، وهكذا كان سلامهم بالتكبير والانحناء ، وقد نسخ في شرعنا ذلك »^(٤) ^(٥).

(١) المقدمات الممهدة (١/١٩٢) .

(٢) أضواء البيان (٧/١٣٨) .

(٣) سورة يوسف : ١٠٠ .

(٤) مجمل ما ذكره المفسرون من المالكية عن هذا السجود أنه سجود تحية لا عبادة . قال ابن عطية : « أجمع المفسرون أن ذلك السجود على أي هيئة كان فإنما كان تحية لا عبادة » . التحرير (٨/٨٠) . وانظر تفسير القرطبي (٩/٢٦٥) .

وبعضهم يذكر أنه انحناء الإجلال والتوقير لا السجود المعهود في عبادة الله . انظر : أحكام القرآن لابن العربي (٣/٧٧) . وانظر التيسير (٣/٢٠٤) .

وهذا السجود وإن كان يجوز في شرع من قبلنا إلا أنه لا يجوز في شريعتنا ، حتى وإن كان سجود تحية وإكرام ، وأما سجود العبادة فإنه شرك في كل الشرائع السماوية ؛ لأنه حق خالص لله تعالى وحده . (٥) أحكام القرآن (٣/٧٧) .

١٩— وصرح بأن أول ما عبدت الشمس كان بالسجود لها ، فقد ذكر ((أن سبأ دوخ الأرض بأجناده شرقاً وغرباً ، سهلاً وجبلاً ، وقتل وأسر ، وبه سمي سبأ ، ودان له الخلق ، فلما قال ذلك انفرد عن أصحابه ثلاثة أيام ، ثم خرج عليهم فقال : إني لما نلت ما لم ينل أحد رأيت الابتداء بشكر هذه النعم ، فلم أر أوقع في ذلك من السجود للشمس إذا أشرقت . فسجدوا لها ، فكان ذلك أول عبادة الشمس ، فهذه عاقبة الكبر والخيلاء والمرح))^(١) .

٢٠— وقد أوضح محمد المكي أن السجود والعبادة لا تكون إلا لله وحده ، فعند قوله تعالى : ﴿ وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾^(٢) قال - حكاية عن الهدهد - : ((... ثم عقب على ذلك مستنكراً ما وجد عليه أهل سبأ من عبادة الشمس والسجود لها ، بدلاً من عبادة الله والسجود له))^(٣) . والمعنى أن من سجد لشيء فقد اتخذ لله شريكاً في عبادته ، إذ إن العبادة والسجود حق الله وحده .

٢١— لذا فقد بين عlish أن الرّدّة كما تقع بالقول فهي تقع أيضاً بالفعل ، ((كلبس الزنار^(٤) ، وإلقاء المصحف في صريح النجاسة ، والسجود للصنم ، ونحو ذلك))^(٥) .

٢٢-٢٣— وقد قال بذلك الخطاب^(٦) ، والأزهري^(٧) .

(١) أحكام القرآن (٢٠٣/٣) .

(٢) سورة النمل : ٢٤ .

(٣) التيسير (٤٢٤/٤) .

(٤) قال في القاموس : زنره : ملأه ، والرجل : ألبسه الزنار ، وهو على ما وسط النصراني والمجوس كالزناره والزنانير كقبيط من تزنر الشيء : دق . انظر : ترتيب القاموس المحيط (٤٨٢/٢) .

(٥) منح الجليل (٢٠٦/٩) . وهذه الأفعال لا شك أنها من الردة والعياذ بالله ، ولكن يستثنى من لبس الزنار جاهلاً فإنه لا يكفر بذلك ، والله أعلم .

(٦) انظر مواهب الجليل (٣٧١/٨) .

(٧) انظر جواهر الإكليل (٢٧٨/٢) .

فعدّوا السجود للصنم ردّةً عن الإسلام ، وذلك أن السجود لله تعالى له مكانة عظيمة ، ومنزلة رفيعة ، ومن ثم فصرفه لغير الله تعالى شرك لا شك فيه^(١) .
وهذا الذي سبق يتضح جهود المالكية في بيان هذا النوع من الشرك ، إذ إنّ نصوصهم ظاهرة في بيان هذا المعنى والتحذير منه ، كما في ذكرهم بعض الأفعال التي تقع بها الردّة ، ومنها السجود لغير الله تعالى ، والله أعلم .

(١) وقد جعل بعض المالكية الامتناع عن السجود - الذي هو من أعمال الصلاة - ردّةً ، وبعضهم حكم بقتل من امتنع عن ذلك . قال النفراوي : « من ترك الصلاة المفروضة جحدًا لها أو لشيء من أركانها - كركوعها أو سجودها أو نحوها - فهو كالمرتد » . الفواكه الدواني (٢/٢٧٦) .
وقال العدوي : « حكم من قال : لا أتوضأ ولا أغتسل من جنابة ، أو لا أستر عورتي في الصلاة ، أو لا أركع لها ، أو لا أسجد كسلاً حكم تاركها ... » . حاشية العدوي (٢/٤١١) .

المسألة الرابعة : شرك الذبح

لما كان الذبح عبادةً عظيمةً يتقرب بها إلى الله جلّ وعلا ، فإنّ من ذبح لغير الله ﷻ فقد أشرك في تلك العبادة الشرك الأكبر المخرج عن الملة ، كما قال تعالى : ﴿ فصلّ لربّك وانحر ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين * لا شريك له .. ﴾^(١) .

وقد بيّن أئمة المالكية هذا المعنى ، وإن كان المتقدمون منهم لم يكن هذا المظهر الشركي موجوداً في زمنهم ، إلّا أنّهم حذّروا منه خشية وقوعه مستقبلاً ، كما سلف ذكره .

١— ومن ذلك أنّ الإمام مالكا رحمه الله امتنع أن يذكر اسم النبي ﷺ عند الذبح^(٢) ؛ مبيناً « أنّ تلك الذبيحة التي يصلى على النبي ﷺ عندها مما أهلّ به لغير الله »^(٣) .

٢— وهذا المعنى هو الذي أراده ابن القاسم بقوله :

« وذلك موضع لا يذكر هنا إلا اسم الله وحده »^(٤) .

٣— ونقل القاضي عياض على سبيل الإقرار ما ذكره أصبغ عن ابن القاسم قال :

« موطنان لا يذكر فيهما إلّا الله : الذبيحة والعطاس ، فلا تقل بعد ذكر الله :

(١) سورة الأنعام : ١٦٢-١٦٣ .

(٢) انظر الأم للشافعي (٢/٢٤٠) .

(٣) انظر الحاوي للماوردي (١٥/٩٦) .

(٤) المدونة (٢/٦٦) .

محمد رسول الله»^(١) .

٤— وأكد القرطبي هذا المعنى فيما نقله عن علماء المالكية وغيرهم بقوله :

« وكره كافة العلماء من أصحابنا وغيرهم الصلاة على النبي ﷺ عند التسمية في الذبح ، وقالوا : لا يذكر هنا إلا الله وحده »^(٢) .

٥— وبنحوه ما ذكره القرافي ، فقد ذكر ما يفعله الذابح من التسمية والتكبير ، ثم قال :

« وليس موضع الصلاة على النبي ﷺ »^(٣) .

فالذي جعلهم يكرهون الصلاة على النبي ﷺ عند الذبح خشية التشريك في هذه العبادة العظيمة ، وحرصهم على أن تكون خالصة لله تعالى ، مع أن الصلاة على النبي ﷺ عبادة وقربة ، إلا أنه لما خيف الالتباس في الإهلال منعوا من الصلاة على النبي ﷺ في هذا الموضع .

٦— ومن هنا فقد جعل الإمام مالك المهمل لغير الله هو الذابح للأنصاب ونحوها ، وعدّه فسقاً ، فلا يذبح إلا لله وحده ، فقال :

« قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ﴾^(٤) ... والفسوق الذبح للأنصاب ، والله أعلم ، قال تبارك وتعالى : ﴿ أو فسقاً أهل لغير الله به ﴾^(٥) »^(٦) .

(١) الصلاة على النبي ﷺ ومعانيها وأحكامها وفضائلها للقاضي عياض (٣٠) . ط. المختار الإسلامي - مصر .

(٢) المفهم (٣٦٣/٥) .

(٣) الذخيرة (١٣٥/٤) .

(٤) سورة البقرة : ١٩٧ .

(٥) سورة الأنعام : ١٤٥ .

(٦) الموطأ (٣٨٩/١) .

٧— قال ابن بطال - في معنى التكبير - :

« لأنه تصل الذبائح لله تعالى حتى لا يذكر في أيام الذبح غيره ، ومعنى اشتراط التسمية على الذبح لئلا يذكر غيره ويعلن بذكره حتى تنسى عبادة الجاهلية »^(١) .

فبين أن ذكر غير اسم الله تعالى على الذبيحة هو من عبادة الجاهلية الذين أشركوا بالله تعالى ، وأهل الإسلام على الضد من ذلك ، فلا يذبحون إلا لله تعالى وحده وعلى اسمه .

٨— وبين محمد الأمين أن من ذبح لغير الله كائنًا من كان فقد جعله معبودًا له من دون الله ، فقال :

« ... فمن صرف شيئًا من ذلك لغير الله فقد جعله شريكًا مع الله في هذه العبادة التي هي الذبح ، سواء كان نبيًا أو ملكًا أو بناءً أو شجرًا أو حجرًا ، أو غير ذلك ، لا فرق في ذلك بين صالح أو طالح ، كما نص عليه قوله تعالى : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾^(٢) »^(٣) .

٩— ومن عنايته بهذه العبادة العظيمة أن تصرف لغير الله تعالى فقد ردّ قول من فرق بين ما ذبحه أهل الكتاب لصنم ، وبين ما ذبحوه لعيسى أو واحد من الملائكة ، حيث جعلوا الأول محرّمًا والآخر مكروهًا ، فقال : « إن هذا الفرق باطل بشهادة القرآن ؛ لأن الذبح على وجه القرية عبادة بالإجماع ، وقد قال تعالى : ﴿ فصلّ لربك وانحر ﴾^(٤) ، وقال تعالى : ﴿ قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي

(١) شرح البخاري (٥٦٤/٢) .

(٢) سورة آل عمران : ٨٠ .

(٣) دفع إيهام الاضطراب الملحق بأضواء البيان (١٠٤/١٠) .

(٤) سورة الكوثر : ٢ .

ومما تي الله ﴿^(١)﴾ .

ثم استشهد بقوله تعالى : ﴿ وما أهل به لغير الله ﴾^(٢) ، فقال :

« وقوله : ﴿ لغير الله ﴾ يدخل فيه الملك والني ، كما يدخل فيه الصنم والنصب والشیطان ، وقد وافقونا في منع ما ذبحوه باسم الصنم ، وقد دلّ الدليل على أنه لا فرق في ذلك بين النبي والملك وبين الصنم والنصب ، فلزمهم القول بالمنع ، وأما استدلالهم بقوله : ﴿ وما ذبح على النصب ﴾^(٣) فلا دليل فيه ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ وما ذبح على النصب ﴾ ليس بمخصص لقوله ﴿ وما أهل به لغير الله ﴾ ؛ لأنه ذكر فيه بعض ما دل عليه عموم ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾^(٤) .

١٠ — ولهذا فإن الإمام مالكا رحمه الله منع من ذبائح أهل الكتاب المخصصة لعبيدهم وأنصابتهم ، فعند قوله تعالى : ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾^(٥) قال مالك :

« تؤكل ذبائحهم المطلقة ، إلا ما ذبحوا يوم عيدهم لأنصابتهم ﴾^(٦) .

١١ — ولما كان هذا الذبح منهم لغير الله شركاً ، فإن مشاركتهم في ذلك إقرار لهم وتأيد على هذا الشرك ، ولذا قال ابن حبيب :

« في أكل ما ذبح لأعيادهم وكنائسهم تعظيم لشركهم ﴾^(٧) .

فمنع من الأكل مما ذبحوه لغير الله ، وذلك ليعلموا سوء فعلهم وقبح صنيعهم بهذا

(١) سورة الأنعام : ١٦٢ .

(٢) سورة المائدة : ٣ .

(٣) سورة المائدة : ٣ .

(٤) دفع إيهام الاضطراب الملحق بأضواء البيان (١/١٠٤-١٠٥) .

(٥) سورة المائدة : ٦ .

(٦) الإمام مالك مفسراً (١٦٩) ، وأحكام القرآن (٢/٥٥٤) .

(٧) المنتقى (٣/١١٢) .

١٢ — وأقر ابن عبد البر مقالة مالك في ذلك فقال :

« وكره مالك ما صنعه الكفار لأعيادهم من الطعام ، وخشي أن يكون مما أهل به لغير الله »^(١) .

فلم ير الإمام مالك حل ذبائحهم ، وذلك لأنها ذبحت لمعبوداتهم ، ولا ريب أن هذا الفعل شرك بالله تعالى .

١٣ — ولأجل هذا فقد ذكر ابن رشد رواية ابن القاسم عن مالك كراهيته ما ذبحه أهل الكتاب لكنائسهم وأعيادهم ؛ لأنه رآه مضاهياً لقول الله ﷻ : ﴿ أَوْ فَسَقًا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾^(٢) ، ثم قال :

« لأن الآية معناها عنده فيما ذبحوا لآلهتهم مما لا يأكلون »^(٣) .

والمعنى أن ما ذبحوه إنما هو لمعبودهم وليس لله تعالى المستحق للعبادة وحده .

١٤ — وعند قول الله : ﴿ وَمَا أَهْلَ بِهِ لَغَيْرِ اللَّهِ ﴾ ذكر ابن عطية أثراً عن ابن عباس أن المراد ما ذبح للأنصاب والأوثان ، ثم قال :

« ألا ترى أن علي بن أبي طالب راعى النية في الإبل التي نحرها غالب أبو الفرزدق ، فقال : إنها مما أهل به لغير الله ، فتركها الناس ... ورأيت في أخبار الحسن بن أبي الحسن أنه سئل عن امرأة مترفة صنعت للعبها عرساً ، فذبحت جزوراً ، فقال الحسن : لا يحل أكلها ؛ فإنها إنما ذبحت لصنم^(٤) »^(٥) .

(١) الكافي (١/٣٧٨) .

(٢) سورة الأنعام : ١٤٥ .

(٣) البيان والتحصيل (٣/٢٧٢) . وانظر : المدونة (٢/٥٦) ، والنوازل (٢/٣٢٣) .

(٤) الأثر أورده القرطبي في التفسير (٢/٢٢٤) .

(٥) المحرر الوجيز (٢/٧٠) .

فأنكر أن يذبح لغير الله وجعله شركاً .

١٥ — وأوضح أن الذبح إنما يكون لله تعالى وحده ، وعلى اسمه ؛ لأنه المتفضل بذلك ، فذكر عند قوله تعالى : ﴿ وذكروا اسم الله ﴾^(١) أن « معناه أمرناهم عند ذبائحهم بذكر الله ، أن يكون الذبح لله ؛ لأنه رازق ذلك ... » إلى أن قال : « فالإله واحد لجميعكم ، فكذلك الأمر في الذبيحة إنما ينبغي أن تخلص له »^(٢) .

١٦ — ونقل قول ابن عطية السابق القرطبي على سبيل الإقرار^(٣) .

١٧ — ولما كانت تلك القرايين هي من خلق الله ﷻ ، فإن التقرب بها إلى غيره شرك بالله تعالى ، وهو ما بينه ابن العربي عند قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ... ﴾^(٤) بقوله :

« أي : أظهر بالخلق والإيجاد من الحرث والأنعام نصيباً ، وجميعه له لا شريك معه في خلقه ، فكيف فعلوا له شريكاً في القربان به من الأوثان التي نصبوها للعبادة معه ... »^(٥) .

١٨ — وذكر وجهاً في تفسير قوله تعالى : ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾^(٦) نقله عن ثعلب بين فيه أن الذبح عبادة مختصة بالله تعالى وحده ، فقال :

« قال ثعلب : .. يقال للذبح نسك لأنه من جملة العبادات الخالصة لله ؛ لأنه لا

(١) سورة الحج : ٢٨ .

(٢) المحرر الوجيز (٢٧٨/١٠) .

(٣) انظر تفسير القرطبي (٢٢٤/٢) .

(٤) سورة الأنعام : ١٣٦ .

(٥) أحكام القرآن (٢٧٧/٢) .

(٦) سورة البقرة : ١٢٨ .

يذبح لغيره»^(١) .

وبهذا يتبين أن الذبح لغير الله هو فعل المشركين ، وأما أهل الإسلام فإنهم لا يذبحون إلاّ الله .

١٩ — كما ذكر ذلك القرطبي عند قول الله تعالى : ﴿ وما أهل به لغير الله ﴾ :

« أي : ذكر عليه اسم غير الله ، وهي ذبيحة المجوسي والوثني والمعطّل ، فالوثني يذبح للوثن ، والمجوسي للنار ، والمعطّل لا يعتقد شيئاً فيذبح لنفسه ، ولا خلاف بين العلماء أن ما ذبحه المجوسي لناره والوثني لوثنه لا يؤكل ... »^(٢) .

فجعل الذبح لغير الله تعالى صنيع أهل الشرك الذين يذبحون لمعبوداتهم ، وعلى هذا فذبح المسلم إنما يكون لمعبوده ، وهو الله وحده .

٢٠ — وقال القرطبي أبو العباس - مبيناً استحقاق اللعن لمن ذبح لغير الله تعالى ، سواء وقع هذا الفعل من مسلم أو كافر - :

« ... وأما لعن من ذبح لغير الله فإن كان كافراً يذبح للأصنام فلا خفاء بحاله ، وهي التي أهل بها لغير الله ، التي قال الله تعالى فيها : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾^(٣) ... وأما إن كان مسلماً فيتناوله عموم هذا اللعن ، ثم لا تحل ذبيحته »^(٤) .

فلم ير حلّ ذبيحة من أهل لغير الله تعالى ؛ لما في هذا العمل من الشرك المحقق .
وحيث إنّ من ذبح لأحد فإنه إنما يتقرب إلى من ذبح له ، فإن الذبح لغير الله تعالى محظور كل المحظور .

٢١ — ولهذا قال ابن جزى عن آية الحج : ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً لذكروا

(١) أحكام القرآن (٣/٢٩٠) .

(٢) تفسير القرطبي (٢/٢٢٣) .

(٣) سورة الأنعام : ١٢١ .

(٤) المفهم (٥/٢٤٤-٢٤٥) .

اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهمكم إليه واحد فله أسلموا ﴿١﴾ :

« ... إشارة إلى الذبائح ، أي : إلهكم إله واحد فلا تذبحوا تقرباً لغيره » ﴿٢﴾ .

فخص الذبح على وجه التقرب لله تعالى ، فلا يذبح لغيره كائنًا من كان ﴿٣﴾ .

٢٢ — ولذلك فإن الشاطبي عدّ من الأعمال التي هي مغايرة لمقصد الشرع ، وحكم ببطالها : الذبح لغير الله ، فهي كما يقول :

« وما كان من شأنه هذا نقض لإبرام الشارع وهدم لما بناه » ﴿٤﴾ .

ومرادُه أن هذا العمل (الذبح لغير الله) من الشرك الذي يناقض الإسلام .

٢٣ — وعلى هذا ذكر عlish أن من شروط حل الذبيحة « أن لا يذبحه لمعبود غير الله تعالى » ﴿٥﴾ .

فمن اتخذ معبودًا سوى الله ﷻ يذبح له فقد أشرك .

٢٤ — وبعد أن نقل الوزاني ما أورده النووي ﴿٦﴾ عن المروزي ﴿٧﴾ : ما يفعله بعض

(١) سورة الحج : ٣٤ .

(٢) التسهيل (٨٩/٣) .

(٣) فالذبح لا يجوز أن يكون إلا لله تعالى ، ولا معنى للتفريق بين من أراد بذبحه التقرب للمذبح له أو غير ذلك ، ما لم يكن لغرض مباح ، كإكرام الضيف وطلب اللحم ونحوه ، وعلى كل حال فالذبح عبادة تختص بالله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ﴾ .

(٤) الموافقات (٦١٧/٢) .

(٥) منح الجليل (٤١٢/٢) .

(٦) هو يحيى بن شرف بن مري الحوراني الشافعي ، محي الدين أبو زكريا ، الحافظ المحدث الفقيه ، له تصانيف ، منها "شرح صحيح مسلم" ، و"رياض الصالحين" ، و"الأذكار" ، و"الأربعين" ، و"الإرشاد" ، و"التبيان" ، وغيرها . مات سنة ٦٧٦هـ . انظر : تذكرة الحفاظ (١٤٧٠/٤) ، وطبقات الشافعية للسبكي (٣٩٥/٨) .

(٧) هو إبراهيم بن أحمد أبو إسحاق المروزي ، أخذ الفقه عن ابن سريج ، ومن تلامذته أبو زيد المروزي =

الناس من الذبح لغير الله تعالى كمن يذبح للسلطان تقرّباً إليه .. قال :

« ويشبه هذا الذبح للدار بعد الفراغ من بنائها وكمالها ، فإن قصد به الجنون^(١) الساكنون^(٢) بها ، وتطيب خاطرهم فهو مما أهل به لغير الله ، وإن قصد بها الفرح وشكر النعمة على اكتسابها والفراغ من بنائها فلا بأس به »^(٣) .
ومراده أن من ذبح للسلطان تقرّباً إليه فقد أشرك بالله ، ومثله من يذبح للجن أو غيرهم ؛ لأن الذبح عبادة لا يستحقها إلا الله وحده .

٢٥ — وأوضح ابن عاشور أن سمة أهل الشرك ذكر اسم غير الله تعالى على ذبائحهم ، فعند قوله تعالى : ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين ﴾^(٤) نبه على أن ختم الآية بوصف الإيمان علامة تدل على إيمان من ذكر اسم الله عند ذبحه ، ومن لم يفعل فقد وقع في الشرك ، « حيث كان شعار أهل الشرك ذكر اسم غير الله على معظم الذبائح »^(٥) .

٢٦ — وحكم في موضع آخر على أن الذبح لغير الله كفر ، فعند قوله تعالى : ﴿ قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به ﴾^(٦) قال :
« جملة ﴿ أهل لغير الله به ﴾ صفة أو بياناً لـ ﴿ فسقاً ﴾ ، وفي هذا تنبيه على أن تحريم ما أهل لغير الله به ليس لأن لحمه مضرّ ، بل لأن ذلك كفر بالله »^(٧) .

= انتهت إليه الرئاسة بعد ابن سريج ، ثم ارتحل إلى مصر ، له من الكتب : مختصر المزني ، مات سنة ٣٤٠ هـ . انظر : العقد المذهب (٤٢) ، مقدمة كتاب المجموع للنووي (١١٢/١) .

(١) هكذا في النص ، ويعني " الجن " .

(٢) والصواب : الساكنين .

(٣) النوازل (٢/٣٤٠) .

(٤) سورة الأنعام : ١١٨ .

(٥) التحرير والتنوير (٨/٣٢) .

(٦) سورة الأنعام : ١٤٥ .

(٧) التحرير والتنوير (٨/١٣٩) .

وختاماً فهذا جزء مما ذكره المالكية حيال هذا النوع من العبادة ، وهو الذبح ،
وفيما ذكروه ما يبرز الإخلاص في هذه العبادة العظيمة ، وأن من صرفها لغير الله
تعالى فقد أشرك ، سواء كان لطلب القرية من غير الله ﷻ أو لتسمية أحد سواه .

المسألة الخامسة : شرك الطواف

تقدم أن المالكية ذكروا عند بيانهم الطواف العبادي أن هذه العبادة مختصة ببيت الله الحرام ، فلا يشرع الطواف إلا بالكعبة على وجه التذلل والخضوع لله تعالى ، الذي أمر عباده بذلك فقال : ﴿ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾^(١) ، وعلى هذا فالطواف عبادة مخصوصة بمكان مخصوص لا يحل لأحد أن يصرفه لغير الله تعالى .

وقد ذكر بعض المالكية تفضيل البقعة التي تحوي قبر النبي ﷺ على سائر البقاع ، ومن ذلك الكعبة التي هي محل الطواف .

١— قال الإمام مالك رحمه الله :

« من فضل المدينة على مكة إني لا أعلم بقعة فيها قبر نبي معروف غيرها »^(٢) .

٢— وقال القاضي عبد الوهاب بن نصر :

« المدينة عند أصحابنا أفضل البقاع كلها »^(٣) .

٣— وقال القاضي عياض :

« اجتمعوا على أن موضع قبره ﷺ أفضل بقاع الأرض »^(٤) .

٤-١٢— وقد قال بذلك أيضاً ابن أبي زيد القيرواني^(٥) ، وابن العربي^(٦) ، وأبو

(١) سورة الحج : ٢٩ .

(٢) التمهيد (٢/٢٨٩) .

(٣) المعونة (٢/٦٠٥) .

(٤) إكمال المعلم (٤/٥١١) .

(٥) انظر الرسالة (١٨٦) .

(٦) القبس (٣/١٠٨٥) .

العباس القرطبي^(١)، وأبو الحسن المنوفي^(٢)، والنفراوي^(٣)، وخليل^(٤)، والشاطبي^(٥)،
والجعلي^(٦)، وابن الحاج^(٧).

وقد تقدم أنهم يرون أن الطواف لا يحل في أي مكان سوى بيت الله تعالى^(٨)،
فهم مع تفضيلهم للمدينة على مكة^(٩) إلا أنهم جعلوا تلك العبادة تختص بالكعبة .
فإذا لم يشرع الطواف في مدينة النبي ﷺ التي هي من أفضل البقاع عندهم فإن
غيرها من سائر البقاع أخرى بالمنع .

١٣— وقد ذكر ابن الحاج حرمة الطواف بقبر النبي ﷺ ، فقال :

« ... فترى من لا علم عنده يطوف بالقبر الشريف كما يطوف بالكعبة

(١) المفهم (٥٠٤/٣) .

(٢) حاشية العدوي (٥٣٤/٢) .

(٣) الفواكه الدواني (٣٦٥/٢) .

(٤) مختصر خليل (٩٠) .

(٥) الاعتصام (٥٣/٢) .

(٦) سراج السالك (٢٣/٢) .

(٧) انظر المدخل (١٨٥/١) .

(٨) انظر كلامهم في ذلك ص ٣٤٠ .

(٩) قال ابن عبد البر رحمه الله : « إنما يحتج بقبر رسول الله ﷺ وبفضائل المدينة ، وبما جاء فيها عن النبي ﷺ وعن أصحابه على من أنكر فضلها وكرامتها ، وأما من أقر بفضلها وعرف لها موضعها وأقر على أنه ليس على وجه الأرض أفضل بعد مكة منها ، فقد أنزلها منزلتها وعرف لها حقها ، واستعمل القول بما جاء عن النبي ﷺ في مكة وفيها ، فإن فضائل البلدان لا تدرك بالقياس والاستنباط ، وإنما سبيلها التوقيف ، فكل يقول بما بلغه وصح عنده غير حرج . والآثار في فضل مكة عن السلف أكثر ، وفيها بيت الله الذي رضي من عباده على الخط لأوزارهم بقصده مرة في العمر ... » إلى قوله : « وإني لأعجب ممن يترك قول رسول الله ﷺ إذ وقف بمكة على الحزرة - وقيل : على الحجون - ، وقال : « والله إني لأعلم أنك خير أرض الله وأحبها إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت » ، وهذا حديث صحيح ... فكيف يترك مثل هذا النص الثابت ويمال إلى تأويل لا يجمع متأوله عليه » اهـ . التمهيد (٢٨٨/٢-٢٩٠) .

الحرام ، ويتمسح به ويقبّله ، ويلقون عليه مناديلهم وثيابهم ، يقصدون به التبرك ، وذلك كله من البدع ؛ لأن التبرك إنما يكون بالاتباع له عليه الصلاة والسلام ، وما كان سبب عبادة الجاهلية للأصنام إلا من هذا الباب»^(١) .

١٤ — وقال الإحسائي في سياق ذكره آداب زيارة مسجد رسول الله ﷺ :
« ولا يطوف بالقبر »^(٢) .

١٥ — وحيث إن الطواف عبادة من العبادات كما سلف بيانه ، فقد بين القاضي عياض الحكمة من نهية عليه الصلاة والسلام عن أن يتخذ قبره مسجداً ، فقال :
« ... وتغليظ النبي ﷺ في النهي عن اتخاذ قبره مسجداً لما خشيه من تفاقم الأمر وخروجه عن حد المبرة إلى المنكر ، وقطعاً للذريعة ، وقد نبه ﷺ في قوله : « لا تتخذوا قبوري وثناً يعبد »^(٣) ، ولأن هذا كان أصل عبادة الأصنام »^(٤) .
فإذا كان هذا حال أهل الجاهلية الذين أشركوا بالله تعالى بهذا الفعل الذي هو الطواف حول أصنامهم ومعبوداتهم .

١٦ — كما قال ابن عاشور :

« .. وقد كان أهل الجاهلية يطوفون حول أصنامهم كما يطوفون بالكعبة »^(٥) .
فإنه لا يفعل فعلهم إلا من رضي ضلالهم وشركهم ، وهو ما بينه بعض المالكية عند قول النبي ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة »^(٦) .

(١) المدخل (١٩١/١) . دار الكتب العلمية - بيروت . ط. الأولى ١٤١٥ هـ .

(٢) تبين المسالك (٣٠٩/٢) .

(٣) سبق تخريجه ص ٣٨٠ .

(٤) إكمال المعلم (٤٥٠/٢) .

(٥) التحرير والتنوير (٢٤١/١٧) .

(٦) خروجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة

(٢٢٣٠/٤) برقم (٢٩٠٦) . قال القاضي عياض : أليات - بفتح الهمزة واللام - : يعني أعجازهن ،

جمع ألية ، أي : تضطرب من الطواف حولها . انظر إكمال المعلم (٤٤٩/٨) .

١٧— قال القرطبي أبو العباس :

« ومعنى هذا الحديث أن دوسًا يظهر فيها الارتداد ، ويرجعون إلى ما كانوا عليه من عبادة الأوثان ، كما قال في حديث عائشة رضي الله عنها : « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى »^(١) . . . وتضطرب : تتحرك عند الطواف بذلك الصنم »^(٢) .

١٨— وقال محمد المختار في معنى الحديث :

« أي : لا تقوم الساعة حتى تتحرك أعجاز نساء دوس من الطواف حول ذي الخلصة ، أي : يكفرون ويرجعن إلى عبادة الأصنام »^(٣) .

١٩-٢١— وبنحو ذلك قال القاضي عياض^(٤) ، والأبي^(٥) ، وكذلك أشار إلى هذا المعنى ابن بطلال^(٦) ، إلا أنه نبه إلى أن ذلك لا يعني انقطاع الدّين كله من الأرض ، بل يضعف ويعود غريبًا كما بدأ .

وبهذا يعلم أن الطواف بغير بيت الله ﷺ ليس هو من عمل أهل الإسلام ، بل هو من أفعال المشركين أهل الجاهلية ومن سلك مسلكهم واتبع طريقتهم ، فهم على آثارهم مقتفون .

٢٢— ولأجل ذلك فقد أنكر ابن الحاج الطواف بغير الكعبة ، كمن يطوف

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن ، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة (٢٢٣٠/٤) برقم (٢٩٧٠) .

(٢) المفهم (٢٤٤/٧) . وذكر أن ذا الخلصة بيت فيه صنم يسمى ذا الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة ، وكان يسمى الكعبة اليمانية ، بعث إليه رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله فحرقه بالنار . وانظر النهاية في غريب الحديث (٦٢/٢) .

(٣) نور الحق (٤٤٣/١٠) .

(٤) انظر إكمال المعلم (٤٤٩/٨) .

(٥) انظر إكمال إكمال المعلم (٣٥٧/٩) .

(٦) انظر شرح صحيح البخاري (٥٩/١٠) .

بالصخرة ، فقال :

« وليحذر مما يفعله بعضهم من هذه البدعة المستهجنة ، وهو أنهم يطوفون بالصخرة كما يطوفون بالبيت العتيق »^(١) .

٢٣— وكذلك أنكر في موضع آخر على من يطوف بالأضرحه ، فقال :

« لا يجوز الطواف حول الأضرحه ، فإنه لا يطاف إلا بالبيت العتيق »^(٢) .

وبهذا يتبين أن الطواف عبادة عظيمة تختص ببقعة معينة هي الكعبة ، فلا يجوز صرفها لغير الله تعالى ؛ لما في ذلك من الشرك ، سواء كان الطواف بمعظم كقبر النبي ﷺ أو غير ذلك .

(١) المدخل (٤/٤٢٢) .

(٢) المدخل (١/٩١) .

المسألة السادسة : شرك النذر

أوضح أئمة المالكية فيما سبق أن النذر قرينة وعبادة لله وحده^(١) ، وذلك باعتبار الباعث للعبد على عقده ، من جهة اعتقاده أن ربه الذي نذر له قادر على جلب النفع ودفع الضرر . فالعبد حين يقدم على النذر ويتلبس به فإنه يستشعر ذله وخضوعه لمن نذر له ، وأن النفع والضرر بيده تعالى ، فيقبل عليه راجياً تحقق مطلوبه من النفع ودفع الضرر عنه ، مبتغياً إليه الوسيلة في ذلك ، عسى أن يظفر بما ينشده ويؤمله .

١— ومن ثم وصف ابن العربي النذر بقوله :

« قد نهي عن النذر وندب إلى الدعاء ، والسبب فيه أن الدعاء عبادة عاجلة ويظهر به التوجه إلى الله والتضرع له ، وهذا بخلاف النذر ، فإن فيه تأخير العبادة إلى حين الحصول ، وترك العمل إلى حين الضرورة »^(٢).

فسمى النذر عبادةً ، فمن صرفه لغير الله تعالى تقرّباً لمخلوق أو تعظيماً لشعيرة أو بقعة^(٣) لم يأت الشرع بتعظيمها فقد أشرك بالله تعالى .

وقد نص الإمام مالك رحمه الله على مسائل لها تعلق وصلة بهذا النوع من الشرك .

٢— فمن ذلك أنه نص على أن « من نذر أن يمشي إلى الشام أو إلى مصر أو إلى الربرة أو ما أشبه ذلك مما ليس لله فيه طاعة فليس عليه في شيء من ذلك شيء » ، وعلل ذلك بقوله :

(١) كلامهم في (ص ٣٣٢) يثبت أن النذر مكروه ، فهو إذاً يكون عبادةً بالوجه الذي ذكرته أعلاه ، وعلى ذلك يحمل الكلام على النذر عندهم بكونه عبادةً .

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٠٧) .

(٣) وقد اتخذ الله بيتاً وجعله مباركاً ، كما قال تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾ .

« لأنه ليس لله في هذه الأشياء طاعة ، وإنما يوفي الله بما له فيه طاعة »^(١) . وإنما يكون المشي إلى المواضع التي يرتجى فيها الخير وجاء بها النص .

٣— ولهذا قال مالك فيمن نذر المشي إلى غير الحرمين والمسجد الأقصى : « من قال : عليّ المشي إلى غير هذه الثلاثة المساجد فليس عليه أن يأتيه ، مثل قوله : عليّ المشي إلى مسجد البصرة ، أو إلى مسجد الكوفة فأصلي فيهما أربع ركعات ، قال : فليس عليه أن يأتيهما ، وليصلّ في موضعه حيث هو أربع ركعات »^(٢) .

٤— ونص على عدم انعقاد نذر إتيان ما سوى هذه المواضع ، حتى وإن كان من مواضع مكة ، والعلة في ذلك عنده والله أعلم كما قال : « ليس لله في هذه الأشياء طاعة »^(٣) أي : ليس لله في المشي إليها طاعة .

٥— ومن عنايته وحرصه على سد منافذ الشرك منع من نذر أن يأتي قبر النبي ﷺ ، مع أنه بداخل المسجد ، فلم ير انعقاد نذره ، وقال :

« إن كان أراد القبر فلا يأتيه ، وإن أراد المسجد فليأته » ، ثم ذكر الحديث : « لا تشدُّ الرِّحالَ إلّا إلى ثلاثة مساجد »^(٤) .

وبهذا يُعلم أن الإمام مالكا رحمه الله لم ير أنّ هناك موضعا في الأرض له منزلة حتى تصرف النذور إليه ، سوى المساجد الثلاثة كما جاء النص بذلك ، وما عداها

(١) الموطأ (٣٧٩/٢) .

(٢) المدونة (٨٦/٢) .

(٣) الموطأ (٣٧٩/٢) .

(٤) ذكر القاضي عياض أن كراهة مالك قول من قال : زرت قبر النبي ﷺ ؛ لقوله ﷺ : « اللهم لا تجعل قبري وثنا يُعبد من بعدي ، اشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . ثم قال : « فحمى إضافة هذا اللفظ إلى القبر والتشبه بفعل أولئك قطعاً للذريعة وحسماً للباب والله أعلم » . الشفا (٦٦٩/٢) .

فإذا كان هذا في حق من قال : زرت قبر النبي ﷺ ، فكيف بمن ينذر ذلك نذراً ؟!

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الحج ، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره (٩٧٥/٢) برقم (٨٢٧) .

فلا ينعقد النذر بالمشي إليها ، حتى وإن كانت من بيوت الله .

٦— وسلك الباجي مسلك الإمام مالك في ذلك ، فقال :

« ... وأما من كان بغير المدينة ممن يتكلف سفرًا فإنه لا يجوز قصده ، ومن نذر ذلك لم يلزمه ، والأصل في ذلك حديث : " لا تُعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا ، والمسجد الحرام ، ومسجد إيلياء ... " » إلى قوله : « فمن هو منها على سفر فلا ينعقد نذره ؛ لأنه نذر نذرًا محظورًا ممنوعًا منه »^(١) .

٧— ونظيره قول القرطبي في ذلك^(٢) .

٨— ولذا قال ابن العربي : « من أغرب ما قال علماؤنا أن من نذر المشي إلى الصفا والمروة وعرفة ومنى لا يلزمه ، وإن كانت موضع قرب فرائض ونوافل » .
ثم بين ما يزيل تلك الغرابة بقوله : « ولعلهم تعلقوا بذلك إلى قوله : " ثلاثة مساجد " فعين المسجدية »^(٣) .

٩— ولم يقتصر الإمام مالك في بيانه على نذر إتيان المواضع ، فقد نص على أن من نذر أن ينحر جزورًا فعليه أن ينحره في الموضع الذي هو فيه . قال : (فقلنا لمالك : فإن نذرها لمساكين بالبصرة أو مصر وكان من غير أهل البصرة أو من غير أهل مصر ؟ قال مالك : « نعم ؛ وإن نذرها لمساكين أهل البصرة أو أهل مصر فلينحرها بموضعه ، وليتصدق بها على مساكين من عنده ... ») ، وعلل ذلك بقوله : « وسوق البدن إلى غير مكة من الضلال »^(٤) .

١٠— وتبعه على ذلك ابن الجلاب^(٥) بقوله : « ومن نذر أن ينحر بدنة بغير

(١) المنتقى (٢٣١/٣) .

(٢) انظر المفهم (٤٥١/٣) .

(٣) القبس (٦٦٣/٢) .

(٤) المدونة (٩١/٢) .

(٥) هو أبو القاسم عبيد الله بن الحسين بن الحسن بن الجلاب البصري المالكي ، وهو أحد المجتهدين ، وله دور كبير في نشر المذهب ، وهو ممن تفقه على أبي بكر الأهمري ، له كتاب في مسائل الخلاف ، وشرح المدونة . توفي ٣٧٨هـ . انظر : الديباج (٢٣٧) ، شجرة النور (٩٢/١) .

مكة ولم يرد بذلك تعظيم البلدة التي نذر النحر فيها ففيها روايتان : أحدهما : أنه يلزمه النحر بها . والأخرى : أنه ينحر البدنة في مكانه ولا يسوقها إلى غيره ، إلا إلى مكة وحدها ^(١) .

١١-١٢ — ونظير قول ابن الجلاب هذا قول ابن عبد البر ^(٢) وعليش ^(٣) .

ففي قول مالك رحمه الله : « وسوق البدن إلى غير مكة من الضلال » دليل على أنه ليس ثمة موضع سوى مكة يشرع تخصيصه بالنذر لمزية تعود إلى بقعة ^(٤) أو موضع ، فمن اعتقد أن في الأرض بقعة تقبل النذر من الناذر لعظمتها واختصاصها فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ، وعلى هذا فإن ما يعتقده بعض الجهلة من صرف النذور لموضع قبر أو مزار أو مشهد من أعظم الباطل .

١٣ — وهذا ما بينه المليي رحمه الله بياناً تاماً عند كلامه عن حال أولئك

الناذرين ، كمن يعتقدون فيهم ، وطلب القربة لديهم حتى ولجوا الشرك ، فقال : « ... وقد أصبح الناس في جاهليتهم الحاضرة يندرون - لمن يعتقدون فيه من الأحياء والأموات والمزارات - الأموال والثياب والحيوانات والشموع والبخور والأطعمة ، وسائر الممتلكات ، ويعتقدون أن نذرهم سبب يقربهم من رضى المنذور له ، وأن لذلك المنذور له دخلاً في حصول غرضهم ، فإن حصل مطلوبهم ازدادوا تعلقاً بمن نذروا له ، واشتدّت خشيتهم فيه ، وبذلوا أقصى طاقتهم في الاحتفال بالوفاء له ، ولم يستسيغوا لأنفسهم التقصير أو التأخير ، كما استساغ جاهلية العرب في تعويض الغنم بالطباء ، فالعرب مع أصنامهم أقل هيبةً من هؤلاء مع أوليائهم ،

(١) التفريع (١/٣٧٦) .

(٢) الكافي (١/٤٥٩) .

(٣) انظر منح الجليل (٣/١٢٧) .

(٤) ومن نذر النحر في غير مكة فيلزمه الوفاء في موضعه لمساكين في بلده ، كما نبه عليه الإمام مالك ، فلا تعلق له بالموضع .

وإن تساوى الفريقان في حق من ألوهه أكثر من اعتبار حق الإله الحق ، وذلك أن جاهليتنا - على شدة اهتمامها بحق أوليائها - منها من لا يبالي مع ذلك بالصلاة أو بالزكاة ، أو بهما معاً ، ومن صلى وزكى لا ينكر على تاركهما ما ينكره على من تراخى في زيارة شيخ طريقة أو إقامة زردة أو أداء وعدة^(١) ، وكذلك ما حكاه القرآن عن العرب في آياته : ﴿ جعلوا لله شركاء ... ﴾^(٢) ((^(٣)).

فأبان رحمه الله أن طلب أولئك الناذرين القربة من هؤلاء المنذور لهم ، وتعلقهم بهم وبقاعهم ومزاراتهم أشد من تعلق أهل الجاهلية بأصنامها التي عبدوها من دون الله ، التي يرجون بركتها من جلب نفع أو دفع ضرر ، وبهذا فاقوا أهل الجاهلية في شركهم وضلالهم .

١٤ - وقد ذكر محمد الأمين ما يدل على وجوب مفارقة أهل الجاهلية وعدم التشبه بهم في شركهم وضلالهم ، فقال : « من نذر أن ينحر تقرّباً لله في مكان معين فلا بأس بإيفائه بنذره ، بأن ينحر في ذلك المحل المعين إذا لم يتقدم عليه أنه كان به وثن يُعبد ، أو عيد من أعياد الجاهلية ، ومفهومه أنه إن كان قد سبق أن فيه وثناً يُعبد أو عيداً من أعياد الجاهلية أنه لا يجوز النحر فيه » . ثم استدلل بحديث الضحاك قال : نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلاً ببوانة^(٤) فأتى النبي ﷺ فقال : إني نذرتُ أن أنحر إبلاً ببوانة ، فقال النبي ﷺ : « هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد ؟ » . قالوا : لا . قال : « هل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ » . قالوا : لا . قال رسول الله ﷺ : « أوف بنذرك ، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا

(١) قال الملي : « الزرده فهي في لسان العرب المرة من زرد اللقمة - كفهم - زرداً : بلعها ، وازدردتها : ابتلعها . وهي في عُرفنا طعام يُتخذ على ذبائح من هيمة الأنعام عند مزارات من يعتقد صلاحهم » . انظر رسالة الشرك (٢٥٦) . قال الملي في كلامه عن نذر المجازاة : « وتسميه عامتنا الوعدة » . رسالة الشرك (٢٦٥) .

(٢) سورة الأنعام : ١٠٠ .

(٣) رسالة الشرك (٢٦٨) .

(٤) بوانة : قال ابن الأثير : هي بضم الباء ، وقيل : بفتحها : هضبة من وراء ينبع . النهاية (١٦٤/١) .

يملك ابن آدم»^(١) .

ثم قال : « وفيه الدلالة الظاهرة على أن النحر بموضع كان فيه وثن يُعبد أو عيد من أعياد الجاهلية من معصية الله تعالى ، وأنه لا يجوز بحال ، والعلم عند الله تعالى »^(٢) .

١٥ — وحيث كان النذر يُقصد منه التقرب لله ﷻ ، كما قال القاضي عياض في سياق كلامه عند قوله عليه الصلاة والسلام : « لا نذر في معصية الله » ، فقال : « نفى النذر عنها ، إذ النذر المقصد فيه التبرك والتقرب ، والمعصية تنافيه ، فلا نذر يصح فيها ولا يلزم »^(٣) .

فقد نبه بعض المالكية على مسألة مهمة ، وهي أنهم قد شددوا على الناذر إذا تغيّرت نيته مع أن نذره لله ، ويعدون ذلك شركاً ، فكيف بمن نذر لغير الله أصلاً .

١٦ — ومن ذلك ما ذكره المازري عند حديث : نفى عن النذر ، وقال : « إنه لا يأتي بخير ... » بقوله :

« يحتمل أن يكون الناذر لما لم يبذل ما بذل من القربة إلا بشرط أن يفعل له ما يختار صار ذلك كالمعاوضة التي تقدح في نية المتقرب ، ويذهب الأجر الثابت للقربة المجردة ، وفي الحديث : « من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو له »^(٤) »^(٥) .

(١) أخرجه أبو داود (٣٣١٣) ، والبيهقي (٨٣/١٠) ، والطبراني (١٣٤١) ، والإمام أحمد (٣٦٦/٦) .

قال الأرئوط : إسناده حسن . وصححه الحافظ في التلخيص (١٨٠/٤) .

(٢) أضواء البيان (٦٨٠/٥-٦٨١) .

(٣) إكمال المعلم (٣٨٣/٥) .

(٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء

عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه » . كتاب الزهد والرقائق ، باب من

أشرك في عمله غير الله (٢٢٨٩/٤) برقم (٢٩٨٥) .

(٥) المعلم (٢٣٦/٢) .

١٧— وزاد القرطبي أبو العباس على كلام المازري بقوله - عند حديث النهي عن النذر - :

« محل النهي أن يقول : إن شفى الله مريضاً فعليّ عتق أو صدقة أو نحوه ، ووجهه أنه لما وقف فعل القربة على حصول غرض عاجل ظهر أنه لم تتمحض فيه نية التقرب إلى الله تعالى ، بل سلك سبيل المعاوضات ، وهذا حال البخيل الذي لا يخرج من ماله إلاّ بعوض عاجل أكره فيه ، ثم ينضاف إلى هذا اعتقاد جاهل يظن أن النذر يوجب حصول ذلك الغرض لأجل النذر ، وإليها الإشارة بقوله : « فَإِنَّ النَّذْرَ لَا يَرُدُّ مِنْ قِضَاءِ اللَّهِ شَيْئاً » . فالأولى تقارب الكفر ، والثانية خطأ صراح »^(١) .

١٨— وذكر الصاوي كراهية هذا النذر ، معللاً تلك الكراهة بأنه « لم يجعله خالصاً لوجه الله الكريم »^(٢) .

١٩— ومثله الأزهري أيضاً قائلاً :

« لأن فيه شائبة المعاوضة ، ولتوهم أنه يجلب الخير ويدفع الشر »^(٣) .

٢٠— وقال بنحوه أيضاً عlish^(٤) .

٢١— من هنا فقد أقرّ الخطاب ما ذكره القرطبي من تحريم نذر المجازاة « في حق من يخاف عليه ذلك الاعتقاد الفاسد »^(٥) .

فإذا كان هذا هو تشديدهم في حق من تغيرت نيته وقصده في نذره ، فكيف بالنذر لغير الله ؟

(١) المفهم (٦٠٧/٤) .

(٢) بلغة السالك (٣٢٤/١) .

(٣) جواهر الإكليل (٢٤٤/١) .

(٤) منح الجليل (١٠١/٣) .

(٥) انظر مواهب الجليل للخطاب (٤٩٤/٤) .

٢٢- كما قال الشنقيطي - في هذا المعنى معقّباً على قول الخطاب السابق - :

« فأين الصفة التي قرر الخطاب تحريمها من النذر لرجل غني اعتادت العامة النذر له ، معتقدين أنه لا ينذر له في شيء إلاّ حصل ؟! وشاع الأمر حتى فوض المذكور جباةً يحبون له نذوره ! » .

ثم بين تنافي هذا الفعل مع قوله تعالى : ﴿ قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له .. ﴾^(١) ، ثم قال :

« إنّ النذر عبادة ، وإن صرفها لمخلوق لا يخفى على موحد ما فيه والعياذ بالله »^(٢) .

يريد أن هذا العمل شرك بالله تعالى ينقض التوحيد . وبهذا يتبين أن النذر لا يجوز إلاّ لله وحده ، لذا فقد منعوا من التقرب إلى غير الله بالنذر ، مؤكّدين على أنه حقّ لله تعالى وحده دون سواه .

(١) سورة الأنعام : ١٦٢ .

(٢) مواهب الجليل من أدلة خليل . أحمد المختار الحكني الشنقيطي (٢/٢٨٠) . ط . دار إحياء التراث الإسلامي - قطر .

المسألة السابعة : شرك السحر

السحر كما يعرفه أهل اللغة بأنه يطلق على كل شيء خفي سببه ولطف ودق ،
ولذا تقول العرب : أخفى من السحر^(١) .

والسحر له أنواع كثيرة ، منه ما هو تخيل لا حقيقة له في الخارج ، ومنه ما
يعتمد على التلبس والخذاع وخفة اليد ، ومنه ما له حقيقة يحصل بسببه السقم
والقتل ، والتفريق بين الأحبة^(٢) .

وقد تمسك من نفى حقيقته^(٣) ببعض النصوص التي فيها وصف السحر
بالتخيل ، كقوله تعالى : ﴿ يَخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾^(٤) ، وقد جانبوا
الصواب في ذلك^(٥) .

(١) انظر : تهذيب اللغة (٢٩/٤) ، والمعجم الوسيط (٤١٩/١) .

(٢) انظر : أنواع السحر في تفسير القرطبي (٤٤/٢) ، واستقصى عددها الميلي في رسالة الشرك (١٥٦) ،
وذكر أصولها بتوسع ابن عاشور في التحرير (٦٣٣/١) .

(٣) وهم المعتزلة .

(٤) سورة طه : ٦٦ .

(٥) الذي عليه أهل السنة والجماعة أن للسحر حقيقة كما دلت على ذلك النصوص الشرعية من الكتاب
والسنة ، قال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ
كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى
يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ . قال ابن القصار : « فنفى الله السحر عن سليمان وأضافه إلى
الشياطين ، وأخبر أنهم يفعلونه ويعلمونه الناس ، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه ولا أخبر تعالى
أنهم يعلمونه الناس » . شرح البخاري لابن بطال (٤٤١/٩) .

وأمر الله تعالى بالاستعاذة منه في قوله : ﴿ وَمَنْ شَرَّ النَّفَاثَاتِ فِي الْعَقَدِ ﴾ ، فلو لم يكن له حقيقة لم
يأمر الله بالاستعاذة منه . وأثبت الله ﷻ أن له أثراً بقوله : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ
وَزَوْجِهِ ﴾ ، فدللت الآية على أن السحر شيء موجود حصل بسببه التفريق بين المرء وزوجه . ولكن لا
يحصل الضرر إلا بإذن الله القدري ، وقد ثبت أن النبي سحر حتى كان يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء
وما يفعله . (البخاري كتاب الطب ، باب السحر ، ومسلم في الطب والمرض ، باب السحر) . =

وسوف يكون الحديث عن السحر من جهة ارتباطه بالشرك ، وبالتالي فما يلحق بذلك فإنما يذكر تبعاً لا أصلاً ، وقد ذكر المالكية حكم السحر وأن من يفعله يكفر ، واعتنى بعضهم بذكر الحال التي يكون السحر فيها نوعاً من الشرك الذي يحكم معه بجل دم الساحر ومروقه من الدين .

١— ولذا فقد ذكر ابن عاشور أن مراد مالك في الساحر الذي يُقتل « ما دل سحره على الردّة ؛ لأنه قال في روايات عنه في المدونة :
« يقتل الساحر كفراً لا حدّاً » .

٢— وأشار إلى ذلك هنا في الموطأ بقوله :
« هو مثل الذي قال الله تعالى في كتابه : ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ﴾ ، على أنه كان كفراً ، فحقه الاستتابة^(١) »^(٢) .

= والنبي ﷺ بشر تجوز عليه الأمراض والآلام ، والسحر كما قال تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم ﴾ ، ولكنه عليه الصلاة والسلام معصوم فيما يبلغه عن الله ، فقد « شهد له العلي الأعلى بأن بصره ما زاغ وما طغى ، وبأن فؤاده ما كذب ما رأى ، وبأن قوله وحى يوحى ، وأنه ما ينطق عن الهوى » . ما بين القوسين من كلام القرطبي في المفهم (٥٧٠/٥) .

وقد نص علماء المالكية - كغيرهم من أهل العلم - على أن للسحر حقيقة . انظر كلامهم في ذلك لدى : ابن نصر في المعونة (٢٩٧/٢) ، وابن بطال في شرح البخاري (٤٤٢/٩) ، وابن عبد البر في الاستذكار (٢٣٩/٢٥) ، وأبي عمرو الداني في الرسالة الوافية (١٢٩) ، والباجي في المنتقى (١١٨/٧) ، وابن العربي في عارضة الأحوزي (٢٤٧/٦) ، والمازري في المعلم (٩٣/٣) ، والقرطبي في التفسير (٤٤/٢) ، والقرطبي أبي العباس في المفهم (٥٦٨/٥) ، والقراقي في ترتيب الفروق (٤٣١/٢) ، ومحمد الأمين في أضواء البيان (٤٣٧/٤) ، ومعاج الصعود (٥٢-٥١) .

(١) ومن كلامه عن أفعال السحرة قال : « وليس شيء من هذا بموجب هدر دم المسلم ، غير ما يدل على أنه نقض به إسلامه وارتد به عن الإسلام إلى عبادة الأوثان ، فما كان منه جهراً فهو ردة حقها أن يستتاب صاحبها ثلاثاً ، فإن لم يتب قتل ، وما كان سراً فهو زندقة تجري على حكم الزندقة في عدم الاستتابة فيها عند مالك » .

وأراد بهذا التفصيل بيان ما جاء عن مالك من أن الساحر كالزنديق يقتل ولا تقبل له توبة . كشف المغطا (٣٢٨) .

(٢) كشف المغطا (٣٢٨-٣٢٩) .

٣- وقد ذكر الإمام مالك ما يثبت أن الساحر مشرك بالله تعالى ، فقال في تعريفه « للطاغوت بأنه : كل ما عُبد من دون الله من صنم أو كاهن أو ساحر ، أو كيفما تصرف الشرك فيه »^(١) .

فقرن الإمام مالك للساحر بغيره من المعبودات أثناء بيانه لمعنى الشرك يفهم منه أن الساحر كافر عنده بسبب شركه .

٤- ومما يرجح هذا المعنى عند مالك ويقويه وأن السحر عنده منبئ على الشرك اتهمه للساحر بعبادة الأصنام ، كما قال رحمه الله : « الأسماء التي يكتبها السحرة في التمام أسماء أصنام »^(٢) .

ومعلوم أنهم لم يكتبوا أسماءهم إلا لعبادتهم والاستغاثة بهم في جلب النفع ودفع الضر عياداً بالله .

٥- ونقل ابن عاشور عن البايجي ما ينص على رأي مالك صراحة في أن السحر شرك ، فقال :

« رأي مالك أن السحر كفر وشرك ودليل عليه »^(٣) .

٦- وذكر ابن بطال ما روي عن علي وابن مسعود رضي الله عنهما أنهما قالا : « الرقى والتمائم والتولة شرك »^(٤) ، ثم قال :

(١) أحكام القرآن (١/٤٥٦) .

(٢) التحرير والتنوير (١/٦٣٧) .

(٣) نفس المرجع (١/٦٣٧) .

(٤) أخرجه أحمد (١/٣٨١) ، وأبو داود (٣٨٨٣) ، وابن ماجه (٣٥٣٠) ، والبغوي في شرح السنة (١٢/١٥٦-١٥٧) ، والحاكم من طريق آخر (٤/٢١٧) ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي . وحسنه الأرئوط . المسند (١/٣٨١) .

الرقى : هو العوذة . والتمائم : جمع تميمة ، وهي الخرزات التي تعلق على الأولاد لدفع العين . والتولة - بكسر التاء المثناة من فوق وفتح الواو واللام - : نوع من السحر يجلب المرأة إلى زوجها .

« المراد بذلك رقى الجاهلية وما يضاهي السحر »^(١) .

ففي قوله هذا إشارة إلى أن السحر شرك بالله تعالى ، إذ إن رقى الجاهلية تشتمل على الشرك فأشبهت السحر من هذا الوجه .

وقد ذكر بعض المالكية أحوال الساحر المتعلقة بعمله التي جعلته يمرق من الدين ، كتقربه إلى الكواكب^(٢) والشياطين وعبادتها ، إذ بذلك يتضح وجه ارتباط السحر بالشرك .

٧— وفي هذا بين القرافي الحال التي يقع بها كفر الساحر ؛ لأن السحر عنده

(١) شرح البخاري (٤٣٢/٩) .

(٢) ذكر المالكية أن التنجيم - وهو اعتقاد تأثير النجوم - كفر بالله تعالى ، كما قال المازري : « وأما التنجيم فمن اعتقد اعتقاد كثير من الفلاسفة في كون الأفلاك فاعلة لما تحتها ، وكل فلك يفعل ما تحته حتى ينتهي الأمر إلينا ، وسائر الحيوان والمعادن والنبات ولا صنيع للباري سبحانه وتعالى في ذلك ، فإن ذلك مروق من الإسلام » . إكمال المعلم (١٥٩/٧) .

وقال ابن العربي : « ولا تغترّوا بمنجم ولا عرّاف ولا تستدلّوا بأماراة في السماء من كوكب أو في الأرض من مذهب على ما يكون غداً بحال ، فإنه تيه في الضلال قد تبرأ النبي ﷺ منه » . القبس (٨٧٤/٣) .

وقال القرطبي : « النجوم لا يعرف بها علم الغيب ولا القضاء ، ولو كان كذلك لكان الملائكة أعلم بذلك وأحق به ، وكل ما يتعاطاه المنجمون من ذلك فليس شيء منه علماً يقيناً ، وإنما هو رجم بظن وتخمين بوهم ، الإصابة فيه نادرة ، والخطأ والكذب فيه غالب . وهذا مشاهد من أحوال المنجمين ، المطلوب من العلوم النجوميات ما يهتدى به في الظلمات وتعرف به الأوقات ، وما سوى ذلك فمخارق وترهات ، ويكفي في الرد عليهم ظهور كذبهم ، واضطراب قولهم ، وقد اتفقت الشرائع على أن القضاء بالنجوم محرم مذموم » . انظر المفهم (٦٣٨/٥) .

وقال ابن أبي زيد القيرواني : « ولا ينظر في النجوم إلا ما يستدل به على القبلة وأجزاء الليل ويترك ما سوى ذلك » . متن الرسالة (٢٠٩) .

وقد ذكر المالكية ذلك في كل من : شرح صحيح البخاري لابن بطلال (٣٠/٣) ، المحرر الوجيز لابن عطية (٣٢٦/٢) ، القبس لابن العربي (٣٨٧/١) ، وصية الباجي لولديه (٤٠) ، الذخيرة للقرافي (٣٤٢/١٣) ، الموافقات للشاطبي (١١٧/٢) ، نور الحق (٤٥٨/٥ ، ٣٠٤/٢) ، كوثر المعاني الدراري (٣٩٣/١٠) ، التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٤٠/٢٧) .

طريق إلى الكفر ، فيقول :

« .. والسحر لا يتم إلا بالكفر ، كقيامه إذا أراد سحر سلطان لبرج الأسد مائلاً خاضعاً متقرباً له ، فيناديه : يا سيده ! يا عظيم ! أنت الذي إليك تدبير الملك والجبابرة والأسود ، أسألك أن تذلل لي قلب فلان الجبار »^(١) .

ولا ريب أن هذا العمل الذي يقوم به الساحر - من التقرب للكوكب وسؤاله على وجه الذلة والخضوع واستغاثته به من دون الله - شرك أكبر يبرق به من الإسلام .

٨- وما ذكره القرافي هنا من ضرب المثل في بيان ما اشتمل عليه عمل السحر من الشرك بالله تعالى هو تبين لما أجمله الطرطوشي فيما ينقله عن قدماء أصحابه المالكية في بياهم ما يقع به كفر الساحر :

« إنا لا نكفره حتى يثبت أنه من السحر الذي كفر الله تعالى به ، أو يكون سحراً مشتملاً على كفر »^(٢) .

٩- يدل على هذا أن القرافي أورد ما حكاه الطرطوشي بعد كلامه عن السحر وصلته بعبادة الكواكب ، فقال :

« والذي يستقيم في هذه المسألة ما حكاه الطرطوشي ... »^(٣) .

١٠- وعلى هذا فإن شرك السحر بهذا المعنى قد أشار إليه قدماء المالكية ، كما حكاه عنهم الطرطوشي .

١١- ولذا فقد نص محمد الأمين على أن الساحر لا يكفر إلا أن يكون في سحره شرك بالله ، فقال :

« والتحقيق في هذه المسألة التفصيل ؛ فإن كان السحر مما يعظم فيه غير الله - كالكواكب والجن وغير ذلك مما يؤدي إلى الكفر - فهو كفر بلا نزاع ، ومن هذا

(١) الذخيرة (٣٥/١٢) .

(٢) ترتيب الفروق (٤٣٦/٢) ، والذخيرة (٣٧/١٢) .

(٣) انظر الذخيرة (٣٧/١٢) .

النوع سحر هاروت وماروت في سورة البقرة ، فإنه كفر بلا نزاع كما دلّ عليه قوله تعالى : ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنّة فلا تكفر ﴾^(١) ، وقوله : ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾^(٣) . وإن كان السحر لا يقتضي الكفر - كالأستعانة بخواص الأشياء من دهانات وغيرها - فهو حرام حرمةً شديدة ... ﴾^(٤) .

فقد ربط محمد الأمين حكم السحر بما يتصل به من أسباب شركية ، كالتقرب إلى الشياطين والكواكب ، ولا ريب بكفر متعاطيها .

١٢ - وقد نقل محمد المختار قول ابن حجر مقرأً له في عده للأنواع التي هي سبب كفر الساحر ، فقال :

« ما يحصل بمخاطبة الكواكب واستنزال روحانياتها بزعمهم » .

١٣ - واستنزال هذه الروحانيات المزعومة تكون بضروب من التقرب للكواكب ، كما بينه أيضاً محمد المختار فيما نقله عن الرازي^(٥) من حال أهل بابل^(٦) من أنهم « يعبدون الكواكب السبعة ، ويسمونها آلهة ويعتقدون أنها الفعالة لكل ما في العالم ، وعملوا أوثاناً على أسمائها ولكل واحد هيكلي فيها صنمه يتقرب إليها بما يوافقه في زعمهم من أدعية وبخور ... »^(٧) .

١٤ - ولما ذكر ابن عاشور تعلق السحرة برسم أشكال وطلاسم ، أو عقد

(١) سورة البقرة : ١٠٢ .

(٢) سورة البقرة : ١٠٢ .

(٣) سورة طه : ٦٩ .

(٤) أضواء البيان (٤/٤٥٦) .

(٥) انظر تفسير الرازي مفاتيح الغيب (٣/١٩٠-١٩١) . ط. دار الكتب العلمية ، ط. الأولى ١٤١١ هـ - بيروت .

(٦) بكسر الباء : اسم ناحية منها الكوفة والحلة ، يُنسب إليها السحر والخمر في العراق ، ويقال : إن أول من سكنها نوح عليه السلام ، وهو أول من عمرها . انظر معجم البلدان (١/٣٠٩) .

(٧) نور الحق (٩/١٠٠-١٠١) . وانظر فتح الباري (١٠/٢٢٢) .

خيوط والنفث عليها برقيات معينة تتضمن الاستنجاد بالكواكب أبان حكمه فقال :
« فهو معدود من خصال الشرك »^(١) .

١٥ — وعند ذكر الملي أنواع السحر قال :

« ومنها سحر البابليين الذين كانوا يعبدون الكواكب ، ويرونها مدبرةً لهذا العالم ، فيستميلونها إليهم أو يصرفون ضررها عنهم بالرقى والدخن »^(٢) .

١٦ — وأوضح أن السحر معصية شرك وكفر ، ونسبه قولاً لأكثر الفقهاء ،
ومنهم من لا ينتهي به إلى الكفر ما لم ينضم إليها اعتقاد ينافي التوحيد^(٣) .
ولا ريب أن السحر بهذه الحالة شرك يناقض التوحيد .

وكما بين المالكية أن السحرة الذين صرفوا العبادة لتلك الكواكب مرقوا من الدين ، فقد بينوا أيضاً أن هذا المعنى في الجميع واحد ، فالإشكال فيما انطوى عليه السحر من عبادة غير الله أيّاً كان نوع هذا المعبود .

١٧ — ولهذا فإنَّ محمد المختار بين - فيما نقله عن ابن حجر مقرأً له - ما ذهب إليه بعض أهل العلم من أن السحر كفر ، مستدلّين بقوله تعالى : ﴿ ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾^(٤) ، وعقّب بذكر السبب في ذلك ، وهو « التعبد للشياطين والكواكب »^(٥) .

والمعنى المراد من ذلك أن السحر الذي ينضوي على التقرب إلى غير الله شرك وكفر .

١٨ — وهو ما أوضحه ابن عاشور من أن السحر يتضمن « الاستنجاد

(١) انظر التحرير والتنوير (١/٦٣٢-٦٣٣) .

(٢) رسالة الشرك (١٥٦) .

(٣) انظر المرجع نفسه (١٦٢) .

(٤) سورة البقرة : ١٠٢ .

(٥) نور الحق (٩/١٠٤) . وانظر فتح الباري (١٠/٢٢٤) .

بالكواكب أو بأسماء الشياطين والجن وآلهة الأقدمين»^(١) .

ثم قال معقباً على ذلك بأنه خبث وفساد ومروق من الدين^(٢) .

١٩— وفي موضع آخر قال عن السّحر :

« .. وفيه استصراخ بالأصنام ، وعبادة للجن جهراً أو خفية »^(٣) .

٢٠— وفي ذكره لأنواع السحر بين الملي أن « سحر أصحاب العزائم هو سحر

عبدة الشياطين وخدمة الجان يتقربون إليهم بالرقى والعزائم والدخن »^(٤) .

وقد سبق في كلامه عن السحر بأنه معصية شرك وكفر ؛ لمنافاته للتوحيد أو

بفعل يخالف الإسلام^(٥) .

فأبان أن السحر المشتمل على التقرب للشياطين شرك بالله تعالى ؛ لصرفهم شيئاً

من العبادة لأولئك الشياطين .

٢١— ولما كان التعظيم معنى من معاني العبادة فقد عرف ابن العربي السحر

بقوله : « حقيقته أنه كلام مؤلف يعظم به غير الله ، وتنسب إليه الأفعال والمقادير

والكائنات »^(٦) .

ومرادُه أن ذلك التعظيم من معاني التَّعَبُّد لله تعالى ، إذ فرق بينه وبين الربوبية ،

وفي ذلك إشارة إلى أن السحر يقع به الشرك بالله تعالى .

٢٢-٢٤— وأقرّ قول ابن العربي هذا عlish^(٧) ، والجنكي^(٨) ، والأحسائي^(٩) .

(١) التحرير والتنوير (١/٦٣٢-٦٣٣) .

(٢) المرجع نفسه (١/٦٣٥) .

(٣) كشف المغطا (٣٢٨) .

(٤) رسالة الشرك (١٥٧) .

(٥) انظر كلامه ص ٤٤٦ .

(٦) أحكام القرآن (١/٣١) .

(٧) انظر منح الجليل (٩/٢٠٧) .

(٨) انظر نصيحة المرابط (٣/١٣٨) .

(٩) تبين المسالك (٤/٤٧٦) .

٢٥— وذكر القرطبي « أن السحر لا يتم إلا مع الكفر والاستكبار ، أو تعظيم الشيطان »^(١) .

وهو في معنى ما ذكر ابن العربي ، من وقوع الشرك بتعظيم غير الله تعالى .

٢٦— ونظيره ما ذكره الدسوقي^(٢) في ذلك .

هذا ؛ وقد أشار بعض المالكية إلى أن استحلال السحر كفر وردة ، وسبب كفره هنا بما اعتقده من اعتقاد فاسد لا بما عمله من السحر .

٢٧-٢٨— وفي هذا ما نقله القرافي مقررًا له من تعليق الطرطوشي على قول

الشافعية : « من اعتقد إباحته فهو كفر » بقوله :

« وهذا متفق عليه ؛ لأن القرآن نطق بتحريمه »^(٣) .

وقول الطرطوشي : « هذا متفق عليه » . يبين أن هذا الحكم أيضًا عند المالكية

كما هو عند الشافعية .

٢٩— ونص على كفر المستحل أيضًا الميلي^(٤) .

ومن خلال ما تقدم يعلم أن المالكية قد بينوا المعنى الذي يكفر به الساحر ، وهو

إذا ما اشتمل سحره على صرف شيء من العبادة لغير الله تعالى ، من الكواكب

والشياطين وغير ذلك ، وقد ذكر بعضهم كفر معتقد الحل ، وذلك لأجل اعتقاده لا

عمله .

(١) تفسير القرطبي (٤٨/٢) .

(٢) انظر حاشية الدسوقي (٣٠٢/٤) .

(٣) الذخيرة (٣٤/١٢) .

(٤) انظر رسالة الشرك (١٦٢) .

المسألة الثامنة : شرك الرقى والتائم

لما كانت الرقى والتائم التي تستخدم في الجاهلية للعلاج ودفع العين ، وغيرها من الأمراض ، تشتمل على أمور شركية ، كالتوكل على غير الله ، والاستعانة بالجن ودعائهم ، فقد جاءت النصوص الشرعية بالمنع من ذلك كله ، كما قال ﷺ : « إِنَّ الرقى والتائم والتولة شرك »^(١) .

وهذا يختصّ بما كان شركاً ، فقد جاء في حديث عوف بن مالك الأشجعي قال : كنا نرقى في الجاهلية ، فقلنا : يا رسول الله ! كيف ترى في ذلك ؟ فقال : « اعرضوا عليّ رقاكم ، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك »^(٢) «^(٣) .

وعلى هذا فقد فسر بعض المالكية الشرك الذي وصفت به الرقى والتائم الممنوعة بأنه شرك أكبر ؛ لأنهم فسروه بشرك أهل الجاهلية المتضمن ألفاظاً شركية صريحة ، كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

وبما أن الحديث هنا عن الرقى الشركية ، فيحسن البداءة هنا بذكر الشروط التي يجب توافرها في الرقية .

١ — كما بينها الزرقاني بقوله :

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب السلام ، باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك (١٧٢٧/٤) .

(٣) وحديث عوف رضي الله عنه يبين المشروع من الرقى ، فليس كل الرقى ممنوعة ، « والرقى هي التي تسمى العزائم ، وخص منها الدليل ما خلا من الشرك ، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمية ، يشير إلى أن الرقى الموصوفة بكونها شركاً هي الرقى التي فيها شرك ، من دعاء غير الله ، والاستغاثة والاستعاذة به ، كالرقى بأسماء الملائكة والأنبياء والجن ونحو ذلك ، أما الرقى بالقرآن وأسماء الله وصفاته ودعائه والاستعاذة به وحده لا شريك له ، فليست شركاً بل ولا ممنوعة ، بل مستحبة أو جائزة » . تيسير العزيز الحميد (١٦٥) .

وسيأتي بيان المالكية إن شاء الله للرقى والتائم المشروع منها وغير المشروع .

« الرقية المأذون فيها ما كانت باللسان العربي ، أو بما يفهم معناه ، ويجوز شرعاً مع اعتقاد أنها لا تؤثر بذاتها ، بل بتقدير الله ، والمنهي عنها ما فقد فيها شرط من ذلك »^(١) .

وبين في موضع آخر بأن الرقية تكون بأسماء الله وصفاته^(٢) .

٢- وقال القرطبي :

« فجازت الرقية من كل الآفات والأمراض والجراح والقروح والحمة والعين وغير ذلك ، إذا كان الرقي بما يفهم ولم يكن فيه شرك ولا شيء ممنوع ، وأفضل ذلك وأنفعه ما كان بأسماء الله تعالى وكلامه وكلام رسوله ﷺ »^(٣) .

٣-٤- وذكر هذه الشروط أيضاً محمد المختار نقلاً عن ابن حجر^(٤) ، والعدوي نقلاً عن القسطلاني^(٥) .

والتأمل في هذه الشروط يتبين له أنها احتراز لما يقع في بعض الرقى من الشرك بذكر غير الله تعالى واعتقاد أن تلك الرقى والتمايم تؤثر بذاتها لا من الله ﷻ . وقد أفهم كلام المالكية في هذه المسألة أن شرك الرقى والتمايم ضرب من الشرك الأكبر^(٦) .

٥-٦- وفي هذا يقول القرافي عند بيانه الرقى التي لم تشرع :

(١) شرح الزرقاني (٣٢٣/٤) .

(٢) المرجع نفسه (٣٢٨/٤) .

(٣) المفهم (٥٨١/٥) .

(٤) انظر نور الحق (٧١-٧٠/٩) .

(٥) انظر حاشية العدوي (٦٤٣/٢) . وإرشاد الساري للقسطلاني (٣٨٨/٨) ، وفتح الباري (١٩٥/١٠) .

(٦) هذه الشروط كما هي في الرقية فهي كذلك تنطبق على التمايم عندهم ، فهي باب واحد عندهم ، وقد سرت على طريقتهم في الكلام أولاً عن الرقى ثم التمايم كما سيأتي إن شاء الله .

« كرقى الجاهلية والهند وغيرهم ، وربما كان كفرًا ، ولذلك نهي مالك رحمه الله عن الرقى بالعجمية »^(١) .

والمعنى الذي نهي مالك عن الرقية من أجله هنا هو ما قد تشتمل عليه من معان مجهولة ، كذكر غير الله تعالى .

٧— وهو ما أفصح عنه المازري فقال :

« وينهى عنها بالكلام الأعجمي وما لا يعرف معناه ؛ لجواز أن يكون فيه كفر أو إشراك »^(٢) .

٨— من هنا يعلم وجه كراهية مالك لرقية أهل الكتاب ، كما أوضحه الباجي بقوله :

« وذلك - والله أعلم - إذا لم تكن رقيتهم موافقة لما في كتاب الله ، وإنما كانت من جنس السحر ومأمنه كفر مناف للشرع »^(٣) .

٩— وفي موضع آخر بين أن المنع من الرقى في أول الأمر لاحتمال أن يكون فيها شيء من أقوال أهل الكفر ، وقد استدللّ على ذلك بحديث علي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما : « إنّ الرقى والتمايم والتولة شرك » ، وحديث عوف بن مالك الأشجعي قال : كنا نرقى في الجاهلية ، فقلنا : يا رسول الله كيف ترى في ذلك ؟ فقال : « اعرضوا عليّ رقاكم ، فلا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك »^(٤) .

(١) ترتيب الفروق (٢/٤٢٨) .

(٢) إكمال المعلم (٧/٩٨) . وأضاف أيضًا : « وقد كره مالك أن يحلف بالعجمية ، وقال : ما يدرية أن الذي قال كما قال » . فالذي تخوفه مالك هو وقوع الشرك في الرقى بذكر غير الله ، كما يقع بالحلف بغير الله .

(٣) المنتقى (٧/٢٦١) .

(٤) المنتقى (٧/٢٥٨) .

١٠ — ونظيره ما ذكره ابن عبد البر في توجيه كراهية مالك لرقية أهل الكتاب^(١) .

وبهذا يتبين أن الإمام مالكا رحمه الله أراد أن لا تشوب تلك الرقى شائبة الإشراك بالله تعالى ، فيتحقق حينئذ سلامة الألفاظ واتضاح المعاني .

١١ — وعلى هذا جعل القرطبي الرقى مجهولة المعاني أو التي كان يتعاطاها أهل الجاهلية ممنوعة على سائر أهل الإسلام ، فقال في تقسيمه للرقى :
« فما كان فيه من رقى الجاهلية أو بما لا يعرف فواجب اجتنابه على سائر المسلمين »^(٢) .

وما ذاك إلا لما يعتقد أهل الجاهلية من أن النفع والضرر موكول إلى تلك الرقى ، وذلك لما اشتملت عليه من ذكر الجن وسؤالهم من دون الله تعالى .

١٢-١٣ — كما نقل ذلك القاضي عياض والقرطبي عن الخطابي مقررين له ، فقال - في كلامه عن الرقى المكروهة - :

« ... وإنما جاءت الكراهية منها مما كان بغير لسان العرب ، فإنه ربما كان كفراً أو قولاً يدخله الشرك ... ويحتمل الذي ذكره من الرقية ما كان منها على مذاهب الجاهلية في العوذ التي كانوا يتعاطونها ، وأنها تدفع عنهم الآفات ويعتقدون أن ذلك من قبل الجن ومعونتهم »^(٣) .

ولا ريب أن هذا من الشرك الأكبر ؛ لما فيه من دعاء غير الله ﷻ .

١٤ — وعند حديث عائشة رضي الله عنها " أن النبي ﷺ رخص في الرقية من كل ذي حمة^(٤) " ^(٥) ، قال ابن بطال :

(١) الاستذكار (٣٢/٢٧) .

(٢) المفهم (٤٦٦/١) .

(٣) إكمال المعلم (٦٠٦/١) . وانظر المفهم (٤٦٢/١) ، ومعالم السنن للخطابي (٢٠٩/٤) .

(٤) قال ابن الأثير : الحمة بالتخفيف : السَّم . انظر النهاية (٤٤٦/١) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩٠/٦) ، والنسائي في الكبرى (٧٥٣٩) ، والترمذي (٢٠٥٦) =

كل ذي حُمة^(١) «^(٢)» ، قال ابن بطال :

« هذا الحديث يبين ما روي عن علي وابن مسعود أنهما قالا : « الرقى والتمايم والتولة شرك » : أن المراد بذلك رقى الجاهلية وما يضاهي السحر من الرقى المكروهة ، ونقل عن ابن شهاب قال : « بلغني عن رجال من أهل العلم أنهم كانوا يقولون : إن رسول الله ﷺ نهي عن الرقى حين قدم المدينة ، وكان الرقى في ذلك الزمن فيها كثير من كلام الشرك ... »^(٣) .

فجعل النهي عن الرقى هنا بسبب ما اشتملت عليه من الشرك ، فما خلا من ذلك فإنه جائز إذا استوفى الشروط المذكورة آنفاً .

١٥ — ونقل محمد المختار على سبيل الإقرار ما أورده ابن حجر من حديث عوف بن مالك الأشجعي ، ثم قال :

« .. دل حديث عوف على أن ما كان من الرقى يؤدي إلى الشرك يمنع ، وما يعقل معناه لا يؤمن أن يؤدي إلى الشرك ، فيمنع احتياطاً »^(٤) .

وأما اعتقاد تأثير الرقى والتمايم بذاتها فقد أنكره أئمة المالكية .

١٦ — وفي هذا يقول ابن الحاج في كلامه عن الرقى والتداوي :

« الأشياء لا تؤثر بذواتها ولا بخاصية فيها ، بل بمحض اعتقاده بأنه لا فاعل على الحقيقة إلا الله ﷻ ، وأنه لا تأثير لشيء من المحدثات في شيء ، فالدواء لا ينفع بنفسه بل الشفاء وغيره خلق من خلق الله ﷻ »^(٥) .

١٧ — ونص الصاوي على أن من اعتقد أن الرقى تؤثر بنفسها فإنه كفر^(٦) .

(١) قال ابن الأثير : الحُمة بالتخفيف : السَّم . انظر النهاية (١/٤٤٦) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩٠/٦) ، والنسائي في الكبرى (٧٥٣٩) ، والترمذي (٢٠٥٦) عن أبي أنس ؓ . وصححه الألباني والأرنؤوط . انظر صحيح سنن الترمذي (٤٠٤/٢) ، والمسند (١٩٠/٦) .

(٣) شرح صحيح البخاري (٤٣١/٩-٤٣٢) .

(٤) نور الحق (٧١/٩) . وانظر فتح الباري (١٩٥/١٠) .

(٥) المدخل (٣٢٤/٤-٣٢٥) .

(٦) بلغة السالك (٤٣٧/٤) .

١٨ — ولذا حين خرج الإمام مالك بسنده حديث أبي بشير الأنصاري أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، قال : فأرسل رسول الله ﷺ رسولا - قال عبدالله بن أبي بكر : حسبت أنه قال : والناس في مقيلهم - : « لا يقيّن في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت »^(١) ، قال رحمه الله :
« أرى ذلك من العين »^(٢) .

ومراد الإمام مالك أنه بتعليقهم هذه القلائد والتماائم يعتقدون أنها تصرف عنهم الضرر ، ومن ذلك العين .

- ١٩ — يدل على هذا ما عرف به ابن عبدالبر التماائم بقوله :
« ما علّق في الأعناق من القلائد خشية العين أو غيرها من أنواع البلاء »^(٣) .
- ٢٠ — وقد علق ابن بطال على كلام الإمام مالك هنا في « الذي قلدها إذا اعتقد أنها ترد العين فقد ظنّ أنها تردّ القدر ، ولا يجوز اعتقاد هذا »^(٤) .
- ٢١ — ونظيره قال به الباجي في بيانه معنى قول مالك^(٥) .
- ٢٢ — ونحو من قول ابن بطال والباجي ما ذكره الزرقاني عند إيراده مقالة مالك ، ثم عقب بقوله :

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ، باب ما قيل في الجرس ونحوه في أعناق الإبل (١٤١/٦) برقم (٣٠٠٥) ، ومسلم في كتاب اللباس والزينة ، باب كراهة قلادة الوتر في رقبة البعير (١٦٧٢/٣) برقم (٢١١٥) .

(٢) الموطأ (٩٣٧/٢) .

(٣) التمهيد (١٦٢/١٧) .

(٤) شرح البخاري (١٥٩/٥) .

(٥) المنتقى (٢٥٥/٧) .

« يؤيده حديث عقبة بن عامر رفعه : « من علّق تيممةً فلا أتمّ الله له »^(١) »^(٢) .

وذلك لأن أهل الجاهلية كانوا يشدون تلك الأوتار والتماائم والقلائد ، ويلقون عليها العوذ لتعصمهم من الآفات .

٢٣ — كما بين ذلك ابن عبد البر بقوله :

« وهذا كله تحذير ومنع مما كان أهل الجاهلية يصنعون من تعليق التماائم والقلائد يظنون أنها تقيهم وتصرف البلاء عنهم ، وذلك لا يصرفه إلا الله ﷻ ، وهو المعافي والمبتلي لا شريك له ، فنهاهم رسول الله ﷺ عما كانوا يصنعون من ذلك في جاهليتهم »^(٣) .

٢٤ — وقد ذكر القرطبي النهي عن ذلك بإيراده « فعل ابن مسعود ﷺ حين رأى على أم ولده^(٤) تيممةً مربوطةً فجذبها جذباً شديداً ، فقطعها وقال : إنّ آل ابن مسعود لأغنياء عن الشرك ! ثم قال : « إنّ التماائم والرقى والتولة شرك » ، وحديث عقبة بن عامر الجهني : « من علّق تيممةً فلا أتمّ الله له ، ومن علّق ودعة فلا ودع الله له قلباً » .

٢٥ — ثم عقب على ذلك بنقل قول ابن عبد البر السابق مقراً له بيانه عقيدة أهل الجاهلية في التماائم والقلائد^(٥) .

ولا ريب أنّ من اعتقد أنّ إلى التماائم والقلائد صرف البلاء ودفعه فهو مشرك

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٥٤/٤) ، والحاكم (٢١٦/٤) وصححه ، ووافقه الذهبي . قال المنذري في الترغيب والترهيب : " إسناده جيد " . (٣٠٦/٤) . وقال الهيثمي (١٠٣/٥) بعدما عزاه لأحمد وأبي يعلى والطبراني : " رجالهم ثقات " . قال الأرئوط بعد أن ساق طرقه : " حديث حسن " . المسند (١٥٤/٤) .

(٢) شرح الزرقاني (٣١٩/٤) .

(٣) التمهيد (١٦٢/١٧) .

(٤) ولعلها زوجته كما سبق في الحديث . انظر الحاشية ص ٣٦٨ .

(٥) انظر تفسير القرطبي (٣٢٠/١٠) .

بالله تعالى ، فالنفع والضرر من الله وحده .

وذلك لأنّ من تعلّق شيئاً من هذه الأشياء فإنما يتعلّق به بقلبه وبنفسه ، بحيث ينزل خوفه ورجاؤه وأمله به ، وهذا الذي أراده السحرة في صنيعهم التمايم كي يُعبد غير الله تعالى ويتعلّق به .

٢٦ — كما بينه الإمام مالك بقوله :

« الأسماء التي يكتبها السحرة في التمايم أسماء أصنام »^(١) .

٢٧ — وأبان القرطبي أبو العباس عند حديث أبي بشير وقول مالك السابق وما كان عليه القوم بقوله :

« يعني أنهم كانوا يتعوّذون بتعليق أوتار قسيّهم في أعناق إبلهم من العين ، فأمر النبي ﷺ بقطعها لأجل توقع ذلك »^(٢) .

ومعلوم أن الاستعاذة عبادة لا تجوز بغير الله تعالى ، فمن استعاذ بما تعلّقه من وتر أو قلادة فقد أشرك بالله تعالى .

٢٨ — ولما سئل ابن العربي عما يتعلّقه الناس من الأحراز والأحجار : ما قولكم فيها ؟ قال :

« روى أبو عيسى وغيره من حديث عبدالله بن عكيم أنه نزلت به حمرة فقيّل : ألا تعلّق شيئاً ؟ قال : قال النبي ﷺ : « من تعلّق شيئاً وكل إليه »^(٣) ، وذلك أن الجهال يزعمون أن في الجمادات والحيوانات خصائص من الوقاية وكلام أهل الإلحاد

(١) التحرير والتنوير (١/٦٣٧) .

(٢) المفهم (٥/٤٣٥) .

(٣) خرجه الإمام أحمد (٤/٣١٠-٣١١) ، والترمذي (٢٠٧٢) ، والحاكم (٤/٢١٦) عن عبدالله بن عكيم مرسلأ ، وفيه عبدالرحمن بن أبي ليلي صدوق سيئ الحفظ ، قال الترمذي : لم يسمع من النبي ﷺ . اهـ . وللحديث شواهد من حديث أبي هريرة وعمران بن حصين وعقبة بن عامر رضي الله عنهم يحسن بها الحديث . قال الأرناؤوط : " حسن لغيره " . انظر المسند (٤/٣١٠) .

و الصنارات ، وذلك شرك ...

٢٩- ثم نبه على مسألة مهمة لها صلة بالتمائم ، وهي مسألة تعليق التمام من

القرآن ، فقال :

((إذا تعلق قرآنًا فإنه وإن كان تقاة لكنه ليس من طريق السنة ، وإنما السنة فيه

الذكر دون التعليق))^(١) .

فلو كان تعليق ما فيه ذكر مشروعًا لبينه النبي ﷺ كما بين المشروع من

الرقى^(٢) .

(١) عارضة الأحوذى (٢٢٢/٨) .

(٢) وهذه المسألة - أعني تعليق التمام التي من القرآن وأسماء الله وصفاته - قالت طائفة بجوازها ، وهو

قول عبدالله بن عمرو وغيره ، وظاهر ما روي عن عائشة ، وحملوا النهي في ذلك على التمام

الشركية . وقالت طائفة : لا يجوز ذلك . وهو قول ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما ، وبه قال

جماعة من التابعين . انظر أقوال العلماء في هذه المسألة في : مصنف ابن أبي شيبة (٣٧٤/٧) ط. الدار

السلفية ، وتيسير العزيز الحميد (١٦٨) ، ومعارج القبول (٣٨٢/١) .

والذي ورد هو القراءة على المريض دون التعليق ؛ لأن التعليق ليس له علاقة بالمرض ، بخلاف النفث

على مكان الألم فإنه ينفع بإذن الله ، وقد يحصل الامتهان لهذه التميمة ، سيما إذا علقت على الصغار ،

وحيث كان الخلاف في هذه المسألة قديمًا فإن الباجي وابن عبدالبر نقلا عن مالك جواز تعليق العوذة

من القرآن ، وقال به الباجي . انظر : المنتقى (٢٥٥/٧) . قال مالك : « لا بأس بتعليق الكتب التي فيها

أسماء الله ﷻ على أعناق المرضى على وجه التبرك بها إذا لم يرد معلقها بتعليقها مدافعة العين » . انظر

التمهيد (١٦١/١٧) . وقال بذلك ابن عبدالبر بعد نزول البلاء . وانظر التمهيد (١٦٤/١٧) ، وتفسير

القرطبي (٣٢٠/١٠) ، وابن بطال في شرح البخاري (١٦٠/٥) .

والصواب عدم جواز تعليق التمام التي من القرآن والأدعية ، وذلك لأن قول عائشة : « إن التميمة ما

علق قبل البلاء لا بعده » - البيهقي (٣٥١/٩) ، والمستدرک (٢١٧/٤) - يحمل لم تذكر فيه تعليق

القرآن وإنما ذكرت أن التميمة ما علق قبل نزول البلاء لا بعده ، وقولها محتمل فلا ينسب لها القول

بجواز تعليق القرآن لمجرد هذه الرواية .

وأما ما روي عن عبدالله بن عمرو فإنه لا يصح ، لعنعة محمد بن إسحاق ، وهو مدلس يقول الشيخ

محمد حامد الفقي رحمه الله في تعليقه على ما روي عن عبدالله بن عمرو : « ... الرواية بذلك ضعيفة

ولا تدل على هذا ؛ لأن فيها أن ابن عمرو كان يحفظه أولاده الكبار ويكتبه في ألواح ويلقه في عنق

الصغار ، فالظاهر أنه كان يعلقه في اللوح ليحفظه الصغير لا على أنه تميمة ، والتميمة تكتب في =

٣٠- ونقل القرافي قول ابن رشد مقررًا له عن التمايم ما كان منها « بالعبراني وما لا يُعرف فيحرم للمريض والصحيح ؛ لما يخشى أن يكون فيها من الكفر »^(١) .

٣١-٣٢- وذكر هذا المعنى أيضًا ابن جزري^(٢) ، وابن أبي جمرة^(٣) .

والمعنى الذي تخوفوه هو ما سبق بيانه من التعلق بغير الله تعالى لدفع الضر وجلب النفع .

وهذا المعنى سواء كان في الرقي أو التمايم فإنه ممنوع ، وهذا يبين أن المالكية جعلوا الرقي والتمايم بابًا واحدًا كما تقدم .

وبالجملة ؛ فإن المتأمل حال أهل الرقي والتمايم الشريكية يرى أنهم سلكوا مسلك أهل الجاهلية من حيث الألفاظ التي اشتملت على دعاء غير الله فيما لا يملكه إلا الله ، أو في الاعتقاد الباطل بأن تلك الرقي والتمايم تجلب النفع أو تدفع الضر .

فهم بهذا إنما أرادوا ذكر غير الله تعالى من الشياطين والجن ، والاستعاذة بهم وبمردتهم ، وتعلق الناس بهم ، ومن كان هذا قصده فلن يلتفت إلى الرقي المشروعة بشروطها المعتبرة ، ولا إلى ما اختلف فيه من التمايم كما سلف بيانه .

ولا ريب أن هذا شرك أكبر ؛ لما فيه من دعاء غير الله واعتقادهم أن النفع والضرر جاء من قبل تلك الرقي والتمايم .

= ورقة لا في لوح ، بدليل تحفيظه للكبار .

انظر هامش فتح المجيد (١٣٢) ، والسلسلة الصحيحة (٥٨٥/١) ، والنهج السديد (٦١) ، وصحيح سنن أبي داود (٧٣٧/٢) . وانظر كتاب التمايم في ميزان العقيدة ، د. علي بن نقيع العلياني ، وأحكام الرقي والتمايم ، د. فهد السحيمي .

(١) الذخيرة (٣١١/١٣) .

(٢) انظر القوانين الفقهية (٤٨٦) . ط. دار الملايين .

(٣) انظر بهجة النفوس (٢٢٧/٢) .

المبحث الثاني

الشرك المنافي لكمال التوحيد

وفيه المسائل الآتية :

- المسألة الأولى : الحلف بغير الله .
- المسألة الثانية : التعبد لغير الله ﷻ .
- المسألة الثالثة : التسمي بملك الملوك .
- المسألة الرابعة : الطيرة .
- المسألة الخامسة : التبرك الممنوع .
- المسألة السادسة : سبّ الدهر .

المسألة الأولى : الحلف بغير الله ﷻ

لما كان الحلف بغير الله تعالى مما تعجّ به الجاهلية ، فقد جاء النهي عنه والتشديد في ذلك بصفته ضرباً من الشرك بالله تعالى ، كما تظاهرت النصوص الشرعية بذلك . ومنها حديث ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك »^(١) .

ومنها حديث قتيلة الجهنية رضي الله عنها أن حبراً أتى النبي ﷺ فقال : يا محمد ! نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون . قال : « سبحان الله ! وما ذاك ؟ » . قال : تقولون إذا حلفتُم : والكعبة ، قالت : فأمهل رسول الله ﷺ شيئاً ثم قال : « إنه قد قال ، فمن حلف فليحلف برب الكعبة »^(٢) .

فأقرّ عليه الصلاة والسلام تسمية هذا الحلف بالشرك ونهى عنه . ولذا فإن من أشرك بالحلف بغير الله ناسياً أو جاهلاً فكفارته أن ينطق بالتوحيد عقب ذلك ؛ لما في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « من حلف فقال في حلفه : باللات والعزى ، فليقل : لا إله إلا الله »^(٣) .

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/٣٤-٨٦) ، والطيالسي (١٨٩٦) ، وأبو داود (٣٢٥١) ، والترمذي (١٥٣٥) وحسنه ، وابن حبان (١١٧٧) وحسنه ، والحاكم (١٨/١ و ٢٩٧/٤) وصححه على شرطهما ، وأقرّه الذهبي ، وصححه الألباني . صحيح سنن الترمذي (٢/١٧٥) . وقال الأرناؤوط : رجاله ثقات . المسند (٢/٣٤) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/٣٧١-٣٧٢) ، والنسائي (٦/٧) ، والحاكم (٤/٢٩٧) وصححه ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي (٣/٢١٦) .

وصححه ابن حجر في الإصابة (٤/٣٨٩) ، وصححه الألباني . انظر صحيح سنن النسائي (٣/٩) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان والنذور ، باب لا يحلف باللات والعزى ولا بالطواغيت (١١/٥٣٦) برقم (٦٦٥٠) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب من حلف باللات والعزى فليقل : لا إله إلا الله (٣/١٢٦٧) برقم (١٦٤٧) .

١ — قال ابن بطال :

« فإنه علمهم ﷺ أنه من نسي أو جهل فحلف بذلك أن كفرته أن يشهد شهادة التوحيد ؛ لأنه قد تقدم ﷺ إليهم بالنهي عن أن يحلف أحد بغير الله ، فعذر الناسي والجاهل »^(١) .

ولا ريب أن المسلم قد اختل توحيدَه من جراء هذا الحلف ، فأمر حينئذ بتجديد إسلامه مرةً أخرى .

ومما يدل على التغليظ على من حلف بغير الله ما جاء في حديث بريدة المرفوع :
« من حلف بالأمانة فليس منا »^(٢) .

وكذلك ما جاء عن ابن مسعود ﷺ أنه قال : « لأن أحلف بالله كاذباً أحبّ إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً »^(٣) .

وما ذاك إلاّ لأجل أن الحلف بالله توحيد ، والحلف بغيره شرك ، ولأن تبعة الشرك أعظم من تبعة الكذب .

وقد فسّر ابن عباس رضي الله عنهما قول الله تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾^(٤) بقوله : « الأنداد : هو الشرك أخفى من ديب النمل على صفاة سوداء في ظلمة

(١) شرح البخاري (٢٩٢/٩) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣٥٢/٥) ، وأبو داود (٣٢٥٣) ، وابن حبان (١٣١٨) ، والحاكم (٢٩٨/٤) وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه المنذري في الترغيب والترهيب (٨٢/٣) ، وصححه الألباني . انظر صحيح سنن أبي داود (٣١٤/٢) ، والأرنؤوط في المسند (٣٥٢/٥) .

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٤٦٩/٨) ، والطبراني في الكبير (٨٩٠٢) عن ابن مسعود بسند صحيح . وقال المنذري في الترغيب (٦٠٧/٣) - وتبعه الهيثمي في المجمع (١٧٧/٤) - : « رواته رواية الصحيح » . وأما المرفوع عن ابن مسعود كما في الحلية (٢٦٧/٧) فسنده لا يصح ؛ لأنّ فيه محمّد بن معاوية بن أعين النيسابوري كذبه ابن معين والدارقطني وأبو طاهر المدني ، كما في التهذيب (٤٦٤/٩-٤٦٥) .

(٤) سورة البقرة : ٢٢ .

الليل ، وهي أن تقول : والله وحياتك يا فلان ، وحياتي ... »^(١).

وهذا كله يبين أن الحلف بغير الله ﷻ منكر عظيم وشرك وضلال .

وقد بين أئمة المالكية حرمة الحلف بغير الله تعالى ، إلا أنه خالف بعض متأخري^(٢) المالكية متقدميهم فقالوا بكراهة الحلف بغير الله ﷻ^(٣) .

ولعل هذا القول سرى إليهم من الشافعية ، حيث يقول جمهورهم بكراهة الحلف بغير الله^(٤) .

ولهذا لم يرتض القرطبي أبو العباس هذا القول لأصحابه المالكية ، وجعل الحلف بغير الله تعالى كفراً أو كبيرة من كبائر الذنوب ، وذلك حسب قصد الحالف ، وذلك عند شرحه لقوله ﷺ : « من حلف على يمين بجملة غير الإسلام كاذباً فهو كما قال - وفي رواية : متعمداً - »^(٥) .

٢- حيث قال : « قوله : « كاذباً متعمداً » يحتمل أنه يريد به النبي ﷺ من كان معتقداً لتعظيم تلك الملة المغايرة لملة الإسلام ، وحينئذ يكون كافراً حقيقة ... وأما إن كان الحالف بذلك غير معتقد لذلك فهو آثم مرتكب كبيرة ، إذ قد نسبته في

(۱) خرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (۱/۶۲) - كما في تفسير ابن كثير (۱/۲۱۰) عند قوله تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ - عنه بسند حسن ، فيه شبيب بن بشير وهو حسن الحديث . انظر النهج السديد (۲۲۲) .

(٢) ذكر القرافي القول بالكراهة ، ونقله عن ابن رشد في تقسيمه لليمين . انظر الفروق (٥١/٣) ، ونقله ابن حزمي في القوانين الفقهية (١٥٣) ، والمقدمات لابن رشد (٤٠٨/٢) ، والذخيرة (٦/٤) .

(٣) ذكر الزرقاني أنّ القول بتحريم الحلف بغير الله قد اشتهر عند المالكية ، فقال - عند حديث عمر رضي الله عنه : « هل النهي للتحريم أو للتنزيه ؟ قولان شهرا عند المالكية ، والمشهور عند الشافعية أنه للتنزيه ، وعند الحنابلة للتحريم » . شرح الزرقاني (٦٧/٣) .

(٤) نسبه ابن حجر في الفتح (٢٠/٢٥) لجمهور الشافعية، ونسبه السبكي في الطبقات (٢٨٠/٥) لمعظمهم.

(٥) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الإيمان ، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (١/١٠٤-١٠٥) برقم (١١٠) .

قوله لمن يعظم تلك الملة ويعتقدها ، فغلظ عليه الوعيد بأن صيَّره كواحد منهم مبالغةً في الردع والزجر»^(١) .

٣- وعند نهي النبي ﷺ عن الحلف بالآباء بين القرطبي أن المراد تعظيمهم بذلك ، فلا يكون الحلف إلا بالله ، إذ هو المستحق للتعظيم ، فقال :

« إنما نهي النبي ﷺ عن الحلف بالآباء لما فيه من تعظيمهم بصيغ الأيمان ؛ لأنَّ العادة جارية بأن الخالف منا إنما يحلف بأعظم ما يعتقد كما بيناه ، وإذا كان كذلك فلا أعظم عند المؤمن من الله تعالى ، فينبغي ألاَّ يحلف بغيره ، فإذا حلف بغير الله فقد عظم ذلك الغير بمثل ما عظم به الله تعالى ، وذلك ممنوع منه ، وهذا الذي ذكرناه في الآباء جاء في كل محلوف به غير الله تعالى ، وإنما جرى ذكر الآباء هنا لأنه هو السبب الذي أثار الحديث حين سمع النبي ﷺ عمر يحلف بأبيه ، وقد شهد لهذا المعنى قوله : « من كان حالفًا فلا يحلف إلا بالله » ، وهذا حصر ، وعلى ما قررناه فظاهر النهي التحريم ، فيتحقق فيما إذا حلف بملة غير الإسلام أو بشيء من المعبودات دون الله تعالى ، أو ما كانت الجاهلية تحلف به ، كالدمى والدماء والأنصاب ، فهذا لا يشك في تحريمه . وأما الحلف بالآباء والأشراف ورؤوس السلاطين وحياتهم ونعمهم وما شكل ذلك فظاهر هذا الحديث يتناولهم بحكم عمومهم ، ولا ينبغي أن يختلف في تحريمه . وأما ما كان معظماً في الشرع - مثل النبي ﷺ ، والكعبة ، والعرش ، والكرسي ، وحرمة الصالحين - فأصحابنا يطلقون على الحلف بها الكراهية ، وظاهر الحديث وما قدّمناه من النظر في المعنى يقتضي التحريم»^(٢) .

فما ذكره رحمه الله من تحريم الحلف بغير الله هو الصواب الذي عليه عامة العلماء .

(١) المفهم (٣١٢/١) .

(٢) المفهم (٦٢١/٤) .

٤— كما ذكره ابن عبد البر بقوله :

« لا يجوز الحلف بغير الله ﷻ في شيء من الأشياء ، ولا حال من الأحوال ، وهذا أمر مجتمع عليه ... » . ثم عقب بذكر حديث : « من حلف بغير الله فقد أشرك » ، وحديث عمر رضي الله عنه : « لا تحلفوا بآبائكم » ، ثم قال :
« والحلف بال مخلوقات كلها في حكم الحلف بالآباء لا يجوز بشيء من ذلك »^(١) .

فنقله رحمه الله الإجماع ثم تعقيبه على ذلك بحديث : « من حلف بغير الله فقد أشرك » ، وحديث عمر يدل على أنه يرى تحريم الحلف بغير الله ﷻ ، كما هو رأي متقدمي المالكية أيضاً .

٦— فقد خرج الإمام مالك في موطئه حديث عمر رضي الله عنه النهي عن الحلف بالآباء في باب جامع الإيمان ، ولم يعلق عليه ، مما يدل على أنه يقول بموجبه .

روى الإمام مالك بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب وهو يحلف بأبيه ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت »^(٢) .

٧— يوضح هذا المعنى ما ذكره القرطبي عن مالك : « أنه حمل الحديث على ظاهره »^(٣) .

٨— وقد أهدر الإمام مالك رحمه الله حلف النصارى والجوس بما يعظمونه ، مع

(١) التمهيد (٣٦٦/١٤) .

(٢) الموطأ (٤٨٠/٢) . وخرجه البخاري في كتاب الإيمان والنذور ، باب لا تحلفوا بآبائكم (٥٣٠/١١) برقم (٦٦٤٦) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى (١٢٦٦/٣) برقم (١٦٤٦) .

(٣) تفسير القرطبي (٤٢/١٠) .

أنهم قد يصدقون إذا حلفوا بها ، وذلك منه حماية للتوحيد حتى لا يحلف إلا بالله تعالى وحده .

فحين سئل عن النصرانية تكون تحت المسلم أن تلتعن ؟ قال : « في كنيستها ، وحيث تعظم وتحلف بالله فقط » .

قال ابن القاسم : ما سمعته يقول : يحلفون إلا بالله فقط .. وكذلك في المجوس قال : لا يحلفون إلا بالله حيث يعظمون »^(١) .

٩— وذكر القرطبي « أن المشهور عن مالك أنه إنما يحلف بالله الذي لا إله إلا هو ، سواء كان يهودياً أو نصرانياً أو غيرهما من الأديان ، كما يحلف المسلم »^(٢) .
وذلك لما تقرر عنده من أن المسلم لا يحلف إلا بالله تعالى .

فتأكيد رحمة الله على أن لا يحلف أحد إلا بالله يبين أنه يرى المنع من أن يحلف بغيره تعالى مطلقاً^(٣) ، كما نص على ذلك بقوله : « من كان حالفاً فليحلف بالله »^(٤) .

١١— يوضح هذا المعنى عن مالك ويؤكد كراهته أن يحلف أحد بلسان أعجمي ، إذ لا يعلم هل حلف بالله أم لا . فحين سئل مالك عن الرجل يحلف بالعجمية فكره ذلك .. وقال : « وما يدرى الذي قال أهو كما قال ؟ » أي الذي حلف به أنه هو الله ، ما يدرى أنه هو أم لا^(٥) .

(١) المدونة (١٣٥/٥) .

(٢) المفهم (١٥/٥) .

(٣) وقد جاء عن مالك النهي عن الحلف بغير الله ، كما ذكره ابن عبد البر في التمهيد (٣٦٦/١٤) ، وتفسير القرطبي (٤٠/١٠) ، والمقدمات لابن رشد (٣٠٨-٣٠٩) ، وشرح الصغير للدرديري (٢٠٣/٢) .

(٤) المدونة (١٠٧/٢) .

(٥) المدونة (٦٣-٦٢/١) .

فالمعنى الذي كره مالك الحلف من أجله هنا هو أن يحلف أحد بغير الله تعالى .

١٢ — وقد منع ابن نصر الحلف بغير الله تعالى ، مبيناً أن الحلف إنما يكون بالله تعالى وبصفاته فقط ، فقال :

« الحلف الجائز هو بالله وبصفات ذاته ، والحلف بغيره ممنوع ، كالحلف بالأنبياء والآباء أو بالكعبة ، أو ما أشبه ذلك من المخلوقات ؛ لقوله ﷺ : « لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ، ولا تحلفوا إلا بالله ، ومن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » .^(١) »

١٣ — وذكر ابن بطال عند شرحه حديث عمر رضي الله عنه أن الحلف بغير الله تعالى شرك ، فقال :

« ... فلم ير النبي ﷺ إكفار عمر حين حلف بأبيه وترك الحلف بربه الذي خلقه ورزقه وهده ، وقصد اليمين بغير الله تشريك لله في حقه ... إذ لا يحلف الحالف إلا بأعظم ما عنده من الحقوق ، ولا أعظم من حق الله على عباده »^(٢) .

١٤ — وبين فيما نقله عن الطبري مقراً له أن الحلف لا يجوز بغير الله تعالى أبداً ، فقال :

« إن الأيمان لا تصلح بغير الله تعالى كائناً من كان ، وأن من قال : والكعبة ، أو وجبريل وميكائيل ، أو آدم وحواء ، ونوح ، أو قال : وعذاب الله ، أو ثواب الله ، أنه قد قال من القول هجراً »^(٣) .

وهذا يدل على تحريم الحلف بغير الله تعالى ، إذ هو في حقيقته شرك ومنكر من القول .

(١) المعونة (٤١٢/١) .

(٢) شرح البخاري (٢٩٢/٩) .

(٣) المرجع السابق (٩٦/٦-٩٧) .

١٥ — وأما الباجي فقد بين عند حديث عمر رضي الله عنه أن النهي يعم ما سوى الله تعالى ، مستدلاً على ذلك بقوله ﷺ : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » ثم قال :

« فلا يكون الحلف إلا بالله ، ومن تعدّاه فلا يتعدّاه إلا إلى الصمت ... وعلى هذا جماعة المسلمين ، امتثالاً لأمر النبي ﷺ ، فلا يجوز لأحد أن يحلف بالشمس ، ولا بالقمر ، ولا بالنجوم ، ولا بالسما ، ولا بالأرض ، ولا بشيء من المخلوقات ، ومن حلف بذلك فقد أثم ، ولا شيء عليه » ^(١) .

وعقب على ذلك بأثر عبدالله بن مسعود : « لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً » .

فنص على تحريم الحلف بغير الله تعالى ، فمن أقدم عليه فقد وقع في الإثم ولا يلزمه شيء من جهة الكفارة لو حنث .

١٦ — وقرر المازري تحريم الحلف بغير الله تعالى ، وذلك عند تعليقه على قوله ﷺ : « إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم » ، وجوابه عن الإشكال من الحكم بتحريم الحلف بالآباء والنبي ﷺ قد حلف بذلك ، وما في القرآن من القسم بغير الله ، فقال :

« هذا لئلا يشرك في التعظيم بالقسم غير الله سبحانه ، وقد قال ابن عباس : لأن أحلف بالله فأثم أحبّ إليّ من أن أضاهي . فقل : معناه الحلف بغير الله ، وقيل : معناه الخديعة يري أنه حلف وما حلف ، وقد قال ابن عباس أيضاً : أن أحلف بالله مائة مرة فأثم خير من أحلف بغيره فأبر . ولهذا ينهى عن اليمين بسائر المخلوقات ، ولا يعترض علي هذا بقوله ﷺ : « أفلح وأبيه إن صدق » ؛ لأنه لا يراد بها القسم ، وإنما هذا قول جار على ألسنتهم .

(١) المتقى (٢٥٩/٣) .

وقوله تعالى : ﴿ والتين والزيتون ﴾ قيل : معناه ورب التين والزيتون ، أو يكون المراد به التنبيه على ما فيها من العجائب والمنة بها عليهم ، ولا يراد بهما القسم ، ولو سلمنا أن المرد بهما القسم من غير حذف وإضمار لم يبعد أن يكون الباري سبحانه يقسم بهما ويمنعنا من القسم بهما ، وتعظيم الباري جلت قدرته للأشياء بخلف تعظيمنا لها ؛ لأن كل حق بالإضافة إلى حقه سبحانه حقير ، وكل عظيم عند الإضافة إليه هيّن ... وإنما تعظيمه لبعض الأمور تنبيه لنا على قدرها عنده ، أو تعبد لنا بأن نعظمها فلا يقاس هذا على هذا ^{(١)(٢)} .

١٧— وأورد ابن العربي أحاديث النهي عن الحلف بغير الله ، وهي حديث ابن عمر : « من حلف بغير الله فقد كفر - أو قد أشرك - » ، وحديث أبي هريرة : « من حلف منكم فقال في حلفه : واللات والعزى ، فليقل : لا إله إلا الله » ، وحديث ثابت بن الضحاك : أن النبي ﷺ قال : « من حلف بجملة غير الإسلام كاذباً فهو كما قال » ، ثم قال :

(١) المعلم (٢/٢٤٠) .

(٢) وقد أجاب كثير من المالكية عن هذا الإشكال ، والخلاصة في ذلك ما ذكره القرطبي بأن هذا كان قبل النهي عن الحلف بالآباء ، أو أن يكون جرى على اللسان بحكم السبق من غير قصد للحلف به ، كما جرى منه : تربت يمينك ، وعقرى حلقى ، عادة بشرية لا مواخذة عليها ولا ذم يتعلق بها . ويرى ابن عبد البر أن لفظة حديث « أفلح وأبيه إن صدق » غير محفوظة ، وعلى فرض ثبوتها فهي منسوخة بحديث النهي عن الحلف بغير الله ، حيث يقول : « هذه لفظة غير محفوظة في هذا الحديث في حديث من يحتج به ، وقد روى هذا الحديث مالك وغيره عن أبي سهيل ، ولم يقولوا ذلك فيه ، وقد روي عن إسماعيل بن جعفر هذا الحديث ، وفيه : « أفلح والله إن صدق » ، أو « دخل الجنة إن صدق » ، وهذا أولى من رواية من روى « أبيه » ؛ لأنها لفظة منكرة ترددها الآثار الصحاح » . التمهيد (٣٦٧/١٤) .

انظر أجوبة المالكية عن الأحاديث المشار إليها : المفهم (١/١٦٠) ، والمستقى للباحي (٣/٢٥٩) ، وإكمال المعلم للقاضي عياض (١/٢٢٤) ، وأضواء البيان لمحمد الأمين (٣/٣٤) ، وشرح البخاري لابن بطال (٦/١٠٢) .

« لما كانت اليمين عقدًا بالقلب على فعل أو ترك وعزم عليه أخبر عنه الحالف ثم أكدّه بمعظمّ عنده حجر الشرع التعظيم على غير الله ... فإذا عظّم غير الله أثمّ إثماً عظيماً على قدر حال المعظم ، فقد يكون منه الذنب وقد يكون منه الكفر .. »^(١) .
ومرادّه بالمنع من الحلف بغير الله ، فهي إما شرك^(٢) بالله تعالى أو دون ذلك ، ولا تخلو من الإثم ، فهي محرّمة بكل حال .

١٨-٢٢ — ومن قال بالتحريم الفاسي حيث يقول :

« وأما القسم فلا يجوز بحال بغير الله ... »^(٣) ، والأبي^(٤) ، والعدوي^(٥) ،
والهادي الدرقاش^(٦) ، والخطاب^(٧) .

٢٣ — ورد^(٨) القرطبي أبو عبدالله على من قال : إن اليمين تنعقد إذا حلف بالنبي ﷺ بقوله :

« وهذا يردّه ما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه أدرك عمر ابن الخطاب في ركب يحلف بأبيه ... الحديث » .

(١) عارضة الأحوذى (١٦/٧-١٧) .

(٢) بين ابن العربي أن المراد بالشرك الشرك الأصغر فقال : « وأما قوله : « من حلف بغير الله فقد أشرك أو كفر » فيريد به شرك الأعمال وكفرها ، وليس بشرك الاعتقاد ولا كفره ، كقوله ﷺ : « من أبق من مواليه فقد كفر » ، ونسبة الكفر لحديث النسائي وقوله عند ربه : « إني لا أقبل عملاً أشرك معي فيه غيري ، أنا أغني الأغنياء عن الشرك » . » . عارضة الأحوذى (١٩/٧) .

وهذا يبين أن الحلف بغير الله من الشرك الأصغر ، وقد يتمادى إلى الشرك الأكبر إذا وصل تعظيم المحلوف به كتعظيم الله واعتقاد ذلك .

(٣) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام (٣٧/٢) .

(٤) انظر جواهر الإكليل (٢٢٥/١-٢٢٦) .

(٥) انظر حاشية العدوي (٢٥/٢) .

(٦) انظر فقه الرسالة (٢٤٨) . ط. دار قتيبة - بيروت .

(٧) انظر مواهب الجليل (٢٦٤/٣) . ط. دار الفكر .

(٨) فقد نقل قول الإمام أحمد بن حنبل ثم ردّ عليه . انظر التفسير (٢٧٠/٦) .

وهذا حصر في عدم الحلف بكل شيء سوى الله تعالى وأسمائه وصفاته كما ذكرنا ، ومما يحقق ذلك ما رواه أبو داود والنسائي وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد ، ولا تحلفوا إلا بالله ، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون » ^(١) . ^(٢) .

فقصر الحلف على الله تعالى بأسمائه وصفاته ، وما سوى ذلك فهي إيمان محرمة غير منعقدة ، فإذا لم يصح الحلف بالنبي ﷺ فغيره من سائر المخلوقات من باب أولى .
٢٤ — ولذا قال محمد الأمين :

« اعلم أن اليمين لا تنعقد إلا بأسماء الله وصفاته ، فلا يجوز القسم بمخلوق ؛ لقوله ﷺ : « من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت » ^(٣) . ^(٤) .

٢٥ — وردّ على من جوّز الحلف بالنبي ﷺ ، مبينًا مصادمته لأمر النبي ﷺ المانع من الحلف بغير الله ، فقال :

« ولا تنعقد يمين بمخلوق كائنًا من كان ، كما أنه لا تجوز بإجماع من يُعتدّ به من أهل العلم ، وبالنص الصحيح الصريح في منع الحلف بغير الله » ^(٥) .

وما قرّره رحمه الله - من حرمة الحلف بمخلوق كائنًا من كان - هو الصواب الذي عليه عامة علماء المسلمين ^(٦) ، إذ إنّ في حلف المخلوق بغير الخالق ما قد يجر إلى الخروج من الملة ، وذلك لأن الحلف بغير الله ممنوع ؛ لصراحة الأحاديث الدالة

(١) أخرجه ابن حبان (٤٣٥٧) ، وأبو داود (٣٢٤٨) ، والنسائي (٣٧٧٨) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٠٤/٤) ، والحافظ في التلخيص (١٦٨/٤) . وصححه الألباني . انظر صحيح سنن أبي داود (٣١٣/٢) ، وصحيح سنن النسائي (٧/٣) .

(٢) تفسير القرطبي (٢٧٠/٦-٢٧١) .

(٣) سبق تخريجه ص ٤٦٥

(٤) أضواء البيان (١٢٣/٢) و (٣٤/٣) .

(٥) أضواء البيان (١٢٣/٢) .

(٦) تقدم نقل الإجماع من قول ابن عبد البر والباقي ص ٤٦٥-٤٦٨ .

على النهي وعدم وجود الاستثناء فيها ، مما قد يجرّ إلى نوع من الشرك الأكبر ، إذ إنّ الحالف قد يتدرّج في تعظيم المحلوف حتى يصل به إلى درجة المساواة مع الخالق جل وعلا ، وبهذا يكون شركاً أكبر عياداً بالله .

٢٦ — ولهذا المعنى فقد منع الميلي الحلف بغير الله تعالى ، مبيناً أنّ أولئك القوم قد فاقوا المثلثة في شركهم بهذا الفعل ، فقال :

« نهى الرسول ﷺ عن الحلف بالمخلوق فأبى أكثر الناس إلّا الحلف به ، وأغلظ في النهي حتى بلغ به نهي الشرك والكفر فأجروا هذه اليمين على ألسنتهم أكثر من اليمين بالله ، وأمر من حلف بالله أن يصدق فتلاعبوا باليمين الشرعية واحترموا اليمين الشركية ، وأمر من حلف بالله أن يرضى ويكل أمر الحالف إلى الله فلم يطمئنوا إلّا للحلف بأوليائهم ، وهكذا تراهم يُعظّمون الأيمان بأوليائهم ويخشون الحنث أكثر من تعظيم اليمين بالله وخشية الحنث فيها ... وكم بلغنا أنهم يستحلفون بالله على الشيء فيسرعون إلى الحلف على خلاف الواقع ، ثم يستحلفون بشيوخهم أو آبائهم فتخرس ألسنتهم وتجف أرياقهم ، ويعترفون بكذبهم في اليمين بالله ولا يستحون ، يا لله للمسلمين ﴿ الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ (١) ! » (٢) .

ثم نقل هذا المعنى عن الشوكاني قوله : « وقد تواتر إلينا من الأخبار ما لا شك معه أنّ كثيراً من هؤلاء القبوريين أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه حلف بالله فاجراً ، فإذا قيل له بعد ذلك : احلف بشيخك ومعتقدك الولي الفلاني ، تلعنهم وتلكأ وأبى واعترف بالحق . وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال : إنه - تعالى - ثاني اثنين ، أو ثالث ثلاثة » (٣) .

(١) سورة الكهف : ١٠٤ .

(٢) رسالة الشرك (٢٧٧-٢٧٨) .

(٣) رسالة الشرك (٢٧٧-٢٧٨) . وانظر كتاب الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد للشوكاني

(٤٢-٤٣) .

ولا ريب أن من كانت هذه حاله فقد اتخذ هذا المحلوف به شريكاً لله تعالى يعظمه كتعظيم الله أو أشدّ ، وهذا من الشرك الأكبر المخرج من الملة عياداً بالله .
وخلاصة القول : أنّ الحلف بغير الله تعالى منكر وشرك بالله تعالى ، كما دلّت عليه النصوص التي استند إليها المالكية في بيان هذا الحكم ، بيد أنه من الشرك الأصغر وقد يصل إلى الشرك الأكبر إذا اعتقد في المحلوف به من التعظيم ما يعتقده في الله تعالى كما سلف ذكره .

المسألة الثانية : التعبد لغير الله ﷻ

تقدّم في التعريف بالشرك أنه : اتخاذ شريك مع الله تعالى في عبادته ، ومن صور الشرك المنهي عنه أيضاً الشرك في التسمية ، وهي الأسماء التي عبّدت لغير الله تعالى .
وقد غيّر عليه الصلاة والسلام أسماء رجال عبّدوا لغير الله تعالى^(١) ، ويبيّن بعض المالكية أن جعل العبودية بالاسم لغيره تعالى من الشرك به ﷻ .

وذلك عند تفسيرهم لقوله تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرّت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين ﴾ فلما آتاها صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاها فتعالى الله عما يشركون^(٢) .

وغالب أهل التأويل يوردون عند هذه الآية قصة مجملها أن آدم وحواء كان لا يعيش لهما ولد ، فقال لها إبليس : سمّيه عبدالحارث فإنه يعيش ، فسمته فعاش ، فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره . وعلى هذا حملوا وقوع الشرك المذكور في الآية : ﴿ جعلاً له شركاء فيما آتاها ﴾ من آدم وحواء بتسميتهما ولدهما عبدالحارث .

ولم يرتض آخرون هذا التأويل ؛ لما فيه من الشرك الذي ينزّه عنه أنبياء الله

(١) كما قال ابن عبد البر عن عبدالرحمن بن عوف: « كان اسمه في الجاهلية عبد عمرو، وقيل : عبدالكعبة ، فسماه رسول الله ﷺ عبدالرحمن » . الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣٣٣/٤) . ط. دار الكتب العلمية - لبنان ، ط. الأولى ١٤١٥ هـ .

وكذلك أبو هريرة فقد روى الحاكم عن أبي هريرة أنه قال : « كان اسمي في الجاهلية عبدشمس بن صخر ، فسميت في الإسلام عبدالرحمن » . المستدرک (٥٧٩/٣) .

قال ابن عبد البر : « .. وقد يمكن أن يكون له في الجاهلية اسمان عبدشمس وعبد عمرو » . ويأتي كلام ابن عبد البر إن شاء الله .

(٢) سورة الأعراف : ١٨٩-١٩٠ .

وعلى أي حال ؛ فالذي يخص البحث هنا هو التعبيد لغير الله تعالى ، مع أن المالكية برؤوا آدم وحواء من هذا الشرك .

١- وفي هذا رأى ابن العربي بطلان ما ينسب إلى آدم وحواء مضعفاً الحديث في ذلك^(١) ، ثم قال :

(١) القصة رواها الإمام أحمد (١١/٥) ، والترمذي (٣٠٧٧) في تفسير سورة الأعراف .

وجاءت مرفوعة من طريق الحسن البصري عن سمرة بن جندب ، وهي بهذا الطريق معلولة كما قال الحافظ ابن كثير من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري ، وقد وثقه ابن معين ، ولكن قال أبو حاتم الرازي : لا يحتج به . ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعاً ، فإله أعلم . الثاني : أنه قد روي من قول سمرة نفسه ليس مرفوعاً .

الثالث : أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا ، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه . تفسير ابن كثير (٢٦٤/٣) .

وأورد بسنده عن الحسن في تفسير الآية قوله : « كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم » . وقال أيضاً من طريق آخر : « عني بهما ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده ، يعني جعلاً له شركاء فيما آتاهما » . وقال أيضاً : « هم اليهود والنصارى ، رزقهم الله ولذا فهدوا ونصروا » . وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن في تفسير الآية ، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية ، ولو كان هذا الحديث - يعني حديث سمرة المذكور - عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره لا سيما مع تقواه لله وورعه .

وأما ما ورد موقوفاً عن ابن عباس وغيره فمحتمل أنه مأخوذ من الإسرائيليات ، كما قرر ذلك ابن العربي . انظر أحكام القرآن (٨٢٠/٢) . والحافظ ابن كثير حيث قال - بعد ذكره الطرق المتعددة بالألفاظ المختلفة - ما لفظه : « وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه ، كمجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومن الطبقة الثانية : قتادة ، والسدي ، وغير واحد من السلف ، وجماعة من الخلف ، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة ، وكأن أصله مأخوذ من أهل الكتاب .. » . انظر تفسير ابن كثير (٢٦٤/٣) .

وقد ضعف إسناد هذه القصة المنسوبة لآدم وحواء : الألباني في ضعيف سنن الترمذي (٣٢٥) ، والأرنؤوط في حاشية المسند (١١/٥) .

» .. فَإِنَّ آدَمَ وَحَوَاءَ وَإِنْ كَانَ غَرَهُمَا بِاللَّهِ الْغُرُورُ فَلَا يَلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جَحْرِ
مَرَّتَيْنِ ، وَمَا كَانَا لِيَقْبَلَا لَهُ نَصْحًا وَلَا يَسْمَعَا مِنْهُ قَوْلًا «^(١) .

وبين أن المراد بالآية جنس الآدميين ؛ لأنه « أقرب للصدق وأشبهه بالحق ، وهو
ظاهر الآية وعمومها ، ويسلم منها الأنبياء عن النقص الذي لا يليق بجهال البشر ،
فكيف بسادتهم وأنبيائهم »^(٢) .

ومرادُه أن التعبد لغير الله تعالى من الشرك الذي لا يليق نسبته إلى آحاد الناس
فضلاً عن فضلائهم وأنبيائهم .

٢-٣ — وقد أقرّ قول ابن العربي هذا القرطبي عند تفسيره للآية^(٣) ، والثعالبي
حيث نقل مقالة ابن العربي ثم عقب عليها بقوله : « وهو كلام حسن »^(٤) .

٤ — وكذلك قال محمد الأمين في معنى الآية^(٥) .

٥ — وذكر البلنسي^(٦) أن « آدم وحواء بريئان من الشرك الذي هو كفر
- وضعف الحديث الوارد - ثم نقل قول الخطيب في ذلك : « لا نسلم أن النفس
المذكورة في الآية هي آدم وليس في الآية ما يدل عليه ، بل نقول : هذا الخطاب

(١) أحكام القرآن (٢/٨٢٠) .

(٢) المرجع نفسه (٢/٨٢٠) .

(٣) انظر تفسير القرطبي (٧/٣٣٨) . ونقل ما قاله حسن بن الفضل : « وهذا أعجب إلى أهل النظر لما في
القول الأول من المضاف من العظام بني الله آدم » . يعني الشرك .

(٤) انظر الجواهر الحسان (٢/٦٨-٦٩) .

(٥) انظر أضواء البيان (٢/٣٤٠) .

(٦) هو محمد بن علي بن محمد البلنسي الغرناطي أبو عبد الله ، حافظ متقن ، عالم بالعربية ، له كتب منها :
" صلة الجمع وعائد التذييل " خ ، " وتفسير مبهمات القرآن " ، وله تفسير كبير ذكره ابن الخطيب ،
مات سنة ٧٨٢ هـ . انظر : الإحاطة بأخبار غرناطة (٣/٣٨) ، ونيل الابتهاج (٤٥٥) .

لقريش والإشارة إلى قصي ، والمعنى : خلقكم من نفس قصي^(١) ، وجعل منها زوجها ، أي : من جنسها عربية قرشية ليسكن إليها ، فلما آتاها ما طلبا من الولد الصالح سميا أولادهما عبد مناف ، وعبد مناة ، وعبد العزى ، وعبد الدار ، وعبد قصي ، فالضمير في قوله تعالى : ﴿ عما يشركون ﴾ لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك^(٢) .

٦— وكذلك رجح ابن جزى براءة آدم وحواء من الشرك عند تفسيره للآية مدلاً على ذلك بأمور ثلاثة :

١/ براءة آدم وزوجه من قليل الشرك وكثيره ، وذلك حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

٢/ أن الذين أشركوا أولاد آدم وذريته ؛ لقوله تعالى : ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ بضمير الجمع .

٣/ أن ما ذكروا من قصة آدم وتسمية الولد عبدالحارث يفتقر إلى نقل بسند صحيح^(٣) . وهو غير موجود في هذه القصة .

٧— وأوضح ابن عاشور صور هذا الشرك بقوله :

« تسمية بعضهم عبد كذا مضافاً إلى اسم صنم ، كما سموا عبدالعزى ، وعبد شمس ، وعبد مناة ، وعبد ياليل ، وعبد ضخم ، وكذلك امرؤ القيس ، وزيد مناة ؛

(١) ما ذكره الخطيب من جعل المراد من الآية قصي فيه نظر ؛ فالله ﷻ يقول في سورة النساء : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ أي : آدم ، وبالتالي يعلم أن المراد في آية الأعراف المشركون من ذرية آدم ، وإنما نقلت ما أورده البنسي هنا لأجل مسألة التعبيد لغير الله تعالى حيث جاءت ضمن قوله .

(٢) تفسير مبهمات القرآن (١/٥٠٣-٥٠٤) . ط. دار الغرب .

(٣) التسهيل (٢/١٠٤) .

لأن الإضافة على معنى التمليك والتعبيد»^(١) .

فجعل التعبيد لغير الله تعالى من فعل المشركين .

٨— وأوضح ابن عطية أن الشرك الذي وقع إنما هو في التسمية لا غير ، مرجحاً أن المراد بالآية مشركو العرب^(٢) .

وقد ذكر بعض المالكية أن ما ذكره الله تعالى في كتابه من تكنية أبي لهب دون ذكر اسمه عائد لأمر ، منها : قبح التعبيد لغير الله تعالى ، فإن اسم أبي لهب عبدالعزيز ، أي : نسبة إلى الصنم الذي يعبدونه .

٩— وفي هذا ذكر ابن العربي المعاني التي عدل من أجلها بتكنية أبي لهب عن ذكر اسمه ، ومنها : « أنه لما كان اسمه عبدالعزيز ، فلم يصف الله العبودية إلى صنم في كتابه الكريم »^(٣) .

١٠-١١— ونظيره ما ذكره القرطبي^(٤) ، وابن جزى^(٥) عند قوله تعالى : ﴿ تَبَتَّ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾^(٦) .

١٢— وقال ابن عاشور :

« فسماه القرآن بكنيته دون اسمه ؛ لأن في اسمه عبادة العزى ، وذلك لا يقرّه القرآن »^(٧) .

وهكذا كل ما عبّد لغير الله تعالى يمنع في الإسلام لكونه من الشرك .

(١) التحرير والتنوير (٢١٤/٥) .

(٢) المحرر الوجيز (١٧٦/٦) .

(٣) أحكام القرآن (١٩٩٤/٤) .

(٤) تفسير القرطبي (٢٣٦/٢) .

(٥) التسهيل (٤٤٢/٤) .

(٦) سورة المسد : ١ .

(٧) التحرير والتنوير (٦٠١/٣٠) .

١٣— وعند ذكر ابن بطال الاحتمالات التي من أجلها كنى الله أبا لهب نقل قول ثعلب : « إنما كنى الله أبا لهب ؛ لأن اسمه عبدالعزيز ، والله تعالى لا يجعله عبداً لغيره »^(١) .

١٤— وقال السهيلي :

« أبو لهب اسمه عبدالعزيز بن عبدالمطلب ، ولما كان اسمه اسماً كاذباً من حيث أضيف إلى العزى ذكره الله بالكنية دون الاسم ؛ لأن الله يقول الحق وهو يهدي السبيل »^(٢) .

١٥— وأقرّ هذا القول البلنسي^(٣) .

وعلى هذا فالتعبيد لغير الله فعل قبيح وأمر شنيع ، ولذا عدل إلى الكنية مع ما فيه من التكريم ، حذراً من التسمية الشركية .

١٦— ولما ذكر ابن عبدالبر الخلاف في اسم أبي هريرة هل هو عبد شمس أو عبد عمرو ... صحح هذه التسمية له في الجاهلية ، ثم قال :

« ومحال أن يكون اسمه في الإسلام عبد شمس وعبد عمرو أو عبد غنم أو عبد نهم ، وهذا وإن كان شيء منه فإنما كان في الجاهلية ، وأما في الإسلام فاسمه عبدالله أو عبدالرحمن .. »^(٤) .

فما ذكره من استحالة هذا الاسم بعد الإسلام لما تقرر عنده من أن التعبيد لغير الله تعالى من الشرك الذي هو صنيع أهل الجاهلية ، حيث إنهم يعتقدون استحقاق العبادة بهذا التعبيد ، وعلى هذا فمن اعتقد ذلك فهو كحال أهل الجاهلية في شركهم

(١) شرح البخاري (٣٥٥/٩) .

(٢) التعريف والإعلام فيما أهم في القرآن من الأسماء والأعلام للسهيلي (٣٩٧) . تحقيق عبدالله النقراط . ط . منشورات كلية الدعوة الإسلامية - طرابلس . الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ . ليبيا .

(٣) تفسير مبهمات القرآن (٧٥٧/٢) .

(٤) الاستيعاب (٣٣٣-٣٣٢/٤) .

الشرك الأكبر عياداً بالله عند المالكية وغيرهم من أهل العلم ، وأما ما كان من التعبيد لغير الله خالياً من هذا الاعتقاد الفاسد فهو من الشرك الأصغر .

وهذا يشمل كل من عبّد له غير الله تعالى سواء كان من الأنبياء والصالحين أو عند ذلك من أسماء الأصنام ونحوها ؛ لأن التعبيد لغير الله تعالى شرك بغض النظر عن نوعية الشريك .

ولهذا لم يقدم أصحاب النبي ﷺ على التسمي بعبد النبي وعبد الرسول مع شدة حبهم وتعظيمهم له عليه الصلاة والسلام ، ولو كان التعبيد له من الخير لسبقوا إليه رضوان الله عليهم .

ولما علموا أنّ التعبيد إنما هو لله تعالى وحده اجتنبوه وتركوه فيما سوى الله ، مع أن النبي ﷺ هو سيد الأولين والآخرين ، ولم يعبدوا له غيره من باب أولى . وبهذا يعلم أنّ المالكية لا يرون التعبيد لغير الله تعالى لما تقرر عندهم من كونه من الشرك الذي لا يجوز فعله ولا السكوت على فاعله .

المسألة الثالثة : التسمي بملك الأملاك

لما كانت الأسماء لها معان يعرف بها المسمى وتدل عليه اختصّ الخالق تعالى بما يناسب كماله وجلاله وعبودية الخلق له من الأسماء الحسنى والصفات العلى التي لا يجوز بحال أن تطلق على مخلوق .

كما قال عليه الصلاة والسلام : « **إِنَّ أَخْنَعَ^(١) اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى مَلِكَ الْأَمْلاَكِ^(٢)** » .

وفي لفظ لمسلم : « **أَغْيِظَ رَجُلٌ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ وَأَغْيِظُهُ عَلَيْهِ رَجُلٌ كَانَ يُسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلاَكِ ، لَا مَلِكَ إِلَّا اللَّهُ** » .

وعليه ؛ فالتسمي بهذا الاسم سبب للذل والضعفة . وقد منع المالكية من تسمي المخلوق بهذا الاسم ؛ لاختصاصه بالله تعالى وحده لا شريك له .

١- وفي هذا يذكر ابن بطال أن المخلوق إنما اتصف بالرق والذلة لخالقه ، وفي إطلاق هذه التسمية عليه ما يجعله مضاهياً للخالق ، فقال :

« **إِنَّمَا كَانَ مَلِكُ الْأَمْلاَكِ أَبْغَضَ إِلَى اللَّهِ وَأَكْرَهَ إِلَيْهِ أَنْ يُسَمَّى بِهِ مَخْلُوقٌ لِأَنَّهُ صِفَةُ اللَّهِ ، وَلَا تَلِيقُ بِمَخْلُوقٍ صِفَاتُهُ وَلَا أَسْمَاؤُهُ ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَسَمَّى أَحَدٌ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَ لَا يُوصَفُونَ إِلَّا بِالذَّلِّ وَالْخُضُوعِ وَالْعِبُودِيَّةِ ...** - وساق حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال : « **لَا تَسْمُوا أَبْنَاءَكُمْ حَكَمًا^(٣) وَلَا أَبَا** »

(١) أخنع : معناه أوضع ، وهذا التفسير رواه مسلم عن الإمام أحمد عن أبي عمر الشيباني . قال عياض : معناه : إنه أشدّ الأسماء صغاراً . انظر إكمال المعلم (١٨/٧) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب أبغض الأسماء إلى الله (٥٨٨/١٠) برقم (٦٢٠٥ ، ٦٢٠٦) ، ومسلم في كتاب الآداب ، باب تحريم التسمي بملك الأملاك ، وملك الملوك (١٦٨٨/٣) برقم (٢١٤٣) .

(٣) الحكم من أسماء الله تعالى . قال البغوي : « **الحكم** : هو الحاكم الذي إذا حكم لا يُردّ حكمه ، وهذه الصفة لا تليق بغير الله تعالى » . شرح السنة (٣٤٣/١٢) .

الحكم ، فإن الله هو الحكيم العليم»^(١) ، ثم بين سوء عاقبة من تسمى بما اختص الله تعالى به ، فقال - : فعاقب الله من طلب الرفعة في الدنيا بما لا يحل له من صفات ربه بالذل يوم القيامة ، كما جاء في الحديث : « إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة في صور الذر ، يطوهم الناس بأقدامهم »^(٢)»^(٣) .

فجعل انتحال هذه الصفة من المخلوق مما يحل بالعبودية ويجرى على المعبود بالتشبه به واتخاذ الشريك له في ذلك .

٢- وهو ما أشار إليه القاضي عياض من تعليل النهي هنا بالتشبه بأسماء الله تعالى ، فقال :

« وقد غيّر ﷻ اسم حليم وعزيز^(٤) ؛ لما فيه من التسمية بأسماء الله وصفاته ، وكذلك بملك الأملاك ؛ لما في ذلك من التعاضم والكبر المذموم عند الله ، وإن " ملك الأملاك " صفة لا تليق لغير الله تعالى »^(٥) .

(١) خرجه أبو داود (٤٩٥٥) ، والنسائي (٢٢٦/٨-٢٢٧) ، وخرجه البيهقي (١٤٥/١٠) وابن سعد في الطبقات من طريق آخر ، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٤٣٣/٣) .

(٢) ذكره القرطبي (٩٥/١٠) ، والهيتمي في الجمع (٣٣٤/١٠) وقال : « رواه البزار ، وفيه القاسم بن عبد الله العمري وهو متروك » .

وخرج الترمذي (٢٤٩٢) ، والمنذري في الترغيب (٥٦٧/٣) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ : « يحشرون المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ، فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال » . قال الترمذي : حسن صحيح . وصححه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي (٦٠٢/٢) .

(٣) شرح صحيح البخاري (٣٥٣/٩-٣٥٤) .

(٤) قال ابن العربي : « روي أنه غير اسم عزيز ؛ لأن القوة لله ، ولم يصح ، فإن الله تعالى قد أخبر في كتابه بهذا الاسم عن مسمى به فقال سبحانه : ﴿ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً ﴾ ، ولو كان ممنوعاً لما كان الباري به متكلفاً » . عارضة الأحوذى (٢٧٧/١٠) . وهذا ليس مما اختص الله به ، فيجوز إطلاقه على المخلوق .

(٥) إكمال المعلم (١٦/٧) .

٣-٤- وذكر نحوًا منه القرطبي^(١) ، وابن أبي جمة^(٢) .

٥- وقرر القرطبي في موضع آخر « أن المسمى بهذا الاسم قد انتهى من الكبر إلى الغاية التي لا تنبغي لمخلوق ، وأنه قد تعاطى ما هو خاص بالإله الحق ، إذ لا يصدق هذا الاسم بالحقيقة إلا على الله تعالى ، فعوقب على ذلك من الإذلال والإخساس والاسترذال بما لم يعاقب به أحد من المخلوقين »^(٣) .

٦- وهو المعنى الذي نقله الأبي^(٤) عن النووي مقرًا له ، فقال :

« التسمية بذلك حرام ؛ لما فيه من التعاضم والكبرياء التي لا تليق إلا بالله ﷻ ، وكذلك التسمية بالأسماء المختصة به ﷻ ، كالرحمن والمهيمن »^(٥) .

٧- وأكد هذا المعنى عند ذكره الوجوه التي يكره لأجلها الاسم بقوله :

« .. وإما لما فيها من التعظيم الذي لا يليق إلا بالله ﷻ ، كما في ملك الأملاك »^(٦) .

٨- وذكر القرافي أن التسمية بذلك (تمتنع منع تحريم لما فيها من التعاضم الذي لا يصلح إلا لله تعالى ، كما في مسلم قال عليه الصلاة والسلام : « إن أخنع الأسماء رجل تسمى بشاه شاه مالك الأملاك »)^(٧) .

(١) المفهم (٤٦٦/٥) .

(٢) هجة النفوس (١٥٨/٤) .

(٣) المفهم (٤٥٥/٥) .

(٤) هو محمد بن خليفة بن عمر التونسي الوشتاتي المشهور بالأبي ، محدث حافظ ، فقيه مفسر ناظم ، ولي قضاء الجزيرة ، من تصانيفه : إكمال الإكمال في شرح مسلم ، وشرح المدونة في فروع الفقه المالكي . مات سنة ٨٢٧ أو ٨٢٨ . انظر : البدر الطالع (١٦٩/٢) ، ومعجم المؤلفين (٢٨٧/٩) .

(٥) إكمال إكمال المعلم (٣٠١/٧-٣٠٢) .

(٦) إكمال إكمال المعلم (٣٠٢/٧) .

(٧) الذخيرة (٣٣٨/١٣) . ومعنى شاه : ملك ، وشاهان : الملوك . انظر إكمال المعلم (١٩/٩) .

٩- وقد ذكر القرطبي أبو عبد الله المنع من هذه التسمية أيضاً^(١) .

١٠- وقال الباجي :

« ويحرم بملك الأملاك ؛ لحديث : « هو أقبح الأسماء عند الله » . »^(٢) .

١١-١٣- وأقرّ هذا القول الخطاب^(٣) ، وعليش^(٤) ، والجكني^(٥) .

١٤- وذكر ابن عاشور عظمة ملك الله ﷻ وديمومته ، فلا ينقضي ولا ينتهي ، وكل شيء تحت قهره وملكه ، فكيف يطلق على المخلوق ملك الملوك ، أو شاهان شاه ، أو ملك الزمان ، وملك الدنيا ، وما شابه ذلك ؟^(٦) .

ومرادُه أن هذا الوصف يختصّ بالله ﷻ ، فلا يشرك معه سواه في ذلك .

١٥- وقال ابن العربي :

« أبغض اسم إلى الله وأخنع اسم عند الله ، أي : أذلّ رجلٌ يسمى بشاهان شاه ، يعني ملك الأملاك »^(٧) .

١٦- ونقل محمد المختار قول ابن حجر مقرأً له عند شرحه للحديث :

« واستدل بهذا الحديث على تحريم التسمي بهذا الاسم ؛ لورود الوعيد الشديد ، ويلتحق به ما في معناه ، مثل : خالق الخلق ، وأحكم الحاكمين ، وسلطان السلاطين ، وأمير الأمراء »^(٨) .

(١) تفسير القرطبي (١/١٤١) .

(٢) نقله عنه الخطاب في مواهب الجليل (٤/٣٩١) .

(٣) انظر مواهب الجليل (٤/٣٩١) .

(٤) انظر منح الجليل (٢/٤٩٢) .

(٥) نصيحة المرباط (١/٢٣٢) .

(٦) انظر التحرير والتنوير (١/١٧٧) .

(٧) عارضة الأحوذى (١٠/٢٧٥) .

(٨) نور الحق (٩/٤٢٥) . وانظر فتح الباري (١٠/٥٩٠) .

وقد ألحق بعض المالكية بهذا الاسم التسمي بقاضي القضاة أو ما في معناه ، كما سبق ذكره مثل سلطان السلاطين وغيره .

١٧— ومن ذلك ما ذكره القرافي عند تحريمه التسمي بملك الأملاك بقوله :

((قال بعض العلماء : يلحق به قاضي القضاة))^(١) .

١٨— وكذا ابن أبي جمرة فقد ألحق بملك الأملاك قاضي القضاة ، وذكر أنه اشتهر في بلاد المشرق من قديم الزمان ، وأما في الغرب^(٢) فقد سلموا من ذلك حيث يطلقون على كبير القضاة " قاضي الجماعة "^(٣) .

١٩— ونقل محمد المختار قول ابن أبي جمرة هذا ضمن ما نقله عن ابن حجر مقرئاً له^(٤) .

وبهذا يعلم أن التسمي بملك الملوك إخلال بالعبودية كما قرره أئمة المالكية ، ومنعوا من التسمي به ، ومنع بعضهم ما يلحق به مما هو في معناه ، إذ هو مما اختص الله تعالى به ، فلا يجوز أن يشرك معه أحد سواه .

(١) الذخيرة (٣٣٨/١٣) .

(٢) ومن المعلوم أن المذهب المالكي هو المنتشر في الغرب ، أي بلاد المغرب والأندلس آنذاك .

(٣) بهجة النفوس (١٨٦/٤) . وأضاف أيضاً قولهم : " سيد الناس " ؛ لأنه يدخل في النهي ؛ لكن غفلات توالى وعوائد سوء اتخذت راح الأمر عليها ..

(٤) انظر نور الحق (٤٢٦/٩) .

المسألة الرابعة : الطَّيرة

لما كانت الطَّيرة^(١) بآبًا من الشرك منافيًا للتوحيد أو لكماله من حيث إنّ المتطَّير قطع توكله على الله واعتمد على غيره ، وتعلق بأمر لا حقيقة له ، إذ لا رابطة بين هذا الأمر وبين ما يقع ويحصل ، فقد جاء النهي عنها كما قالت عائشة رضي الله عنها : « إنّ النبي ﷺ تزوجها في شوال وبني بها في شوال ، وكانت أحظى نسائه إليه ، وأحبَّهنَّ إليه »^(٢) . وذلك أنّ العرب يتشاءمون بالزيجة في هذا الشهر .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لا عدوى ولا طيرة ، ويُعجبني الفأل » . قالوا : وما الفأل ؟ قال : « الكلمة الطيبة »^(٣) .

والتطَّير : هو التشاؤم بمرئيٍّ أو مسموع^(٤) ، فإذا ما وقع من المسلم فقد وقع في الشرك عيادًا بالله ، كما بينه النبي ﷺ بقوله : « الطيرة شرك » ، وتبعه بعض أئمة المالكية .

(١) الطيرة : مصدر تطَّير ، وأصله مأخوذ من الطير ، وهو التشاؤم بالشيء يُعرف بزجر الطير ، وهي السوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرها . وكان ذلك يصدِّهم عن مقاصدهم . والسانح : ما مر من الطير والوحش عن يسارك ، والبارح عكسه .

قال الزرقاني : « كانوا في الجاهلية إذا خرج أحدهم لحاجة فإن رأى الطير طار عن يمينه تيمَّن به واستمرَّ ، وإن طار عن يساره تشاءم به ورجع ، وربما هيجوا الطير ليطير فيعتمدون ذلك ويصح معهم في الغالب ؛ لتزيين الشيطان لهم .. » . شرح الزرقاني (٤/٤٣٢) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب النكاح ، باب استحباب التزوج والتزويج في شوال (١٠٣٩/٢) برقم (١٤٢٣) ، وابن حبان (٤٠٥٨) ، وأبو عوانة (٤٢٧٢) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الطب ، باب لا عدوى (٢٤٤/١٠) برقم (٥٧٧٦) ، ومسلم في كتاب السلام ، باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم (١٧٤٦/٤) برقم (٢٢٢٤) .

(٤) التشاؤم بالمرئي : أي ما لو رأى طيرًا أو وحشًا فتشاءم منه ، وأما المسموع : كمن يسمع صوت الغراب أو البومة ونحوهما .

١- وفي ذلك يقول ابن العربي في بيان معنى الطيرة :

« بأنها زجر الطير ، وهو نوع من التعلق بأسباب يزعم المتعلق بها على أنها تطلعه على الغيب ، وهي كلها كفر وريب ، وهم يستعجله المرء إن كان حقاً ، ولا يقدر على دفعه إن كان قدراً مقدوراً ، ولذلك جعله رسول الله ﷺ من الشرك ، فإنهم يريدون أن يشركوا الله في غيبه ويساؤونه^(١) في علمه^(٢) .

٢- وكلام ابن العربي هذا فيه إجمال بينه التفصيل الذي ذكره القرطبي بقوله :

« ... وإنما كان يكره الطيرة لأنها من أعمال الشرك ، ولأنها تجلب ظن السوء بالله تعالى ، كما روى أبو داود عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « الطيرة شرك - ثلاثاً - وما منا إلا ولكن الله يذهب بالتوكل^(٣) . أي : من اعتقد في الطيرة ما كانت الجاهلية تعتقده فيها فقد أشرك مع الله خالقاً آخر ، ومن لم يعتقد فقد تشبه بأهل الشرك^(٤) .

ومراده أن الطيرة على نوعين : فما كان على ما تعتقده الجاهلية فهو من الشرك الأكبر ، وما لم يكن بهذا الاعتقاد من الطيرة فهو من الشرك الأصغر . ولعل كلام ابن العربي يحمل على الصورة الأولى التي أشار إليها القرطبي من شرك الجاهلية الذي لا يذهب بالتوكل ، وأما ما يقع من الطيرة من بعض المسلمين فهو المراد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه : « الطيرة شرك ، وما منا ولكن الله يذهب بالتوكل^(٥) » أي : إنه من

(١) الصواب أن يقال : « ويساؤوه في علمه » ؛ لأنه معطوف على قوله : « أن يشركوا الله في غيبه » .

(٢) عارضة الأحوذى (١١٦/٧-١١٧) .

(٣) خرجه الإمام أحمد (٣٨٩/١ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠) ، وأبو داود (٣٩١٠) ، والترمذي (١٦١٤) وقال : " حسن صحيح " ، وابن ماجه (٣٥٣٨) ، وابن حبان (١٤٢٧) ، والحاكم (١٧/١-١٨) وصححه ووافقه الذهبي ، والبعوي في شرح السنة (١٧٧/١٢-١٧٨) .

قال المنذري في الترغيب (٦٤/٤) : " والصواب ما ذكره البخاري وغيره أن قوله : " وما منا .. " إلى آخره من كلام ابن مسعود مدرج غير موقوف " . اهـ . وصححه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي (٢١٦/٢) .

(٤) المفهم (٦٢٦/٥-٦٢٨) .

الشرك الأصغر الذي ينافي كمال التوحيد .

٣ — وقد نقل محمد المختار ما أورده ابن حجر عن الحلبي^(١) فيما تطرق إليه من الطيرة ، فقال - في بيانه لحديث : « الطيرة شرك » - :

« وذلك إذا اعتقد أن الذي شاهده من حال الطير موجباً ما ظنه ولم يضيف التدبير إلى الله تعالى ، فأما إذا علم أن الله هو المدبر ولكنه أشفق من الشرك ؛ لأن التجارب قضت بأن صوتاً من أصواتها معلوماً ، أو حالاً من أحوالها معلومة تردفها مكروه ، فإن وطن نفسه على ذلك أساء ، وإن سأل الله الخيرة واستعاذ به من الشر ومضى متوكلاً لم يضره ما وجد في نفسه من ذلك ، وإلا فيؤاخذ به وربما وقع في ذلك المكروه بعينه الذي اعتقده عقوبة له ، كما كان يقع كثيراً لأهل الجاهلية »^(٢) .

فقسمها إلى ثلاثة أحوال :

أحدها : من يجعل مع الله تعالى في تدبيره شريكاً آخر ، وذلك أن يتحقق ما تطير به ، ويعمل بما يراه أو سمعه فيقبل أو يعرض .

الثاني : من يقبل وإن وقع في قلبه شيء من الخوف ، ولكن يمضي ويتوكل على الله تعالى ، فلا يضره شيء من الطيرة ؛ لأن التوكل يذهبه .

الثالث : ما يكون من التلبس بالطيرة والمضي لما عزم عليه ، فهو بهذه الحال لم يحقق التوكل المذهب للطيرة المستحوزة عليه عقوبة له ، كما في حديث أنس مرفوعاً : « لا طيرة ، والطيرة على من تطير »^(٣) . أي : أنها تكون سبباً لوقوع

(١) هو الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم ، أبو عبدالله الحلبي ، الشافعي ، رئيس المحدثين والمتكلمين بما وراء النهر ، من كتبه : " المنهاج في شعب الإيمان " ، مات سنة ٤٠٣ هـ . انظر : طبقات الشافعية للسبكي (٣٣٣/٤) ، والسير (٢٣١/١٧) .

(٢) نور الحق (٩٤/٩) ، وانظر الفتح (٢١٥/١٠) .

(٣) أخرجه ابن حبان (١٤٢٨) عن أنس ، وفيه عتبة بن حميد : ضعفه أحمد . وقال أبو حاتم : صالح الحديث . وقال الحافظ في الفتح (٦٣/٦) : « وفي صحته نظر ؛ لأنه من رواية عتبة بن حميد عن عبيدالله بن أبي بكر عن أنس ، وعتبة مختلف فيه » . وقال الذهبي في المغني (٣٩٩٤) : « ضعيف » .

الشر بالمتطير .

٤— ولذا قال القرافي :

« إنَّ المتطير لا يكاد يسلم ممن تطير منه إذا فعله وغيره لا يصيبه شيء من ذلك ، وهذا لأنه أساء الظن بالله ، والله تعالى يقول في الحديث القدسي : « أنا عند ظن عبدي بي ... »^(١) »^(٢) .

ولا ريب أن سوء الظن بالله تعالى ينافي التوحيد ، كما وصف الله تعالى به المنافقين بقوله : ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية .. ﴾^(٣) . والطيرة سوء ظن بالله ﷻ دون ذلك^(٤) .

٥— وقال القرطبي :

« وكان ﷺ يكره^(٥) الطيرة ؛ لأنها من أعمال أهل الشرك ، ولأنها تجلب سوء الظن بالله ﷻ^(٦) »^(٧) .

والطيرة لا تكون إلاّ فيما يسوء ، فهي سوء ظن بالله تعالى ، وما وقع له من

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ (٣٨٤/١٣) برقم (٧٤٠٥) ، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٠٦١/٤) برقم (٢٦٧٥) .

(٢) ترتيب الفروق (٤٦٢/٢) ، والذخيرة (٢٥٤/١٣) .

(٣) سورة آل عمران : ١٥٤ .

(٤) وسوء الظن ليس مقصوراً على الكافرين والمنافقين ، بل هو على أحوال ، ولا يكاد يسلم منه أحد إلاّ من عرف الله وأسماءه وصفاته ، وموجب حكمته وحمده وما له من الحكم والأمر فيما يقدره ويشعره ، وغالب الناس يسيؤون الظن بالله إلاّ الكمل الخالص من المؤمنين .

(٥) ومراده كراهة التحريم ؛ لأنه وصفها بأنها شرك ، فكيف يكون الشرك مكروهاً ؟

(٦) ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « ويعجبني الفأل » ، وبينه بأنه الكلمة الطيبة ، وإنما أعجبه الفأل لأنه حسن ظن بالله ، والعبد مأمور أن يحسن الظن بالله ﷻ .

(٧) تفسير القرطبي (٦٠/٦) .

الطيرة إلا على قدر سوء ظنه بربه .

٦ — وذكر ابن عاشور حال أهل الجاهلية وزجرهم الطير ، وما ذكره قوم موسى من التشاؤم به ، ثم قال :

« ولذلك كان التطير من شعار أهل الشرك ؛ لأنه مبني على نسبة المسببات لغير أسبابها ، وذلك من مخترعات الذين وضعوا لهم ديانة الشرك وأوهامها ... وفي الحديث : « الطيرة شرك » ، على تأويلها أنها بقايا دين الشرك »^(١) .

فبين أنه لا ارتباط بين ما يروونه سبباً لحدوث الشرك ، كصياح الطير ، وبين الأمر المخوف ، فمن اعتمد على هذا السبب الذي لم يجعله الله سبباً فقد أشرك .

٧ — ولهذا أنكر الباجي ما يتطير به من الطير والسانح والبارح ، وذلك لأنه لا يمنع من شيء ولا يبعث على آخر ، ولأنه لم يكن لتلك العين تأثير معتاد ولا نادر ولا أمر مطرد ثابت^(٢) .

٨ — وأوضح ابن عبد البر أن التطير مأخوذ من زجر الطير ومروره سائحاً أو بارحاً ، ثم أورد بسنده عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : « خرج سعد في سفر ، فأقبلت الظباء نحوه ، فلما دنت منه رجعت ، فقال له رجل : ارجع أيها الأمير ! قال : أخبرني من أيها تطيرت أمن قرونها حين أقبلت أم من أذناها حين أدبرت ؟ ثم قال سعد عند ذلك : إن الطيرة لشعبة من الشرك »^(٣) .

وأورد أيضاً حديث عمر بن العاص عن النبي ﷺ : « من رجعت الطيرة من حاجة فقد أشرك » . قال : وما كفارة ذلك يا نبي الله ؟ قال : « أن يقول أحدهم :

(١) التحرير والتنوير (٦٦/٩) .

(٢) المنتقى (٢٩٥/٧) .

(٣) التمهيد (١٩٣/٢٤) . وخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب السنة (٣٦١/١) برقم (٧٧٧) ،

وعبدالرزاق في مصنفه (٤٠٤/١٠) برقم (١٩٥٠٦) ، وابن أبي شيبة في المصنف (٤١/٩) برقم

(٦٤٥٠) .

اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك »^{(١)(٢)} .

فإيراده رحمه الله للأثر والحديث وعدم تعليقه عليهما يبين أنه يقول بموجبهما ، من أن الطيرة شرك بالله تعالى ، ومما يؤكد هذا المعنى عنه :

٩— قوله في موضع آخر : « إن من تطير فقد أثم ، وإثمه على نفسه في تطيره ؛ لترك التوكل وصريح الإيمان .. »^(٣) .

١٠-١١— ونقل ابن بطلال والقرطبي قول الخطابي على سبيل الإقرار من أن « الطيرة إنما هي طريق الاتكال على شيء سواه »^{(٤)(٥)} . فمن اتكل على غير الله تعالى فقد أشرك .

١٢— وأورد قول عكرمة : « كنت عند ابن عباس ، فمرّ طائر يصيح ، فقال رجل من القوم : خير ! خير ! فقال ابن عباس : ما عند هذا لا خير ولا شر ! »^(٦) .

والمعنى أن من حقق التوكل على الله تعالى فلا يلتفت إلى شيء سواه ، وكذلك لا يعتقد تأثير غير الله تعالى في الخير والشر ، فمن وقعت منه الطيرة فقد أشرك

(١) أخرجه أحمد (٢٢٠/٢) ، وابن السني (٢٩٣) عن عبد الله بن عمرو بسند صحيح ، وفيه ابن لهيعة ولكن الراوي عنه عند ابن السني هو ابن وهب ممن روى عن ابن لهيعة قبل اختلاطه ، وقد صرح ابن لهيعة بالتحديث ، فانتفت شبهة تدليسه . وقال الهيثمي (٥/١٠٥) بعد ما عزاه لأحمد والطبراني : « وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وبقيّة رجاله ثقات » . وقال الأرنبوط : « حديث حسن » . حاشية المسند (٢٢٠/٢) .

(٢) التمهيد (٢٠١/٢٤) .

(٣) التمهيد (٢٨٥/٩) . ولذا نقل ما أنشده الشافعي للحطيئة بمدح أبا موسى الأشعري ﷺ :

لا يزجر الطير شيخاً إن عرض له ولا يفيض على قسم بأزلام

ثم قال : قال الشافعي : يعني أنه سلك طريق الإسلام في التوكل على الله تعالى وترك زجر الطير . الاستذكار (٥٥/٢٧) .

(٤) شرح صحيح البخاري (٤٣٥/٩) .

(٥) انظر تفسير القرطبي (٦٠/٦) .

(٦) شرح صحيح البخاري (٤٣٦/٩) .

- لعدم توكله على الله واعتماده على غيره تعالى - الشرك الأصغر . وأما من تطير حتى اعتقد وجود شركة بين الله وبين ما تطير به في أمر التأثير فقد وقع في الشرك الأكبر ، وما كان دون ذلك كحال بعض المسلمين الذين انحرفوا في هذه المزالق فهو من الشرك الأصغر ، والله أعلم .

١٣- وأوضح محمد الأمين أن التشاؤم بزجر الطير ومواقعها وأسمائها وألوانها وجهاتها التي تطير بها بأنه من ادعاء علم الغيب ، ولقد صدق من قال :

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصي ولا زاجرات الطير ما الله صانع
وحكم بكفر من ادعى ذلك ؛ لأنه ادعى ما استأثر الله تعالى به دون خلقه ،
وكذب القرآن الوارد بذلك ، كقوله تعالى : ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ (١) (٢) .

١٤- وسبق إلى هذا القرطبي عند إيراد قول الشاعر :

الفأل والزجر والكهان كلهم مضللون ودون الغيب أقفال

فقال : « هذا كلام صحيح ؛ إلا في الفأل فإنَّ الشرع استثناه وأمر به ، فلا يقبل من هذا الشاعر ما نظمه ، فإنه تكلم بجهل ، وصاحب الشرع أصدق وأعلم وأحكم » (٣) .

ومرادهما هنا أن : ادعاء علم الغيب قد يكون من خلال الطيرة ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من تطير أو تُطير له ... » ، وكذا ليس هناك تأثير لحركة الطير فيما يقدره الله ، فهي تتحرك وتطير على أي وجهة شاءت بإذن الله ، من غير أن تجلب نفعاً أو تدفع ضرراً عن أحد ، أو تدل على شيء ، فمن اعتقد فيها

(١) سورة النمل : ٦٥ .

(٢) انظر أضواء البيان (١٩٩/٢) .

(٣) تفسير القرطبي (١٨١/١٦) .

شيئاً من ذلك فقد أشرك .

١٥ — من هنا قال القرطبي : « قال علماؤنا : وأما أحوال الطير فلا تعلق لها بما يجعل دلالة عليه ، ولا لها علم بكائن فضلاً عن مستقبل فتخبر به ، ولا في الناس من يعلم منطق الطير ، إلا ما كان الله تعالى خص به سليمان عليه السلام من ذلك فالتحق الطير بجملة الباطل والله أعلم »^(١) .

ولما كانت العدوى تشبه الطيرة من حيث اعتقاد أن المرض ينتقل بطبعه ، كحال من اعتقد تأثير ما تطير به استقلالاً ، إلا أن شرك الطيرة من جهة اعتقاد تأثير الطيور وغيرها ، وشرك صاحب العدوى من جهة تأثير تلك الأمراض ، فاجتمعا على أن كلاهما اعتقاد شركي ..

١٦ — فقد ترجم الإمام مالك في موطئه : « باب عيادة المريض والطيرة » ، ولم يذكر إلا أحاديث العدوى^(٢) على اعتبار أن العدوى من الطيرة .

١٧ — ولذا قال ابن العربي :

« وأما الطيرة فأدخلها مالك رحمه الله تحت حديث : « لا عدوى » ، وهو اعتقاد المرء أن مكروهاً جلب إليه مكروهاً ، وأصلهم في ذلك السانح والبارح ، فعبروا بكل مكروه يجلب في اعتقادهم مكروهاً عنه . فقول النبي ﷺ : « لا عدوى » نفياً لأن تكون الأدواء تجلب الأدواء »^(٣) .

ولا ريب أن العدوى والطيرة كلاهما بهذا الاعتقاد من الشرك .

١٨ — كما قال القرطبي : « وإنما نهي عن إيراد الممرض على المصح مخافة الوقوع

(١) التفسير (٢٦٦/٧) .

(٢) الموطأ (٩٤٦/٢) .

(٣) القيس (١١٣٣/٣) .

فيما وقع فيه أهل الجاهلية من اعتقاد ذلك .. » يعني : أن المرض يعدي بطبعه^(١) ،
وأما من اعتقد أن العدوى مجرد سبب^(٢) ينتقل بإذن الله فهي عنده تفارق الطيرة ؛
لأن المتطير يتعلق بأسباب موهومة ، بخلاف العدوى فإنها تكون بأسباب معلومة
يتقيها العبد مع اعتقاده أن النفع والضرر من الله وحده ، فلا لوم عليه بهذا الصنيع .

(١) ولذا قال في آخر كلامه : « وإنما الذي يليق بالعقلاء ويناسب تصرف الفضلاء أن يباعد أسباب الآلام
ويجانب طرق الأوهام ، ويجتهد في مجانبة ذلك بكل ممكن ، مع علمه بأنه لا ينجي حذر من قدر » .
فأثبت أن للعدوى أسباباً يتقيها العبد للسلامة مشيئة الله .

(٢) سئل الإمام مالك عن حديث « فرّ من المجذوم فرارك من الأسد » فقال : « ما سمعتُ فيه بكراهية ،
وما أرى ما جاء في ذلك إلا مخافة أن يقع في نفس المؤمن شيء » . ومعنى هذا أنه نفى العدوى أصلاً ،
وحمل الأمر بالمجانبة على حسم المادة وسدّ الذريعة ، وعلى هذا جماعة من العلماء ، منهم ابن جرير ،
والطحاوي ، وأبو عبيد . ومن أهل العلم من أثبت العدوى ورأى أن النفي على الوجه الذي كانوا
يعتقدونه في الجاهلية ، من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى ، وأنّ هذه الأمراض تعدي بطبعها ، وإلا فقد
يجعل الله أسباباً تنقل الأمراض عن طريقها من السقيم إلى الصحيح ، وعلى هذا فاجتناب المجذوم
والدخول إلى موضع الطاعون وإيراد المرض على المصح من باب اجتناب الأسباب التي خلقها الله
تعالى وجعلها أسباباً للهلاك والأذى .

انظر : الاستذكار (٥٤/٢٧) ، وشرح البخاري (٤١١/٩) ، والمفهم (٦٢٠/٥) ، ونور الحق
(٣٢/٩) ، وتيسير العزيز الحميد (٤٢٣) .

المسألة الخامسة : التبرُّك الممنوع

التبرُّك : هو طلب البركة ، وهي النماء والزيادة . قال في الصحاح : البركة النماء والزيادة ، والتبرُّك الدعاء بالبركة ، وطعام بريك كأنه مبارك .

ويقال : بارك الله لك ، وفيك ، وعليك ، وباركك . قال تعالى : ﴿ أن بورك من في النار ﴾^{(١)(٢)} .

وهي ثبوت الخير في الشيء وزيادته^(٣) ، وطلب ثبوت الخير وزيادته إنما يكون ممن يملك ذلك ويقدر عليه ، وهو الله ﷻ ، فهو الذي ينزل البركة ويثبتها . أما المخلوق فإنه لا يقدر على منح البركة وإيجادها ، ولا على إبقائها وتثبيتها ، فالتبرُّك بالأماكن والآثار والأشخاص أحياء وأمواتاً لا يجوز ؛ لأنه إما شرك إن اعتقد أن ذلك الشيء يمنح البركة^(٤) ، أو وسيلة إلى الشرك إن اعتقد أن زيارته وملامسته والتمسُّح به سبب لحصولها من الله .

وقد جعل الله تعالى البركة في كتابه وبعض مخلوقاته^(٥) ، غير أنه لا تجوز الزيادة

(١) سورة النمل : ٩ .

(٢) الصحاح للجوهري (٤/٥٧٥) .

(٣) قال الراغب الأصفهاني في المفردات في غريب القرآن : « البركة : ثبوت الخير الإلهي في الشيء . قال تعالى : ﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ ، وسمى بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة ، والمبارك ما فيه ذلك الخير » . المفردات (٤٤) . ط. مصطفى الحلبي - مصر ١٣٨١هـ .

(٤) أي الشرك الأكبر ؛ لأنه لا يمنح البركة إلا الله تعالى .

(٥) لا ريب أن الله تعالى جعل البركة في كتابه ، كما قال تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ﴾ ، وفي أنبيائه كما قال تعالى : ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ﴾ ، وقوله : ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ ، وفي بيته الحرام كما قال تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً ﴾ . والذي ينبغي للمؤمن السعي لنيل هذه البركة بما شرعه الله ﷻ من العبادات والطاعات ، كقراءة القرآن وتدبره والعمل به ، وطلب بركة المسجد الحرام بالحج والعمرة والصلاة والطواف ... الخ .

على المشروع لالتماس هذه البركة .

ولذا حذر النبي ﷺ أصحابه كما في حديث أبي واقد الليثي من فعل الجاهلية من يتبرك بشجرة يقال لها : ذات أنواط ، يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم^(١) .
وعليه فقد أنكر سلف الأمة هذا الفعل وحذروا الناس منه باعتباره صنيع أهل الجاهلية . ولما قبل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الحجر الأسود قال : « إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك »^(٢) .

(١) حديث أبي واقد الليثي أخرجه الترمذي (٢١٨٠) وقال : حديث حسن صحيح ، وعبدالرزاق (٤/٨٤-٨٥) ، والحميدي (٨٤٨) ، والطيالسي (١٣٤٦) ، وأحمد (٢١٨/٥) ، والطبراني (٣٢٩٠) ، (٣٢٩٤) . وصححه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي (٤٦٥/٢) . وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين . المسند (٢١٨/٥) .

وزيد في الحديث زيادة منكرة ، فقد قال الزرقاني : « روى الحاكم عن أبي هارون العبدى عن أبي سعيد الخدري قال : حججنا مع عمر ، فلما طاف استقبل الحجر فقال : إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك . ثم قبله ، فقال له علي : بل إنه يضر وينفع ! قال : ثم ؟ قال : بكتاب الله ﷻ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ، خلق الله آدم ومسح على ظهره فقرره بأنه الرب ، وأنهم العبيد وأخذ عهودهم ومواثيقهم ، وكتب ذلك في رق ، وكان لهذا الحجر عيان ولسان ، فقال : افتح ، ففتح فاه فألقمه ذلك الرق ، وقال : أشهد لمن وافاك الموافاة يوم القيامة ، وإني أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى يوم القيامة بالحجر الأسود وله لسان ذلق يشهد لمن يستلمه بالتوحيد » ، فهو يا أمير المؤمنين يضر وينفع . فقال عمر : أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن !
قال الحاكم : ليس من شرط الشيخين ، فإنهما لم يحتجا بأبي هارون عمارة بن جوين العبدى . قال غيره : ولا من شرط غيرهما ، فأبو هارون ضعفه الناس كلهم ، ونسبه إلى الكذب جماعة من الأئمة » . شرح الزرقاني (٣٠٦/٢) .

كما ذكر ذلك ابن حجر في التهذيب (٤١٢/٧) ط . دار صادر . الطبعة الأولى ١٣٢٦ هـ - الهند .
وقد أكثر الشيعة واختلقوا الأحاديث لإظهار فضائل علي ومناقبه على الشيخين لإثبات زعمهم بأنه أحق بالخلافة ، فليتنبه لهذا .

وعلى هذا فلا يعول على تلك الرواية الضعيفة ؛ لضعف الراوي لها أبي هارون العبدى الشيعي .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الحج ، باب تقبيل الحجر (٤٧٥/٣) برقم (١٦١٠) ، ومسلم في كتاب الحج ، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف (٩٢٥/٢) برقم (١٢٧٠) .

وقد اعتنى علماء المالكية بمقالة عمر رضي الله عنه تلك ، وبينوا سبب قول عمر رضي الله عنه لها .

١— فنقل ابن بطال قول الطبري في ذلك مقراً له ، ونصه :

« إنما قال ذلك عمر رضي الله عنه والله أعلم لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام فخشي عمر أن يظن الجاهل أن استلام الحجر هو مثل ما كانت العرب تفعله في الجاهلية ، فأراد عمر أن يعلم أن استلامه لا يقصد به إلا تعظيم الله تعالى والوقوف عند أمر نبيه صلى الله عليه وسلم ، إذ ذلك من شعائر الحج التي أمر الله بتعظيمها ، وأن استلامه يخالف لفعل أهل الجاهلية في عبادتهم الأصنام ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنها تقربهم إلى الله زلفى ، فنبه عمر على مجانبة هذا الاعتقاد وأنه لا ينبغي أن يعبد إلا من يملك الضر والنفع ، وهو الله تعالى »^(١) .

٢— وقال الباجي :

« قول عمر : " إنما أنت حجر .. " يريد أن ينفي عنه ظن من يظن أن تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم الحجر وأمثه إنما كان على حسب تعظيم الجاهلية الأوثان ؛ لاعتقادهم أنها آلهة وأنها تضر وتنفع ، فأراد عمر أن يعلم الناس أن تعظيمه للحجر إنما كان لتعظيم النبي صلى الله عليه وسلم طاعة لله وإفراداً له بالعبادة على حسب ما أمرنا بتعظيم البيت ، وعلى حسب ما أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم عبادة لله لا على أن آدم معبود بذلك ، وأنه يضر وينفع ، فقال : " إني لأعلم أنك حجر " ، يريد : من سائر أجناس الحجارة التي لا تقبل ، وفي بعض الروايات : " إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع " .. فتقبيله وتعظيمه ليس لذاته ولا لمعنى فيه ، وإنما هو لأن النبي صلى الله عليه وسلم شرع ذلك طاعة لله تعالى »^(٢) .

(١) شرح البخاري (٤/٢٧٨) .

(٢) المنتقى (٢/٢٨٧) .

٣— وقال القاضي عياض عند حديث عمر :

« فيه الاقتداء وترك الاعتراض على السنن بالعقول ، وأن تقبيله الحجر ليس عبادة له ، بل لله تعالى بامثال أمره فيه ، كأمره بسجود الملائكة لآدم ... وسر ذلك محض العبودية »^(١) .

٤— وقال الزرقاني عند الحديث نفسه :

« معناه : إنه لا قدرة له على ضر ولا نفع كباقي المخلوقات التي لا تضر ولا تنفع ، فأشاع عمر هذا في الموسم ليشتهر في البلدان ويحفظه أهل الموسم المختلفو الأوطان ؛ لئلا يغتر بعض قريبي العهد بالإسلام الذي ألفوا عبادة الأحجار وتعظيمها بذلك قريب ، فخاف عمر أن بعضهم يراه فيفتن به ويشتبه عليه »^(٢) .

٥— ونظيره ما ذكره محمد المختار عند حديث عمر^(٣) .

٦— وأوضح القرطبي أن مقولة عمر هذه « دفع لتوهم من وقع له من الجهال أن للحجر الأسود خاصية ترجع إلى ذاته ، كما توهمه بعض الباطنية ، ويّين أنه ليس في تقبيله إلا الاقتداء المحض ، ولو كان هناك شيء مما يفترى لكان عمر ﷺ أحق الناس بعلمه »^(٤) .

هذا ؛ وقد اعتنى المالكية أيضًا بإيراد الأفعال التي لم يرد بها الشرع ويقصد منها التبرك ، كالتمسح بمقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام وغيره من المقامات والمشاهد .

٧— فقد نقل الطرطوشي ما رواه الأزرقى بإسناده عن قتادة في قوله تعالى :

﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾^(٥) قال :

(١) إكمال المعلم (٤/٣٤٥) .

(٢) شرح الزرقاني (٢/٣٠٦) .

(٣) نور الحق (٣/٢٢٠-٢٢١) .

(٤) المفهم (٣/٣٧٨) .

(٥) سورة البقرة : ١٢٥ .

« إنما أمروا أن يصلوا عنده ، ولم يؤمروا بمسحه^(١) . ولقد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها ، ولقد ذكر لنا بعض من رأى أثره وأصابه فما زالت هذه الأمة تمسحه حتى اخلولق وانماح^(٢) . »

٨— وحيث كان هذا المسح ذريعة قد تفضي إلى الشرك فقد قطع الإمام مالك تلك الذريعة ، كما في رواية ابن وهب عنه في ذكره آداب زيارة مسجد رسول الله ﷺ بقوله :

« ويدنو ويسلم لا يمس القبر بيده^(٣) . »

٩— وقال الطرطوشي :

« ولا يتمسح بقبر النبي ﷺ ، ولا يمس ، وكذلك المنبر^(٤) . »

١٠— ونقل محمد المكي قول الغزالي وأقرّه في أن الزائر « لا يمسح القبر ، ولا يمسّه ، ولا يقبله ، فإنّ ذلك من عادة النصارى^(٥) . »

١١— وأقرّ زروق مقالة الغزالي في عدم التمسح بالقبر والادهان بالماء الذي يكون عليه ، وأخذ التراب منه^(٦) ، مبيناً أنه لا يصلح على المقابر ولا يبنى عليها المساجد للتبرك .

١٢— وأنكر ابن الحاج الطواف بقبر النبي ﷺ ، والتمسح به ، وتقبيله ،

(١) وذلك لأنه لا يمسح غير الحجر الأسود والركن اليماني من الكعبة فقط ، وما سوى ذلك كله لا يشرع التمسح به ولا تقبيله ، كالمقام والجدران والأركان والسترة .

(٢) الحوادث والبدع (٢٦٨) . والأثر في إخبار مكة للأزرقي (٢٩/٢) . ط. دار الأندلس ، ط. الثالثة - بيروت ١٤٠٣هـ .

(٣) انظر الشفا (٦٧١/٢) .

(٤) الحوادث والبدع (٣٠٤) .

(٥) التيسير (٢١٢/٣-٢١٣) .

(٦) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام (٣٣/٢) .

وإلقاء المناديل عليه والثياب بقصد التبرك ، مبيناً أن هذا هو سبب عبادة الأصنام في الجاهلية ، ثم قال : « ولذلك كره علماءنا رحمهم الله التمسح بجدار الكعبة ، أو بجدران المسجد ، أو بالمصحف ، إلى غير ذلك مما يتبرك به سداً لهذا الباب »^(١) .

ومن عناية الإمام مالك وأصحابه بمسألة التبرك الممنوع طرقهم لها في مناسبات كثيرة ، وذلك لغرض تحذير الأمة من هذا المزلق الخطير .

١٣— ومن ذلك ما ذكره ابن وضاح : أن الإمام مالكا وغيره من علماء المدينة كانوا يكرهون إتيان تلك المساجد وتلك الآثار للنبي ﷺ ما عدا قباء وحده . وجميع هذا سد للذريعة لئلا يتخذ سنة ما ليس بسنة ، أو يعدّ مشروعاً ما ليس مشروعاً .

١٤— وقد كان مالك يكره المجيء إلى بيت المقدس خيفة أن يتخذ ذلك سنة ، وقد كان يكره مجيء قبور الشهداء ، ويكره مجيء قباء خوفاً من ذلك مع ما جاء في الآثار من الترغيب فيه ، ولكن لما خاف العلماء عاقبة ذلك تركوه .

١٥— وسئل ابن كنانة عن الآثار التي تركوا بالمدينة ، فقال :

« أثبت ما في ذلك عندنا قباء ، إلا أن مالكا كان يكره مجيئها خوفاً من أن يتخذ سنة^(٢) »^(٣) .

وهذا من الإمام مالك رحمه الله غاية في الاحتراز من الآثار والمزارات خشية التبرك بها ، ولا غرو أن يكون هذا موقف الإمام مالك وهو إمام من أئمة الهدى ، سيما وهو الذي يروي حديث عمر رضي الله عنه السالف ذكره حين طاف بالحجر فقال : « إنما أنت حجر ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك »^(٤) .

(١) المدخل (١/١٩١) .

(٢) وقد كان عليه الصلاة والسلام يزور قباء ويصلي فيه ، وحض على ذلك ، وما زاد على ذلك فهو زيادة على العبادة المشروعة ، ولعله ما تخوفه الإمام مالك رحمه الله .

(٣) الاعتصام (١/٣٤٧) ، والبدع والنهي عنها لابن وضاح (٩٤-٩٥) .

(٤) الموطأ (١/٣٦٧) ، باب تقبيل الركن الأسود في الاستلام .

وبهذا يتبين موقف الإمام مالك رحمه - وهو إمام دار الهجرة - في أنه لا يشرع تتبع الآثار في المدينة النبوية وزيارتها ، وعلى هذا يعلم بطلان ما أحدثه الناس من المزارات والأماكن ، كالمساجد السبعة وغيرها مما لم تشرع زيارته . وهكذا الآثار التي في مكة ، كالغار الذي أنزل فيه الوحي ، والغار الذي اختفى فيه ، ومكان شجرة بيعة الرضوان ، إلى غير ذلك . والأصل في ذلك الوقف والاتباع ؛ لأنها عبادة ، فما جاء به النص نسلم به ونتبع هدي النبي ﷺ ونسلم في ذلك وما لا فلا . قال ابن وضاح : « فعليكم بالاتباع لأئمة الهدى المعروفين ، فقد قال بعض من مضى : كم من أمر هو اليوم معروف عند كثير من الناس كان منكراً عند من مضى »^(١) .

١٦- وذكر الطرطوشي أن الإمام مالكا رحمه الله في هذا كله مقتد بالفاروق ﷺ ، كما روى محمد بن وضاح أن عمر بن الخطاب ﷺ « أمر بقطع الشجرة التي ببيع تحتها النبي ﷺ ؛ لأن الناس كانوا يذهبون تحتها ، فخاف عمر الفتنة عليهم »^(٢) . ثم ساق تلك الآثار السالفة عن مالك .

١٧- ونبه القاضي عياض إلى أنهم نسوا موقع الشجرة من العام المقبل - كما قال جابر ﷺ : « لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة »^(٣) - رحمةً للمؤمنين وعصمة لهم ، إذ لو بقي مكانها لخيف تعظيم الأعراب والجهال لها ، وعبادتهم

(١) البدع والنهي عنها (٩٢) . ط. دار الصميعي ، الأولى ١٤١٦هـ - تحقيق بدر البدر .

(٢) انظر : الحوادث والبدع (٢٩٥) ، والبدع والنهي عنها لابن وضاح (٩١) . وقد رواه ابن سعد في الطبقات (١٠٠/٢) ، وصححه سننه الحافظ في الفتح (٤٤٨/٧) .

(٣) وقطع عمر للشجرة يتبين منه معرفة مكانها ، كما قال سعيد بن المسيب : « كان أبي ممن بايع رسول الله ﷺ عند الشجرة . قال : فانطلقنا في قابل حاجين ، فخفي علينا مكانها ، فإن كانت تبينت لكم فأنتم أعلم » .

وقد يكون خفاؤها في أول الأمر صيانة للصحابة وحماية لهم ، إذ إن العهد قريب ، ثم تبينت لهم بعد ذلك ، والله أعلم . إكمال المعلم (٢٧١/٦) .

ولهذا المعنى حذر النبي ﷺ الصحابة من اتباع سنن الأمم السالفة حين طلبوا أن يكون لهم سدره ينوطون^(٢) بها أسلحتهم ، كما في حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه^(٣) .

١٨ — قال الطرطوشي - معقباً على هذا الحديث - :

« فانظروا رحمكم الله أينما وجدت سدره أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البر والشفاء من قبلها ، ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فاقطعوها ! »^(٤) .

فهذا كلام في غاية الحسن منه رحمه الله .

فإزالة كل ما يتعلق به الناس ويعظمونه رجاء بركته الموهومة هو المتعين .

١٩ — كما فعل أبو إسحاق الجبنياني^(٥) حيث « كان إلى جانبه عين تسمى عين العافية ، كان العامة قد افتتنوا بها يأتونها من الآفاق ، من تعذر عليه نكاح أو ولد قال : امضوا بي إلى عين العافية ، فتعرف بها الفتنة . قال أبو عبدالله : فأنا في السحر ذات ليلة إذ سمعت أذان أبي إسحاق نحوها ، فخرجت فوجدته قد هدمها ، وأذن الصبح عليها ، ثم قال : اللهم إني هدمتها لك ، فلا ترفع لها رأساً . فما رفع لها رأس إلى الآن »^(٦) .

(١) إكمال المعلم (٢٧٢/٦) .

(٢) أي : يعلقون عليها أسلحتهم للبركة .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) الحوادث والبدع للطرطوشي (١٠٥) .

(٥) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن علي الجبنياني ، أحد أئمة المسلمين والعلماء العاملين ، مجمع على فضله وورعه ، كان إذا رئي ذكر الله تعالى من هيئته ، كثير الصمت ، قليل الكلام ، فإذا تكلم نطق بالحكمة ، مات سنة ٣٦٩هـ . انظر : ترتيب المدارك (٢٢٢/٦) ، وشجرة النور (٩٥) ، والديباج (١٤٢) .

(٦) انظر : الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبي شامة (٣٦) ، وتيسير العزيز الحميد (١٨٣) .

فإقدامه رحمه الله على ذلك لما رأى من سوء حال أولئك المتوهمين للبركة من أن يجرمهم ذلك إلى الشرك بالله تعالى من اعتقاد النفع والضرر من غير الله تعالى .

٢٠— ولذا حين حج بعض أصحابه وأحضر معه حجارةً من المسجد الحرام قال له : يا أبا إسحاق ! إني أتيت معي بحصيات من حصي المسجد الحرام ، أتحب أن أعطيك منهن شيئاً تسبح بهن ؟ فقال : « يا أحمق ! ارم بهن ، فعلى أقل من هذا عبت الحجارة »^(١) .

٢١— ورد الطرطوشي رحمه الله على من احتج لمشروعية وضع الجريدة ونحوها على القبر بأن النبي ﷺ مرّ على قبرين فأخبر أن صاحبيهما يعذبان ، ثم كسر جريدة كسرتين ووضع على كل قبر كسرة ، وقال : « لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا » - بقوله :

« إن ذلك خاص بالنبي ﷺ ، ببركة يده المقدسة الشريفة وعلمه بما في القبور »^(٢) .

٢٣-٢٤— وكذلك قال ابن الحاج^(٣) ، ومحمد المختار^(٤) .

ولما كان المتبركون بذوات الصالحين وآثارهم يتمسكون بأحاديث تترك الصحابة رضي الله عنهم بالنبي ﷺ ، وبفضل وضوئه ، والتدلك بنخامته ، والاستشفاء بآثاره ، فقد تكلم الشاطبي بكلام نفيس ردّ به على أولئك ، مبيناً أن ذلك خاص بالنبي ﷺ ، ولا يجوز أن يقاس عليه أحد من الصالحين ولو كانوا من الخلفاء الراشدين أو العشرة المبشرين ، فضلاً عن غيرهم ؛ لأن التبرك عبادة مبناهما على التوقيف والاتباع .

٢٥— فقال : « إن الصحابة رضي الله عنهم بعد موته عليه الصلاة والسلام لم يقع من أحد

(١) ترتيب المدارك (٢٤٣/٦) .

(٢) سراج الملوك (١٣٤) .

(٣) المدخل (٢١٨/٣) .

(٤) نور الحق (٧٣٤/٢) .

منهم شيء من ذلك بالنسبة إلى من خلفه ، إذ لم يترك النبي ﷺ بعده في الأمة أفضل من أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فهو كان خليفته ولم يفعل به شيء من ذلك ، ولا عمر رضي الله عنه ، وهو كان أفضل الأمة بعده ، ثم كذلك عثمان ثم علي ، ثم سائر الصحابة الذي لا أحد أفضل منهم في الأمة ، ثم لم يثبت لواحد منهم من طريق صحيح معروف أن متبركاً يتبرك به على أحد تلك الوجوه أو نحوها ، بل اقتصروا فيهم على الاقتداء بالأفعال والأقوال والسير التي اتبعوا فيها النبي ﷺ ، فهو إذاً إجماع منهم على ترك تلك الأشياء ، وبقي النظر في وجه ما تركوا منه ، ويحتمل وجهين :

أحدهما : أن يعتقدوا فيه الاختصاص ، وأن مرتبة النبوة يسع فيها ذلك كله ؛ للقطع بوجود ما التمسوا من البركة والخير ؛ لأنه ﷺ كان نوراً كله في ظاهره وباطنه ، فمن التمس منه نوراً وجدته على أي جهة التمسه ، بخلاف غيره من الأمة - وإن حصل له من نور الاقتداء به والاهتداء بهديه ما شاء الله - لا يبلغ مبلغه على حال توازيه في مرتبته ولا تقاربه . فصار هذا النوع مختصاً به كاختصاصه بنكاح ما زاد على الأربع ، وإحلال بضع الواهبة نفسها له ... فعلى هذا المأخذ لا يصح لمن بعده الاقتداء به في التبرك على أحد تلك الوجوه ونحوها ، ومن اقتدى به كان اقتداؤه بدعة ، كما كان الاقتداء به في الزيادة على أربع نسوة بدعة .

الثاني : أن لا يعتقدوا الاختصاص ، ولكنهم تركوا ذلك من باب الذرائع ؛ خوفاً من أن يجعل ذلك سنة ، وعلل أن العامة لا تقتصر فيه على حد ، بل تتجاوز الحدود وتبالغ بجهلها في التماس البركة ، حتى يداخلها للمتبرك به تعظيم يخرج به الحد ، فربما اعتقد في المتبرك به ما ليس فيه ، وهذا التبرك هو أصل العبادة ، ولأجله قطع عمر رضي الله عنه الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ ، بل هو كان أصل عبادة الأوثان في الأمم الخالية حسبما ذكره أهل السير ، فخاف عمر رضي الله عنه أن يتمادى الحال في الصلاة إلى تلك الشجرة حتى تُعبد من دون الله ، فكذلك يتفق عند التوغل في التعظيم ، ولقد حكى الفرغاني مذيّل تاريخ الطبري عن الحلاج أن أصحابه بالغوا في التبرك به حتى كانوا يتمسحون ببوله ويتبخرون بعذرتة ! حتى ادعوا فيه الإلهية تعالى الله عما

يقولون علواً كبيراً»^(١) .

فهذه هي العاقبة الوخيمة للمتبركين بالآثار ، لم يزل بهم وهم البركة حتى آل بهم الأمر إلى اتخاذ شريك لله تعالى في ألوهيته !

٢٦— وقد ذكر الميلي نوعاً من التبرك « يُعبّرون عنه بالاستمداد من أرواح^(٢) الصالحين ، ويعتقدون أنهم أحياء في قبورهم يتصرفون في العالم ، ويقضون حاجات قاصديهم . فيتخذون المزارات ينون عليها البناءات ، ويرون أن روح الصالح فلان هنالك ، إما لأنه دفن أو جلس به ، بل تجد بناءات كثيرة على مزارات عديدة كلها منسوبة للشيخ عبدالقادر الجيلاني دفين بغداد رحمه الله ، وهو لم يعرف تلك الأمكنة ولا سمع بها !

ومن مظاهر هذا التبرك الاستمدادي تقبيل الجدران ، والمسح بالحيطان ، وكل ما يضاف إلى ذلك المكان ، وكل هذا جهل وضلال^(٣) .

ولا ريب أن هذا النوع من التبرك شرك بالله تعالى ، فإذا كان الحي القادر عاجزاً عن التصرف في العالم وقضاء الحوائج فكيف بتلك الأرواح التي ليس لها تأثير في هذا

(١) الاعتصام (٢/٨-١٠) .

(٢) ينسب القول بالاستمداد من الأرواح إلى الملاحدة من الفلاسفة « حيث يزعمون أن المؤثر في حوادث العالم هو قوى النفس أو الحركات الفلكية أو القوى الطبيعية ! فيقولون : إن الإنسان إذا أحب رجلاً صالحاً قد مات - لا سيما إذا زار قبره - فإنه يحصل لروحه اتصال بروح ذلك الميت فيما يفيض على تلك الروح المفارقة من العقل الفعال عندهم أو النفس الفلكية ، يفيض على هذه الروح الزائرة المستشفعة من غير أن يعلم الله بشيء من ذلك ، بل وقد لا تعلم الروح المستشفعة بها ذلك ، ومثلوا ذلك بالشمس إذا قابلها مرآة فإنه يفيض على المرآة من شعاع الشمس ، ثم إذا قابل المرآة مرآة أخرى فاض عليها من تلك المرآة ، وإن قابل تلك المرآة حائط أو ما فاض عليه من شعاع تلك المرآة .. وهكذا الشفاعة عندهم ، وعلى هذا الوجه ينتفع الزائر !

وفي هذا القول من أنواع الكفر ما لا يخفى على من تدبره ، ولا ريب أن الأوثان يحصل عندها من الشياطين وخطابهم وتصرفهم ما هو من أسباب ضلال بني آدم » . انظر رسالة الشرك (٢٤٥) .

(٣) رسالة الشرك (٢٤٤) .

العالم قطعاً ، بل هي بحاجة إلى دعاء الأحياء ؟! ولكن هذا ما جره وهم التبرك لهم .
وبعد ؛ فهذا ما تيسر جمعه حيال هذه المسألة المهمة : التبرك الممنوع ، ومن
خلال بيانهم يعلم أن التبرك الممنوع يختلف باختلاف المقاصد ، فقد يكون شركاً
أكبر ، أو دون ذلك من الشرك الأصغر ، أو يكون من البدع المنهي عنها . وعليه
حصل اتفاق الجميع على منع التبرك الذي لم يقم عليه دليل من الشرع ، إذ إنَّ من
المتقرر أن دعوى وجود البركة في الأشياء بغير برهان أمر مردود ، فالبركة من الله
تعالى وحده .

المسألة السادسة : سبّ الدهر

لما كان العرب في جاهليتهم إذا نزل بهم بلاء أو مكروه نسبوا ذلك إلى الدهر ، وعادوا باللوم عليه وذمّوه وسبّوه ؛ فقد جاء الإسلام بمنع ذلك ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم ؛ يسبّ الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلّب الليل والنهار »^(١) .

وروى الإمام مالك بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقل أحدكم : يا خيبة الدهر ! فإنّ الله هو الدهر »^(٢) .

١ — فروايته لهذا الحديث في « باب ما يكره^(٣) من الكلام » تدل على ما استقرّ عنده من النهي عن سبّ الدهر ، إذ هي عقيدة جاهلية ، كما أوضحه غير واحد من المالكية .

٢ — وفي ذلك يقول ابن عبد البر :

«... والمعنى فيه أن أهل الجاهلية كانوا يذمّون الدهر في أشعارهم وأخبارهم^(٤) ،

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب تفسير سورة الجاثية (٥٨/٨-٥٧٤) برقم (٤٨٢٦) ، ومسلم

في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب النهي عن سبّ الدهر (١٧٦٢/٤) برقم (٢٢٤٦) .

(٢) الموطأ (٩٨٤/٢) . وأخرجه أيضًا البخاري في كتاب الأدب ، باب لا تسبوا الدهر (٥٦٤/١٠) برقم

(٦١٨٢) ، ومسلم في كتاب الألفاظ ، باب النهي عن سبّ الدهر (١٧٦٢/٤) برقم (٢٢٤٦) .

(٣) إطلاق الكراهة عند المتقدمين يفيد التحريم في الغالب .

(٤) من ذلك ما قاله ابن المعتز : يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحدًا وأنت والد السوء تأكل الولدا

وقول أبي الطيب : قبحًا لوجهك يا زمان إنه وجه له من كل قبح برقع

وقول الشاعر : أمن المنون وريها تتفجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

وقول الشاعر : المرء يجمع والزمان يفرق ويظل يرقع والخطوب تُمزق

وقد اعتذر عنهم ابن عبد البر بأنهم لا يقصدون ما يقصده الدهرية في كلامهم ، ولا شك في ذلك ، ولكن هذا لا يعذرهم ولا يبيح لهم ما وقع منهم ، فالحديث صريح في النهي كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

ويضيفون إليه كل ما يصنعه الله بهم ، وقد حكى الله عنهم : ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾^(١) فنهى الله عن قولهم ذلك ، ونهى رسوله ﷺ عنه أيضاً بقوله : « لا تسبوا الدهر » ، يعني : لأنكم إذا سببتموه وذمتموه - لما يصيبكم فيه من الحن والآفات والمصائب - وقع السب والذم على الله ؛ لأنه الفاعل ذلك وحده لا شريك له ، وهذا ما لا يسع أحداً جهله والوقوف على معناه ، لما يتعلق به الدهرية أهل التعطيل والإلحاد ، وقد نطق القرآن وصحت السنة بما ذكرناه ، وذلك أن العرب كان من شأنها ذم الدهر عندما ينزل بها من المكاره فيقولون : أصابتنا قوارع الدهر ، وأبادنا الدهر .. »^(٢).

٣-٤ — وذكر الباجي^(٣) ، والمازري^(٤) في معنى الحديث نحوه مما ذكره ابن

عبدالبر .

٥ — ونقل ابن بطال قول الخطابي في شرحه للحديث مقرأ له ، فقال :

« كان أهل الجاهلية يضيفون المصائب والنوائب إلى الدهر الذي هو مر الليل والنهار ، وهم في ذلك فرقتان : فرقة لا تؤمن بالله ، لا تعرف إلا الدهر والليل والنهار اللذين هما محل للحوادث وظرف لمساقط الأقدار ، فنسبت المكاره إليه على أنها من فعله ، ولا ترى أن لها مدبراً غيره ، وهذه الفرقة هي الدهرية التي حكى الله عنهم : ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ . وفرقة ثانية : تعرف الخالق منزّهة أن تنسب إليه المكاره تضيفها إلى الدهر والزمان ، وعلى هذين الوجهين كانوا يذمون الدهر ويسبونونه ، فيقول القائل منهم : يا خيبة الدهر ! ويا بؤس الدهر ! فقال لهم النبي ﷺ مبطلاً ذلك من مذهبهم : « لا يسبن

(١) سورة الجاثية : ٢٤ .

(٢) التمهيد (١٨/١٥٤) .

(٣) المنتقى (٧/٣٠٩) .

(٤) المعلم (٣/١١٠-١١١) .

أحد منكم الدهر ، فإنّ الله هو الدهر » يريد - والله أعلم - : لا تسبوا الدهر على أنه الفاعل لهذا الصنيع بكم ، إنّ الله هو الفاعل له ، فإذا سببتم الذي أنزل بكم المكاره رجع السب إلى الله وانصرف إليه ^(١) .

٦- وبين ابن العربي أنّ المراد من الحديث ما كان عليه أهل الجاهلية من نسبة الأفعال إلى غير الله تعالى من الأسباب المترددة والحوادث المتعاقبة « فإذا جاء الخلق ما يحبون فرحوا بذلك المتاع ، وإذا جاءهم ما يكرهون عكفوا على الدهر يسبونه وينسبونه إلى اللوم والإذاية ، فأراد النبي ﷺ أن يطهر عقائدهم من هذا المنزع الخبيث ، ويُعلمهم بأن هذه الأفعال التي يكرهون والأفعال التي يحبون ليست منسوبة إلى الأسباب ولا محسوبة على الحوادث ، وإنما هي كلها مضافة إلى الله تعالى تقديرًا وخلقًا ، وسبّ الحكم والمعلول سبّ العلة ، فإنك إذا قلت : فعل الله بفلان كذا وكذا ، وكان المشار إليه باللوم موجودًا في غيره فقد دخل في حكمه » ^(٢) .

٧- وذكر نحوًا من ذلك القرطبي أبو العباس في معنى الحديث ، فقال :

« فلذلك قال الله تعالى : « يسبّ ابن آدم الدهر ، وأنا الدهر » ^(٣) ، أي : أنا الذي أفعل ما ينسبونه إلى الدهر لا الدهر ، فإنه ليل ونهار وأنا أقلبهما ، أي أتصرف فيهما بالإطالة والإقصار ، والإضاءة والظلام ، وفيه تنبيه على أن ما يفعل ويتصرف

(١) شرح صحيح البخاري (٣٣٧/٩-٣٣٨) .

(٢) القبس (١١٦٥/٣) .

(٣) رد بعض المالكية على من قال : إن الدهر من أسماء الله تعالى . قال القاضي عياض : « ذكر من لا تحقيق له أن الدهر من أسماء الله ، وهذا جهل من قائله وذريعة إلى مضاهاة قول الدهرية والمعطلة .. ويفسره الحديث الآخر نفسه بقوله : « فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره » ، وهذا هو معنى ما أشار إليه المفسرون من أن فاعل ذلك في الدهر هو الله ﷻ ، والدهر مدة زمان الدنيا » . إكمال المعلم (١٨٤/٧) .

وانظر أيضًا ما قاله الباجي في المنتقى (٣٠٩/٧) ، وشرح الزرقاني (٤٠١/٤) ، والقرطبي في المفهم (٥٤٨/٥) .

فيه لا يصلح لأن يفعل ...»^(١) .

٨ — وهو أيضاً قول تلميذه أبي عبدالله القرطبي في بيان معنى الحديث ، حيث

يقول :

« إن الله هو الفاعل لهذه الأمور التي تضيفونها إلى الدهر ، فيرجع السبّ إلى الله سبحانه ، فنهوا عن ذلك . ودل على صحة هذا ما ذكره من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تبارك وتعالى : يؤذيني ابن آدم ... » الحديث »^(٢) .

٩ — وقال ابن أبي جمرة :

« ظاهر الحديث يدل على المنع من سب الدهر ؛ لأنه يعود إلى سبّ خالقه ومصوره ، وهو الله ﷻ ... فمن سب الصنعة فقد سب صانعها »^(٣) .

١٠ — وذكر الزرقاني ثلاثة أوجه في توجيه حديث « لا تسبوا الدهر فإن الله

هو الدهر » ، فقال :

« أي : المدبر للأمر ، ما ينسبونه إلى الدهر ، فقال ذلك ردّاً لاعتقادهم ، وفي رواية : « فإن الدهر هو الله الخالق له » ، وقيل : تقديره مقلب الدهر ، ولذا عقبه بقوله : « بيدي الليل والنهار » ، أي : فإن جالب الحوادث ومتوليها هو الله لا غيره ، وقيل : إنه على حذف مضاف ، أي : صاحب الدهر ، فمعنى النهي عن سبه أن من اعتقد أنه فاعل للمكروه فسبه خطأ ، فإن الله هو الفاعل^(٤) ، فإذا سبه رجع إلى الله ، كما رواه الشيخان عن أبي هريرة رفعه : « يسبّ بنو آدم الدهر ، وأنا الدهر » ، وفي رواية : « يؤذيني ابن آدم ، يسبّ الدهر .. »^(٥) .

(١) المفهم (٥/٥٤٩) .

(٢) تفسير القرطبي (١٦/١٧١) .

(٣) بهجة النفوس (٤/١٧٧) .

(٤) سبق التنبيه على هذه العبارة ، فإن الله هو الفاعل ، والأولى أن يقال : هو المقدر .

(٥) شرح الزرقاني (٤/٤٠١) .

١١ — ونظير قول الزرقاني هذا ما نقله محمد المختار عن ابن حجر مقراً له^(١) .

١٢ — وأوضح ابن عاشور في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾^(٢) أن هذه الكلمات تجري على ألسنتهم لقلة التدبر في الأمور ، وإن كانوا يعلمون أن الله هو الخالق للعوالم .. ولذلك أعقبه بقوله : ﴿ وما لهم بذلك من علم ﴾ أي : لا علم لهم أن الدهر هو المميت ، إذ لا دليل على ذلك ، وإنما توهم عامة الناس أن الزمان متصرف ، وهي توهمات شاعت حتى استقرت في الأذهان الساذجة^(٣) .

١٣ — وذكر ابن عطية عند قوله تعالى : ﴿ .. وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ أن الله تعالى نفى علمهم بأن طول الزمان هو المهلك ، وإنما هي مجرد ظنون وتحرص تفضي بهم إلى الإشراك بالله تعالى^(٤) .

وبهذا البيان من أئمة المالكية يتبين أن سب الدهر يعود على الله في الحقيقة ؛ لأن الدهر خلق مسخر من خلق الله ، منقاد لأمره ، وهو محل لما يقع من تقدير الله تعالى ، فإذا لم ترق للمخلوق تلك الأقدار عاد باللوم والسب للدهر على اعتبار أنه وقع فيه ما يكرهه ، فيكون السب متجهاً إلى الله تعالى ؛ لأنه هو الفاعل حقيقة^(٥) .

من هنا فقد ذكروا أن سب الدهر يشتمل على معنى خطير ، وهو نسبة الحوادث إلى غير الله ، ولا ريب أن من اعتقد أن مع الله تعالى خالقاً فهو كافر .

(١) نور الحق (٤٠٨/٩) .

(٢) سورة الجاثية : ٢٤ .

(٣) التحرير والتنوير (٣٦٢/٢٥-٣٦٣) .

(٤) المحرر الوجيز (٨٧/٥) .

(٥) قال القرطبي أبو عبدالله : « وقد أحسن من قال :

لا تلم الدهر على غدره

يا عاتب الدهر إذا ناب

وينتهي الدهر إلى أمره »

الدهر مأمور له أمر

تفسير القرطبي (١٧١/١٦) .

١٤ — وقد نبه بعض المالكية عند شرحهم لهذه المسألة إلى تفصيل مهم ، فذكر القرطبي « أن الغالب من أحوال بني آدم إطلاق نسبة الأفعال إلى الدهر ، فيذمونه ويسفهونه إذا لم تحصل لهم أغراضهم ، ويمدحونه إذا حصلت لهم ، وأكثر ما يوجد ذلك في كلام الشعراء والفصحاء ، ولا شك في كفر من نسب تلك الأفعال أو شيئاً منها للدهر حقيقة واعتقد ذلك ، وأما من جرت هذه الألفاظ على لسانه ولا يعتقد صحة تلك فليس بكافر ، ولكنه قد تشبه بأهل الكفر وبالجاهلية في الإطلاق ، وقد ارتكب ما نهى رسول الله ﷺ عنه ، فليتب وليستغفر الله تعالى »^(١) .

ومراد القرطبي ظاهر في أن من أسند تلك الأمور للدهر استقلالاً بها دون الله تعالى فهو كافر خارج من الملة ، ومن سلم من ذلك الاعتقاد فقد شابه أهل الجاهلية والكفر فيما قاله ، بيد أنه لا يكفر بذلك ولا يسلم من الإثم ، وذلك لأن من سب الدهر فقد آذى الله تعالى ، كما في الحديث : « يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر » .

١٥ — وكذلك ذكر هذا التفصيل الزرقاني فيما نقله عن المحققين : « من نسب شيئاً من الأفعال إلى الدهر حقيقة كفر ، ومن جرى على لسانه غير معتقد لذلك فليس بكافر ، ولكن يكره ذلك لتشبهه بأهل الكفر والإطلاق »^(٢) .

١٦ — ونظيره ما نقله محمد المختار عن ابن حجر في ذلك^(٣) .

ولعلهما أرادوا كراهة التحريم فيما نقلاه ، وكأنهما يشيران إلى قول القرطبي السابق ، وفيه ما يدل على التحريم ، وإلا فلا يسلم لهما القول بالكراهة ، إذ إن سب الدهر فيه إيذاء لله تعالى ، كما قال الله : « يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر » ، وقال تعالى : ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة

(١) المفهم (٥/٥٤٧) .

(٢) شرح الزرقاني (٤/٤٠١) .

(٣) نور الحق (٩/٤٠٨-٤٠٩) .

وأعدّ لهم عذاباً مهيناً^(١) ، فكيف لا يقال بالتحريم ؟

١٧— وقد ذكر بعض المفسرين عند هذه الآية أحاديث النهي عن سب الدهر ، عند شرحهم لمعنى الآية ، وذلك لبيان ما في سب الدهر من إذاية لله تعالى^(٢) .

١٨— وأشار ابن أبي جمرة إلى أن النهي عن سب الدهر الذي هو الليل والنهار ، وهما من أعظم مخلوقات الله تعالى يفضي إلى سب خالقها ، فقال :
« لا يخفى أن من سب الصنعة فقد سبّ صانعها »^(٣) .

وخلاصة القول : أن سبّ الدهر على حالين :

فمنه ما هو كفر لا شك فيه ، وهو ما اشتمل على الاعتقاد الباطل كما سبق .

ومنه ما هو دون ذلك ، فيمن سب الدهر بلسانه ظاهراً^(٤) ، فهو وإن سلم من الاعتقاد الفاسد إلا أنه لا يسلم من الإثم في ذلك . لا سيما أن النص في ذلك قد جاء بلفظ : « يشتمني عبدي » ، و « يؤذيني ابن آدم » أي : يلحق بي الأذى ، وإلحاق الأذى بالله تعالى وشتمه أمر بالغ مبلغاً عظيماً في التنفير منه .

وبهذا يعلم أن سب الدهر فعل أهل الجاهلية ، وهو محرم على كل حال ؛ لما فيه من الأذى لله تعالى ونسبة ما قدره تعالى إلى غيره ، والله أعلم .

(١) سورة الأحزاب : ٥٧ .

(٢) انظر تفسير القرطبي (٢٣٧/١٤) ، وتفسير ابن كثير (٥١٤/٥) ، والبغوي (٣٧٥/٦) .

(٣) بهجة النفوس (١٧٧/٤) .

(٤) وذلك لأنه قد يكون سباً ولو لم يقصده بقلبه ، تؤخذ من قوله : « يؤذيني ابن آدم » ، يسب الدهر ، ولم يذكر قصداً ، وعليه فإنه يكون مؤذياً لله تعالى وإن لم يقصده .

الخاتمة

في ختام هذا البحث الذي هو بعض من جهود المالكية في تقرير توحيد العبادة تتبين عنايتهم الكبيرة بتوحيد العبادة ، حيث بلغت النقول عنهم ما يزيد على الألف ومائتي قول .

وهم كغيرهم من الأئمة وعلماء الأمة الذي خلفوا الرسل في الدعوة إلى توحيد العبادة ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ . وبهذه النقول السالفة عنهم تثبت الحقائق التالية :

أولاً : أن التوحيد في الشرع هو " لا إله إلا الله " ، فهذه الكلمة يحكم للكافر بدخول الإسلام إذا انضم إليها الشهادة بعموم الرسالة لمحمد عليه الصلاة والسلام ، فمن لم يقل بذلك فقد خالف الكتاب والسنة وما سار عليه عمل سلف الأمة .

ثانياً : بيان معنى الإله في قول " لا إله إلا الله " ، وأنه المعبود ، كما هو في أصل اللغة والشرع ، فكلمة التوحيد إذا تعني أن المستحق للعبادة هو الله وحده ، إذ إن المراد بقولنا " لا إله " نفي جميع المعبودات ، وقولنا " إلا الله " حصر استحقاق العبادة لله وحده لا شريك له .

ثالثاً : أن لكلمة التوحيد شروطاً لا بد من التزامها لمن نطق بها ، وإلا لم تنفعه .

رابعاً : أن هذا التوحيد هو أول واجب على المكلف ، فهو أول ما بدأ به الرسل دعوتهم لأقوامهم ، وبهذا يتبين بطلان ما عليه أهل الكلام من أن أول واجب هو النظر أو القصد إليه !

خامساً : أن توحيد الربوبية يكاد يطبق عليه غالب البشر ؛ لما فطر الله عليه الخلائق من الإيمان بالله تعالى رباً وخالقاً ، فلزم من أقرّ بذلك إفراده تعالى بالعبادة وحده .

وعليه ؛ فلا يمكن أن يكون التوحيد الذي بعثت الرسل للدعوة إليه هو توحيد الربوبية ؛ لإقرارهم به ، وإنما يكون فيما جحدوه ، وهو أفراد الله تعالى بالعبادة .

سادساً : أنّ العبادة تشمل سائر القرب الظاهرة والباطنة ، من قول أو فعل أو ترك ، فيجب على العبد أن يصرفها لله تعالى وحده .

سابعاً : أنّ هذه الأنواع الظاهرة والباطنة للعبادة بها يتضح معنى العبادة ، كالحجة والخوف والرجاء والتوكل والصبر والتوبة ، وكذا الذكر والدعاء والذبح والطواف والنذر ، وغيرها من الأنواع التي أوضح المالكية تعلقها بالعبادة واستحقاق الرب إياها وحده .

ثامناً : أنّ هذه العبادة يتوقف قبولها على شرطين : أولهما إخلاص العبادة لله تعالى وحده ، والثاني : أن تكون العبادة على وفق شرعه ، فمن فرط في واحد منهما رد عليه عمله .

تاسعاً : أنّ الأمر بالتوحيد نهي عن ضده من الشرك بالله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾^(١) . والرسل إنما دعوا إلى عبادة الله وحده ونهوا عن الشرك ، وحقيقته الشرك في العبادة .

عاشراً : أنّ أول ما وقع الشرك في الأرض كان في قوم نوح ، وسببه الغلو ، ثم نشأ بعد ذلك في الأرض بحجة أنهم يرجون شفاعته من غلوا فيهم ، فلم يزل بهم صنيعهم حتى أوقعهم في عبادتهم من دون الله تعالى .

حادي عشر : أنّ الشرك ينقسم إلى قسمين : أحدهما الشرك المنافي لأصل التوحيد ، وهو المخرج من الملة . والثاني : الشرك المنافي لكمال التوحيد ، وهو لا يخرج من الملة ، إلا أنه قد يوصل إلى الأكبر بسبب ما انضاف إليه من الاعتقاد السيئ .

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ .

ثاني عشر : الشرك منه ما ينافي التوحيد ومنه ما ينافي كماله ، ومن ذلك : شرك الدعاء ، وشرك الطاعة ، وشرك الذبح ، وشرك السجود ، وشرك الطواف ، وشرك النذر ، وشرك الرقى والتمايم ، والسحر المتضمن لصرف العبادة إلى الشياطين أو الكواكب ، وكذا الحلف بغير الله ، والتعبد لغير الله ، والتسمي بملك الملوك ، والطيرة ، وسب الدهر ، وبعض من صور التبرك الممنوع .

ثالث عشر : أن المتقدمين من أهل الإسلام تحدثوا عن الشرك الأكبر على أنه لم يكن موجوداً عندهم ، وإنما كان حديثهم عنه من باب وقوعه من غير المسلمين للتحذير منه ، أما المتأخرون فتحدثوا عنه لإنكاره حين وقع فيه المسلمون .

وختاماً ؛ فرحم الله أولئك الأئمة من المالكية حيث ركزوا على أجل وأعظم مشهود ، وهو توحيد الله ﷻ وإفراده بالعبادة ، وهم بذلك مقتفون للنبي ﷺ وسلف هذه الأمة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الفهارس

- ١- فهرس الآيات
- ٢- فهرس الأحاديث
- ٣- فهرس الأعلام
- ٤- فهرس المراجع
- ٥- فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الآيات القرآنية

الآية

الصفحة

- أ -

آله خير أما يشركون	٧٨
آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل	١٠٠
آمنوا بالله ورسوله	١٣٦
أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه	٢٣٧
أجئتنا لنعبد الله وحده	٥٥
أجعل الآلهة إلهاً واحداً	٢٥
أجيب دعوة الداع إذا دعان	٣٠٩
أرأيت من اتخذ إلهه هواه	١٧٠
أفرأيت من اتخذ إلهه هواه	٥٦
أفمن يخلق كمن لا يخلق	١٧٢ ، ١٦٥ ، ١٦٢
أفي الله شك	١٨٢ ، ١٥٨
ألا بذكر الله تطمئن القلوب	١١٣
ألا لله الدين الخالص	٣٥٨ ، ١١٥
ألا له الخلق والأمر	٤٠٨ ، ١٧٤
إلا من شهد بالحق	١٠٧
ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان	٤٠٥
أليس الله بكاف عبده	٢٣٧
إليه يصعد الكلم الطيب	٣٦٣ ، ٩٤
أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله	٣٦١

- أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءُ اللَّهِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ٢٣٤ ، ٢١٦
- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا ٢٣١
- إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ ٤٠٠
- إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا ١٧٠
- إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ٥١٢
- إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ٣٦٨ ، ٢٢٢
- أَنْ بوركَ مِنْ فِي النَّارِ ٤٩٥
- إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ ٢٣٥
- إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ١٧٢ ، ١٦٩
- إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ١٦١
- إِنَّ نَقُولَ إِلَّا اعْتِرَاكَ ٢٣٦
- إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا ٣١٠
- إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ٦٧
- إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ٣١٧
- إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ٥٨
- إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ٢٢٢
- إِنَّمَا يُوفِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٢٧٠
- إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ٢٣٢ ، ٢٣٠
- إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ٣٦٨
- إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ٥٥ ، ٤٢
- إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ٢٣٨ ، ٢٢٣ ، ٢١٦
- إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا ٢٧٠
- أَوْ فَسَقًا أَهْلَ لَغْوٍ لِلَّهِ بِهِ ٤٢٢ ، ٤١٩
- أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ٢٣٨

- أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ٢٣٨
- أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ٩١
- أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ٢٧٠
- أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض ١٥١ ، ١٣٢
- إياك نستعين ٢٤٩
- أحسب الإنسان أن يترك سدى ١٩١

- ١ -

- اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ٤٠٦ ، ٤٠٤ ، ٢٩
- ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ٣٠٩ ، ٣٠٧

- ب -

- بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ٤٠٨

- ت -

- تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ٣٧٥
- تبت يدا أبي لهب وتب ٤٧٨

- ث -

- ثم محلها إلى البيت العتيق ٣٤٠

- ذ -

- ذلك بأن الله هو الحق ٥٥
- ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا ٩٥
- ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو ١٧٧ ، ١٦٥
- ذلكم بأنه إذا دُعي الله وحده كفرتم ٦١
- الذي له ملك السماوات والأرض ١٧٠
- الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا ٤٧٢
- الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً ٢٩٩ ، ٢٩٨

- ر -

رب السماوات والأرض وما بينهما ١٧٧ ، ١٧٥

- س -

سلام عليكم بما صبرتم ٢٦٧

- ص -

صبغة الله ١٥٨

- غ -

غافر الذنب وقابل التوب ٢٣٥

- ف -

فأصبح في المدينة خائفاً يترقب ٢٥٢

فأقم وجهك للدين حنيفاً ١٦٠

فإن تابوا وأقاموا الصلاة ٨٢

فإن تولوا فقل حسبي الله ٢٤٩

فأنذرتكم ناراً تلظى ٢٢٠

فاذكروا اسم الله عليها صواف ٣٢٥

فاذكروني أذكركم ٢٩٥

فاعبد الله مخلصاً له الدين ١١٤

فاعبده وتوكل عليه ٢٤٢

فاعلم أنه لا إله إلا الله ٦٧

فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ٦٧

فذلكم الله ربكم الحق ١٦٨ ، ٦١

فصل لربك وانحر ٤٢٠ ، ٤١٨ ، ٣١٩ ، ٣١٤

فطرة الله التي فطر الناس عليها ١٤٨ ، ١٤٣

فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ٢٥٤

- فلا تجعلوا لله أندادًا ١٧٣ ، ١٣٠ ، ٥٠
- فلا تخشوهم واخشون ٢٢٩
- فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ٤١٩
- فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانًا آلهة ٣٨٨ ، ٧٨
- فليحذر الذي يخالفون عن أمره ٣٦٥
- فمن اضطرّ غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ٢٥٢
- فمن كان يرجو لقاء ربه ٣٥٤ ، ٣٤٩
- فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ٣٧٢

- ق -

- قال رب أنظرني إلى يوم يبعثون ١٤٢
- قال رجلان من الذين يخافون ٢٥٩
- قال لفتاه آتنا غداءنا ٢٥٥
- قال هل يسمعونكم إذ تدعون ٤٠١
- قالوا حرقوه ٢٦٠
- قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ٤٠١
- قل أغير الله أبغي ربًّا ١٨٢
- قل أغير الله اتخذ وليًّا ١٨٣ ، ١٧٨
- قل أغير الله اتخذ وليًّا ١٨٣ ، ١٧٨
- قل إن صلاتي ونسكي ٤٤٠ ، ٤٢٠ ، ٤١٨ ، ٣٥٩ ، ٣١٩ ، ٣١٧ ، ٣١٤
- قل إن كان آبائكم وأبنائكم ٢٠٢ ، ١٩٧
- قل إن كنتم تحبون الله ٢١٤ ، ٢١٣ ، ٢١١
- قل أندعو من دون الله ٦٠
- قل إنما أمرت أن أعبد الله ٣٧٧
- قل إنما يوحى إليّ أنما يحكم إليه واحد ٧٩

- قل أي شيء أكبر شهادة ١٨٤
- قل الله أعبد مخلصاً له ديني ٣٥٠ ، ٣١٣
- قل فله الحجة البالغة ١٤٧
- قل لا أجد فيما أوحى إليّ ٤٢٦
- قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله ٤٩٢
- قل للذين كفروا إن ينتهوا ٢٩٢
- قل لمن الأرض ومن فيها ١٨٠ ، ١٧٩
- قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم ٣٠٨ ، ٦٠
- قل من يرزقكم من السماء والأرض ١٨٥ ، ١٧٨ ، ١٦٢
- قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ٤٠١
- قل يا أهل الكتاب تعالوا ٧٥ ، ٦٩
- قل يا عبادي الذي أسرفوا على أنفسهم ٢٣١

- ك -

- كان الناس أمة واحدة ٣٧٩

- ل -

- لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ٢٤٢
- لا إله إلا هو يحيي ويميت ١٧٧
- لا تأخذه سنة ولا نوم ٤٤
- لا تجعل مع الله إلهاً آخر ٥٢
- لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ٤١٥ ، ٤١٤
- لا تعبد الشيطان ٤٠٥
- لا تلهكم أموالكم ٢٩٨
- لتنذر قومًا ما أنذر آباؤهم ١٦٢
- الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم ١٨٢

- لو أراد الله أن يتخذ ولدًا لاصطفى ٣٨٨
- لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا ٧٠
- ليلوكم أيكم أحسن عملاً ٣٥٥ ، ٣٤٩
- ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ٣٥٤ ، ٢٥٣
- ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ٣٨

- م -

- ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ٣٧٤
- ما علمت لكم من إله غيري ١٤٢
- ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله ٤١٣
- ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى ٣٨٧
- من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى ٣٥٠

- ن -

- نبيّ عبادي أنا الغفور الرحيم ٢٢٧
- نعم العبد إنه أواب ٢٧٣

- ه -

- هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ٤٩
- هو الحي الذي لا إله إلاّ هو ٦٧
- هو الذي خلقكم من نفس واحدة ٤٧٤

- و -

- وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ١٤٧
- وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ٣٠٦
- وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلاّ إياه ١٨٠
- وأرنا مناسكنا ٤٢٣
- وأشهدهم على أنفسهم ١٥٣

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ	٢٥٧
وَالْهَكُم إِلَهَ وَاحِدٍ	٣٨ ، ٥٣ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٧٧
وَأِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ	٤٠٦
وَأِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ	٤٠٧
وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ	٦٠ ، ٣٤٧ ، ٣٩٤
وَأَنْ رَبِّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ	٢٣٤
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون	٦٥
وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ	٣٩٩
وَأَنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمْنَاهُ	٢٥٩
وَأَنبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ	٢٧٥ ، ٢٥٩
وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا	١٩٩
وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى	٤٩٨
وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ	١١٠
وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا	٢٢٤ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤
وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا	٥١ ، ١١٥
وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ	٢٦٦
وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ	٢٦٢
وَالْتِينَ وَالزَّيْتُونَ	٤٦٩
وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا	٢٩٨
وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً	٢٩٧
وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدَّ حُبًّا لِلَّهِ	٢٠٢
وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ	٣٧٧
وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ	١٦٧
وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ	٢٢٠

- والله خلقكم وما تعملون ١٧٦
- والله يعصمك من الناس ٢٥٧
- والليل إذا يغشى ٢٢٠
- وبشر الصابرين ٢٧٠
- وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ٢٢٩
- وتوكل على الحي الذي لا يموت ٢٤٦
- وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ١٤٢
- وجدها وقومها يسجدون للشمس ٤١٦
- وجعل الله أنداداً ٤٠٩
- وجعلوا لله شركاء ٤٣٧
- وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث ٤٢٣
- ورفع أبويه على العرش ٤١٥
- ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ٣٣٠
- وسع كرسيه السماوات والأرض ١٨٣
- وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ٤٢١
- وعلى الله فتوكلوا ٢٥٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٢
- وعلى ربهم يتوكلون ٢٤٥
- وفديناه بذبح عظيم ٣١٦
- وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ١٧٨
- وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ٣٠٨ ، ٣٠٣ ، ٢٢٣
- وقالوا لا تذرنا آلهتكم ٣٨٢ ، ١٨٦
- وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا ٥٠٨
- وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ١٨٢
- وكيف أخاف ما أشركتم ٢٣٦

- ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ١٥٨ ، ١٤٥
- ولئن سألتهم من خلقهم ٣٧٣ ، ١٦٥ ، ١٦٢ ، ١٤٢
- ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ٤٠٤
- ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ٦٥
- ولا تدع مع الله إلهاً آخر ٦٥
- ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ٤٠٢
- ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ٩٣
- ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة ٤٢٠
- ولا يفلح الساحر حيث أتى ٤٤٥
- ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك ٣٦٨ ، ٤١٣ ، ٤٠٢
- ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ١٢٤ ، ٧٩ ، ٥٧ ، ٥٢ ، ٥١
- ولقد علموا لمن اشتراه ٤٤٥ ، ٤٤٢
- ولكل أمة جعلنا منسكاً ٤٢٤
- ولكن الشياطين كفروا ٤٤٧
- ولكن يؤخذكم بما كسبت قلوبكم ١٠٨
- ولم يخش إلا الله ٢٣٦
- ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ٩١
- ولمن خاف مقام ربه ٢٢٠
- ولنصبرن على ما آذيتمونا ٢٦٦
- وله أسلم من في السماوات والأرض ١٤٧
- وله ما سكن في الليل والنهار ١٨٣
- وله من في السماء والأرض ١٧٧
- ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ٣٧٥
- وليست التوبة للذين يعملون السيئات ٢٩٠ ، ٢٧٨

- وليظوفوا بالبيت العتيق ٤٣٨
- وليوفوا نذورهم ٣٣٦ ، ٣٣٢ ، ٢٣٨
- وما آتاكم الرسول فخذوه ٣٥٠
- وما أرسلنا من قبلك من رسول ٣٧٤ ، ١٣٩ ، ١٢٤ ، ٧٨ ، ٥٥ ، ٥٢ ، ٤٩
- وما أغني عنكم من الله من شيء ٢٦٠
- وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين ٣٥٩ ، ٣٥٠ ، ١١٤ ، ١١٣
- وما أهل لغير الله به ٤٢٤ ، ٤٢٢ ، ٤٢١
- وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ٢٥١
- وما خلقت الجن والإنس ١٩٢ ، ١٩٠ ، ٦٢
- وما ذبح على النصب ٤٢١
- وما كان الله ليضيع إيمانكم ٨٥
- وما لي لا أعبد الذي فطرني ١٦٧ ، ١٦٥
- وما من إله إلا الله الواحد القهار ٦٥
- وما من دابة في الأرض ١٨٤
- وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ١٧٢ ، ١٦٥
- وما يعلمان من أحد حتى يقولا ٤٤٥
- وما يهلكنا إلا الدهر ٥١١
- ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً ١٩٧
- ومن الناس من يقول آمنا بالله ٢٢٩
- ومن لم يؤمن بالله ورسوله ١٣٦ ، ١١٨ ، ٦١
- ومن يتوكل على الله فهو حسبه ٢٤٦ ، ٢٤٢
- ومن يعظم شعائر الله ٣٤٤ ، ٣٤٠
- ونبلوكم بالشر والخير فتنة ٢٦٨
- وهزي إليك جذع النخلة ٢٥٩

- وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ٥٨
- وهو الذي يريك آياته وينزل لكم ١٨١
- وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ٦١
- ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ٢١٩
- ويخوفونك بالذين من دونه ٢٣٧
- ويدعوننا رغبا ورهبا ٢٢٧
- ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ٣٢٣
- ويرجون رحمته ويخافون عذابه ٢١٧
- ويسبحونه وله يسجدون ٤١٤
- ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ٤٠٨
- ويوم يقول نادوا شركائي ٣٠٣

- ي -

- يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ٣٣٧
- يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ٢٩٥ ، ١٠٢
- يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ٢٣١
- يا أيها الذين آمنوا من يرد منكم ٢٠٢ ، ١٩٧
- يا أيها الناس اعبدوا ربكم ١٧٦ ، ١٦٩ ، ١٦٦ ، ٦٢ ، ٤٩
- يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ٥٧
- يا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة ٤٠١
- يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ٤٤١
- يظنون بالله غير الحق ٤٨٩
- يوفون بالنذر ٣٣٦ ، ٣٣٢ ، ٣٢٨
- يوم يأتي بعض آيات ربك ٢٨٨ ، ٢٨٧

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الأحاديث النبوية

الحديث

الصفحة

- أ -

٤٧	آمركم بالإيمان بالله وحده
٢١١	آية الإيمان حبّ الأنصار
١١٩	أتدرون ما الإيمان بالله وحده
٥٠ ، ٣١	أتشهدين أن لا إله إلا الله
٣٩٤	أحد أحد
٢٨٠	إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم
١١٣ ، ٩٢	الأعمال بالنيات
٣١٧	أغلاها ثمنًا وأنفسها عند أهلها
٤٨١	أغيظ رجل على الله وأخبثه
٤٤	أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي
٢٢٢	أفلا أكون عبدًا شكورًا
٤٦٨	أفلح وأبيه إن صدق
٣٠١	ألا أخبركم بخير أعمالكم
٣٠٠	ألا وإن في الجسد مضغة
٤٠٤	أليس يحلون لكم ما حرّم الله فتحلونّه
٩٤	أليس يشهد أن لا إله إلا الله
١١٦ ، ٨٢ ، ٦٨ ، ٥٠ ، ٤٦ ، ٣٩ ، ٣٦ ، ٣٠ ، ٢٩ ، ١٩	أمرت أن أقاتل الناس
٤٨١	إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك
٣٧٩	إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات

١٧١ إن الشمس والقمر آيتان
١٥٥ إن الغلام الذي قتله الخضر
٢٥٥ إن الله يحب العبد المحترف
٢٨٧ إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر
٤٦٥ إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم
٢٣٠ إن المؤمن يرى ذنوبه
٤٨٢ إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة في صور الذرّ
٣٣٣ إنّ النذر لا يردّ من القدر شيئاً
١٦٦ أن تجعل لله نداً وهو خلقك
٣٧٨ أن تعبد الله ولا تشرك به
٩٩ أن رسول الله ﷺ أعطى رهطاً وسعد جالس
٢٢١ أنا أتقاكم وأعلمكم بالله أنا
٤٨٩ أنا عند ظن عبدي بي
٦٦ أنت إلهي لا إله إلا أنت
٣٥٨ ، ٣٥٠ إنّما الأعمال بالنيات
١٢٠ أنه سيقدم عليك قوم من أهل الكتاب
٣٣٢ إنه لا يغني شيئاً ولكن يستخرج به من البخيل
٤٤ أي آية في القرآن أعظم
٤٣ أي عم ، قل لا إله إلا الله
١٠١ ، ٤٥ الإيمان بضع وسبعون شعبة
١٣٤ أين الله
٣٨٠ اشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد
٤٥٠ اعرضوا عليّ رقاكم

- ب -

بني الإسلام على خمس ٨٢ ، ٧٥ ، ٦٦

- ت -

تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها ٢٨٩
تبايعوني على أن لا تشرکوا بالله شيئاً ٢٢٢
تكفل الله لمن جاهد في سبيله ٣٥٧

- ث -

ثلاث من كنّ فيه ١٩٧
ثم دعا ثم دعا ٣٠٦

- ح -

الحج عرفة ٢٨٠

- خ -

خالصاً من قلبه أو نفسه ١١١
خذوا عني مناسككم ٣٦٤
خلقت عبادي حنفاء ١٤٤
خمس من الفطرة ١٥١

- د -

دخلت امرأة النار في هرة ٢٢٦
الدعاء مخ العبادة ٣٠٥
الدعاء هو العبادة ٣٠٣

- ر -

رخص في الرقية من كل ذي حُمة ٤٥٣
الرقى والتمايم والتولة شرك ٤٥٠ ، ٤٤٣

- س -

سبق المفردون ٢٩٦

- ط -

الطيرة من الشرك ٤٨٧ ، ٤٨٦

- ف -

فإن سألك فأخبريه أنك أختي ٢٥٦

فكيف بلا إله إلا الله ٣١

فلا تفعل فإني لو أمرت شيئاً أن يسجد لشيء ٤١٣

فلما قعدت بين رجلها ٢٩٧

فليكن أول ما تدعوهم إليه ١٣٥

فما أعطي أحد عطاءً ٢٦١

فمن حلف فليحلف برب الكعبة ٤٦١

- ق -

قاتل الله اليهود والنصارى ٣٨٣

قد قد ٣٩٥

قيدها وتوكل ٢٤٦

- ك -

كان الله تعالى ولم يكن شيء ١٤٦

كان رجل ممن كان قبلكم ٢٢١

كان يدخر لنفسه قوت سنة ٢٥٢

كل مولود يولد على الفطرة ١٤٣

كنت رديف النبي ﷺ على حمار ١٩٠

الكيس من دان نفسه ٢٢٨

كيف يتحدثك ٢١٧

- لا أحد أحب إليه السؤال من الله تعالى ٣١٠
- لا تحلفوا بآبائكم ٤٦٥
- لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ٤٧١
- لا تسبوا الدهر ٥٠٧
- لا تسجد لله سجدةً إلاّ رفعتك الله بها درجة ٤١٠
- لا تسموا أبناءكم حكمًا ولا أبا الحكم ٤٨١
- لا تشدّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد ٤٣٤
- لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها ٣٨٤
- لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس ٤٣٠
- لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ٢٨٧
- لا تلغنه فإنه يحب الله ورسوله ١٩٨
- لا طيرة والطيرة على من تطير ٤٨٨
- لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل ٤٨٦
- لا نذر في معصية الله ٤٣٨
- لا ييقين في رقية بعير قلادة من وتر ٤٥٥
- لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى ٤٣١
- لا يشهد أحد أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله ٩٤
- لا يقل أحدكم يا خيبة الدهر ٥٠٧
- لا يقوها أحد عند موته إلاّ أشرق لها لونه ١٢١
- لا يموتن أحدكم إلاّ وهو يحسن الظن بالله ٢٣٩
- لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا ٥٠٣
- لعن الله اليهود والنصارى ٣٨٤
- لقد حجرت واسعًا ١٣٤

٩٧	لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني
٥٤ ، ٣٦	لقنوا موتاكم لا إله إلا الله
٣٢٢	لن أستعين بمشرك
٢٦٣	لن تُعطوا عطاءً
١٤٤	الله أعلم بما كانوا عاملين
٢١٧	اللهم إني أسلمت نفسي إليك
٣١١	اللهم اغفر لي إن شئت
٣٨٤	اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد
٢٢٧	لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة
٤٣	لو يعلم الناس ما في النداء
٤٩٢	ليس منا من تطير أو تطير له
١١	ليضربن الناس أكباد الإبل

- م -

٢٠٠ ، ١٩٨	ما أعددت لها
٣٢٥	ما أهر الدم وذكر اسم الله عليه فكل
٩٦	ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله
١٥٩	ما من مولود إلا هو على الفطرة
٢٦٢	ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم
١٩١	مروه فليتكلم وليستظل
٢٩٢	من أحب لقاء الله
٣٦٢	من أحدث في أمرنا هذا
٨١	من بدل دينه فاضربوا عنقه
٣٩	من تعار من الليل
٤٥٧	من تعلق شيئاً وكل إليه

٢٠٣	من تقرّب إليّ شبراً
٤٦٢	من حلف بالأمانة فليس منا
٤٦١	من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك
٤٦٣	من حلف على يمين بجملة غير الإسلام كاذباً فهو كما قال
٤٦١	من حلف فقال في حلفه بالللات والعزى
٤٩١	من رجعت الطيرة عن حاجة فقد أشرك
٣٢٠	من صلى صلاتنا ونسك نسكنا
٤٥٦	من علق تميمه فلا أتم الله له
٤٣٨ ، ٣٣٤	من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري
٩٣	من قال لا إله إلا الله صادقاً
٣٧٢	من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله
١٠١	من قام رمضان
٤٢	من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة
	من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله
٤٦٥	من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت
٦٩	من كان يعبد شيئاً فليتبعه
٨٦	من مات لا يشرك بالله شيئاً
١٠٦	من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله
٣٣١	من نذر أن يطيع الله فليطعه
٣٩٩	من نزل منزلاً فليقل أعوذ بكلمات الله التامات
٢٥٧	من يعصمني حتى أبلغ رسالات ربي

— ن —

١٩	نبايعك على أن لا نشرك بالله شيئاً
----	-----------------------------------

- ه -

- هل تدري ما حق الله على عباده ٦٨
هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية ٤٣٧

- و -

- وأعلمكم بالله أنا ١٠٨
وأما الرجل الطويل الذي في الروضة ١٥٧، ١٥٣
وإن أفضل ما تُعد شهادة أن لا إله إلا الله ٤٧
وأنا على عهدك ووعدك ٤٠
وأنا معه حين يذكرني ٢٩٦
وأني رسول الله وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ٨٣
وجهت وجهي ٦٧
ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء ٢٦٩
وينذرون ولا يوفون ٣٣٧

- ي -

- يؤذيني ابن آدم يسب الدهر ٥٠٧
يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ١٥٥
يا معشر من آمن بلسانه ٩١
يبعث كل عبد على ما مات عليه ٢٤١، ٢٤٠
يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ٩٢
يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ٣١٠
يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة ٤١

فهرس الأعلام المترجم لهم

فهرس الأعلام المترجم لهم

الصفحة

- أ -

أبو إسحاق الجبنياني	٥٠٢
أبو الحسن الأشعري	١٢٢
أبو العباس القرطبي	٤٦
أبو العتاهية	٢١٨
أبو القاسم القشيري	٢٠٣
أبو الوليد الباجي	٣٥
أبو بكر الأبهري	٣٦٣
أبو سلمة الخزاعي	٨٦
أبو عمرو الداني	٣٨
أبو قرّة	١٨
أبو محمد بن عبد البصري	٥٧
أبو مسهر	١٩
الأبي	٤٨٣
الأجهوري	٧٤
الأحسائي	٣٣١
أحمد بن أبي الخواري	٣٦١
أحمد بن عيسى	١٠٧
الأزهري	٢٦
أسد بن الفرات	٣٧
أشهب	١٦
أصبغ	١٦

٤٨	ابن أبي جمره
٩٠	ابن أبي زيد القيرواني
٢٦	ابن الأثير
٥٤	ابن الحاج
٤٣	ابن العربي
٢٢٠	ابن الفرضي
٣٦٣	ابن القصار
٥٢	ابن باديس
٣٩	ابن بطلال
٤٩	ابن جزري
٣٦٣	ابن خوير منداد
٣٣	ابن رشد
٥٣	ابن عاشر
٧٧	ابن عاشور
٣٤	ابن عبدالبر
٧٢	ابن عرضون
٤٢	ابن عطية
١٣٩	ابن كثير
١٦	ابن وهب

- ب -

٣٧	الباقلاني
٣٧	بشر المريسي

- ت -

٦٩	التتائي
٧٢	التلمساني

- ث -

١٧٦	الثعالبي
٣٢	الثوري

- ج -

٣٣٩	الجعلي
١٢٢	الجويني

- ح -

٨٧	الحسن البصري
٧٠	الخطاب
٤٨٨	الحليمي الشافعي

- خ -

٨٤	الخرشي
٣٣٨	خليل

- د -

٢٧٨	الدسوقي
-----	-------	---------

- ز -

٣٠٩	الزجاج
٥٠	الزرقاني
٧١	زروق
٨٦	الزهري

- س -

٣٢	سحنون
١٢٤	السمناني
١٢٣	السنوسي
٢١٦	سهل التستري

السهيلى ١٤٧

- ش -

الشاطبي ٣٥٢

الشافعي ٣٠

شبطون ١٧

- ص -

الصاوي ٨٤

الصفتي ٦٤

- ط -

الطرطوشي ٣٦

طرفة بن العبد ١٩٢

- ع -

عامر بن عبدالله ٢٥٢

عبدالحق الاشبيلي ١١٢

عبدالرحمن بن القاسم ١٦

عبدالملك بن حبيب ١٧

عثمان بن فودي ١٠٠

العدوي ٣٢٢

علي بن محمد الجرجاني ٢٥

عlish ٣٣١

عياض = القاضي عياض ٤٥

- غ -

الغازي بن قيس ١٧

الغلاوي ٩٨

- ف -

٧٣	الفجيجي
٣٤٩	الفضيل بن عياض

- ق -

٤٦	القراقي
٢٨	القرطي
١٧	قرعوس
٩٩	القسطلاني
٢٥	قوام السنة الأصبهاني

- م -

٤٢	المازري
٥١	محمد الأمين الشنقيطي
٨٨	محمد الخضر الشنقيطي
١٨	محمد الفدكي
٥٠	محمد المختار
٥٣	محمد المكي الناصري
٨٧	محمد بن جرير الطبري
١٠٤	محمد بن خالد
٤٧٦	محمد بن علي البنسي
٣٨	محمد بن نصر البغدادي
١٠٠	محمد حبيب الله الحكني
٤٢٥	المروزي
٣٠	المزني
٢١٦	مطرف بن عبدالله بن الشخير
١١٦	معن بن عيسى

.....	المهدي الفاسي
٨٢	المهلب
٨٣	المواق
٥٣	ميارة
١٩٢	الميلي

- ن -

٧٥	النفراوي
----------	----------

- ه -

٧٤	الهبطي
٨٦	هشام بن عبد الملك

- و -

١٩	الوليد بن مسلم
١٠٧	الونشريسي
٨٧	وهب بن منبه

- ي -

٤٢٥	يحيى بن شرف النووي
٣٣	يحيى بن وسلاس الليثي
١٨	يحيى بن يحيى التميمي
١٧	يحيى بن يحيى الليثي

فهرس المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

- أ -

- ١- الإجماع ، لابن المنذر ، ط. دار طيبة .
- ٢- الأحاديث المختارة ، محمد بن عبدالواحد المقدسي ، تحقيق د. عبدالملك بن دهيش ، دار خضر - بيروت ، لبنان ط. الأولى ١٤١١هـ .
- ٣- إحكام الفصول في أحكام الأصول ، للباقي ، ط. دار الغرب ١٤٠٧ هـ ، ط. الثانية ١٤١٥هـ .
- ٤- أحكام القرآن ، لابن العربي ، ط. دار المعرفة - بيروت ، لبنان .
- ٥- أحكام أهل الذمة ، لابن قيم الجوزية ، تحقيق د. صبحي الصالح ، ط. دار العلم للملايين ، ط. الرابعة ١٩٩٤م - بيروت ، لبنان .
- ٦- أحكام الرقى والتمايم ، د. فهد السحيمي ، ط. أضواء السلف ، ط. الأولى ١٤١٩هـ .
- ٧- إحياء السنة وإخماد البدعة ، لعثمان فودي ، ط. المؤتمر العالمي الرابع للسيرة النبوية بالأزهر ١٤٠٦هـ . ط. الثانية .
- ٨- إحياء علوم الدين ، للغزالي ، ط. دار الحديث - القاهرة .
- ٩- الإرشاد ، للجويني ، تحقيق أسعد تميم ، توسعة الكتب الثقافية ، ط. الأولى - بيروت ١٤٠٥هـ .
- ١٠- الإسلام الجزائري من الأمير عبدالقادر إلى أمراء الجماعات ، جورج المراسي ، ط. دار الجديد - بيروت ، ط. الأولى ١٩٩٧م .
- ١١- الإشارة في معرفة الأصول والوجازة في معنى الدليل ، للباقي ، ط. دار البشائر - بيروت ، ط. الأولى ١٤١٦هـ .
- ١٢- الإصابة في تمييز الصحابة ، لابن حجر ، دار إحياء التراث العربي - بيروت .

- ١٣- أضواء البيان ، محمد الأمين الشنقيطي ، ط. على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير أحمد بن عبدالعزيز ١٤٠٣هـ .
- ١٤- الأعلام ، خير الدين الزركلي ، ط. دار العلم للملايين .
- ١٥- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، للقسطلاني ، ط. دار إحياء التراث العربي ، ط. السابعة ، بولاق ١٣٠٥هـ - مصر .
- ١٦- أعلام المغرب العربي ، عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة ، المطبعة الملكية - الرباط ١٣٩٩هـ .
- ١٧- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ، لعباس إبراهيم ، ط. الدار الملكية - الرباط .
- ١٨- إكمال إكمال المعلم بشرح مسلم ، للأبي السنوسي ، ط. دار الكتب العلمية ، ط. الأولى ١٤١٠هـ .
- ١٩- إكمال المعلم بفوائد مسلم ، للقاضي عياض ، ط. دار الوفاء - مصر ، ط. الأولى ١٤١٩هـ ، تحقيق يحيى إسماعيل .
- ٢٠- الأم ، للشافعي ، ط. دار المعرفة - بيروت ، ط. الثانية ١٩٩٣م .
- ٢١- الإمام مالك مفسراً ، حميد لحمير ، ط. دار الفكر ١٤١٥هـ .
- ٢٢- الأنساب ، للسمعاني ، ط. محمد أمين - بيروت ، ط. الأولى ١٣٩٦هـ .
- ٢٣- الإنصاف ، للباقلاني ، ط. مؤسسة الخانجي ، ط. الثانية ١٣٨٢هـ .
- ٢٤- ابن جزى ومنهجه في التفسير ، لعلي بن محمد الزبيري ، ط. دار القلم ، ط. الأولى - بيروت ١٤٠٧هـ .
- ٢٥- اجتماع الجيوش الإسلامية ، لابن القيم ، تحقيق د. عواد العتيق ، ط. الأولى - الرياض ، مطابع الفرزدق ١٤٠٨هـ .
- ٢٦- الاستذكار ، لابن عبد البر ، ط. مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ .
- ٢٧- الاعتصام ، للشاطبي ، ط. دار المعرفة - بيروت ١٤٠٢هـ .

٢٨- أصول الدين ، أبو منصور عبدالقاهر البغدادي - إستانبول ، مدرسة الإلهيات ، دار الفنون ١٣٤٦هـ .

٢٩- اعتقاد أهل السنة ، للالكائي ، تحقيق د. أحمد سعد حمدان ، ط. دار طيبة ، ط. الرابعة ١٤١٦هـ .

٣٠- اقتضاء الصراط المستقيم ، لابن تيمية ، تحقيق د. ناصر العقل ، ط. الأولى - الرياض ١٤٠٤هـ .

- ب -

٣١- الباعث على إنكار البدع والحوادث ، لأبي شامة ، ط. مكتبة المؤيد ، ط. الأولى ١٤١٢هـ - بيروت .

٣٢- بغية الملتمس ، للضبي ، ط. دار الكتاب العربي ١٩٦٧م .

٣٣- بلغة السالك لأقرب المسالك ، للصاوي ، ط. دار الكتب العلمية ، ط. الأولى ١٤١٥هـ - بيروت ، لبنان .

٣٤- بهجة النفوس لابن أبي جمرة ، ط. دار الجيل ، ط. الثالثة - بيروت .

٣٥- البيان والتحصيل ، لابن رشد ، ط. دار الغرب ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - لبنان .

- ت -

٣٦- تاريخ بغداد مدينة السلام ، للخطيب البغدادي ، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا ، ط. دار الكتب العلمية - بيروت ، لبنان ، ط. الأولى ١٤١٧هـ .

٣٧- تاريخ بغداد ، ط. دار الكتب العلمية - بيروت ، ط. الأولى ١٤١٧هـ .

٣٨- تبين المسالك شرح تدريب السالك إلى أقرب المسالك ، للأحسائي ، ط. دار الغرب - بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٩٥م .

٣٩- تحرير التنبيه ، للنووي ، ط. دار الفكر - سوريا ، ط. الأولى ١٤١٠هـ .

٤٠- التحرير والتنوير ، لابن عاشور ، بدون طبعة .

- ٤١- تحفة الأحوذى ، المبار كفورى ، دار الكتب العلمىة - بىروت ، لبنان .
- ٤٢- التذكار فى أفضل الأذكار ، للقرطبى ، ط. مكتبة دار البىان ، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ .
- ٤٣- تذكرة الحفاظ ، الذهبى ، دار إحياء التراث العربى - بىروت ، لبنان .
- ٤٤- ترتيب الفروق واختصارها ، لمحمد بن إبراهيم البقورى ، تحقيق الأستاذ عمر بن عباد ، ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامىة ، المملكة المغربىة ١٤١٤هـ .
- ٤٥- ترتيب القاموس المحىط ، للطاهر أحمد الزواوى ، ط. دار الفكر ، الطبعة الثالثة .
- ٤٦- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، للقاضى عىاض السبى ، تحقيق عبدالقادر الصحرأوى ، ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامىة - المملكة المغربىة ، ط. الثانية ١٤٠٣هـ .
- ٤٧- الترغىب والترهىب ، للمنذرى ، ط. دار الرىان للتراث ١٤٠٧هـ - القاهرة .
- ٤٨- التسهىل لعلوم التنزىل لابن جزى الغرناطى ، ط. دار الكتب الحدىثة - القاهرة .
- ٤٩- تعظىم قدر الصلاة ، محمد بن نصر المروزى ، مكتبة الدار بالمدينة المنورة ط. الأولى ١٤٠٦هـ .
- ٥٠- التفرىع، لابن الجلاب، ط. دار الغرب - بىروت، ط. الأولى ١٤٠٨هـ .
- ٥١- تفسىر القرآن العظىم ، للحافظ عبدالرحمن بن محمد بن أبى حاتم الرازى ، تحقيق أسعد الطىب ، ط. مكتبة نزار الباز - مكة المكرمة ، ط. الأولى ١٤١٧هـ .
- ٥٢- تفسىر ابن بادىس ، ط. دار الكتب العلمىة - بىروت ط. الأولى ١٤١٦هـ .

- ٥٣- تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، تحقيق د. محمد إبراهيم البنا ، دار ابن حزم ، ط. الأولى ١٤١٩هـ - بيروت لبنان .
- ٥٤- تفسير البغوي معالم التنزيل ، ط. دار طيبة - الرياض ١٤١٧هـ .
- ٥٥- تفسير الطبري المسمى جامع البيان في تأويل القرآن ، ط. دار الكتب العلمية، ط. الثانية - بيروت ١٤١٨هـ .
- ٥٦- تفسير القرطبي المسمى الجامع لأحكام القرآن ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م .
- ٥٧- تقريب الوصول ، لأبي القاسم بن جزي الغرناطي ، تحقيق د. محمد المختار بن الشيخ محمد الأمين، ط. مكتبة ابن تيمية ، ط. الأولى ١٤١٤هـ .
- ٥٨- تقريب الوصول إلى علم الأصول ، لأبي القاسم بن جزي الغرناطي ، تحقيق د. محمد المختار ، ط. كتبة ابن تيمية ، ط. الأولى ١٤١٤هـ .
- ٥٩- تلبس إبليس ، لابن الجوزي ، ط. دار الكتب العلمية .
- ٦٠- تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير ، لابن حجر ، دار المعرفة - بيروت .
- ٦١- التمهيد ، لابن عبد البر ، ط. المملكة المغربية ١٤٠٧هـ .
- ٦٢- التمام في ميزان العقيدة ، د. علي بن نفيح العلياني ، ط. دار الوطن للنشر ، ط. الأولى ١٤١١هـ - الرياض .
- ٦٣- تنوير المقالة في حل ألفاظ الرسالة ، للتتائي ، ط. الأولى ١٤٠٩هـ .
- ٦٤- تهذيب التهذيب ، لابن حجر ، دار صادر - بيروت ، ط. الأولى ١٣٢٦هـ .
- ٦٥- تهذيب اللغة ، للأزهري ، ط. الدار المصرية للتأليف والترجمة .
- ٦٦- تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ، لسليمان بن عبد الله آل الشيخ ط. المكتب الإسلامي ، ط. الخامسة ١٤٠٢هـ .
- ٦٧- التيسير في أحاديث التفسير ، لمحمد المكي الناصري ، ط. دار الغرب .

- ث -

- ٦٨- الثمر الداني في تقريب المعاني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، لصالح بن عبدالسميع الأبي الأزهري ، ط. دار المعرفة - بيروت .

- ج -

- ٦٩- الجامع ، لابن أبي زيد القيرواني ، ط. دار الغرب الإسلامي ، تحقيق عبدالمجيد تركي ، ط. الثانية - بيروت ١٩٩٠ م .
- ٧٠- جامع العلوم والحكم ، لابن رجب ، ط. مؤسسة الرسالة - بيروت ، الطبعة السابعة ١٤١٧ هـ .
- ٧١- جامع بيان العلم وفضله ، لابن عبدالبر ، ط. دار ابن الجوزي ، ط. الثانية ١٤١٨ هـ .
- ٧٢- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، أحمد بن القاضي المكناسي ، ط. دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط ١٩٧٤ م .
- ٧٣- جهود محمد الأمين في تقرير عقيدة السلف ، لعبدالعزیز الطويان ، ط. مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ .
- ٧٤- جواهر الإكليل شرح مختصر خليل ، لصالح بن عبدالسميع الأبي الأزهري ط. مصطفى الحلبي ، ط. الثانية ١٣٦٦ هـ .
- ٧٥- الجواهر الثمينة في بيان أدلة عالم المدينة ، للمشاط ، ط. دار الغرب ، ط. الأولى ١٤٠٦ هـ .
- ٧٦- الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، للثعالبي ، ط. دار إحياء التراث العربي ط. الأولى - بيروت ، لبنان .

- ح -

- ٧٧- حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ، ط. دار إحياء الكتب العربية .
- ٧٨- حاشية العدوي على كفاية الطالب ، ط. دار الفكر .
- ٧٩- حاشية سنية وتحقيقات بهية ، للصفدي ، ط. الحلبي ١٣٦٧ هـ .

٨٠- الحاوي ، للماوردي ، ط. الكتب العلمية - بيروت ، ط. الأولى ١٤١٤ هـ.

٨١- الحجة في بيان المحجة ، للتيمي ، ط. دار الراية ، ط. الأولى - الرياض ١٤١١ هـ.

٨٢- الحدود ، للباجي ، ط. دار الآفاق الجديدة ، ط. الأولى - القاهرة ، مصر ١٤٢٠ هـ.

٨٣- الحلية ، لأبي نعيم الأصفهاني ، ط. دار الكتاب العربي - بيروت ، ط. الثانية ١٣٨٧ هـ.

٨٤- حلية الأولياء ، لأبي نعيم ، ط. دار الكتب العلمية - بيروت ، لبنان .

٨٥- الحوادث والبدع ، للطرطوشي .

- خ -

٨٦- الخرشبي على مختصر سيدي خليل ، ط. دار صادر - بيروت .

٨٧- خزانة الأدب وغاية الأرب ، لتقي الدين أبي بكر بن علي المعروف بابن حجة الحموي ، شرح : عصام شعيتو ، ط. الأولى ، ط. دار مكتبة الهلال - بيروت ١٩٨٧ م .

٨٨- خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل ، محمد بن إسماعيل البخاري ، ط. مؤسسة الرسالة ، ط. الأولى ١٤٠٤ هـ .

- د -

٨٩- الدر الثمين والمورد المعين ، لميارة ، ط. دار الفكر ، وط. الحلبي مصر ، الطبعة الأخيرة ١٣٧٣ هـ .

٩٠- الدر المنثور ، للسيوطي ، دار المعرفة - بيروت ، لبنان .

٩١- الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد ، للشوكاني ، حققه أبو عبدالله الحلبي ، ط. دار ابن خزيمة ، ط. الأولى ١٤١٤ هـ - الرياض .

٩٢- درء تعارض العقل والنقل ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق د. محمد رشاد سالم ، ط. الكنوز الأدبية .

٩٣- درجات الصاعدين إلى مقامات الموحدين في علم التوحيد ، الرسالة الثانية عشرة ضمن رسائل عبدالله بن سعدي الغامدي ، بعنوان : عقيدة الموحدين ، مكتبة الطرفين ، ط. الأولى ١٤١١هـ .

٩٤- الدعاء ، للطبراني ، تحقيق د. محمد سعيد بن محمد حسن البخاري ، دار البشائر الإسلامية ، ط. الأولى ١٤٠٧هـ .

٩٥- الدعاء المأثور وآدابه ، ط. دار الفكر المعاصر ، الطبعة الأولى - بيروت .

٩٦- دفع إيهام الاضطراب ، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ، ملحق بأضواء البيان ، ط. مطابع الرياض ، الطبعة الأولى ١٣٧٥هـ .

٩٧- دلائل التوحيد ، محمد جمال الدين القاسمي ، ط. دار الكتب العلمية ، ط. الأولى - بيروت ١٤٠٥هـ .

٩٨- ديوان أبي العتاهية ، ط. دار صادر - بيروت .

- ذ -

٩٩- الذخيرة ، للقرافي ، تحقيق محمد حجي ، ط. دار الغرب ، ط. الأولى - بيروت ١٤١٤هـ .

١٠٠- ذم الكلام ، للهروي ، تحقيق عبدالرحمن الشبل ، ط. مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة ، ط. الأولى ١٤١٦هـ .

- ر -

١٠١- رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، ط. الثالثة ١٤١٥هـ .

١٠٢- رسالة الشرك ومظاهره ، للميلي ، ط. الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية ، ط. الأولى ١٤٠٧هـ .

١٠٣- الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة والاعتقادات وأصول الديانات ، لأبي

عمرو الداني ، تحقيق د. محمد سعيد القحطاني ، ط. دار ابن الجوزي -
الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ .

١٠٤- رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين ، للباجي ، ط. البحوث العلمية ،
الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ .

١٠٥- الروض الأنف ، للسهيلي ، ط. مكتبة ابن تيمية - القاهرة ١٤١٠هـ .

١٠٦- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية .

- ز -

١٠٧- الزهد ، الإمام أحمد ، دار الكتاب العربي ، تحقيق محمد السعيد بسيوني
زغلول ، ط. الثالثة ١٤١٧هـ .

١٠٨- الزهد ، لابن المبارك ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، ط. الأولى
١٤١٩هـ ، دار الكتب العلمية - بيروت .

- س -

١٠٩- سراج السالك شرح أسهل المسالك ، لعثمان بن حسين الجعلي ، ط.
دار الحلبي - مصر .

١١٠- سراج الملوك ، للطرطوشي ، ط. الكتاب الإسلامي - القاهرة ، ط.
الثانية ١٤٠٢هـ .

١١١- سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للألباني ، مكتبة المعارف - الرياض
١٤١٥هـ .

١١٢- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، للمرادي ، ط. دار ابن حزم ،
ط. الثالثة ١٤٠٨هـ - بيروت .

١١٣- سنن أبي داود ، ط. دار السلام للنشر والتوزيع ، بإشراف الشيخ صالح
آل الشيخ - الرياض ، ط. الأولى ١٤٢٠هـ .

١١٤- سنن الترمذي ، ط. الحلبي ، ط. الثانية ١٣٩٥هـ - مصر .

١١٥- سنن الدارمي ، ط. رئاسة البحوث العلمية والإفتاء ١٤٠٤هـ .

١١٦- السنن الكبرى ، للبيهقي ، ط. دار الكتب العلمية ، تحقيق محمد عبدالقادر عطا ، ط. الأولى ١٤١٤هـ - بيروت .

١١٧- السهروردي حياته وتصوفه ، عائشة المناعي ، ط. دار الثقافة - الدوحة الطبعة الأولى ١٤١٢هـ .

١١٨- سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، ط. مؤسسة الرسالة ، ط. الثانية - بيروت ١٤١٨هـ .

- ش -

١١٩- الشرح الجديد لجوهرة التوحيد ، محمد أحمد العدوي ، ط. الأولى ١٣٦٦هـ ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

١٢٠- شرح الزرقاني على موطأ مالك ، ط. دار المعرفة - بيروت ١٤٠١هـ .

١٢١- شرح الطحاوية ، لابن أبي العز الحنفي ، ط. المكتب الإسلامي ، ط. التاسعة - بيروت ١٤٠٨هـ .

١٢٢- شرح المعلقات السبع ، للزوزني ، طبعة دار صادر - بيروت ، لبنان .

١٢٣- شرح جوهرة التوحيد مع تحفة المريد ، لإبراهيم اللقاني ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط. الأولى ١٤٠٣هـ .

١٢٤- شرح خليل بن إسحاق المسمى نصيحة المرباط ، للشنقيطي ، ط. الأولى ١٤١٣هـ .

١٢٥- شرح صحيح البخاري ، لابن بطال ، ط. مكتبة الرشد ، ط. الأولى - الرياض ١٤٢٠هـ .

١٢٦- شرح منح الجليل على مختصر خليل ، محمد عlish ، ط. دار الفكر - بيروت ١٤٠٩هـ .

١٢٧- شرح أسماء الله الحسنى ، للفخر الرازي ، مراجعة طه عبدالرؤوف سعد - بيروت ، دار الكتاب العربي ، ط. الأولى ١٤٠٤هـ .

١٢٨- شعب الإيمان ، للبيهقي ، ط. دار الكتب العلمية ، تحقيق محمد سعيد

زغلول ، ط. الأولى ١٤١٠هـ .

١٢٩- الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ ، للقاضي عياض ، ط. دار الكتاب العربي .

- ص -

١٣٠- الصحاح ، للجوهري ، ط. دار العلم للملايين ، ط. الثانية ١٣٩٩هـ .

١٣١- صحيح الترغيب والترهيب ، للألباني ، مكتبة المعارف - الرياض ، ط. الأولى ١٤٢١هـ .

١٣٢- صفة الصفوة ، ابن الجوزي ، دار المعرفة ، ط. الثانية ١٤١٧هـ - بيروت ، لبنان .

١٣٣- صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان ، ط. ابن تيمية - القاهرة ، ط. الرابعة ١٤١٠هـ .

- ض -

١٣٤- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، للسخاوي ، ط. دار الجيل - بيروت لبنان .

- ط -

١٣٥- طبقات الشافعية الكبرى ، للسبكي ، تحقيق عبدالفتاح الحلو ومحمود الطناحي ، ط. دار إحياء الكتب العربية .

١٣٦- طبقات الصوفية ، لأبي عبدالرحمن السلمي ، تحقيق نور الدين شريعة ، ط. مكتبة الخانجي - القاهرة ، ط. الثالثة ١٤١٨هـ .

١٣٧- طبقات الفقهاء الشافعية ، لابن قاضي شعبة ، تحقيق د. علي محمد عمر مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة .

١٣٨- طبقات المحدثين بأصبهان ، ط. الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - بيروت .

١٣٩- طبقات المفسرين ، للحافظ شمس الدين الداودي ، مكتبة وهبة ، ط. الأولى ١٣٩٢هـ .

١٤٠- طبقات المناوي الكبرى - للمناوي ، تحقيق د. عبد الحميد صالح حمدان المكتبة الأزهرية ، ط. الأولى ١٤١٢هـ .

- ع -

١٤١- عارضة الأحوزي شرح صحيح الترمذي ، لابن العربي المالكي ، ط. دار الفكر .

١٤٢- العاقبة في ذكر الموت والآخرة ، لعبد الحق الإشبيلي ، ط. مكتبة دار الأقصى - الكويت ، ط. الأولى ١٤٠٦هـ .

١٤٣- عقائد الثلاث والسبعين فرقة ، لأبي محمد اليماني (من علماء القرن السادس) ، تحقيق ودراسة محمد بن عبدالله الغامدي ، مكتبة العلوم والحكم ط. الأولى ١٤١٤هـ - المدينة المنورة .

١٤٤- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، تقي الدين الفاسي ، مؤسسة الرسالة ، ط. الثانية ١٤٠٦هـ - بيروت ، لبنان .

١٤٥- العقد المذهب في طبقات حملة المذهب ، لابن الملقن ، تحقيق أيمن نصر الأزهري وسعيد مهنا ، ط. دار الكتب العلمية - بيروت ، لبنان ، ط. الأولى ١٤١٧هـ .

١٤٦- عقيدة السلف ، للصابوني ، تحقيق د. ناصر الجديع ، ط. دار العاصمة ، ط. الثانية - الرياض ١٤١٩هـ .

١٤٧- العقيدة السلفية في مسيرتها التاريخية ، للمغراوي ، ط. المنار ، ط. الأولى - الخرج ١٤١٢هـ .

١٤٨- عمل اليوم والليلة ، النسائي ، تحقيق د. فاروق حمادة ، مؤسسة الرسالة ط. الثانية ١٤٠٦هـ - بيروت .

١٤٩- عيون المجالس ، لابن نصر البغدادي ، ط. مكتبة الرشد ، ط. الأولى -

- غ -

- ١٥٠- الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض ، ط. دار الغرب ، الأولى - بيروت .

- ف -

- ١٥١- فتاوى ابن رشد ، ط. دار الغرب .
- ١٥٢- فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني ، ط. السلفية .
- ١٥٣- فتح البر بالترتيب الفقهي لتمهيد ابن عبد البر ، عطية محمد سالم ، ط. مجموعة النفائس الدولية ، مكتبة الرياض الحديثة ، ط. الأولى ١٤١٦هـ .
- ١٥٤- الفتح الرباني شرح على نظم رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، محمد الشنقيطي ، ط. مكتبة القاهرة .
- ١٥٥- فتح المالك بتبويب التمهيد لابن عبد البر ، مصطفى صميذة ، ط. الباز - مكة المكرمة ، ط. الأولى ١٤١٨هـ .
- ١٥٦- فرض العين ، للغلاوي ، ط. دار القلم للنشر والتوزيع ، ط. الأولى ، دي ١٤١٩هـ .
- ١٥٧- الفروق ، للقرافي ، ط. دار الكتب العلمية .
- ١٥٨- فضائل شهر رمضان ، للأجهوري ، ط. دار القاضي عياض - القاهرة .
- ١٥٩- فقه الرسالة ، الهادي الدرقاشي ، ط. دار قتيبة - بيروت .
- ١٦٠- الفواكه الدواني ، لأحمد بن غنيم النفراوي الأزهري ، ط. دار الفكر - بيروت ١٤١٥هـ .
- ١٦١- فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير ، محمد عبدالرؤوف المناوي ، دار الكتب العلمية ، ط. الأولى ١٤١٥هـ - بيروت لبنان .

- ق -

- ١٦٢- قانون التأويل ، لابن العربي ، ط. دار الغرب .
١٦٣- القبس في شرح موطأ مالك بن أنس ، لابن العربي ، تحقيق محمد ولد كريم ، ط. دار الغرب ، ط. الأولى - بيروت ١٩٩٢ م .
١٦٤- القدرية والمرجئة نشأتهما وأصولهما وموقف السلف منهما ، د. ناصر العقل ، دار الوطن ، ط. الأولى ١٤١٨ هـ .
١٦٥- القوانين الفقهية ، لابن جزي ، ط. دار الكتب العلمية ، وطبعة دار الملايين .

- ك -

- ١٦٦- الكافي ، لابن عبد البر ، ط. مكتبة الرياض الحديثة ، ط. الأولى ١٣٩٨ هـ .
١٦٧- كتاب التعريفات ، للجرجاني ، ط. دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ .
١٦٨- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلوني ، ط. دار التراث - القاهرة .
١٦٩- كفاية الطالب ، ط. دار الفكر - بيروت ١٤١٢ هـ .
١٧٠- كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري ، للشنقيطي ، ط. مؤسسة الريان ، ط. الأولى - بيروت ١٤١٥ هـ .

- ل -

- ١٧١- لسان العرب ، لابن منظور ، ط. الثانية ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٤١٧ هـ .

- م -

- ١٧٢- مالك حياته وعصره وآراؤه الفقهية ، محمد أبو زهرة ، ط. دار الفكر - القاهرة .

١٧٣- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للهيثمى ، ط. دار الكتب العلمية - بيروت ، لبنان .

١٧٤- المجموع ، للنووي ، دار إحياء التراث العربي ١٤١٥هـ .

١٧٥- محبة الله والحب بين العبد والرب ، لشيخ الإسلام ، ط. دار الخير ، ط. الأولى ١٤١٣هـ .

١٧٦- المحرر الوجيز ، لابن عطية الأندلسي ، ط. القطرية الأولى - الدوحة ١٤٠٢هـ .

١٧٧- مختصر خليل ، ط. الحلبي ١٣٤١هـ .

١٧٨- المدخل لابن الحاج ، ط. دار الفكر ١٤٠١هـ ، وطبعة دار الكتب العلمية ط. الأولى - بيروت ١٤١٥هـ .

١٧٩- المدونة ، ط. دار صادر ، ط. الأولى ، مطبعة السعادة - مصر .

١٨٠- مذكرة في أصول الفقه ، لمحمد الأمين الشنقيطي ، ط. السلفية .

١٨١- المستدرك على الصحيحين ، الحاكم ، وبذيله التلخيص للذهبي ، مكتبة المعارف - الرياض .

١٨٢- المسند ، للإمام أحمد ، ط. مؤسسة الرسالة ، ط. الأولى ١٤١٨هـ - بيروت .

١٨٣- مسند أبي عوانة ، تحقيق أيمن بن عارف الدمشقي ، ط. دار المعرفة - بيروت ، ط. الأولى ١٤١٩هـ .

١٨٤- مسند أبي يعلى الموصلي ، تحقيق حسين سليم أسد ، دار الثقافة العربية ط. الأولى ١٤١٢هـ - بيروت .

١٨٥- مسند البزار ، تحقيق د. محفوظ الرحمن زين الله ، ط. مكتبة دار العلوم والحكم - المدينة المنورة . ط. الأولى ١٤١٥هـ .

١٨٦- مسند الشافعي ، دار الكتب العلمية - بيروت ، لبنان ، ط. الأولى ١٤٠٠هـ .

١٨٧- مسند الشاميين ، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني تحقيق حمدي عبدالمجيد السلفي ، ط. مؤسسة الرسالة ، ط. الثانية ١٤١٧هـ - بيروت ، لبنان .

١٨٨- مسند الفردوس بمأثور الخطاب ، للدليمي ، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول ، ط. الأولى ١٤٠٦هـ - بيروت ، لبنان .

١٨٩- مصرع الشرك والخرافة ، خالد محمد علي الحاج ، تحقيق عبدالله الأنصاري ط. إدارة الشؤون الدينية بقطر ١٣٩٨هـ .

١٩٠- مصنف عبدالرزاق ، المكتب الإسلامي ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي - بيروت ، ط. الثانية ١٤٠٣هـ .

١٩١- معارج الصعود ، لمحمد الأمين الشنقيطي ، ط. الجامعة الإسلامية ، ط. الأولى ١٤٠٨هـ .

١٩٢- معارج القبول ، للشيخ حافظ الحكمي ، ط. ابن القيم ، ط. الأولى ١٤١٣هـ .

١٩٣- معالم السنن شرح سنن أبي داود ، لأبي سليمان الخطابي ، ط. دار الكتب العلمية - بيروت ، لبنان ، ط. الأولى ١٤١١هـ .

١٩٤- معجم الأدباء ، لياقوت الحموي ، مطبوعات دار المأمون - مصر .

١٩٥- معجم البلدان ، لياقوت الحموي ، ط. دار صادر - بيروت ، ط. الثانية ١٩٩٥ م .

١٩٦- معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت .

١٩٧- المعجم الوسيط ، ط. المكتبة الإسلامية ، إستانبول - تركيا .

١٩٨- معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ، ط. دار الجليل - بيروت .

١٩٩- المعلم بفوائد مسلم ، للمازري ، دار الغرب ، الطبعة الثانية ١٩٩٢ م .

٢٠٠- المعونة على مذهب عالم المدينة ، لابن نصر ، ط. دار الكتب العلمية -

الطبعة الأولى - بيروت ، لبنان ١٤١٨ هـ .

٢٠١- المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس ،

للوشرسي ، ط. دار الغرب الإسلامي - بيروت ١٤٠١ هـ .

٢٠٢- المعين والزاد ، جمع سيد بن المامي الحكني ، ط. الأولى ١٣٩٦ هـ .

٢٠٣- المغني في الضعفاء ، للذهبي ، تحقيق نور الدين عتر .

٢٠٤- المفردات في غريب القرآن ، ط. دار المعرفة - بيروت .

٢٠٥- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، لأبي العباس القرطبي ، ط.

دار ابن كثير ، دار الكلم الطيب - دمشق ، ط. الأولى ١٤١٧ هـ .

٢٠٦- المقدمات الممهدات ، لابن رشد ، ط. دار الغرب الإسلامي .

٢٠٧- مقدمة في أصول الفقه ، لابن القصار ، ط. دار المعلمة - الرياض ، ط.

الأولى ١٤٢٠ هـ .

٢٠٨- المنتقى شرح الموطأ للباقي ، مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى - مصر

١٣٣٢ هـ .

٢٠٩- منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الخالق ، عبدالله

محمد نور ، ط. الغرباء - المدينة المنورة ، ط. الأولى ١٤١٦ هـ .

٢١٠- منهج ابن تيمية في الرد على الأشاعرة ، د. عبدالرحمن المحمود ، ط.

مكتبة الرشد - الرياض ١٤١٤ هـ .

٢١١- منهج الإمام مالك في إثبات العقيدة ، سعود بن عبدالعزيز الدعجان ،

مكتبة ابن تيمية - القاهرة ، ط. الأولى ١٤١٦ هـ .

٢١٢- منهج التشريع ، للشنقيطي ، ط. الجامعة الإسلامية ، ط. الأولى .

٢١٣- منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل ، عرض وتقويم ، إعداد محمد

السحبياني ، ط. دار الوطن ، ط. الأولى ١٤١٧ هـ .

٢١٤- الموافقات ، للشاطبي ، ط. دار المعرفة ، ط. الأولى - بيروت ، لبنان

١٤١٥ هـ .

٢١٥- مواهب الجليل ، للمغربي ، ط. دار الفكر ، الطبعة الثانية - بيروت ١٣٩٨هـ .

٢١٦- مواهب الجليل من أدلة خليل ، أحمد المختار الحكني الشنقيطي ، ط. دار إحياء التراث الإسلامي - قطر .

٢١٧- موسوعة أعلام المغرب ، محمد بن الطيب القادري ، تحقيق وتنسيق محمد حجي وأحمد التوفيق ، ط. دار الغرب الإسلامي .

٢١٨- موطأ مالك . ط. دار الحديث - القاهرة .

٢١٩- موطأ مالك برواية يحيى بن يحيى الليثي ، ط. دار الغرب ، الطبعة الثانية - بيروت ١٤١٧هـ .

- ن -

٢٢٠- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، لابن المقرئ ، ط. دار صادر ، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ .

٢٢١- النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير ، تحقيق طاهر الزواوي ومحمود الطناحي ، ط. المكتبة العلمية - بيروت .

٢٢٢- النهج السديد في تخرج أحاديث تيسير العزيز الحميد ، جاسم الفهيد الدوسري ، ط. دار الخلفاء لكتاب الإسلامي ، ط. الأولى ١٤٠٤هـ - الكويت .

٢٢٣- النوادر والزيادات ، لابن أبي زيد القيرواني ، ط. دار الغرب ، الطبعة الأولى ١٩٩٩م .

٢٢٤- النوازل ، لأبي الحسن العلمي ، ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ١٤٠٩هـ .

٢٢٥- نور الحق الصبيح في شرح بعض أحاديث الجامع الصحيح ، ط. دار عالم الكتب - الرياض .

٢٢٦- نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، لأحمد التنبكي ، منشورات كلية الدعوة

الإسلامية - طرابلس ، ط. الأولى ١٣٩٨هـ - ليبيا .

- و -

٢٢٧- وصية الباجي لولديه ، للباجي ، ط. أضواء السلف ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ .

٢٢٨- وفيات الأعيان ، لابن خلكان ، ط. دار صادر - بيروت .

الرسائل العلمية :

- ٢٢٩- مسائل العقيدة في كتابي المعلم والمفهم ، رسالة دكتوراه ، لعبدالله بن محمد الرميان، جامعة أم القرى ، كلية الدعوة وأصول الدين ، قسم العقيدة .
- ٢٣٠- جهود أئمة الشافعية في تقرير توحيد العبادة ، رسالة دكتوراه ، لعبدالله بن عبدالعزيز العنقري ، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين ، قسم العقيدة.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الصفحة

تمهيد في نشأة المذهب المالكي	٢٢-٩
الباب الأول : التوحيد ، وفيه فصلان	١٨٧-٢٣
الفصل الأول : معنى التوحيد ، وفيه أربعة مباحث	١٤٠-٢٤
المبحث الأول : التوحيد في اللغة والشرع	٥٤-٢٥
المبحث الثاني : معنى لا إله إلا الله	٨٠-٥٥
المبحث الثالث : شروط لا إله إلا الله	١٢١-٨١
المبحث الرابع : التوحيد أول دعوة الرسل	١٤٠-١٢٢
الفصل الثاني : توحيد المعرفة ، وفيه مبحثان	١٨٧-١٤١
المبحث الأول : إقرار الكفار بتوحيد المعرفة	١٦٤-١٤٢
المبحث الثاني : الاستدلال على توحيد العبادة بتوحيد المعرفة	١٨٧-١٦٥
الباب الثاني : العبادة ، وفيه فصلان	٣٦٦-١٨٨
الفصل الأول : تعريف العبادة لغةً واصطلاحاً	١٩٤-١٨٩
أولاً : تعريف العبادة لغةً	١٨٩
ثانياً : تعريف العبادة اصطلاحاً	١٩٤-١٩٠
الفصل الثاني : أنواع العبادة وشروط صحتها ، وفيه المباحث الآتية	٣٦٦-١٩٥
المبحث الأول : الأعمال الباطنة	٢٩٣-١٩٦
المبحث الثاني : الأعمال الظاهرة	٣٤٨-٢٩٤
المبحث الثالث : شروط صحة العبادة	٣٦٦-٣٤٩
المبحث الأول : الأعمال الباطنة ، وفيه المسائل الآتية	٢٩٣-١٩٦
المسألة الأولى : المحبة	٢١٥-١٩٧
المسألة الثانية : الخوف والرجاء	٢٤١-٢١٦

المسألة الثالثة : التوكل	٢٤٢-٢٦٠
المسألة الرابعة : الصبر	٢٦١-٢٧٠
المسألة الخامسة : التوبة	٢٧١-٢٩٣
المبحث الثاني : الأعمال الظاهرة ، وفيه المسائل الآتية	٢٩٤-٣٤٨
المسألة الأولى : الذكر	٢٩٥-٣٠٢
المسألة الثانية : الدعاء	٣٠٣-٣١٣
المسألة الثالثة : الذبح	٣١٤-٣٢٧
المسألة الرابعة : النذر	٣٢٨-٣٣٨
المسألة الخامسة : الطواف	٣٣٩-٣٤٨
المبحث الثالث : شروط صحة العبادة	٣٤٩-٣٦٦
الباب الثالث : الشرك ، وفيه تمهيد وفصلان	٣٦٧-٥١٣
تمهيد	٦٣٨-٣٧٠
الفصل الأول : التعريف بالشرك وبيان سببه ، وفيه مبحثان	٣٧١-٣٨٩
المبحث الأول : بيان حقيقة الشرك	٣٧٢-٣٧٨
المبحث الثاني : بيان سبب الشرك	٣٧٩-٣٨٩
الفصل الثاني : أنواع الشرك ، وفيه تمهيد ومبحثان	٣٩٠-٥١٣
تمهيد	٣٩١-٣٩٢
المبحث الأول : الشرك المنافي للتوحيد	٣٩٣-٤٥٩
المبحث الثاني : الشرك المنافي لكمال التوحيد	٤٦٠-٥١٣
المبحث الأول : الشرك المنافي للتوحيد ، وفيه المسائل الآتية	٣٩٣-٤٥٩
المسألة الأولى : شرك الدعاء	٣٩٤-٤٠٣
المسألة الثانية : شرك الطاعة	٤٠٤-٤٠٩
المسألة الثالثة : شرك السجود	٤١٠-٤١٧
المسألة الرابعة : شرك الذبح	٤١٨-٤٢٧